أدب الرحلة

في التراث العربي

مكتبة الدار العربية للكتاب

شارع عبد الله العربى - الحى السابع - مدينة نصر
ص.ب 7584 - القاهرة - تليفون : 2639851 - 2705799
e - mail ALMASRIAHRASHAD@LINK.NET

جمع : **الإسراء** - تليفون : 3143632
طبع : **آمون** - تليفون : 7944517 - 7944356
رقم الإيداع : 9078 / 2002
الترقيم الدولى : 1 - 128 - 293 - 977

الطبعة الثانية والطبعة الأولى
لمكتبة الدار العربية للكتاب
جمادى الأولى 1423 هـ - يوليو 2002 م

أدب الرحلة

في التراث العربي

فؤاد قنديل

مكتبة الدار العربية للكتاب

عندما هممت بالعمل في هذا الكتاب، لم يدر بخلدي قط أن يحظي بأهمية تذكر، ولعل من المؤكد لديّ آنذاك أن مصيره الوحيد هو الرقاد طويلا علي رفوف المكتبات، لا تقترب منه يد إلا من غلبه الهوي ذاته وسار في الطريق نفسه، وتاقت روحه، ودعاه عقله إلي زيارة هذه البقاع غير المأهولة، ولكنها مؤئل العلم والعبقرية والوجد والجسارة.

لكن ذلك لم يمنعني من العكوف سنوات علي استكمال أطراف الكتاب، آملا أن أسد ثغرة معرفية لا شك فيها وفاجأني الواقع وأثار دهشتي وزلزل فكرتي التي وثقت تماما بصحتها، وتوقعي الذي لم يلحقه أدني شك، وكنت قد علمت بصدور الكتاب فخبأت في صدري قلقي عليه، ولكن الهواتف بعد يومين ما لبثت أن أسرعت تدق وتسأل عن الكتاب الذي اختفي، ونفذ إلي رأسي خاطر، يرد الحالة إلي كونها إحدي ألاعيب الباعة، لكن البحث الذي قمت به والأصدقاء كشف عن حقيقة لافتة تدعو للغبطة هي أن الكتاب فعلا قد أوسعه القراء إقبالا، رغم ارتفاع ثمنه النسبي، وتوالت الأسئلة من مصر ودول العالم العربي، من الأفراد والجامعات علي حد سواء.

ولعل ذلك يحمل دلالة واضحة علي أن القارئ الجاد لايزال محتفظا بهواياته واهتماماته، وأنه لم يهجر الكتاب تحت ضغط وجاذبية أي وسائل معرفية أخري، وأن بعض الكتب ستظل قادرة علي أن توفر ما لا يوفره غيرها، وتستحوذ علي حب القراء بوصفها المصدر الرئيسي للثقافة والمعرفة. أما «أدب الرحلة في التراث

العربي» ذلك الابن النجيب، الذي أنفقت السنوات في تربيته حتي يأخذ موضعه في المكتبة العربية يافعا رشيدا، فقد كان بالإمكان أن يزداد حجمه، ويتسع صدره ليضم العشرات من نصوص الرحلات، لأن الرحلة العربية بلا شطآن وزادها بلا حدود

لقد بدا واضحا انتصار هذا المجال للبحث والتحقيق. . الأمر الذي يفرض حتمية الاعتراف بأن أهله لم يقوموا عليه، وإن حظي ببعض العناية من جانب بعض المستشرقين، الذين يتقدمهم العالم الروسي الكبير إغناطوس كراتشكوفسكي صاحب الدراسة الرائدة والمعمقة «تاريخ الأدب الجغرافي العربي»، التي كانت نعم العون فى وضع هذا الكتاب.

لقد كان الهدف الأول من تأليف هذا الكتاب هو بيان الطاقة القصصية للمبدع العربى من المحيط إلى الخليج، تلك الطاقة التى يتنكر لها الكثيرون فى الشرق والغرب، على حين كان يتملكنى حدس قوى يؤكد لى أن العربى يتمتع بموهبة قصصية، تجلت فى عديد من الآثار الأدبية، التى لم تكن من الكثرة والتنوع، كما لم تكن على مثال ما أبدعته شعوب أخرى.

وكان دائما يخالجنى شعور بأن هذه الموهبة استثمرت بشكل ما أو التهمها نسق مجهول، ومن ثم انتهى بى التأمل والمراجعة والدرس إلى أن أدب الرحلة هو الذى استنفذ الطاقة القصصية واحتكرها أو كاد.

على أن مطالعة نماذج الرحلة العربية نبهتنى إلى أن هذه الآداب ليست فقط دلالة على قدرة القاص العربى وإبداعه، لكنها دون أدنى شك بحر من المعارف والاكتشافات.

لقد جاب الرحالة كل الأرض المعمورة فى أزمانهم، ودونوا ملامحها الإنسانية والاقتصادية والمعمارية والثقافية والجغرافية، وخدموا العلم كما خدموا الفتوحات الإسلامية خدمات جليلة، وحفزوا الخيال وأعانوا الحكام وفتحوا أمام طلاب العلوم والمعرفة آفاقاً رحبة ونوافذ عديدة.

على أن ثمار الجهود العظيمة التى بذلها الرحالة مازالت بعيدة عن أيدينا، أو مخطوطات ملتبسة الملامح، لا يقدر القارئ المعاصر على قراءتها والتواصل مع أسرارها.

وإذا كان معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لا يألو جهدًا فى سبيل تحقيق ونشر صفحات كثيرة مطوية من هذا التراث، إلا أن الكم الكبير من المخطوطات لايزال مشردًا فى مكتبات العالم، يدعونا لاستنقاذه من ظلام الجهالة ونير الإهمال وغبار النسيان ورياح الضياع التى تهب بين الحين والحين.

فما أحوج هذه الثروات العلمية والأدبية إلى أن نقترب منها ونتعرفها، ونعرضها للدرس والتحليل، وتلقى محتوياتها الأضواء اللائقة ويتأكد انتسابها إلى أبناء الأمة العربية والإسلامية، وانتماؤها إلى من تنسكوا لوضعها، وأنفقوا الأعمار والأبصار فى تصنيفها.

وبعد.. أيها القارئ الكريم

أنت لابد تعلم أن ثمة مناهج عدة لتناول أعمال السلف، ولكنك - فيما أحسب - لن تجد مندوحة من الاعتراف بأن المنهج التاريخى هو الأنسب لمثل هذا النوع من الدراسة، ليرقب مسيرة الرحلة وأدبها فى التراث العربى، وهى التى توالت حقبة بعد حقبة وتنامت وتطورت حتى بلغت أوجها لدى المتأخرين من رجالاتها فى عقد تتألق حباته منذ القرن الثالث وحتى الثامن الهجرى (٩-١٤ ميلادى). وهذه هى المرحلة الأولى والأعظم فى مسار ذلك الجنس الأدبى... توقفت بعده الرحلة أو انحسرت، لتبدأ بقوة من جديد مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وحتى زماننا هذا لتشكل مرحلة ثانية وأخيرة - فى ظنى - من مراحل أدب الرحلة العربى.

وما أظنه يخفى على القارئ المثقف ذلك التلازم بين أدب الرحلة والنهضة، ذلك الذى نلحظه بأقل تأمل، إذ إن المرحلة الأولى تتسق وتعكس أفق الحضارة

العربية، التى سادت أطراف العالم كما امتلكت أطراف العلم، ولعل المرحلة الثانية التى نأمل أن يكون لها من جهدنا وعمرنا نصيب قد ارتبطت ـ إلى حد كبير ـ ببزوغ نهضة جديدة، شملت العالم العربى منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ومطالع القرن التاسع عشر ولاتزال تتنامى برغم التحديات، ولا يخالجنا أدنى شك فى أن العرب ماضون بخطوات حثيثة نحو المزيد من النهضة والتقدم يعيد إلى الأذهان ماضيها، ويؤكد عراقتها، ويرفع على ربى العالم رايات مستقبلها المشرق بإذن الله.

وعلى الله قصد السبيل.

فؤاد قنديل

٢٠٠٢

اهـــــداء

سـافر تجـد عوضـا عمـن تفارقـه

وانصـب فـإن لذيـذ العيش فى النصب

إنـى رأيـت وقـوف المـاء يفسـده

إن سال طـاب وإن لـم يجـر لم يطـب

والشمس لو وقفت فـى الفلك دائمـة

لملهـا النـاس مـن عجـم ومـن عـرب

الإمام الشافعى

تقديـم

الحمد لله، آناء الليل وأطراف النهار، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبد الله النبى الأمى، المبعوث رحمة للعالمين. . وبعد.

فقد راودتنى كثيرا فكرة الكتابة عن أدب الرحلات عامة وفى التراث العربى خاصة، ولعلها أطلت فى رأسى لأول مرة منذ نحو عشرين عاما عندما ثار جدل قديم جديد حول فن القصة، ومدى إسهام العرب فيه، وعادة ما يثور هذا الجدل بين عهد وآخر فى أعقاب ظهور آراء لكاتب أو باحث يؤكد حداثة القصة العربية، ويقرر أنها لم تر النور قبل القرن العشرين، وأنها انتقلت - بعد اتصالنا بالغرب - عن القصة الأوروبية الحديثة، ومن الكتاب من يذهب إلى أبعد من هذا، فيرى أن بوتقة الإبداع العربى لم تعرف القص يوما، ولم تكن أبدا قادرة عليه أو مهيأة له، وأن طبيعة الذهن العربى وتركيبته الفكرية والإبداعية - كما ذهب أحد المستشرقين - لم تخلق لهذا اللون التركيبى من الفنون، وحسبها الشعر الغنائى تجيد فيه وتبرع.

وقد دفعنى هذا إلى أن أبدأ رحلة فى التراث العربى، استهلكت السنوات الأولى من السبعينيات، محاولا تعرف مكنونات هذا التراث ومدى تغلغل روح القص لدى مبدعيه، وما النصوص التى يمكن انتسابها إلى فن القص حتى فى صورته البدائية، آخذا فى الاعتبار غض النظر إليها بالمعايير الحديثة لهذا الفن الجميل.

وانتهيت بعد سياحة عريضة فى بحار هذا التراث، تقلبت خلالها بين أمواجه

الهادرة وأعماقه البعيدة إلى أن التراث القصصى فى أدبنا العربى متصل الحلقات منذ أقدم العصور، وهو متنوع فى أساليبه ومضامينه، فهناك قصص «الأمثال» التى تصور جوانب الحياة فى العصر الجاهلى وفى صدر الإسلام، وقد جمع بعضه الميدانى والزمخشرى وغيرهما، وهناك قصص السمر والخرافات التى تتعدد مصادرها بين عربية وفارسية وهندية، مما تحتشد به كتب الإخباريين مثل كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشيارى، و«المحاسن والمساوئ» للبيهقى، وهناك القصص العاطفى، الذى بدأ مع العصر الأموى مثل قصة «قيس وليلى» و«قيس ولبنى» و«جميل وبثينة»، وازدهرت بعد ذلك مقامات الهمذانى والحريرى، وحظيت بالشهرة، قصص رائعة، مثل: رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ورسالة «التوابع والزوابع» لابن شهيد الأندلسى، ومن القصص الفلسفى «حى ابن يقظان» لابن طفيل، «ورسالة الطير» للغزالى، بالإضافة إلى السير الشعبية مثل سيرة عنترة وسيف بن ذى يزن والهلالية، إلى أن تبلغ ذروة الإبداع القصصى ممثلة فى «ألف ليلة وليلة»، التى تبين لنا من هذه الجولة فى التراث أن مؤلفيها اتخذوا مادتها من مصدر واحد فقط هو أدب الرحلات العربى، ولعلها تأثرت أيضًا بأدب الرحلات الفارسى.

وعلى الجانب الآخر، كنت قد طالعت آراء عديد من مؤرخى الأدب الأوروبيين، الذين يعتبرون بعض قصص بوكاشيو الإيطالى، وشوسر الإنجليزى ودون جون الإسبانى وغيرهم متأثرة إلى حد بعيد بالقصص العربية، بل من بينهم من اقتبس منها ونقل عنها، ومن المشهور أن هؤلاء الثلاثة مع غيرهم هم الذين غرسوا البذور الأولى للقصة الأوروبية الحديثة.

وهكذا اطمأنت نفسى إلى صواب ما ذهب إليه المؤرخون، عربا وأعاجم، من أن فن القصة الأوروبى هو الذى نهل من القصص العربى وتأثر بها، وإن أروع القصص الغربى التى تعتز بها أوروبا مثل الكوميديا الإلهية لدانتى وروبنسون كروزو لديفو وجاليفر لسويفت وأعمال كثيرة لفولتير وجوته وستندال وغيرهم تشهد على تأثرها بقصص عربية شهيرة.

على أن ما استوقفنى فى هذا التراث الفنى الذى استشعرت معه الزهو، هو كتب الرحالة والجغرافيين التى حوت مادة ثرية ومثيرة للدهشة، وليس ثمة شك فى أنها قدمت إسهامات بالغة القيمة فى حقول الجغرافيا والتاريخ والأدب والأخبار والسير، فضلاً عن المعلومات الإثنوجرافية الهائلة عن سكان كافة أقطار العالم المعمور والمعروف فى القرون الوسطى بين القرن الثالث حتى الثامن الهجرى (من التاسع إلى الرابع عشر الميلادى)، بالإضافة إلى دور هذا الأدب الجغرافى فى خدمة الإسلام واللغة العربية وتنشيط الفكر والخيال وحفز الهمم على السفر والتجارة ونقل المعارف والعلوم، الأمر الذى كان له أثره فى تحرير صفحات عديدة من صفحات الحضارة العربية، التى تألقت على مساحة شاسعة من العالم من شرق الصين إلى غرب أوروبا، ومن روسيا شمالا حتى أواسط أفريقيا جنوبا.

لقد آمنت بعد رحلتى هذه بين جنبات التراث الشاسعة أن بعض كتب الرحلات استوعبت طاقة القص عند الكتاب العرب فى تلك الآونة، وكشفت عن مواهبهم التى لم تعد بحاجة إلى دليل يؤكدها، وامتزجت فى هذه النصوص المعلومات بالمغامرات، والواقع بالأساطير، ذات الكاتب ومشاهداته، التجربة والحكمة مع الخيال، السحر مع الغرائب والعجائب.

ولقد كانت هذه الكتب التى استوعبت شهوة القص عند العربى مجالا للحكى والرواية فى مجالس السمر، شأنها فى ذلك شأن السير الشعبية وقد تفوقها سحرا وجاذبية لأنها فى الأغلب - والمستمع يعرف ذلك - تنطوى على وقائع حقيقية، ولأن راويها هو صاحبها ومجربها والعارف بأحداثها، المحيط بتفصيلاتها وقد عاشها بجماع فكره وأحاسيسه، وقد يمر عليه الشهر كالساعة وقد تمر الدقيقة كالدهر.. حسب الأحوال.

إننى أزعم أن أدب الرحلات أوشك أن يكون - كالفلسفة - تراثا فقط، لاجديد يمكن أن يضاف إليه بعد أن تيسر السفر والانتقال لكل إنسان، واستطاعت

وسائل الإعلام بتقنياتها الهائلة أن تجعل من العالم قرية صغيرة، وكتابا مفتوحا لأغلب شعوب الأرض.

لذلك تزيد أهمية ما أنجزه الرحالة والجغرافيون العرب فى عصور المجد الإسلامى، وتصبح جديرة بأن تحظى بالاهتمام الذى يتعين ألا يكون أقل من تقديمها على موائد البحث ومقاعد الدرس، وأن تجد هذه الرحلات ما يليق بها من إعادة التحقيق والنشر بين طيات كتب حديثة، وكما يقول د. طه حسين فى كتابه صوت أبى العلاء:

«لابد أن نقرب إلى جمهور المثقفين أدبنا القديم ونزينه فى قلوبهم ونصله بأذواقهم، ليس كل إنسان قادرًا على قراءة اللزوميات والفصول والغايات ورسالة الغفران، وفهمها، ومع ذلك فيجب أن يعرف المثقفون جميعا هذه الآثار وغيرها معرفة حسنة، وإلا انقطعت الصلة بين الحديث والقديم، وأصبح مكان الأدب العربى القديم من المثقفين مكان الأدب اللاتينى من الفرنسيين والإيطاليين، والله يعصم الأدب العربى من أن تقطع الصلة بينه وبين الأجيال العربية إلى آخر الدهر».

وحسبنا أن نطلب إلى وزارات التعليم فى البلاد العربية ـ عبر هذه السطور ـ أن توافق على إنشاء مادة يدرسها طلبة الآداب فى جميع أقسامها تتناول أدب الرحلات فى التراث العربى، فلعل منهم من يتحمس لإعادة البحث فيه، أو يسعى لتحقيق بعض تراثه، أو يجد الفرصة لنشره بدلا من بقائه كاليتيم فى مكتبات الأسكوريال وفيينا وباريس، والمتحف البريطانى وأكاديمية التاريخ بمدريد وأسطنبول والفاتيكان وليدن وهامبورج وغيرها.

وبعد.. فقد ظلت هذه الرحلات الآسرة تراودنى، وأنا أردها ردا لينا حينا وقاسيا أحيانا، حتى قضى الله أمرا فى نيتى وعزمى، فإذا أنا أتهيأ لها وأقبل على شأنها والشوق يملأ جوانحى، وأسلم نفسى لمراكبها التى مزقت العواصف والأنواء أشرعتها.

وتفرض الأمانة العلمية أن ننوه بفضل كوكبة فريدة مخلصة من الأساتذة العلماء والباحثين من العرب والمستشرقين، مهدوا السبيل وقدموا إسهامات جليلة للكشف عن جوانب مجهولة من أدب الرحلات العربى؛ ففض بعض ما عرض له من مغاليق، وصحح ما لحق بعض الدراسات من الخطأ والتكرار أو التشابه والتأثر والنقل، فكم ألقوا من الضوء على هذا العالم الثرى، الذى توزعت أشلاؤه بين مكتبات العالم ودور البحث العلمى، وباستطاعتنا القول إن أدب الرحلات العربية، كجبل الجليد، أكثره لازال فى الأعماق.

وإذا قدر لهذا الكتاب أن يكون خطوة على الدرب، فإن صاحبه ليعتز بأن ينسب الفضل لأهله ،هم كثرة من عشاق العلم، الذين أوقفوا حيواتهم عليه فلهم الشكر والمثوبة، وأما الجهد الذى بذلناه فى البحث والاطلاع والتمحيص والمقارنة والتحقق، فنحن على ثقة أنه أبدًا لن يضيع، وعلى الله قصد السبيل.

فؤاد قنديل

القاهرة فى ١٥/٦/١٩٩٣م

الإنسان والرحلة..

خلق الله الإنسان محبًّا للحركة والتنقل، وأمده بالعقل الذى يدعوه لذلك، والجسم القوى الرشيق الذى يعينه على الانتقال من موضع لآخر، بحثًا - فى البداية - عن طعامه وشرابه، هربًا من القوى المعادية، وقد بدت له عاتية مخيفة، سواء كانت الطبيعة من برق ورعد وعواصف أو فيضانات وزلازل وبراكين أو كانت حيوانات ضخمة كالديناصورات والأفيال، أو مفترسة كالأسود والنمور والذئاب.

فالحركة روح الحياة وهى سمة أساسية فى التركيب الجسدى والنفسى للإنسان وقد هيأه الله لها، وجعلها إمكانية ضرورية لحياته، تتسق مع الهدف من إيجاده والغاية التى خلق لأجلها، وهى تعمير الأرض وعبادة الله تعالى.

وقد كان الله قادرًا كل القدرة على أن يهب السيدة مريم الطعام كما وهب لها الولد، لكنه قال بعظيم حكمته:

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: ٢٥].

فهل يمكن لأقوى الرجال أن يهز نخلة، بالطبع لا.. ومع ذلك طلب الله من السيدة التى تعانى آلام المخاض أن ترفع ذراعها وتمده إلى جذع النخلة وتحاول هزها ولن تفعل، عندئذ ينهمر عليها التمر.. رطبا جنيا.

تشير كتب التاريخ الطبيعى والأنثروبولوجيا وغيرها إلى أن الإنسان لم يتوقف عن الحركة والتنقل، حتى بعد أن تعلم الزراعة وعرف كيف يستقر ويبنى ويؤسس المجتمعات. لقد ظل على مدى العصور والقرون يتطلع بعينيه إلى الآفاق البعيدة - ولا يكف عن التفكير فيما تضمه من الخلق والموجودات وفيما تحمله من

الكنوز والخيرات، خاصة حين تضيق به الحال ويجف الماء والضرع، أو تضن الطبيعة عليه بما يملأ بطنه ويسعد قلبه.

وهو إلى جانب ذلك مشوق إلى معرفة موضع الشمس الذى منه تشرق، وإلى معرفة مسكنها الذى إليه تغرب، وحريص على أن يعرف من أين ينبع النهر الذى يتدفق فى أرضه، وإلى أين ينتهى، وكلما مرت السنون رأى من الدنيا عجبا إثر عجب، وجديدا يعقب جديدا، وحديثا ينسخ قديما، وهو لا يستطيع أن يفكر أبدا وهو جالس فى كوخه أو داره، فما الفكر فى هذه الحالة إلا عجلات تدور فى موضعها، وليس إلا خطوات تسير فى محلها، وهو يريد أن يعرف، ودوافع الرغبة فى المعرفة بلا نهاية، ذاتية وموضوعية، عقلية ونفسية وغيبية أيضا.

لكنه الإنسان فى كل الأحوال، لا يكف عن السؤال.. كيف، ولماذا؟ ومع تقدم الوعى وتجدد الحاجات، تزداد رغبة الإنسان فى السؤال، وفى الانتقال والسفر، وتتنوع الأغراض التى تدفع لهذا السفر.

وإذا كان العالم اليوم قد أصبح قرية صغيرة، فإن العالم فى الماضى، كان قرى كثيرة مبعثرة فوق رقعة هائلة من المعمورة، ولم يكن من سبيل لمعرفة الأحوال خارج القرية الواحدة إلا الترحال.

والحق أن الإنسان منذ أن يولد حتى يموت فى رحلات دائبة، تتعدد أشكالها بمرور الأيام وبتغير الظروف والأحوال، بل إن لحظات ميلاده تعد رحلة من رحم الأم إلى دنيا البشر، وما وفاته ودفنه إلا رحلة ينتقل فيها من دنيا البشر إلى رحم الأرض تمهيدا لرحلة نهائية وسرمدية تبدأ يوم ينفخ فى الصور، وهناك رحلات أخرى متباينة على طريق العلم من مرحلة إلى مرحلة، وعلى طريق النضج من عمر إلى عمر، وفى إطار التشكيل الاجتماعى هناك رحلة من العزوبة والفردية إلى الزواج وتكوين الأسرة، وهناك رحلات داخل الوطن، كالانتقال من قبيلة إلى أخرى أو من القرية إلى المدينة أو من البدو إلى الحضر، ورحلات من داخل الوطن إلى خارجه، وتتسع مساحة الحركة وتمتد الرحلة لتصبح رحلة من الأرض

إلى القمر والكواكب.

على أننا فى هذه الدراسة نعنى بإلقاء الضوء على الرحلات التى تمت فعلا فى إطار المكان بوصفه البعد الرئيسى فى إنتاج مادة ذات طبيعة جغرافية وإنسانية انعكست بصورة أو بأخرى على رؤية كاتبها، ومن ثم يحق لنا أن نتوقف بغير قليل من الدهشة أمام بعض الكتاب الذين يعتبرون مثلا كتاب «رحلات جاليفر» لسويفت، ضمن أدب الرحلات[1]، وهو عبارة عن رواية ترمز أحداثها لبعض ما يجرى فى إنجلترا فى عصر المؤلف، ولهذا فهى تعد عملا أدبيا روائيا، وليس لها أية علاقة بأدب الرحلات، فليس الأدب الأخير معنيًا بالرحلات الخيالية، ولكنه معنى أساسًا بالرحلة الواقعية ذات المحددات المكانية والزمانية، سواء جرت على الأرض أو فى السماء أو تحت الأرض وفى أعماق البحار.

أغراض الرحلة:

تتعدد الدوافع التى تحمس الإنسان للرحلات، وتختلف من شخص إلى آخر ومن قوم لقوم ومن عهد لعهد، إلا أنها فى الأغلب لا تخرج عن أن تكون:

١. دوافع دينية:

كأن يرتحل للحج إلى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمن وتوبة، وتطهيرا للنفس من دنس الذنوب، وعهدا للسير على الصراط المستقيم وأملا فى المغفرة، ومن قبيل ذلك التبشير بالدين أو زيارة المقابر.

٢. دوافع علمية أو تعليمية:

بغرض الاستزادة من العلم فى منطقة أخرى من العالم، ذاع صيت أبنائها فى مجالات العلوم كالفقه والطب والهندسة والعمارة وغيرها، وتذكر كتب الحديث والسير أن من الفقهاء والعلماء من كان يقطع القفار ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوى سمع به، أو لمجرد التحقق من كلمة فيه، وقد فعل ذلك عبد الله بن عباس والغزالى وابن منده والأحنف العكبرى الشاعر، ولانملك لمثل هؤلاء

(١) رحلات جاليفر لسويفت ـ نور شريف ـ المجلد الثالث عشر العدد ٤ سنة ١٩٨٣.

حصرا، فما أكثرهم، ومن قبيل ذلك أيضًا رحلات البحوث العلمية والكشوف الجغرافية.

٣. دوافع سياسية:

كالوفود والسفارات التى يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى؛ لتبادل الرأى وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شئون الحرب والسلام أو تمهيدا لفتح أو غزو.

٤. دوافع سياحية وثقافية:

تصدر عن رغبة فى الطواف نفسه والسفر لذاته، وحب التنقل وتغيير الأجواء والمناظر وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة، ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة والبشر، واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع، وقد تكون لتعرف المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج أو الكهوف والغرائب والعجائب.

٥. دوافع اقتصادية:

للتجارة وتبادل السلع أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو لجلب سلع تتوافر فى بلاد أخرى وتندر فى بلد المسافر، وقد يكون هربا من الغلاء وسعيا وراء الرخص واليسر والوفرة أو للعمل.

٦. دوافع صحية:

كالسفر للعلاج أو الاستشفاء، أو إراحة النفس من ألوان العناء وتخليصها من الكدر كالارتحال إلى المناطق الريفية ونحوها، وقد يكون هربا من وباء أو طاعون أو تلوث.

٧- دوافع أخرى:

قد لانعدم أن نجد أسبابا أخرى للارتحال، كالسخط على الأحوال وضيق العيش، أو الهروب من عقوبة.

وأيا ما كان الغرض من الرحلة فإنها فى أغلب الأحوال سلوك إنسانى حضارى، يؤتى ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة، فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هى ما كانت عليه قبلها.

يقول أبو الحسن المسعودى:

«ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه».

فهل الدول الإسلامية قبل الفتح هى ما بعده؟ ومصر قبل رفاعه الطهطاوى ليست هى نفسها بعده، وابن بطوطة قبل أن يجوب البلاد ويطوف بالأمصار شرقا وغربا ليس هو نفس الرجل الذى آب إلى وطنه، وجلس فى مقعد العلم والقضاء يملى خبرته وتجاريبه، ويقال مثل ذلك عن ابن خلدون وابن جبير والبيرونى وابن حوقل والمقدسى والإدريسى، وغيرهم.

وكان بشر يقول:

«يا معشر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب، وإذا طال مقامه فى موضع تغير».

وليس من شك أن السفر جامعة تحفل بالدروس والعبر، وتحتشد بالعلم والمعرفة، وتشحذ العقل والوجدان، وتزيد فى الفهم والإدراك، وتصقل الشخصية بفضل قساوة التجربة وحرارة المواقف ورهبة المغامرة وطلعة الجديد فى كل شأن ومواجهة المفاجآت، وتحمل مشاق الغربة والسفر، والإطلاع على الطبائع المختلفة والاعتياد على الغريب والتمرس بمعاملته.

أما التدرب على استعمال مفاتيح اللغة الجديدة، فهو المعين على كشف حجب المجهول من الأقوال والأحوال، ولم يعد الكاتب الفرنسى سافارى الحقيقة عندما قال **«إن الرحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان»**.

ومن هنا تصبح الرحلة اليد التى تمتد لتقرب شعوبًا تناءت عن شعوب، وأقواما إلى أقوام، تفصل بينها البحار والقفار، وسبحانه من قال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات ١٣].

هذا هو السر إذًا، أن الله حتى بعد أن هبط آدم وحواء إلى الأرض لم ينزلهما منزلا واحدا، ليبحث كل منهما عن الآخر ويلتقيا، والشعوب لم تخلق فى موضع واحد، ولكن الله فرقها وبث بينها المسافات، وغرس فى الجميع فى الوقت ذاته فطرة السعى للتعارف واللقاء.

إن الرحلة بهذا تُعد حلقة رائعة ومثيرة من تلك المنظومة الإلهية، التى تشمل الكون وتوجه أنساقه البشرية والطبيعية لتحقيق المزيد من محاولات اكتشاف الذات الإنسانية، واختراق حاجز المسافات الطبيعية لاكتشاف الحياة على الأكوان المختلفة، وليس من شك أن الإنسان ـ أراد أم لم يرد ـ وهو يسعى إلى العمل استجابة للحياة، فإنما يعمل لصالحها ويؤكد علو شأنها وينتصر لكل ما خلق الله من الخير والجمال.

وإلى هذا المعنى تقريبا يشير د. صلاح الشامى:

«صحيح أن كل رحلة قد حققت الهدف لحساب الإنسان ونبض الحياة المستمر على الأرض، وصحيح أيضًا أن الإنسان الذى كرس اجتهاده لإنجاز الرحلة لم ولن يفرط أبدا فى جنى ثمرات الرحلة والانتفاع بها. ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الرحلة قد رسخت كل العوامل والمفاهيم التى بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض، بل لقد فجرت فى الإنسان استشعار المصالح المشتركة التى وثقت عرى هذه الوحدة على الأرض. ومن غير الرحلة ينفرط عقد هذه الوحدة، وتتضرر حركة الحياة ومصيرها المشترك»(١).

«ولأن سعى الإنسان على قدميه وتحمل مشقة السفر ينبع من حس فطرى،

(١) الرحلة عين الجغرافيا المبصرة ـ د. صلاح الشامى ص٢.

وتأسيسًا على استنفار هذا الحس الفطرى، جد الإنسان واجتهد لكى يبتكر الوسيلة والوسائل لكى تستخدمها الرحلة، ولكى توسع دائرة انتفاعه بالرحلة، ولكى تؤمن سرعة تحرك الرحلة فى الذهاب إلى حيث تريد وتتطلع، أو فى الذهاب والإياب لحساب حركة الحياة واستجابة لمصالحها»[١].

كانت الرحلة إذًا هى سر وحدة البشر، أو على الأقل السبيل إلى ذلك خاصة فى عصر خلا من وسائل الاتصال الحديثة التى تجاوزت حد التصور، والتى مكنته - فى أيامنا هذه - وهو داخل جدران بيته أن يحصل على كل ما يبتغى، وأن يرى أى مكان على الأرض وفى السماء وفى أعماق البحار.

على أن ثمار الرحلة لاتتوقف عند التعارف أو صقل الشخصية أو كشف المجهول من طبائع الشعوب، لكنها تجود بالمكاسب العلمية والأدبية، التى قد يتعذر حصرها؛ خاصة إذا كان الرحالة متمتعًا بقوة الملاحظة وشهوة التطلع ويقظة الحواس، وحب المحاورة والرغبة فى التحصيل والحرص على التدوين والتسجيل.

ولعل أبرز دور قامت به الرحلة فى العالم العربى هو الخدمة الكبرى، التى قدمتها لعلم الجغرافيا، فقد كان الرحالة فى وصفه للمسالك والممالك معينًا للجغرافى؛ لأنه يكتب بقلم الذى اتصل بالظواهر الجغرافية والطبيعية اتصالا مباشرا، فرأى وسمع، كما أنه كان ذا نفع للمؤرخ ولعالم الاجتماع وللأديب والفلكى والفيلسوف والسياسى والاقتصادى.

أما القيمة الأدبية للرحلات فتتجلى - فيما يقول د. حسنى محمود حسين فى ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنى[٢] - وإذا كان أبرز ما يميز أدب الرحلات تنوع فى الأسلوب من السرد القصصى إلى الحوار إلى الوصف وغيره، فإن أبرز ما يميزه أسلوب

(١) المرجع نفسه ص ١١.

(٢) أدب الرحلة عند العرب - المكتبة الثقافية ص ١٠.

الكتابة القصصى، المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى؛ مما حدا بالدكتور شوقى ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب «**خير رد على التهمة التى طالما اتهم بها الأدب العربى، تهمة قصوره فى فن القصة**»، وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته فى صرف أصحابه فى غالب الأحيان عن اللهو والعبث اللفظى والتكلف فى تزويق العبارة، إيثارًا للتعبير السهل المؤدى للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه، مما يفتقده كثير من الأدباء فى بعض عصورنا الأدبية.

إذا كان التنقل ديدن الإنسان فى أغلب بقاع الأرض منذ خلق الله آدم، فإن العربى ساكن البادية فى شبه الجزيرة العربية وما جاورها كان دائم التنقل منذ آلاف السنين بحكم طبيعة الحياة، التى ترتبط أول ما ترتبط بالماء والكلأ، فضلاً عن حركته الدائبة للرعى والتجارة، ناهيك عن هوايته الأثيرة وهى الصيد.

وتشير كتب المؤرخين إلى أن العرب منذ ما قبل الإسلام كانت لهم تجارة نشطة، سافروا لها خارج أوطانهم برا وبحرا، وأغلب الظن أنهم عرفوا الملاحة والإبحار من قديم، وقد اشتهروا بالتجارة مع شعوب أفريقية فى شمالها وشرقها وأيضًا فى شرق الجزيرة حتى الهند وما وراءها، بدليل ما ورد فى بعض المصادر من أن الإسكندر الأكبر فكر فى غزو الجزيرة العربية، وإنه ارتأى أن يتم ذلك عن طريق موانيها على الخليج العربى؛ حتى يقطع صلاتها بأسواقها فى إفريقيا والهند، وهى الأسواق الرئيسية التى مونت العربى بالثراء، وبذلك يقطع عليهم هذه الموارد، كما أراد أن يقضى على سيادة العرب على الخطوط التجارية البرية والبحرية، ويحد من الارتفاع الهائل الذى وصلت إليه أسعار البضائع الثمينة، التى كانت تأتى من الشرق إلى أسواق مصر أو الشام محمولة على سفن عربية أو على ظهور جمال القوافل، ومن هناك تنقل إلى أوروبا[(١)].

كانت للعرب رحلات تجارية مزدهرة خاصة مع العراق والشام واليمن، وإن

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ـ د. جواد على ـ جـ ٨ ص ٧٦، ٧٧، دار العلم للملايين بيروت ـ ١٩٧٠.

لم تدون أخبار هذه الرحلات تدوينا خاصا شاملا لها أو جامعا، اللهم إلا ما ورد متناثرا فى قصائد الشعر وكتب اللغة، وعن بعض هذه الرحلات يذكر القرآن الكريم رحلات قريش الشهيرة:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش].

كان السبئيون أقدم الأقوام العربية التى تخطت عتبة المدنية، وكانوا فينيقيى البحر الجنوبى، فقد عرفوا طرقه وتعرجات سواحله وموانيه، وامتلكوا رياحه الموسمية الغدارة - السموم - فامتلكوا بذلك تجارته، خلال القرون الثلاثة عشر الأخيرة قبل ميلاد المسيح، وكانت الانتصارات التى أحرزها عرب الجنوب انتصارات تجارية واقتصادية، شأنهم فى ذلك شأن الفينيقيين، ولم تكن الممالك التى شادوها دولا حربية وإنما كانت ممالك تجارية، ويمتد عصر سبأ الذهبى بين ٦٥٠ و١١٥ ق.م على وجه التقريب، بعد أن ورثوا مملكة أقربائهم المعينيين وأصبحوا سادة على بلاد العرب الجنوبية، وكان خط التجارة الرئيسى فى البحر الأحمر حينذاك يمتد من باب المندب إلى وادى الحمامات على ساحل مصر الوسطى، ولكن سبأ اضطرت لما يلازم الملاحة فى أنحاء هذا البحر الشمالية من آفات إلى افتتاح خطوط برية بين اليمن والشام، تحاذى ساحل الجزيرة الغربى وتؤدى إلى مكة والبتراء، ومنهما تتشعب إلى مصر والشام وما بين النهرين[١].

كان العرب إذًا يحتكرون التجارة الشرقية القادمة بحرًا عن طريق الجنوب - وهو أحد طرق ثلاثة رئيسية نحو البحر الأبيض المتوسط - الذى كان يأتى من الهند إلى الموانى فى جنوب بلاد العرب أو جنوبها الغربى، وكانت أهمها فى عهد البطالمة عدن وجزيرة سقطرى، وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها فى قبضة الأعراب، فقد كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول بوغاز باب المندب، وكان دأب العرب أن

(١) تاريخ العرب - د. فيليب حتى - جـ١ ص٦٣-٦٥ دار صادر - بيروت.

يجمعوا حاصلات بلادهم وحاصلات إفريقيا الشرقية والهند، ثم يرسلوها على ظهور الأبل شمالا من مأرب إلى مكة فالشام ومصر؛ اجتنابا لأهوال السفر فى البحر الأحمر، أما إذا اضطروا إلى نقل البضائع بحرًا، أو رأوا أنه أصلح، فإنهم كانوا إما يسلكون البحر الأحمر كله إلى القناة، حيث يتحولون ببضائعهم إلى أحد فروع النيل العليا الشرقية أو يقلعون إلى وادى الحمامات، ثم يعبرون الصحراء المصرية إلى طيبة، أو يقلعون فى النيل إلى ممفيس، وقد ظل الخط البحرى الجنوبى إلى الهند فى أيدى العرب إلى أن حاول البطالمة، بعد احتلالهم لمصر فرض السيادة على هذه المناطق(١).

على أنه لا يستبعد استعانة البطالمة بخبراء من العرب عركوا البحر وعرفوه قبلهم بقرون، كما أن البطالمة لم يستطيعوا التأثير على علاقات مصر القديمة بالعرب ممثلة فى المعاملات التجارية النشطة، إلا أنه من الصعب أن يعثر على أى دليل، يفيد ازدهار الملاحة العربية فى هذه الفترة التى حكم فيها البطالمة مصر، وقد جاء بعدهم الرومان فواصلوا سياسة أسلافهم فى مزاحمة العرب فى البحر؛ فبذلوا جهودهم لتحرير مصر من الاتكال التجارى على اليمن ووضعوا لأول مرة موضع التنفيذ، الكشف الذى تم فى أواخر عهد البطالمة عن أسرار خطوط الملاحة فى المياه الجنوبية فدخلت سفنهم المحيط الهندى، وكان ذلك إيذانا بانتهاء العصر الذهبى لعرب الجنوب(٢)، ذلك العصر الذى تدل عليه بقوة وتركيز قصيدة عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلى، خاصة هذا البيت حيث يقول:

ملأنا البـــر حتى ضـاق عنــا وظهر البحــر نملــؤه سفينـا

ولا أحسبنى بحاجة إلى الحديث عن الرحلات التى انطلقت من مصر، فهناك الدلائل التى تشير إلى رحلة بحرية رسمية إلى بلاد بُنت فى عهد خوفو فرعون مصر، الذى حكم حوالى الألف الثالثة ق.م، وهناك الرحلة البحرية الشهيرة فى

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ـ د. جواد على جـ٢ ص ٣٨٤، ٣٨٦.
(٢) القبائل العربية فى مصر ـ عبد الله خورشيد البرى ـ ص٣٢ الهيئة العامة للكتاب القاهرة ـ ١٩٩٢.

عهد الملكة حتشبسوت إلى بلاد بنت فى حوالى ١٥٠٠ ق.م لاستيراد البخور والعطور، وقبل هاتين الرحلتين، هناك إشارات إلى رحلة بحرية إلى الشام وجزر البحر الأبيض حوالى الألف الرابعة قبل الميلاد، تمت فى عهد سنفرو سنة ٣٢٠٠ ق.م، وكانت مؤلفة من ٤٠ سفينة، وقد كلفها الملك باستحضار الأخشاب اللازمة لصناعة السفن.

وهناك الطرق البرية فى اتجاه جنوب القارة إلى بلاد كوش وبلاد يام، والتى تدل على تنظيم رحلات، اتخذت هذه الطرق سبيلا لبلوغها أهدافها سواء للتجارة أو للبحث عن الفارين أو للبحث عن منابع النيل، ومثل هذه الرحلات البرية تمت عبر سيناء وفلسطين إلى الشام ووادى الرافدين ـ ولابد أن رحلات مشابهة كانت تتم بين العراق وبلاد فارس وبين الشام وآسيا الصغرى، ولكنها مهما بلغت من الحيوية والازدهار فلا مجال لمقارنتها بالرحلة بعد الإسلام؛ لأن العالم المعمور آنذاك اتخذ شكلا آخر وانتقل إلى عصر جديد.

الإسلام والرحلة

سبقت الإشارة إلى أن العرب قبيل الإسلام شاركوا بدور بارز فى التجارة البحرية فى المحيط الهندى، وارتحلوا بمنتجاتهم إلى شواطئ السند والهند وجزيرة سيلان، حتى أصبحت للفرس اليد الطولى على العرب إبان الدولة الساسانية، ونازع البطالمة والرومان العرب النفوذ على المحيط الهندى والبحر الأحمر والأبيض، ونخلص من هذا جميعه أن العرب حصلوا معارف كثيرة وخبرات عن هذه البلاد، وتمتع ملاحوهم بمهارات عالية ردحاً من الزمن.

وعندما ظهر الإسلام وأطل على الجزيرة العربية نوره، كان القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى، وكلمة الله إلى البشر كافة داعيا فى مواضع عديدة إلى السفر والترحال والضرب فى الأرض، نذكر من ذلك قوله سبحانه:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

[الأنعام ١٥].

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك ١٥].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

[يوسف ١٠٩].

وترد كلمة **الفلك** فى عدة آيات بما يدل على أن العرب كانوا على علم بها، لأنهم صنعوا السفن وأبحروا وتاجروا واصطادوا من خيرات البحر.

﴿ربُّكُمُ الَّذى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا من فَضْلِه إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء ٦٦].

﴿ إِنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتى تَجْرِى فى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ [البقرة ١٦٤].

﴿ وسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فى الْبَحْرِ بِأَمْرِه وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾

[إبراهيم ٣٢].

﴿ وَمَا يَستَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيه مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا من فَضْلِه ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر ١٢].

﴿ وآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [يس ٤١].

وتذكر آيات أخريات مجاهل البر والبحر، التى يعرف العرب جانبا من ظلماتها - وكان بعضهم يخشى البحار - كما يعرفون أيضاً ما ينالونه من خيراتها:

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِه أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل ٦٣].

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء ٧٠].

وهكذا توجه الله عز وجل بدعوات صريحة إلى المسلمين للسعى فى الأرض والسير فى البر وركوب الفلك وخوض البحار والانتفاع بها تجارة أو صيدا، وقد كانت تلك الدعوات تشجيعا لهم على تحمل مشاق السفر، انتفاعا - فى البداية - بالخيرات ثم بعد ذلك تدريبا على حمل الرسالة ونشر الدعوة، ولن تبلغ الرسالة كافة الخلق إلا بالسفر وقطع المسافات والطواف بالأمصار شرقا وغربا.

وكانت إحدى أسس الإسلام الخمسة هى حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وقال سبحانه فى سورة الحج (٢٧):

﴿ وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً[1] وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾.

[الحج ٢٧-٢٨].

فالحج إذاً فريضة على كل مسلم، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولا يكتمل إسلام المرء دون الحج.

وقد أقدم المسلمون على تلبية هذه الدعوة الكريمة بكل حماس، ينفقون فى سبيلها كل مرتخص وغال، وقبل أن يحين موسم الحج بشهور تتحرك القلوب منطلقة إلى البيت الحرام، ثم يركب الحجيج الدروب الطويلة فى اتجاه مكة والمدينة.

ومن حق الحاج على سلفه أن يبين له خير الطرق للوصول إلى الأماكن المقدسة، ويشرح له المخاطر ليستعد لها، ويعرض عليه ما يمكن أن يلقاه من مصاعب ليتغلب عليها.

وسوف نطالع فى الفصول التالية تفاصيل رحلات عظيمة، بدأت بالحج ولكنها لم تعد بعده إلا بعد أن طوفت بالممالك الإسلامية جميعها، وقدمت خدمات رائعة وحققت إنجازات نفيسة لأدب الرحلة والجغرافيا معا.

وشجعت الدعوة الإسلامية طلب العلم، وحرضت عليه وقدرت العلماء فجعلتهم ورثة الأنبياء، ودعا الرسول الكريم ﷺ الناس إلى طلب العلم ولو فى الصين، فأقبل الرجال والنساء على طلب العلم أينما كان، ثقة وإيماناً بأن من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، وقد طلبوا العلم فى الدين وفى غيره.

وأورد المقرى فى «نفح الطيب» أسماء ٢٨٠ شخصا من الأندلسيين، الذين رحلوا إلى المشرق فى طلب العلم وحده، وليس بغرض التجارة أو الحج،

(١) رجالا: يسيرون على الأقدام «مترجلين».

معترفًا رغمًا عن ذلك أنه لم يستوعب كل الأسماء، وقد أصبح من عادة طالبى العلم أن يسيحوا فى البلاد للقاء الشيوخ ومجالسة العلماء والاطلاع على الكتب وزيارة الأولياء، ومنهم من كان إذا حصل القسط الوافر من العلم فإنه يطوف بالأقطار الإسلامية ليلقى العلماء ويعلم ويدعو ويفقه، تلبية أيضاً للدعوة الكريمة: «**خيركم من تعلم العلم وعلمه**».

وقال الرسول المصطفى، ﷺ: «**من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع**» **رواه الترمذى،** وفى خبر آخر «**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة**» رواه مسلم.

لذلك اندفع محبو العلم وطالبوه، كأنهم يندفعون إلى الجهاد أو الشهادة، ينفقون ما يقدرون عليه من مال ووقت وجهد لأجل تحصيل العلم، ولم يكن للعلم من سبيل إلا السفر، وها هو جابر بن عبدالله يرحل من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة، فساروا شهرا للتحقق من حديث بلغهم عن عبدالله ابن أنيس الأنصارى يحدث به عن رسول الله ﷺ حتى سمعوه.

وقد كانت الرحلات فى زمن الرسول محدودة، لأنهم كانوا فى شغل بالرسالة وإرساء قواعدها وتثبيت أقدامها فى الجزيرة العربية أولا، ومع ذلك فيمكن اعتبار الهجرة الأولى، التى قام بها نفر من الصحابة إلى الحبشة، على رأسهم جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه رحلة، وكذلك الهجرة الثانية، وهى الهجرة الكبرى التى خرج بها الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة حماية للدين الجديد ودعما له، فإنها تعد رحلة أيضا، لكن الرحلات بكافة أشكالها تعددت على عهد الخلفاء الراشدين.

وتقول بعض المصادر إن أهم الرحلات التى تمت فى عهد الرسول ﷺ اثنتان: واحدة تنسب إلى تميم الدارى وهو صحابى ولاه الرسول ﷺ أرضا بالقرب من الخليل أحد أقاليم فلسطين، والثانية قام بها عبادة بن الصمت. ويتحدث تميم الدارى عن رحلة له ببحر الشام حيث قذفت به عاصفة هو وصحبه إلى جزيرة

مهجورة رأوا فيها رأى العين المسيخ الدجال، وتحوم الشكوك حول هذه القصة، ولسنا الآن بصدد بحثها، وكذلك تلك المنسوبة للصحابى الجليل عبادة ابن الصامت.

أما فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقد تحدثت بعض المصادر عن عدد من الأسفار، منها سفرة عثمان بن العاص الثقفى، والى البحرين، الذى أبحر من عمان «**المقريزى ١٨٩**» فى غارة جريئة على ساحل السند عند تانة بالقرب من بمباى، ووجه أخاه إلى خور الديبل عند مصب السند سنة ١٥هـ، وأراد العلاء الحضرمى خليفته فى ولاية البحرين أن يظهر جرأته وبسالته فعبر إلى فارس، وتوغل فيها بعيدا حتى وصل إلى اصطخر، ولكن سفينته تحطمت، وصار مضطرا لأن يعبر أرض العدو إلى البصرة سنة ١٥ هـ فى رحلة محفوفة بالأخطار، وقد شنت هذه الغارات، رغم الأوامر الصارمة التى أصدرها الخليفة عمر، رضى الله عنه، سنة ١٣هـ ناهيًا عنها، ولم يرسل الخليفة عمر، رضى الله عنه، أى حملة من هذا النوع إلا مرة واحدة ضد الأحباش، حين توالت هجماتهم على السواحل العربية عام ٢١هـ.

وبعد أن توطدت أعمدة الدين الوليد فى شبه الجزيرة، سعى الخلفاء الراشدون إلى إهدائه للعالم كافة، قطرا بعد قطر فتقدموا إلى الشام ومصر والعراق وفارس، ثم شمال إفريقيا غربا، وأعقب ذلك التوجه شرقا إلى ما وراء النهر والهند والصين.

وتلا ذلك الأندلس وبلاد الروس وآسيا الصغرى، وقد كانت الرحلة ورجالها هى البطل الأول فى التمهيد لهذه الفتوحات، وما كانت الجيوش الإسلامية قادرة على طى القفار أو صعود الجبال وعبور الأنهار لدخول الأقطار والأمصار إلا بفضل الرحالة والتجار والملاحين وهواة الأسفار، وكان للعرب فى ذلك خبرة طويلة، أسهمت كثيرا فى تسهيل مهمة الانطلاق براية الإسلام إلى كل أنحاء العالم، وليس أدل على ذلك من وجود جالية إسلامية كبيرة فى جزيرة سيلان على عهد الخليفة عمر رضى الله عنه.

وجرَّد الحجاج الثقفى بعثة تأديبية إلى وادى نهر السند، حينما ترامى إليه أن

نساءً مسلمات غادرن سيلان لزيارة أهلهن فى جزيرة العرب، فاعتدى عليهن بعض القرصان.

كان المسلمون إذاً على وعى كامل بطبيعة دورهم التاريخى، فقد كان عليهم أن يطوروا العالم القديم، وأن يعيدوا تنظيم هذه المجتمعات وفق علاقات جديدة حدد الإسلام أسسها ومبادئها، ليس فى داخل شبه الجزيرة فحسب، ولكن خارجها كذلك، وهكذا انطلق يحققها خارج الحدود.

وأيا ما كان الأمر، فإنه لا محاجة فى أن رجال الرحلة الذين سافروا وجاسوا فى البلاد واجتازوا المسافات هم الذين مهدوا للتوسع الإسلامى، كى يعرف طريقه فى يسر، حتى ليتحدث عدد من المستشرقين بغير قليل من الدهشة عن تقدم الفتوحات الإسلامية، خلال قرن واحد؛ لتشكل أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، الأمر الذى يؤكد الخبرة البرية والبحرية والجغرافية للعرب وغيرهم من الشعوب المجاورة التى أسلمت، وقد كان منهم الأدلة والمرشدون، وعندما بلغت الجيوش العربية بلاد السند فى أواخر القرن الأول الهجرى، وجدوا طوائف كثيرة من الهنود تقرأ وتكتب العربية، وقد امتد نفوذ العرب حتى الصين.

وبعد مضى القرن الأول بقليل، بلغت الجالية العربية فى مدينة «خانفو» من الكثرة والقوة حدا مكنهم فى سنة ٧٥٨م من القيام بمشاغبات، استطاعوا بها أن ينهبوا ميناء الصين الأكبر نهبا[(١)].

كان دور الرحلة إذاً سابقاً على الفتح، ودارت الأيام ليعود دورها من جديد فيصبح تالياً للفتح، فقد تطلب التوسع توالى إرسال الرسل وموظفى الإدارة والعلماء والفقهاء ومسئولى الشئون المالية وعمال البريد والخراج، لذلك كان لابد من أن يواصل رجال الرحلة مهمتهم التاريخية والجغرافية المهمة، فعملوا على اكتشاف البلدان الجديدة بمدنها وقراها، وما يتبعها من عمران، وما يقتضى ذلك

(١) حديث السندباد القديم - ص١٨.

من معرفة المسالك المفضية إلى المدن والأقاليم، وكانت تلك الرحلات هى أساس علم الجغرافيا العربية.

وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض مبادئ الإسلام شجعت على الرحلة ودفعت إلى السفر كالحج، والحض على العلم والسعى فى الأرض من أجل الرزق، ودعوة الملائكة للمستضعفين كما جاء فى القرآن الكريم.

﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء ٩٧].

كذلك كانت بعض رخص الإسلام التى يسر بها الله أمور المسلمين، مثل: إباحة تعدد الزوجات، عاملا مسهما فى تخفيف بعض متاعب الأسفار، وشجعت هذه الرخصة الشرعية الحكيمة رجال الرحلة على التجوال وقطع المسافات والنهل من العلم على مهل، مطمئنين إلى أنهم لن يكونوا محل شك أو سببا فى إثارة المشكلات الاجتماعية، وكان بعضهم يتزوج فى البلاد التى ينزل فيها فترة من الزمن، ومن الطريف فى هذا الصدد أن الرحالة ابن بطوطة تزوج فى مصر مرتين على الأقل، وكانت له فى جزائر المالديف أربع زوجات، وكان يرحل عنهن ثم يؤوب فيجدهن منتظرات، وبعضهن رزقن الولد.

كانت الرحلات إذاً هى التى مهدت مسارح عمليات التوسع الإسلامى، وفى المقابل.. فقد أتاحت الفتوحات الإسلامية وسائل السفر فى إمبراطوريتهم المترامية الأطراف بأمان وسلام، وقد أقام الولاة وأهل الخير محطات على الطرق بعد كل مسافة، كما أقاموا الرباطات والمضايف والحراسات، وكان الرحالة يتحرك وهو القادم من تونس مثلا إلى الشام وإيران وإلى خراسان، كأنه يجوس خلال وطنه تونس، وقد يلقى الترحيب أكثر مما يلقاه فى بلده.

أصبح السفر بمرور الأيام جزءا مهمًّا من حياة العربى، ومعلما من المعالم الرئيسية فى نشاطه الدينى والعلمى والسياسى، بل غدا لدى الكثيرين صورة من صور العبادة، كما سلفت الإشارة. ولذلك فقد لقى اهتماما لدى الرسول الكريم، ﷺ والخلفاء الراشدين وصفوة العلماء، واقتضى الأمر مناقشة أحوال السفر وظروف التجوال، ومن ثم وضع تقاليد للرحلة وآدابها، وحض الناس على اتباعها.

ويُعيننا فى بيان هذه التقاليد والآداب حجة الإسلام أبوحامد الغزالى الذى يعددها قائلا[1]:

أولا: أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ويرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه، قال ابن عمر رضى الله عنهما: من كرم الرجل طيب زاده فى سفره، ولابد فى السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام وإظهار مكارم الأخلاق، فإنه يخرج خبايا الباطن، ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر، لأن السفر من أسباب الضجر، وقد قيل: ثلاثة لا يلامون على الضجر: الصائم والمريض والمسافر.

ثانيا: أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق، وقد نهى الرسول ﷺ «عن أن يسافر الرجل وحده»، وقال:

«الثلاثة نفر»

وقال أيضا، ﷺ **«وإذا كنتم ثلاثة فى السفر فأمِّروا أحدكم»**

(١) إحياء علوم الدين - جـ٦ ص١٠٧، ١٠٨ - دار الغد العربى - القاهرة - ١٩٨٧.

وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف فى تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر ولا نظام إلا فى الوحدة.

ثالثا: أن يودع الرفقاء أو والأهل، وقد روى زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إذا أراد أحدكم سفرا فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له فى دعائهم البركة».

وكان الرسول ﷺ إذا ودّع مسافرا، قال:

«زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير حيث توجهت».

رابعا: أن يصلى قبل سفره صلاة الاستخارة، ووقت الخروج يصلى صلاة السفر ويدعو دعاءه.

خامسا: أن يرحل عن المنزل بكرة، ويفضل أن يخرج يوم الخميس، وكان الرسول يدعو للسفر فى البكور ويفضل يوم الخميس، وسوف نرى أن معظم الرحالة حرص على أن يبدأ رحلته يوم الخميس.

سادسًا: أن لا ينـزل حتى يحمى النهار فهى السنة، ويكون أكثر سيره بالليل قال ﷺ:

«عليكم بالدُلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار».

سابعًا: أن يحتاط بالنهار فلا يمشى منفردًا، خارج القافلة، لأنه ربما يغتال أو ينقطع، ويكون بالليل متحفظا عند النوم، والمستحب بالليل أن يتناوب الرفقاء فى الحراسة، وإذا قصده عدو أو سبع فى ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسى وسورة الإخلاص والمعوذتين.

ثامنًا: أن يرفق بالدابة إن كان راكبا فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضربها فى وجهها فإنه منهى عنه، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم، وتتأذى به الدابة، قال ﷺ:

«لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى».

وفى النزول ساعة صدقتان إحداهما ترويح الدابة، والثانية إدخال السرور على قلب المكارى، فضلا عن رياضة البدن والتخلص من خدر الأعضاء بطول الركوب.

تاسعًا: فى آداب الرجوع من السفر أن يحمل المرء لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنة، وهو دلالة على التفات القلب إلى ذكرهم وهو فى السفر.

وقد شجع الإسلام السفر ورخص فيه أداء الفرائض، ويسر للمسافر شئون دينه، فأباح التيمم بدلا من الوضوء إذا تعذر الماء ورخص القصر، فيصلى المسافر فى الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلا من أربعة، كما أباح الجمع بين الظهر والعصر فى وقتيهما، والمغرب والعشاء فى وقتيهما كما رخص الفطر للصائم المسافر.

ينصح العلماء المسافر بأن يتعلم كيف يتعرف القبلة، ويطمئن إلى أدلتها، وسموه علم القبلة والمواقيت، وهو مطلوب للمسافر، ولا حاجة للمقيم فى بلد إليه، إذ إن هناك محراباً متفقاً عليه يغنيه عن طالب القبلة، ومؤذناً يراعى الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت، والمسافر قد تشتبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت، فلابد له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت.

أما أدلة القبلة فهى ثلاثة أقسام[1]:

١- أرضية، كالاستدلال بالجبال، والقرى، والأنهار.

٢- هوائية كالاستدلال بالرياح، شمالها وجنوبها، وصباها ودبورها.

٣- سماوية وهى النجوم.

فأما الأرضية والهوائية، فتختلف باختلاف البلاد، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل أو شماله أو وراءه أو قدامه فليعلم ذلك وليفهمه،

---

(١) المرجع السابق جـ٦ ص١٢٦، ١٢٧.

وكذلك الرياح قد تدل فى بعض البلاد فليفهم ذلك، ولكل بلد وإقليم حكمه.

وأما السماوية فتنقسم إلى نهارية وليلية، أما النهارية فالشمس، ولابد أن يراعى المسافر قبل الخروج من البلد أن تقع الشمس منه عند الزوال، وما دام قد عرف موقع الزوال منه أمكن معرفة اتجاه القبلة، ويراعى موقع الشمس وقت العصر وتعرف القبلة فى المغرب بغروب الشمس، وفى الصبح بشروقها، ويمضى علم القبلة والمواقيت أبعد من هذا ليتحدث عن الكواكب والنجوم ومواضعها ودلالات ذلك.

وقد قيل إن من خرج دون تعلم ذلك فقد عصى، ما لم يكن طريقه على قرى متصلة، أو كان معه فى الطريق عالم بأدلة القبلة والمواقيت.

ولسنا بحاجة إلى تأكيد أن هذه التوجيهات كانت إحدى دعائم الرحلة والمعينة على فلاحها، بل والتشجيع عليها، فقد يخشى الراغب فى السفر على دينه إذا قصر أو ضل، لكنه يجد فى هذه الفتاوى والإرشادات دعوة وتحريضا على السفر، مع لزوم العلم بما يقتضيه ذلك.

عندما أمر الله الناس بالحج، لم تكن حكمته عز وجل تستهدف فقط قدوم الحجيج إلى بيته الكريم والاجتماع حوله وتبادل العلم والمنافع وطلب المغفرة، ولكنه كان أيضا يضم فى فيض علمه الواسع ورحمته التى شملت السماوات والأرضين، سرا من أسرار الحضارة والتقدم والخير للبشرية جمعاء.

فالأمر كان واجب التنفيذ طاعة للخالق العليم وابتغاءً لمرضاته، وأملا فى العفو، ولكن الطريق شاق والسفر طويل والزاد قليل، والليل مخوف والنهار ملك الشمس والريح، والمسافر بين الحر والقر يقطع المسافات على أرض وعرة، والأحوال عامة بين ظلم الحكام وضيق اليد وجفاف العيش.

لذلك كان لابد أن يعاد صياغة المنظومة الحياتية، التى ينضوى تحت ظلالها المسلمون فى كل مكان.. فاستنت القوانين والشرائع، وفتحت البلاد وتولى أمرها أئمة الإسلام وحكامها العدول، الذين لا يخشون فى الحق لومة لائم، وجمعوا الخراج من كل البقاع وأسسوا بيوت المال للإنفاق على المملكة بالقسط، واضعين نصب أعينهم لقاء الله ورسوله، طامعين فى كرم اللطيف الخبير، متذكرين على الدوام وقوفهم بين يديه، وسؤاله لهم عما فعلوا بما استخلفوا فيه.

وتوجهت العناية فيما توجهت إلى الطرق، وسبل السير المختلفة فى السهول والقفار والأنهار وفوق الجبال، وكانت تعانى من ثلاث مشكلات رئيسية:

أولا: ندرة الطرق المعبدة التى تصل بين الجهات المختلفة، والموجود منها يفتقر إلى العلامات الدالة، وقد تدهمه الرياح وتحمل عليه من الرمال ما يمحوه فى ساعة.

ثانيا: انعدام الخدمات تقريبا على هذه الطرق، فلا مخافر ولا حراسات، ولاخزانات للمياه أو محطات للراحة ولا توجد - إلا فيما ندر - إشارات إلى الآبار.

ثالثًا: هجوم اللصوص وقطاع الطرق بشكل دائم ويشمل تقريبا كافة المناطق، ولم ينج من قبضتهم القاسية حتى الحجيج، الذين كانوا يوسعونهم نهبا وقتلا، ولا يردهم عن ذلك إحساس أو خشية من عقاب.

لذلك كتب الخلفاء الراشدون ومن تلاهم من خلفاء الدولة الأموية للولاة والعمال فى كل أقطار المملكة الإسلامية بتعبيد الطرق وخدمتها وتوفير الحراسات والرباطات، فتحددت المخافر، وتوالت الحركة المنتظمة، التى تجد الأمن فى كل مكان.

لقد كان عمال البريد على وجه الخصوص هم مرآة هذه الطرق، وتقاريرهم المكتوبة أو الشفهية هى التى تعكس صورة الأمان فيها، وقد كان بين المغرب والمشرق تبادل دولى فى البريد، فكان بريد الترك يصل إلى يوشجان الأعلى، وهو حد الصين، وكان بريد آسيا الصغرى يواصل الرحلة إلى القسطنطينية، وكان لهذا البريد سكة كل ثلاثة أميال.

أما أهم طرق البريد، فكانت كالتالى:

١- من بغداد يتجه شرقا إلى الموصل، ومدينة بلد بحذاء دجلة، ثم يخترق ما بين النهرين إلى سنجار ونصيبين ورأس عين والرقة ومنبج وحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة وغفار والقاهرة والإسكندرية، ومن ثم إلى قيرين[(١)].

٢- من بغداد يتجه غربا إلى الشام مع الضفة الغربية للفرات مارا بالأنبار، وكان يعبر إلى الضفة الغربية للفرات عند هيت، وكانت حركة المرور فى هذا الطريق عظيمة.

أما الطريق بين دمشق وبين مدينة دير، وهو طريق كان له شأن عظيم فى الزمن القديم، ولايزال مطروقا إلى اليوم على قلة، وكانت تقوم على طوله أماكن للحراسة، فلا نجد لأصحاب كتب المسالك كلاما عنه، ولم يشر إليه المقدسى، مع أنه وصف مسالك صحراء الشام وصفا دقيقا مسهبا. ولم يكن يوجد فى ذلك الزمان بريد الجمال بين بغداد ودمشق، وكان الطريق الذى يسلكه هذا البريد وهو طريق هيت - دمشق يعتبر أقصر طريق بين بغداد والشام، وكان بعض المسافرين يجتازونه على ظهور الدواب، وكان عامل هيت عند ذلك يبعث مع المسافرين خفارة من البدو(٢).

٣- أما الطريق الرئيسى إلى المشرق فكان يسير خلف بغداد، ويعبر قنطرة النهروان، ثم يسير وراء حلوان، فى صعود وهبوط، فيما كان يعرف قديما بميديا، ثم يرتقى عقبة مشهورة، فيها قوم يبيعون التمر والجبن، ويواصل الصعود وراء أسعد آباد، حتى يبلغ همذان(٣)، وهذا الطريق مبين على الخرائط القديمة، وهو الطريق الذى كانت تسلكه ملوك فارس عند انتقالها من مشتاها فى العراق إلى مصطافها فى اكبتانا المرتفعة، ثم يستمر الطريق إلى الرى «على مقربة من طهران الحالية» ونيسابور ومرو فبخارى وسمرقند، وكان الطريق يسير بعد سمرقند إلى الصين، إذ نجد المقدسى يذكر أنه كان بهذه المدينة باب يسمى باب الصين(٤).

أما اجتياز هذا الإقليم الواقع بين الترك والصين، فكان يتوقف على ما يكون فيه من الأمن، فطوال عصر صدر الإسلام وأثناء القرن الرابع من الهجرة، كان الناس لا يميلون إلى اتخاذ أقصر الطرق التى تخترق هذا الإقليم، وهو الطريق الذى يجتاز فرغانة وحوض التاريم، وكان أهل الصين يؤثرونه فى القرن الثامن الميلادى، وسار فيه فيما بعد الرحالة الكبير ماركو بولو - فلا نجد له ذكرا عند المؤلفين. على أن المسافرين من أوزكند فى فرغانة العليا لم يكونوا يجتازون ممرات علايا، بل كانوا يسيرون فى ممر أطباس بين قرى متصلة متقاربة، سالكين طريقا صعبا، إذا وقعت الثلوج لم يُسلك مسيرة يوم»، ومن ثم يواصلون السير

إلى برشان الواقعة إلى الجنوب الغربى من بحيرة يسك، وهنا يتصل هذا الطريق بالطريق الواصل من سمرقند إلى الصين[٥].

وقد سلك هذا الطريق حوالى عام ٦٣٠م الرحالة الصينى سوين تسانج Hsuen - Tsang، وذلك بأن سار من كوشا مارا ببلوكيا «ولعلها التى ذكرت فى كتاب الجردوزى باسم بتشول، وربما كانت مدينة أكسو الحالية» إلى بحيرة يسك، بل نجد فى عصرنا هذا أن الطريق الرئيسى الذى يصل أواسط حوض التاريم بطشقند يمر بأكسو وممر بدل وقرقول وبشجك وأولى عطا[٦].

ومن أسف أننا لا نعرف الطريق الذى سلكه سلام الترجمان فى القرن الثالث الهجرى، لما بعثه الخليفة لكشف سد يأجوج ومأجوج، ولا الطريق الذى سلكه أبو دلف فى القرن الرابع، حينما ذهب مع الوفد الذى أرسل إلى الصين أيام المخاطبات بين السامانيين وملك الصين. على أن المسعودى يقول إنه لقى كثيرين ممن رحلوا إلى الصين، وعرف منهم أن الطريق من خراسان إلى بلاد الصين يمر ببلاد الصغد، وأنه يمر بالجبال التى يؤخذ منها النوشادر. ولم يوصف هذا الطريق إلا بعد ذلك بمائتى عام، وكان الإدريسى أول جغرافى عربى وصف الطريق، الذى يسير من فرغانة إلى حوض التاريم ماراً بهضبة البامير، حوالى عام ٥٥٠هـ - ١١٥٥م، وربما كان لهذا علاقة بما حدث فى ختام القرن الرابع الهجرى من فتح أمراء البُغَرا لغربى بلاد ما وراء النهر، ونقلهم قصبتهم إلى كشغر فى تركستان الشرقية، مما أدى إلى عودة الطريق إلى ناحية ممرات البامير.

وينحرف طريق البريد عند مرو ماراً بوسط إقليم خراسان، ولا يقصد رأسا إلى بلخ، بل يدور دورة عظيمة قدرها ثلاثمائة كيلو متر حول نهر مرو، حتى يصل إلى طالقان، وبعد بلخ يعبر نهر جيحون على مقربة من ترمذ، ثم يفضى إلى فرغانى عند الراشت[٧].

أما الطريق الذى يقطع إيران عرضا من شيراز إلى نيسابور ماراً بيزد، فقد لاحظه ابن خرداذبة، وأشار إليه فى كتابه (ص ٥٠)، ولكننا لا نجد له ذكراً عند

ابن رسته ولا عند قدامة، وربما كان سبب ذلك القلاقل التى كانت تسود شرقى فارس، والتى دفعت شر اللصوص فى الصحراء الواقعة بين يزد وطبس.

وكان عضد الدولة «المتوفى عام ٣٧٢هـ - ٩٨٢م» أول من أقر الأمن فى هذه الربوع، ودرج حكام فارس من بعده على أخذ رهائن من هؤلاء اللصوص، واستبدال غيرها بها بين الحين والحين، لتستطيع القوافل المسافرة فى حراسة الحكومة اجتياز هذا الإقليم آمنة. وحوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ابتنى عضد الدولة مخفرا، معه خزان للماء العذب، وقد وصفه المقدسى بقوله:

«ورباط آب شُتُران هو معدن الخوف، ومأوى الكوج، به قناة عذيبية، تصب إلى بركة، والرباط حسن، ما رأيت أحسن منه ببلدان الأعاجم، من الحجارة والجص، على عمل حصون الشام، وعليه أبواب حديد، وهو شديد العمارة، وفيه قوم يحفظونه، بناه ابن سيمجور صاحب جيش ملك العمارة، وفيه قوم يحفظونه، بناه ابن سيمجور صاحب جيش ملك المشرق(٨)».

ولكن إنشاء هذا المخفر لم يؤمن الطريق، فالمقدسى نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يزد فقطع هذه المسافة فى سبعين يوما، مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخا بتقدير ابن خرداذبة، وذلك لأن قافلته ضلت سبيلها، ولأن الطريق كان - على قوله - خوفا من قوم.

«يقال لهم القفص، يسيرون إليه من جبال كرمان، قوم لا خلاق لهم: وجوه وحشية، وقلوب قاسية، وبأس وجلادة، لايبقون على أحد، ولا يقنعون بالمال، حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار، كما تقتل الحيات، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة، حتى يتصدع(٩)».

أما طريق الحج من بغداد فكان يعبر الفرات عند الكوفة، ويفضى إلى الصحراء عند العُذَيب(١٠). وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها فى موسم الحج من جميع أنحاء الدولة الإسلامية، ولم تكن فريضة الحج وحدها هى التى تجذب هذه الجماعات، بل كان يغريها أمان الطريق أيضا فى حماية قوافل الحج الكثيرة التى كانت تنهال إلى هناك من شتى النواحى. فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة ٣٣١

هـ - ٩٤٣م إلى الشام ومصر، لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السلطان.

وكان أكثر طرق المغرب خلال القرن الثالث الهجرى يتجه نحو القيروان، وفى ذلك الحين كانت دولة بنى الأغلب الأقوياء قد أقرت الأمن، ومنحت الطرق جانباً من عنايتها، فكان على طول الساحل محارس ومخافر، وكان السفر مأموناً.

وكان يخرج من مصر السفلى طريقان عظيمان إلى المغرب: أحدهما يسير بحذاء الساحل، كما كان الحالى فى الزمن القديم، والآخر يسير جنوبا. وكان البريد الطريق الثانى أول الأمر «**وكان يسمى طريق السكة**»[11]، ثم عُدل عنه بعد ذلك إلى طرابلس، ومنها كان يقصد إلى القيروان رأسا، وبعدها يسير بحذاء الساحل، وكانت الأميال معلمة، وطول المسافة من القيروان إلى السوس الأدنى على المحيط الأطلسى ألفان ومائة وخمسون ميلا. وكان هذا هو الطريق الرئيسى الذى يصل الأندلس بالمشرق[12]. وكان هناك طريق آخر جنوبى يمر بالواحات الداخلية والكفرة، ويتجه إلى السودان الغربى متجها إلى غابة أودغشت، فعُدل عنه فى القرن الرابع إلى طريق سجلماسة، لتواتر الرياح، وترادف عدوان اللصوص على القوافل[13].

وكان البريد مخصصا لأعمال الحكومة، وكان يجرى لبنى العباس[14]، ولم يكن يحمل الناس إلا فى حالة الضرورة القصوى، نظرا لما فى ذلك من المتاعب، كالذى رواه البيهقى من أن «**صاحب بريد حضر من قبل الخليفة إلى المازنى، فحمله على دابة من دواب البريد، حتى وافى به باب الواثق**»، وكانت تُحمل فيه إلى جانب الرسائل أشياء تُبعث للسلطان، مما يحتاج إلى سرعة الإيصال، فمن ذلك أن البريد كان يحمل إلى المأمون ثمارا غضة من كابل أثناء ولايته على خراسان، وأيضاً ما يحكيه ابن طيفور من أنه كان «**يُرسل لأمير المؤمنين مع البريد رطبًا وألطافًا، كأنما جُنيت من ساعتها**». وحينما فتح جوهر مراكش

للخليفة الفاطمى وبلغ المحيط الأطلسى، أرسل إليه من هناك سمكا فى زجاجة، ليقيم له الدليل على وصول ملكه إلى البحر المحيط(١٥).

وكانت تنظم أثناء الحروب بُرد حربية لشئون الحكومة، فمن ذلك أنه لما استطال صاحب القيروان على أرض مصر، أنهض المقتدر مؤنسا الخادم، وندب معه العساكر لمحاربة صاحب القيروان عام ٣٠٢هـ - ٩١٤م. وتقدم على ابن عيسى بترتيب الجمازات من مصر إلى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم.

وكذلك كان معز الدولة هو الذى أحدث أمر السعاة وأعطاهم الجرايات الكثيرة، لأنه أراد أن يبلغ أخباره لأخيه ركن الدولة(١٦)، وقد تهافت شبان بغداد على هذه الحرفة الجديدة، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان معز الدولة لتدريبهم على ذلك. وقد امتاز من هؤلاء السعاة اثنان، كان كل منهما يقطع ما يزيد عن الأربعين فرسخا «**حوالى ١٨٠ كيلو مترا**» من مشرق الشمس إلى مغربها، وكانا أثيرين عند عامة الناس، وقد أورد المؤرخون ذكرهما، وهما: فضل ومرعوش، وكان أحدهما ساعى السنة والثانى ساعى الشيعة.

وكان يقام حصن عند كل فرخس من الطريق. والراجح أن الحكام فى ذلك العصر عدلوا عن استعمال الخيل فى البريد إلى اتخاذ الجمازات(١٧)، فمثلا نجد ابن العميد لما أراد اللحاق بأميره فى فارس عام ٣٦٤هـ - ٩٧٥م بغاية السرعة، اتخذ الجمازات.

وكان يوجد إلى جانب ذلك فى بعض النواحى بُرد خاصة، فى المسافات القصيرة، وهى عبارة عن جماعات منظمة من السعاة. وقد اشتهر فى القرن الخامس الميلادى جماعة من حملة الخطابات بالسرعة، وهم المسمون سيماكوى فى مصر السفلى، وكانوا لايزالون موجودين فى القرن الثامن الميلادى بدليل ما نجده فى إحدى ورقات رينر البردية. ويحدثنا فانسلب Wansleb أحد المؤلفين المحدثين فيقول: «**من أراد أن يكون ساعيا فى الإسكندرية فلابد أن يحمل شعلة فى سلة على هيئة موقد مثبت فى عمود، طوله قامة رجل، وله حلقات من حديد،**

وأن يقطع المسافة التى بين الإسكندرية ورشيد وطولها سبعة وعشرون ميلا، ويعود فى يومه، قبل مغيب الشمس»(١٨).

وكانت الحكومات بالجملة لا تتعرض للأفراد المسافرين، ومن الثابت أنه لم يكن بالمشرق فى القرن الثانى الهجرى على أبواب المدن من يسجل أسماء من يدخل أبوابها، وقد تكلم أحد الرحالة العرب فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى عن جوازات المرور عند الصينيين بشىء من التعجب، كأنها عنده أمر غريب.

أما فى مصر، فقد كان فيها منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية التى يقيم فيها إلى ناحية أخرى دون إذن أولى الأمر، ويقال إن عامل مصر أصدر أمره عام ١٠٠هـ - ٧٢٠م بأن يقبض على من وجد مسافرا أو متنقلا من مكان إلى مكان من غير سجل، وإذا وجد صاعدا أو نازلا من مركب أوقعت الحوطة على المركب وحرق بما فيه، ولدينا طائفة من هذه السجلات أو الجوازات، وجدت ضمن ما عثر عليه من أوراق البردى. ويؤخذ من رواية لابن سعيد أنه كان لابد من جواز للخروج من مصر، ولابد أن يدرج فى هذا الجواز كل من يرافقون المسافر، ولو كانوا عبيده(١٩). أما فى المشرق فكان الأمر على خلاف ذلك، حتى نجد المقدسى يستنكر ما حدث فى أيام عضد الدولة من أنه كان لا يدخل أحد مدينة شيراز أو يخرج منها إلا من كان يحمل جوازا(٢٠).

الهوامش

(١) الخراج لقدامة ص٢٢٧ وما يليها.
(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخى جـ٢ ص٧٦.
(٣) ابن رسته ص١٦٧.
(٤) المقدسى ص٢٧٨.
(٥) ابن خرداذبة ص٢٨.
(٦) الحضارة الإسلامية جـ٢ ميتز ص٤١٥.
(٧) كتاب البلدان لليعقوبى ص٢٨٧، وكتاب الخراج ص٢٠٩ وما يليها.
(٨) المقدسى ص٤٨٨.
(٩) الخراج لقدامة ص١٨٦.
(١٠) النجوم الزاهرة جـ١ ص١٧٤.
(١١) كتاب الخراج ص٢٢٢.
(١٢) ابن خرداذبة ص٨٩.
(١٣) ابن حوقل ص٤٢.
(١٤) المسعودى جـ ص٢٦٣.
(١٥) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص٤٢٩.
(١٦) الحضارة الإسلامية ص٤٢٠.
(١٧) نوع من الجمال.
(١٨) الحضارة الإسلامية ص٤٢٠.
(١٩) المغرب لابن سعيد ص٥٣.
(٢٠) المقدسى ص٤٢٩.

قضت الظروف الجغرافية بأن تتوزع الملاحة البحرية في مملكة الإسلام في بحرين منفصلين تماما، وهما: البحر الأبيض، والمحيط الهندي، لأن برزخ السويس كان حائلا دون اتصال هذين البحرين، فكان من يريد أن يصل من البحر الأبيض إلي الهند أو شرق آسيا مضطرا إلي حمل بضائعه علي الظهر عند الفرما[1]، ثم يسير في الصحراء سبع مراحل حتي يصل إلى القلزم «Klysma اليونانية»، وهناك يستطيع حملها في المراكب مرة أخرى.

وكان نوع السفن التي تستعمل في أحد البحرين يختلف عنه في الآخر، فكانت مراكب البحر الأبيض ذات مسامير، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي فكانت تُخاط بحبال الليف[2]، وكانت هذه هي الطريقة القديمة في إنشاء السفن عند جميع الأمم. ويذكر ابن جبير في القرن السادس الهجري طريقة إنشاء السفن علي هذا النحو، فيقول إن مراكب البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار البتة «**إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل، يدرسونه حتي يتخيط، ويفتلون منه أمراسا، يخيطون بها المراكب، ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فإذا فرغوا من إنشاء المركب علي هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش، وهو أحسنها، وهذا القرش حوت عظيم في البحر**»[3].

أما في القرن السابع الهجري «الثالث عشر الميلادي»، فيصف الرحالة ماركو بولو المراكب، التي كانت تستعمل في هرمز بأنها كانت من أسوء صنف ومعرضة من يركبها للمهالك، وذلك راجع إلى أنه لا يستطاع استعمال المسامير فى بنائها،

وإنما كانت تثقب الألواح قرب أطرافها بأقصى مايمكن من العناية بمثقاب من الحديد، ثم توضع فى الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها بعضًا، فإذا تم ذلك حزمت أو على الأصح خيطت بعضها ببعض بنوع من الليف يصنع من قشر جوز النارجيل، ولا يطلى المركب بعد ذلك بالقار، بل بزيت يتخذ من دهن الحوت[٤].

وهذا الخلاف فى طريقة بناء المراكب راجع إلى تقاليد صناعة السفن عند كل فريق، إلا أن المؤلفين عللوه بأسباب مرجعها إلى المنفعة، كما هى العادة، فذهب ماركو بولو إلى أن «الخشب الذى كانت تصنع منه هذه السفن من صنف شديد الصلابة عرضة للتصدع والتكسر كالفخار، فإذا حاول الصناع أن يدقوا فيه مسمارًا انشرخ، وكثيرًا ما يتصدع». أما ابن جبير فيرى أن مقصدهم من دهان الجلبة هو أن «**يلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى**»[٥]. أما المسعودى فيعلل عدم استعمال المسامير فى بناء هذه السفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر[٦]. وقال آخرون إن السبب هو خوف الملاحين من جبال المغناطيس «**وهى جبال كثيرة قد علا الماء عليها، فلهذا لا تستعمل المسامير فى هذا البحر خوفًا من جذب جبال المغناطيس لها**».

وكانت البندقية فى القرن الرابع الهجرى تمد العرب بالخشب لبناء السفن؛ مما جعل الإمبراطور البيزنطى يحتج لدى الدوق، فأمر الدوق بإيقاف بيع الخشب للعرب، ولم يسمح إلا بإمدادهم بالخشب الذى لا يصلح لإنشاء السفن، ولهذا شرط أن يكون من اللبخ والسنديان، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم، وأذن أيضًا بأن تباع لهم الأدوات المصنوعة من الخشب. وقد شح خشب السفن فى مصر إثر ذلك.

وقد دهش ابن حوقل، مع تدويخه البلدان طوافًا، من مهارة الملاحين الذين رآهم فى تنيس بمصر السفلى، إذ كانت بحيرة تنيس «**قليلة العمق، يسار فى**

أكثرها بالمدارى، وتلتقى السفينتان، تحك إحداهما الأخرى، هذه مصعدة، وهذه نازلة بريح واحدة، مملاة شرعها بالريح، ومتساوية فى سرعة السير»[٧].

وحكى رجل من العرب فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أنه كان فى مراكب البحر الهندى عادة أربعة من الغواصين، فإذا نفذ الماء إلى المركب، وعلا فيه، عمدوا إلى أجسامهم، فطلوها بزيت السمسم، وإلى أنوفهم فسدوها بالشمع، ثم أخذوا يسبحون حول المركب فى مسيره، ويسدون ثقوبه بالشمع، وهم يستطيعون أن يسدوا عشرين إلى ثلاثين ثقبًا فى اليوم[٨].

ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض خلال القرن العاشر الميلادى، فقد كان بحرًا عربيًا، وكان لابد لمن يريد أن يقضى لنفسه فيه أمرًا من أن يخطب ود العرب، كما فعلت نابولى وغيته وآمالفى. ويظهر أن الملاحة الأوروبية نفسها كانت فى ذلك العصر على حال يُرثى لها من الضعف، ففى سنة ٩٣٥م استطاعت مراكب عبيد الله المهدى الفاطمى أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه، وأن تنهبهما، وأن تفعل مثل هذا بمدينة بيزا فى عامى ١٠١١-١٠١٤م.

على أن أسطول الفاطميين فى شمالى إفريقية كان فى ذلك الحين أقل كفاية من أسطول الشام بصورة بينة، ففى عام ٣٠١هـ - ٩١٣م، استطاعت خمس وعشرون من مراكب الشام أن تهزم ثمانين من مراكب الفاطميين هزيمة كاملة. وكانت مراكب العرب تقطع البحر الأبيض عرضا فى ستة وثلاثين يوما من مبدئه فى الغرب إلى آخره حيث أنطاكية.

ويذكر اليعقوبى فى أواخر القرن الثالث الهجرى أن ميناء طرابلس الشام **«عجيب يحتمل ألف مركب»**[٩].

وكانت مدينة صور هى الميناء الحربى الإسلامى المواجه لبيزنطة، إذ كان «بها دار الصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم، وكانت حصينة جليلة»[١٠].

ولكن زحف البيزنطيين فى القرن الرابع الهجرى على بلاد الإسلام غير هذه

الأحوال كلها فى الشام، وكان النصف الشرقى من ساحل إفريقية الشمالى أقل ملاءمة للملاحة من النصف الغربى، ولهذا لا تذكر كتب تلك الأيام أى ميناء طبيعى بين الإسكندرية وخليج تونس غير طرابلس، وحتى طرابلس هذه لم يكن عمق الماء عندها كافيًا لحمل مراكب ذلك العصر، مع أنها لم تكن تحتاج إلا لعمق قليل، فكانت المراكب إذا وصلتها **«عرضت لها دائمًا الرياح البحرية، فيشتد الموج لانكشاف المرسى بها، ويصعب الإرساء، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين، فيقيد المرسى ويرسى منه فى أسرع وقت بغير كلفة لأحد»**. وسوف نطالع فى الفصول التالية عددًا من الحوادث فى هذه المنطقة لابن جبير وأبو بكر العربى وابن سعيد.

وكانت تونس تلى طرابلس فى الأهمية، وكانت ميناء للقيروان على مقربة من موقع قرطاجنة، التى كانت سيدة البحر قديمًا.

وكان البحر الأحمر مخوفًا لما فيه من شعاب بارزة ورياح معاكسة، ولهذا كانت الملاحة فيه بالنهار فقط، **«فأما بالليل فلا يسلك»**[١١]. وكان نظام هبوب الرياح فيه يجعل الملاحة من الشمال إلى الجنوب فقط فى فصل من السنة، ومن الجنوب إلى الشمال فى الفصل الآخر، ولهذا احتفظ نهر النيل الذى يسير فيه موازيا لهذا البحر بأهميته الكبيرة باعتباره طريقًا من طرق الملاحة النهرية.

وكانت عيذاب هى نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النهر، وكان ميناؤها عميقًا غزير الماء مأمونًا من الشعاب النابتة، فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار بطريق البحر، ثم تحمل على الإبل فى الصحراء مسيرة عشرين يومًا إلى أسوان أو قوص، ومن هناك تنقل إلى القاهرة فى النيل[١٢]. وقد بلغت عيذاب فى نهاية القرن الخامس الهجرى درجة عظيمة من الازدهار، وأصبحت إحدى الموانى التى تختلف إليها المراكب من جميع البلاد، ولا يعرف السبب الذى كان يجعل تجارة شمال إفريقية إلى المشرق تمر بها، وكان حجاج مصر يسيرون عن طريق عيذاب بين سنتى ٤٥٠-٦٦٠هـ (١٩٥٨-١٢٥٨م)، ولم

تأخذ عدن شأن عيذاب إلا منذ عام ٨٢٣هـ - ١٤٣٠م، وكان يؤخذ من كل حاج ثمانية دنانير[١٣].

وقد تحدث ابن جبير عنها فى عام ٥٧٩هـ-١١٨٣م، فقال إنها «**من أحفل مراسى الدنيا، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائدًا على مراكب الحجاج الصادرة والواردة**»، ثم قال بعد ذلك إن أكثر ما شاهده فى عيذاب من سلع الهند أحمال الفلفل[١٤].

وقال المسعودى فى عام ٣٣٢هـ-٩٤٣م: «**وقد ركبت عدة من البحار، كبحر الصين والروم والقلزم واليمن، وأصابنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أجد أهول من بحر الزنج**»، وكان قد ركب البحر سنة ٣٠٤هـ-٩١٦م من زنجبار (قنبلو) إلى عمان، وذلك فى مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافى، وفى ذلك البحر غرقا، فيما بعد، بمركبهما وجميع من كان معهما[١٥]. وكان ملوك زنجبار فى تلك الأيام مسلمين[١٦]، وكان أقصى ما تصل إليه مراكب المسلمين فى أسافل بحر الزنج إقليم سفالة (موزمبيق)، «**وهى أقاصى بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين**».

ويعتبر البحريون الإسلاميون عدنًا مبدأ «البحر الفارسى» ويقولون إن هذا البحر يحيط ببلاد العرب حتى يصل إلى خليج فارس، وينتهى على مقربة من المكان الذى تبتدئ عنده بلوخستان، أما ما بعد ذلك فكانوا يعتبرونه من المحيط الهندى. وكانت الملاحة ميسورة فى هذين البحرين فى موسمين، فإذا هدأ أحدهما هاج الآخر، وانقلب، «**وأول ما يبدأ هياج بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفى، إلى أن تصير الشمس فى الحوت، وأشد ما يكون صعوبة فى آخر زمان الخريف، عندما تكون الشمس فى القوس، وأشد ما يكون البحر الهندى عند الاستواء الربيعى... وبحر فارس قد يركب فى كل أوقات السنة، فأما بحر الهند فلا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه**»[١٧].

ولهذا كان البحر الأول مجالاً كبيرًا لمتلصصة البحر، وكان للساحل العربى خاصة أسوأ سمعة بسبب هؤلاء القرصان. وحوالى عام ٣٠٠هـ-٩١٢م قام أهل البصرة بحملة على القرصان فى بلاد البحرين، ولكنهم أخفقوا. أما فى القرن الرابع فلم يكن الناس يجرأون على ركوب البحر الأحمر من غير «**مقاتلة ونفاطين**»[١٨]، وكانت جزيرة سقطرى بنوع خاص عشا خطرا للقرصان، وكانت المراكب، إذا مرت بها، لاتزال فى هلع، حتى تتجاوزها، وكانت تأوى إليها بوارج قرصان الهند، ليقطعوا الطريق على المسلمين[١٩]، ولم تكن هذه القرصنة تعتبر عملا شائنا أو أمرا غريبا، ولم ينشئ العرب للقرصان لفظا خاصا، والأصطخرى مثلا يسميهم باسم لين فيقول: «**متلصصة البحر**» (ص٣٣).

وكانت عدن وسيراف وعمان أكبر مرافئ المملكة الإسلامية على المحيط الهندى، ويلى ذلك فى الأهمية البصـرة وديبل (على مصب نهـر السنـد) وهرمـز.

وكانت عدن المركز التجارى الكبير بين إفريقية وبلاد العرب، ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر، فيسميها المقدسى مثلا «دهليز الصين»[٢٠]، ويحدثنا أنه سمع أن من الناس من دخلها بألف درهم، فرجع بألف دينار، ومنهم من دخلها بمائة، فرجع بخمسمائة، ومنهم من دخلها بكندر، فرجع بمثل مادخل به كافورًا[٢١].

وكانت سيراف هى الفرضة التى تمر بها صادرات فارس ووارداتها[٢٢]، وكانت على الخليج الفارسى، تقصدها المراكب من جميع البلاد، وكانت فرضة لبضائع الصين خاصة، كما كانت بضائع اليمن المرسلة إلى الصين تحمل على المراكب بسيراف. وكان أهل سيراف أغنى تجار فارس كلها، وخير شاهد على ذلك ما كان لهم من مساكن عالية، ذات طبقات عديدة مبنية من خشب الساج الغالى الثمن، ويحكى الأصطخرى عن أحد أصحابه أنه أنفق فى بناء داره ثلاثين ألف دينار، وكانت ملابس تجارها، مع هذا الغنى، بسيطة إلى درجة تبعث على العجب،

ويقول الأصطخرى إن الإنسان ليجد فيهم من يملك الأربعة آلاف دينار، وتراه مع هذا لا يتميز فى لباسه عن أجيره[٢٣].

وكان لأهل سيراف متاجر يملكونها فى البصرة أيضاً، ويقول ابن حوقل إنه لقى رجلا منهم يملك ثلاثة آلاف ألف دينار، ويقول إنه لم يسمع أحدا من التجار ملك هذا المقدار ولاتصرف فيه، لأن ذلك كالخرافات، يستوحش من حكاها منها[٢٤]. وكان كثير من أهل سيراف يقضون حياتهم كلها فى البحر، فمن ذلك ما رواه الأصطخرى من أن رجلا منهم ألف البحر، حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحوًا من أربعين سنة، وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه فى كل مدينة، وكان إذا انكسرت السفينة التى هو فيها وتشعثت تحول عنها إلى أخرى[٢٥].

وتقع البصرة على نهر شط العرب، وبينها وبين البحر مرحلتان[٢٦]،وكان هناك تجاه مصب النهر جزيرة صغيرة، فيها مدينة صغيرة ذات حصن صغير، وهى مدينة عبادان، وكان فيها رباطات وعباد صالحون، وأكثر أهلها يصنعون الحصر من الحلفاء، غير أن الماء بها ضيق والبحر عليها مطبق[٢٧]. وكان الناس يقصدونها للإقامة بها متعبدين ومكفرين عن ذنوبهم، وكانت رسوم المراكب تجبى عندها، وكانت بها حامية لمكافحة القرصان، وكان على نحو ثلاثة أميال منها تجاه البحر موضع يعرف بالخشبات، فيه عمد من الخشب منصوبة فى الماء، قد بنى عليها مرقب يسكنه ناظور، ويوقد المرقب بالليل لتهتدى به السفن، وتستدل به على مدخل دجلة، وكان هذا الموضع مخوفًا، وإذا ضلت فيه السفينة خيف انكسارها لرقة الماء به[٢٨].

وذكر المسعودى فى القرن الرابع الهجرى أنه كان ثم ثلاث خشبات كالكراسى، عليها أناس يوقدون النار بالليل فى جوف البحر، خوفا على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرها أن تقع فى تلك الجزيرة فتعطب، فلا يكون لها خلاص[٢٩]. ويقول ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى إن الخشبات

اثنتان، وهو يفصل فى وصفها، فيقول إنها أعمدة من خشب الساج منصوبة؛ بحيث تؤلف على الأرض قاعدة مربعة واسعة، ثم تضيق فى أعلاها، وهى تعلو سطح البحر بخمسين مترًا، وفى أعلاها حجرة مربعة للناظور[٣٠]. ويدل هذا على رقة الماء عند مدخل نهر شط العرب، وكانت السفن إذا دخلته مس قاعها الأرض، واصطدم بها بضع مرات، فلا غرابة أن يروى المقدسى أنه سمع شيخا يقول إن هذا موضع يسافر فيه أربعون مركبًا، فيرجع واحد[٣١].

العرب والملاحة:

إذا كان من المرجح أن عرب اليمن كانت لهم صلات تجارية بحرية بالهند وبساحل إفريقيا الشرقى من قبل ظهور الإسلام بقرون، إلا أنه من الثابت أن عرب شبه الجزيرة قد انتشروا بسرعة عجيبة فى أرجاء المحيط الهندى عقب ظهور الإسلام مباشرة، سواء للتجارة أو للتبشير بالدين الجديد الذى دخلت فيه الأمم المجاورة أفواجا. ولم يكد القرن الثامن الميلادى ينتهى حتى كانت هناك جاليات إسلامية قوية فى سرنديب (سيلان) وعلى ساحل الزنج (شرقى أفريقيا)، وفى عام ٧٥٨، كانت الجالية العربية ومعهم الفرس المسلمون من القوة فى خانفو (كنتون) بالصين، حتى إنهم كان يخشى بأسهم، وفى مرة هددوا بقيام ثورة هناك.

وفى عصر الأمويين (القرن الثامن الميلادى) امتدت الدولة الإسلامية الكبرى من الأندلس غربا حتى أواسط الصين شرقا. كما امتدت تبعا لذلك خطوط التجارة والملاحة لهذه الدولة العظمى فشملت بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) والبحر الأحمر والمحيط الهندى بأسره وبحر الزنج والخليج الفارسى وأرخبيل الملايو وبحر الصين، بل كانت أغلب تجارة الصين الخارجية فى أيدى العرب تقريبا فى ذلك الوقت.

وفى عصر المأمون (القرن التاسع الميلادى) ترجمت الآثار اليونانية والفارسية والهندية فى الجغرافيا الفلكية والرياضية إلى اللغة العربية، ومنها كتاب «المجسطى»

لبطليموس، وسرعان ما استوعبت عقول العرب المتفتحة وذكاؤهم اللماح هذه المعلومات وزادوا عليها.

كما ظهر أيضا القصص البحرى وأدب المغامرات، ممثلاً فى رحلة التاجر سليمان (٨٥١م) التى زاد عليها أبو زيد حسن السيرافى فيما بعد، وفيها وصف ممتع وشيق لأخبار الملاحين والتجار بين سيراف على الخليج الفارسى والصين، ما تعرضوا له من أهوال فى تلك الرحلات، كما ظهرت أيضا كتب العجائب التى تصف الغريب من حيوان البحر والبر للدمشقى الصوفى، وكل ذلك كان مادة طيبة فيما بعد لمغامرات السندباد البحرى ولقصص ألف ليلة وليلة كما هو معروف.

ويقول المقدسى:

«سرت فى المحيط الهندى نحو ألفى فرسخ، ودرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبادان، سوى ما توهت بنا المراكب إلى جزائره ولجحه، وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشئوا من ربابين وأشاتمة.. ووكلاء وتجار ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره، فسألتهم فيه وعن أسبابه وحدوده، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها، فعلقت من ذلك صدرا صالحا بعد ما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التى ذكرت.

وبينما أنا جالس مع أبى على بن حازم أنظر فى البحر، ونحن بساحل عدن، إذ قال لى: ما لى أراك متفكرا؟ قلت: أيد الله الشيخ، قد حار عقلى فى هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه والشيخ اليوم من أعلم الناس به لأنه إمام التجار ومراكبه أبدا تسافر إلى أقاصيه، فإن رأى أن يصفه لى صفة اعتمد عليها وأرجع من الشك إليها فعل، فقال: على الخبير بها سقطت، ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه لا طيلسان ولا طير، وجعل له معارج متلسنة وشعبا عدة، ثم قال هذه صفة البحر لا صورة له غيرها. وأنا أصوره ساذجا وأدع الشعب والخلجان إلا شعبة ويلة لشهرتها وشدة الحاجة إلى معرفتها وكثرة الأسفار فيها، وأدع ما اختلفوا فيه وارسم ما اتفقوا عليه»(٣٢).

ومعنى مقال المقدسى هذا أن معلومات الربابنة العرب عن المحيط كانت تعتمد على الخبرة العملية لا على نظريات بطليموس القديمة، كما أن خرائطهم كانت واقعية، غير محشوة بصور لا معنى لها مثل الطيلسانات وصور الطير التى كانت تتمثل فى الخارطات الجغرافية منذ عهد بطليموس، بل كان اعتقاد النظريين يتمثل فى أن الأرض على شكل طائر، وظلت صور الحيوانات والطيور ممثلة فى خرائط العصور الوسطى الأوروبية حتى وقت متأخر جدا، ومنها صور آدميين ينفخون الرياح من أفواههم، ويمثلون الجهات الأربع أو الجهات التى تهب منها الرياح(٣٣).

ويلاحظ المسعودى (القرن العاشر الميلادى)(٣٤) ملاحظة المقدسى نفسها بالنسبة لربابنة سيراف وعمان، وكذلك بالنسبة لربابنة البحر الرومى (الأبيض المتوسط) وفقا لما سمعه من ملاحى الشام الذين عرفوا هذا البحر جيدا، والذين يذكر من بينهم اثنين بالذات. يقول المسعودى:

«ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين عن البحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ما ذكرت الفلاسفة وغيرهم مما حكينا عنهم المقادير والمساحة، وأن ذلك لا غاية له فى مواضع منه، وكذلك شاهدت أرباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالة والنواتية وأصحاب الأرجل والروسا، ومن يلى تدبير المراكب والحرب فيها مثل لاوى المكنى بأبى الحارث غلام زرافة، صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق، وذلك بعد الثلاث مابة (٩١٢م) يعظمون طول البحر الرومى وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه. وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص من أرض الشام، ولم يبق فى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة (هجرية) أبصر منه بالبحر الرومى، ولا أسن منه، وليس فيمن يركب من أرباب المراكب من الحربية والعمالة، إلا وهو ينقاد إلى قوله ويقر له بالبصر والحذق، وما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيه».

ويقول كراتشكوفسكى:

«على هذا الأساس، فإن أدب الجغرافيا الملاحية نشأ فى الوقت نفسه، مع أدب القصص والمغامرات البحرية، ولكنه لم يجد طريقه إلى التدوين، ولهذا السبب فلم يصل إلينا».

ومما يؤيد الرأى بأن العرب قد صنعوا خارطات بحرية ممتازة للإرشاد الملاحى أن الأميرال البرتغالى ألفونسو ألبوكيرك Alfonso de Albuquerque أرفق فى تقرير له لملك البرتغال عام ١٥١٢م خارطة بحرية كبيرة لملاح من جاوة، موضح عليها رأس الرجاء الصالح والبرتغال والبحر الأحمر والخليج الفارسى وجزائر الملوك ومسالك ملاحية إلى الصين وجزيرة (فرموزا). كما أن فاسكو دى جاما نفسه يقرر أنه وجد الملاحين العرب على الساحل الإفريقى يستخدمون (البوصلة)، وآلات دقيقة ملاحية وخارطات بحرية[٣٥].

وأدخل العرب أيضًا تعديلات قيمة على آلات الملاحة والرصد منذ عرفوا الملاحة فى عرض المحيط. ومن هذه الآلات الأسطرلاب، وهى آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم، ولم يصنع منه أحسن مما صنع العرب بشهادة أوروبا نفسها. وفى متحف باريس أسطرلاب من صنع أحمد بن خلف من منتصف القرن العاشر الميلادى، يفوق فى صناعته وتدريجه ما صنع من هذه الآلات فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادى. والأسطرلاب ـ فى أبسط صورة ـ عبارة عن قرص مستدير، مقسم إلى درجات به ذراع متحرك مثبت من المركز، ومؤشر يتخذ الموضع العمودى على الأفق. ولاستعماله يحرك الملاح الذراع على الدائرة ليقيس الزاوية بين النجم القطبى مثلا والاتجاه الرأسى الذى يدل عليه المؤشر، وعلى ذلك تكون الزاوية المكملة للزاوية المحصورة بين الذراع والمؤشر مساوية لارتفاع القطب فوق الأفق.

وبخلاف الأسطرلاب، فقد عرف العرب أيضًا ربع الدائرة (المعروفة الآن باسم الكوادرنت) وهى آلة تمثل قوسًا قدر ٩٠ درجة من الأسطرلاب، وتقيس ارتفاع

الأجرام فوق الأفق، هى الأخرى عن طريق قياس زاوية الظل أيضًا. ومن ربع الدائرة، عرف الأوروبيون فى القرن السابع عشر سدس الدائرة أى آلة السدس Sextant المعروفة حاليا فى الملاحة، ويعزى ابتكارها لإسحق نيوتن. ويلاحظ أن الأسطرلاب وربع الدائرة اختراع عربي بالنسبة للأوروبيين المسيحيين على الأقل، نقلوا فكرتيهما عن العرب إبان الحروب الصليبية، وإن شاع استعمال مثل هذه الآلات عند الفرس والهنود من قبل.

أما عن الجداول الفلكية والأزياج، فقد بلغت حدًا من الإتقان والدقة عند العرب، لم تبلغه جداول الهند وفارس وغيرهما، وذلك من قبل أن تعرف أوروبا هذه الجداول[٣٦].

البوصلة الملاحية:

ظهرت البوصلة الملاحية أول ما ظهرت فى الدنيا عند أهل الصين وعند العرب. وثار جدل كبير بين الباحثين عمن يكون أول من ابتكرها من هؤلاء، ولكن الباحثين يخلطون فى أصل البوصلة دائمًا بين أمرين يختلفان تمامًا: أولهما الإبرة المغناطيسية نفسها، وثانيهما تقسيم دائرة الأفق إلى الجهات الأربع الأصلية والأقسام الصغيرة المتساوية، التى بين كل جهتين منها، على ورقة أو لوح، وهو ما يعرف باسم «وردة الرياح»، والأصل فيها لبيان معرفة اتجاه الريح ومن أين تهب، إذا علمنا جهة واحدة من الجهات الأصلية سواء بالليل أو بالنهار، ووردة الرياح العربية مبينة على التقسيم الليلى.

ومن الثابت أن أهل الصين هم أول من عرف خواص الحجر المغناطيسى، الذى يشير فيه طرف واحد من إبرة أو قضيب ممغنط، يعلق تعليقًا حرًا من الوسط إلى اتجاه الشمال، ويرجع ذلك لقرون متقدمة، ربما إلى عهد أسرة «هان» الشرقية حوالى سنة ٣٠-١٠٠ بعد الميلاد، ولكنهم لم يستخدموا هذه الخاصية فى الملاحة البحرية، وإن كان من المؤكد أيضًا أن أهل الصين قد استفادوا بها فى السفر بالبر؛ لمعرفة اتجاههم، وذلك فى القرن الثالث الميلادى كما هو مثبت فى

آثارهم، ولكن لا توجد آثار مدونة حتى اليوم تؤيد الزعم بأن الصينيين استخدموا الإبرة المغناطيسية فى البحر، قبل القرن الحادى عشر الميلادى، وهو الوقت نفسه تقريبا الذى استعملها فيه العرب. وقد بحث هذا الموضوع كثير من المؤرخين والمستشرقين الأجانب وعلى رأسهم «فران (١٩٢٨) ودى سوسير (١٩٢٣) وكلابروت (١٨٣٤).

وكانت أوروبا تجهل تمامًا كل شيء عن البوصلة البحرية واستخدامها فى الملاحة، حتى وفدت سفنهم إلى المشرق إبان الحروب الصليبية فعرفوا البوصلة من العرب لأول مرة وشاع استعمالها بعد ذلك فى أوروبا، بل كانت تعد أعظم اكتشاف ملاحى بالنسبة لهم؛ لأن سماءهم تكتنفها الغيوم والسحب فى أغلب أوقات السنة؛ خاصة فى الأصقاع الشمالية، ولا يسهل دائما تعرف الجهات الأصلية ليلا بالنجوم فى تلك الأصقاع.

ويقرر كلابروت (١٨٣٤) **«إن المراكب الصينية منذ عصر أسرة تانج Tang فى القرنين السابع والثامن الميلاديين كانت تتاجر مع الهند والعرب فى المحيط الهندى، حيث كانت أغلب التجارة الصينية فى ذلك الوقت فى يد الملاحين العرب. وكانت السفن تخرج من ميناء كانتون (خانفو أو الزيتونة عند العرب) عبر مضيق ملقا فالساحل الغربى الشمالى للهند، ومن ثم تتجه إلى سيراف والفرات على الخليج الفارسى. وكان هذا الطريق مطروقا ومعروفا منذ القرن الثانى الميلادى تقريبا، ومن ثمة فلم يكن هناك ما يستدعى استخدام البوصلة الملاحية»**. ويضيف هذا المؤلف قوله:

«على أن أقدم وصف مدون للبوصلة الملاحية فى كتب الصين ليرجع إلى الفترة ١١١١-١١١٧ بعد الميلاد، وهو أقدم ما عثرت عليه فى كتبهم حتى اليوم»[٣٧].

ويرى «فران» أن كلابروت لم يطلع على مرجع آخر، يرجع عهده إلى عام ١٢٩٧م (فى وصف كمبوديا)، أشار إليه هيرث Hirth فى كتابه «التاريخ القديم

للصين» وفيه وصف لكانتون وتجارتها فى الفترة فيما بين سنوات ١٠٨٦-١٠٩٩ (القرن ١١ الميلادى) وللمراكب التى كانت تسير بين كانتون وسومطرة والموانى العربية فى المحيط الهندى. وفى هذا المخطوط القديم نبذة عن معرفة الاتجاه، تدل على أن البوصلة قد استعملت فى الملاحة فى ذلك الوقت.

أما فى التراث العربى فيوجد ما يدل على أن العرب قد عرفوا خواص الإبرة المغناطيسية منذ الوقت، الذى كانت مراكبهم تحمل فيه التجارة بين كانتون والمحيط الهندى. وفى مخطوط بمكتبة باريس برقم ٢٧٧٩ (عن فران) بعنوان «كتاب كنز التجار فى معرفة الأحجار» لمؤلفه بيلق القبجاقى مكتوب عام ٦٨١هـ (١٢٨٢م)، يذكر فيه المؤلف أن ربابين بحر سوريا كانوا يتعرفون الجهات الأصلية فى الليالى الحالكة عندما لا يرون النجوم - بإبرة معلقة فى حلقة من خشب السنط، تطفو فوق الماء فتشير إلى الشمال.. ويضيف المؤلف بأنه رأى بعينيه ذلك فى رحلة بحرية، قام بها من طرابلس الشام إلى الإسكندرية فى عام ٦٤٠هـ (١٢٤٢م).

ويضيف المقريزى فقرة مماثلة فى كتابه «الخطط» الذى كتبه فى مصر بين سنوات ١٤١٠-١٤٣٠ (أوائل القرن الخامس عشر الميلادى)، ولكن الإبرة فى هذه الحالة تختلف عما ذكره صاحب كتاب «كنز التجار»، فهى قطعة رقيقة من المعدن مطروقة على شكل سمكة تطفو فوق الماء، فعندما تستقر السمكة يشير فمها إلى الجنوب. ويقول المقريزى إن الملاحين فى بحر الهند كانوا يستدلون على الجهات الأصلية، عندما لا يرون النجوم ليلاً بهذه الطريقة. وللإشارة إلى القطب الجنوبى دلالة خاصة هنا بالنسبة للملاحة فى المحيط الجنوبى.

وإذا كان الأمر كذلك، فلابد أن الملاحين العرب فى المحيط الهندى كانوا يستعينون ببيت الإبرة منذ وقت متقدم كما أسلفنا، ولا يمكن الحكم على أن الصينيين قد سبقوا العرب إلى استخدام البوصلة فى الملاحة، بل إن المرجح أن العرب عرفوا خواص الحجر المغناطيسى أثناء تجارتهم مع الصينيين، ثم طبقوا الفكرة لمعرفة الاتجاه أثناء سير السفينة بالبحر. وسواء أكان الفضل فى ابتكار

البوصلة البحرية يرجع للعرب أم لأهل الصين، فإن كلا منهم كانت له طريقته الخاصة وتقسيمه الخاص لدائرة «وردة الرياح». ومن المعلوم أن وردة الرياح العربية كانت أدق وأثبت فى تقسيمها من الدائرة الصينية، وأنها كانت ابتكارا عربيا خالصا، ساعدت الأحوال الطبيعية من صفاء السماء وانتظام الرياح الموسمية فى المحيط الهندى، ووضوح مجاميع النجوم فى المنطقة الاستوائية على نشأتها فى ذلك المحيط. ومهما يكن من شىء فقد سبق الشرق أوروبا بثمانية قرون على الأقل فى الاستعانة ببيت الإبرة، فى تعرف الجهات الأربع الأصلية.

وليست البوصلة فقط هى التى أخذت أوروبا فكرتها عن العرب فى العصور الوسطى، بل أخذت عنهم أيضا فكرة خطوط العرض. وعلى الرغم من أن هذه المشكلة قديمة ترجع إلى وقت بطليموس والعصر اليونانى، غير أن أوروبا لم تفطن إليها مرة أخرى، إلا بعد أن ترجمت مؤلفات بطليموس؛ بخاصة كتابه «**المجسطى**» من العربية إلى اللاتينية فى العصور الوسطى، وكان الأصل الإغريقى لهذا الكتاب قد فقد أو نسى تمامًا.

وكان العرب أسبق من أهل أوروبا بزمن طويل أيضا فى معرفة الوقت وتحديده إلى جانب تحديد الاتجاه، سواء أكان ذلك فى البر أم البحر. ولتقدم العرب فى «علم الميقات» سبب قوى، هو حاجتهم لتحديد الزمن لمعرفة أوقات الصلاة، مثلما كانت حاجتهم ماسة أيضا إلى تحديد القبلة فى الممالك والأمصار التى فتحوها. ويزخر التراث العربى برسائل وكتب قيمة، ألفت سواء في المشرق أو فى المغرب (الأندلس) فيما بين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادى، وذلك فى علوم الميقات وفى تحديد الاتجاه وخطوط طول البلاد وعرضها. وكان العرب يتعرفون الوقت نهارا بالمزاولة، وليلا بتحديد حركات القمر والنجوم فى أبراج السماء.

ولابد من أن يكون البرتغال قد جهدوا أنفسهم أيضا فى تعرف علوم العرب الملاحية والإفادة منها، قبل أن يقدموا على مغامراتهم الملاحية الكبرى، بل كانوا

يسعون للحصول على هذه المعلومات بكل الطرق الممكنة، ولا مانع من أن يستعينوا بالجواسيس إذا اقتضى الأمر، وهذا ما حدث بالفعل.

ولعب التجار اليهود دورًا مهمًّا فى نقل المعلومات العربية إلى البرتغال منذ أمد بعيد. وفى هذا الصدد يحدثنا ابن خرداذبة (٨٤٦م) عن التجار اليهود الرذانية، الذين كانوا يعيشون فى الأندلس، ويتكلمون اللغات العربية والفارسية والأفرنجية والأندلسية والصقلية، ويقومون برحلات بين المشرق والمغرب لهذا الغرض «**برا وبحرا، ويجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى؛ فيخرجون بالفرما، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الحجار وجدة ويمضون إلى السند والهند**».

بل إن من هؤلاء الجواسيس اليهود من استطاع الحصول على خرائط عربية من المحيط الهندى، وقدمها لبعض الدول الأوروبية.

الهوامش

(١) مدينة بجوار العريش تطل على البحر الأبيض.
(٢) ابن خرداذبة ١٥٣.
(٣) رحلة ابن جبير ص ٦٧-٦٨.
(٤) الحضارة الإسلامية ص ٤٢٧.
(٥) رحلة ابن جبير ص٦٨.
(٦) مروج الذهب جـ١ ص ٣٦٥.
(٧) ابن حوقل ص ١٠٣.
(٨) الحضارة الإسلامية ـ ميتز ص ٤٣١.
(٩) البلدان لليعقوبى ص ٣٢٧.
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) الإصطخرى ص٣٠ ومروج الذهب جـ٣ ص٥٦.
(١٢) ناصر خسرو ص ١٣٣ سلسلة الألف كتاب الثانى ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة.
(١٣) جغرافية الإدريسى جـ ١ ص ١٣٣.
(١٤) ابن جبير ص ٦٤.
(١٥) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٣٤.
(١٦) المصدر نفسه جـ ٣ ص٣١.
(١٧) ابن رسته ص ٧٦، ٧٧.
(١٨) المقدسى ص ١٢.
(١٩) مروج الذهب للمسعودى جـ ٣ ص٣٧ والمقدسى ص ١٤.
(٢٠) المقدسى ص ٣٤.

(٢١) المصدر نفسه ص٩٧ .
(٢٢) الإصطخرى ص ٣٤.
(٢٣) المصدر نفسه ص ١٣٨، ١٣٩ .
(٢٤) ابن حوقل ٢٠٦.
(٢٥) الإصطخرى ص ١٣٨ .
(٢٦) المصدر نفسه ص ٧٩.
(٢٧) المقدسى ص ١١٨ .
(٢٨) الإصطخرى ص ٣٢ والمقدسى ص ٢١.
(٢٩) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٢٣٠.
(٣٠) رحلة ناصر خسرو ص ١٦٩ .
(٣١) المقدسى ص ١٢ .
(٣٢) أحسن التقاسيم ص ١٠، ١١ .
(٣٣) ابن ماجد الملاح - ص ٣١.
(٣٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٤٣.
(٣٥) ابن ماجد الملاح ص ٣٣.
(٣٦) المصدر نفسه ص ٣٤.
(٣٧) المرجع السابق ص ٣٩.

كان التوسع فى الفتوحات والنجاح السياسى الكبير الذى حققته الدولة الإسلامية، خاصة فى القرن الثانى للهجرة، حافزاً على غزو ميادين جديدة تعزز النصر السياسى والحربى وتفتح مجالات معرفية تحقق المجد العقلى والحضارى، وتؤسس لبناء دولة متقدمة، تقوم على العلم إلى جانب الإيمان، وتتيح الفرصة كاملة للعقل البشرى للابتكار والإبداع، فبعد أن أضاءت الدعوة الإسلامية قلب الإنسان بنور اليقين بوجود الله، كان عليها أن تنيره بمعرفة ذاته والكون من حوله.

وتمثلت بداية الانطلاقة الكبرى فى الترجمة، حيث قام المترجمون ـ بتشجيع من الخلفاء والحكام العرب ـ بترجمة أمهات الكتب المعروفة آنذاك عن اليونانية والسريانية والفارسية.

كشفت الترجمة فيما كشفت أن شعوبا كثيرة قد سبقت العرب على طريق المعرفة، وقطعت أشواطًا كبيرة لاكتشاف المجهول من الأرض وغزته برا وبحرا، فانفتحت على مصراعيها شهية المئات من العرب؛ لمحاولة المشاركة فى معرفة العالم بالخروج من خيمة الوطن، التى تحتضنهم وتقعدهم فى ظلالها الحانية.

انطلقت الرحلات وتحمس الكثيرون للسفر، سواء للحج أو طلب العلم والتجارة، وفى الإطار الرسمى دعت الحاجة إلي تنظيم علاقات الدولة بالولايات التابعة لها إلى إرسال الرسل والاهتمام بشئون البريد وتكليف العمال بجمع الجزية والخراج.

ولقد تعددت أوجه الرحلة وأغراضها بمرور الأيام، وأيا ما كان الغرض منها فقد حرصت طائفة من الرحالة على تدوين مشاهداتهم، وذكر المواقف المتباينة والمعاناة التى لاقوها، بينما هم يجولون فى البلاد ويجوبون الأقطار.

وليس من شك أن هؤلاء الرحالة قد أسهموا بما سجلوه ـ بقصد أو بغير قصد ـ فى توفير معارف تاريخية وجغرافية واجتماعية وثقافية عظيمة القيمة، أدت إلى فتح الباب للجغرافيين بوجه خاص؛ ليجوبوا الآفاق فى رحلات متعاقبة لدراسة المعمور من الأرض شرقا وغربا وتسجيل ملامح تضاريسه المختلفة، من جبال وقفار وبحيرات وأنهار، والوقوف على ثروات الأمم وتجارتها وعمارتها وصور العيش فيها، وما إلى ذلك من ألوان النشاط البشرى.

ولهذا فإننا ـ دون مبالغة ـ نستطيع القول، أن الرحلات بكافة صورها وأسبابها وأهدافها كانت أحد العمد الرئيسية فى صرح الحضارة العربية الشامخ، لأن الرحلة إلى جانب كونها وسيلة من وسائل جمع المعارف، فقد كانت أيضا فرصة لاكتشاف الآخر والأخذ عنه وإثارة الشعور بالمنافسة والرغبة فى التفوق، والطموح إلى السيادة، ولم يكن ذلك ممكنًا، والعربى فى خيمته أو قصره أو حتى فى معمله لا يبرحه.

فلولا الرحلة ـ وهى إرادة الله بالقطع ـ ما سمعنا عن البيرونى أو المسعودى وابن خلدون، ولا قرأنا عن الإدريسى والمقدسى، ولولاها ما استمتعنا بكتابات ابن بطوطة وأسامة بن منقذ وياقوت الحموى والبغدادى وابن جبير، بل لولاها ما ظهر فى سماء الأمة الإسلامية علماء كبار فى كافة مجالات الأدب والعلم والفلسفة، وحرى بالذكر أننا لا نكاد نعثر على أديب أو عالم أو سياسى لم يرتحل إلا فى النادر، حتى نستطيع القول أن الضرب فى الآفاق كان شائعاً بصورة لا نظير لها فى أى مملكة أخرى خارج العالم العربى، وليس أدل على ذلك من الصورة الأدبية، التى رسمها الهمذانى فى رسائله لشيوع الرغبة فى الأسفار لدى الجميع، وهى قصة طريفة تفيض بخفة الظل وحلاوة الأسلوب وعمق الدلالة:

« لم يكن مثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه حتى عبر جيحون بسببه، يطلبه فى كل منهلة، وينشده فى كل مرحلة، وهو لايجده، حتى جاوز خراسان وانتهى إلى طبرستان وإلى العـراق، وطـاف الأسـواق، فلمـا لم يجده، وآيس، عاد وقد طالت أسـفاره، ولم يحصـل حمـاره، حـتى إذا حصـل فى بلده بين أهله وولده، أحب الله أن يلطف به لطفا ليعتبـر بـه، فنظـر ذات يـوم إلى اصطبله، فإذا الحمار بسرجـه ولجامـه وثغـره وحزامـه، قائمًـا عـلى المعلف ينـش».

ويكمل الهمذانى حديثه معبرًا عن اشتهار عادة الارتحال والتحجج لها بأى سبب كما حدث لصاحب الحمار، إلا أنه يؤكد فى المقابل رسوخ الحنين إلى الوطن فى قلوب كل المخلوقات **«والإبل على غلظ أكبادها لتحن إلى بلادها، وإن الطير لتقطع عرض البحر إلى مظانها»**.

على أن الرحالة العرب قد أنفقوا أموالهم وأعمارهم، وبذلوا جهوداً جبارة لاختراق الجبال واجتياز القفار وعبور البحار والسير فى الدروب الوعرة أو المجهولة، وتجشم المشاق من أجل أهداف نبيلة وسامية، فقد خرجت الرحلات العربية إما للحج أو العلم، وقليل منها كان للتجارة، وحتى هذا القليل لم يفته خدمة العلم ببعض المعارف، وسوف نعلم بعد قليل أن رائد أدب الرحلة البحرية كان تاجرا.. هو سليمان السيرافى.

وهذا الجانب من رحلات العرب وحيواتهم يحسب لهم بوصفهم جنودًا مجهولين، تحملوا العبء كاملاً، مالا وجهدا ووقتا، وربما لم ينعموا رغم ذلك بذيوع الصيت. وباستثناء رحلات معينة كرحلة بن فضلان وسلام الترجمان ومحمد بن موسى المنجم، وعدد قليل آخر، حدد الحكام أهدافها الرسمية وتولوا تمويلها، وأولوها اهتمامهم، كانت الرحلة فى البر أو البحر جهدًا ذاتيًّا، واجتهادًا شخصيًّا، وكان الهدف من وراء ذلك هدفًا خاصًّا، تمناه العقل وسعت إليه الروح وحفزت عليه الإرادة، وهذا معناه بالضرورة الاعتماد على

الذات فى التمويل والنفقة بكافة ألوانها، وبعد أن استهلكوا أعمارهم فى الأسفار، عادوا إلى بلادهم يعكفون على تدوين ما حصلوا وجمعوا، ثم ما لبثوا أن ودعوا الحياة، وقد خلفوا لنا تراثا رائعا شهدت به الأوساط العلمية فى كافة دول العالم، وقضى المستشرقون الغربيون السنوات؛ لتحقيق ودراسة بعض ما وضع هؤلاءالرحالة العظام، ولايزال كثير من مخطوطات أعمالهم الثمينة مفقودا لم يعثروا له على أثر، أما ما عثر عليه المستشرقون، فمايزال أكثره رهين أدراج مكتبات العالم، مخطوطًا يفتقر إلى التحقيق.

وإن الأمل ليحدونا أن تقوم وزارات المعارف والثقافة والتعليم والبحث العلمى فى البلاد العربية بجهد فى سبيل استرداد هذه المخطوطات وتحقيقها، وليت الجامعة العربية ممثلة فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تنهض بهذا العبء فتوفر مبعوثين متخصصين لتصوير هذه المخطوطات، حيث هى فى الاسكوريال ومكتبة فيينا والفاتيكان والمتحف البريطانى ومكتبة أسطنبول وليدن وهامبورج ،باريس والأكاديمية التاريخية بمدريد وغيرها. . ليت هذه الأعمال تحظى بالاهتمام والدراسة والنشر ومثلها المخطوطات، التى لا تزال على ما هى عليه منذ ارتفعت عنها أيدى النساخ قبل مئات السنين، وهى محفوظة ببعض المكتبات العربية، أى بين أيدينا، لكننا عنها غافلون رغم دوام التنبيه إلى ذلك والدعوة إليه.

القرن الثالث الهجرى (ق ٩م):

كان معظم رحالة وجغرافيى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) من اللغويين، وأبرزهم هو اللغوى والمؤرخ المعروف هشام الكلبى (ت حوالى ٢٠٦هـ) الذى يعد نموذجًا للرحالة الخبير بالجزيرة العربية، خلال أواخر القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث، وقد صنف عديدًا من المؤلفات، وأهمها: «كتاب الأقاليم» و «البلدان الكبير» و«البلدان الصغير» وكتاب «أنساب البلدان»، وجاء بعده الأصمعى الذى توفى عام ٢١٦هـ وقد ألف كتابا عن «الأنواء»

و«رسالة فى صفة الأرض والسماء والنباتات»، ثم تلاه تلميذه سعران ابن المبارك الذى وضع كتاب «الأرضين والمياه والجبال والبحار».

ومن الذين ساروا على الدرب نفسه، رجل أمى من الجزيرة العربية يدعى عرام بن الأصبغ، استهواه ما ألفه العرب عن مناطق الجزيرة، فأملى وهو فى سن الشيخوخة (بعد عام ٢٣١هـ) كتاب «أسماء جبال تهامة ومكانها»، ولم يرجع فيه لأى كتاب فقد كان خبيرا بمواضع الجزيرة العربيةجميعها.

أما كبير علماء اللغة وهو الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فقد أورد المسعودى أنه صنف مؤلفا عنوانه «كتاب الأمصار وعجائب البلدان»، وكانت له أيضا رسالة تسمى «التبصر بالتجارة» تضم أسماء السلع المستوردة من مختلف الأقطار ابتداء من الهند والصين، مما يؤكد من ناحية موسوعية الجاحظ، ويدل من ناحية أخرى على ازدهار التجارة وحرص الكتاب على توفير المعلومات الجغرافية والاقتصادية لأصحابها.

وأخيرا نلتقى بتلميذ الفيلسوف الكندى وصديقه أحمد بن محمد الطيب السرخسى (ت ٢٨٦هـ)، وقد ألف «رسالة فى البحار والمياه والجبال» كما أن له كتابًا باسم «المسالك والممالك»، وربما يكون أول من استخدم هذا الاسم، الذى تكرر كثيرًا بعد ذلك، وأصبح علمًا على «علم البلدان».

ثم تأتى كوكبة الرحالة والجغرافيين البارزين فى هذا القرن، يتصدرهم محمد ابن موسى المنجم (ت ٢٥٩هـ) وكان رياضيا ومهندسا قديرا، وهو غير الفلكى الرياضى المشهور، محمد بن موسى الخوارزمى.

وقد كلفه الواثق برحلتين: الأولى إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم الذى لجأ إليه مجموعة من الشباب هربوا بدينهم وعرفوا باسم أهل الكهف، والثانية مع سلام الترجمان لزيارة سد يأجوج ومأجوج.

ونلتقى بعد ذلك بالتاجر سليمان الذى أبحر عدة مرات إلى الهند والصين، ودون جانبًا من هذه الرحلات ونقلها منه مواطن له يسمى أبو زيد السيرافى،

وتستحضر مطالعتنا لرحلات سليمان قصص ألف ليلة وخاصة أسفار السندباد الذى يبدو كأنه مؤلفها أو كأن مؤلفها صحبه فى رحلاته، لأنها تحمل السمات والوسط والمواضع نفسها بين البصرة وسيراف وبغداد، والصين وجزر البحر الشرقى الكبير، وقد تكررت ـ ربما لمئات المرات ـ الرحلات المماثلة لرحلة سليمان، وإن لم يدونها أصحابها، ومنها حكاية ابن وهب القرشى الذى ضاقت به الظروف فى بلاده، فمضى إلى الميناء ليسرى عن نفسه، ولكن عينه تقع على مركب يستعد للسفر فيطلب إلى أصحابها قبوله بينهم وينزل فى الصين، ويصر على لقاء الملك، ويكون بينهما حوار ثرى ومدهش، فيغدق عليه الملك، ويعود محملاً بالهدايا والحكايات.

ونصل بعد هؤلاء الرحالة الذين يمكن أن نطلق عليهم الرحالة الشفهيين إلى مجموعة من الرحالة، الذين حرصوا على ما حصلوا من علم، فأودعوه بطون الكتب وهم يمثلون معًا البداية الحقيقة لعلم البلدان ـ وفى مقدمتهم ابن خرداذبة، والبلاذرى وابن رستة وابن الفقيه واليعقوبى والجيهانى، وتسبق هذه المجموعة مجموعة أخرى، لكنها ركزت جهدها فى منطقة واحدة مثل ابن الحائك وأبو الوليد الأزرقى (ت ٢٤٢هـ) والفاكهى (ت ٢٧٢هـ).

القرن الرابع الهجرى (ق ١٠م):

يقول ميتز فى كتابه «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى» (ق١٠م): يعتبر القرن الرابع الهجرى من الناحية السياسية عصر الاضمحلال النهائى للخلافة الإسلامية، ولكنه من ناحية أخرى يعتبر أيضًا عصر ازدهار الحضارة العربية أو النهضة الإسلامية».

ولا يخفى على القارئ الواعى أن ميتز يقصد بانهيار الخلافة أى مركزية الخلافة، التى يحكم فيها الرأس الصغير الجسد الكبير، تلك المركزية التى كانت تتخذ لها مقرًا فى بغداد أو دمشق لتحكم إمبراطورية إسلامية، تمتد من الصين إلى جنوب فرنسا، ثم أصبحت كل دولة كيانا إداريا مستقلا، ولعل ذلك كان أمرا

طبيعيا يفرضه اتساع الممالك الإسلامية واستحالة توجيهها أو التحكم فيها بجهاز يقيم فى إحدى المدن.

وعلى أية حال، فالمجال لايسمح بالوقوف طويلاً عند هذه النقطة، وإنما الذى يعنينا ما أشار إليه ميتز، وهو ازدهار الحضارة العربية، وقد تمثل جانب من ذلك فى:

١- زيادة عدد الرحالة بشكل يفوق الوصف.

٢- ظهور خرائط للبلاد الإسلامية لأول مرة، وهو مايسمى «أطلس الإسلام».

٣- ظهور بعض المعاجم التى تضم أسماء الأقطار والأماكن المختلفة.

٤- وصول الرحالة إلى آفاق بعيدة، خاصة الأصقاع الشمالية من العالم مثل حوض نهر الفولجا وبلاد الروس والبلغار وغيرها.

شهد هذا القرن ظهور رحالة كبار من أهمهم المسعودى (ت ٣٤٦هـ) صاحب «**مروج الذهب ومعادن الجوهر**» وابن فضلان الذى أوفده الواثق إلى بلاد البلغار ونهر الفولجا، التى كانت تمثل أبعد أطراف العالم الشمالى، وتحفل رسالته التى دونها عن رحلته بمادة إثنوجرافية على درجة عالية من القيمة والطرافة والتنوع. وفى هذا القرن أيضًا ظهر أبو دلف (مسعر بن المهلهل) الرحالة الشاعر الصعلوك الذى زار عديدًا من البلاد، ومن أهمها الصين، واحتفظ لنا الحموى بشذرات من رسالته التى ضاعت.

وتمثل رحلة ابن سليم الأسوانى أهمية جوهرية؛ لأنها تعد أول رحلة إلى بلاد النوبة، تصل إلينا أخبارها (٣٦٥هـ - ٩٧٥م)، وكان قد بعث به القائد جوهر الصقلى فى مهمة دبلوماسية، إلا أن الكتاب لايزال مفقودًا، ولم تبق منه غير شذرات يحتفظ بها كل من المقريزى وابن إياس، ويقول كراتشكوفسكى فى كتابه المهم «**تاريخ الأدب الجغرافى العربى**» ص ١٩٣: «**لم يكن ابن سليم الأسوانى**

وحده هو الذى أسدل عليه النسيان، وإنما يوجد عدد غير قليل من الكتاب المجهولين الذين لم يعرف المسلمون عنهم لسبب ما سوى القليل، وفوق ذلك فإن هناك ثلة، لم تصل إلينا مؤلفاتهم أو أنها لا تزال فى طى المجهول» .

وقد شهد هذا القرن أيضًا ظهور كتاب مهم لأبى زيد البلخى (مفقود حتى الآن)، وأعقبته كتب عن رحلات للاصطخرى وقدامة بن جعفر وابن حوقل والمقدسى وغيرهم من رحالة وجغرافيى هذا القرن، مثل الجيهانى وزير أمير خراسان الذى لايزال مصنفه ضائعًا، ولم نعثر على شذرة واحدة منه، فى حين تكثر الإشارة إليه، وهناك أيضا الرحالة المصرى أبو الحسن المهلبى صاحب كتاب «العزيز».

القرن الخامس الهجرى (ق ١١م):

تفتتح هذا القرن رحلات مهمة قام بها الطبيب البغدادى ابن بطلان عام ٤٠٤هـ إلى الشام ومصر وإنطاكية والقسطنطينية، ولكن كتاب البيرونى (ت ٤٤٠هـ) **«تحقيق ما للهند من مقولة»** وهو ليس كتابا فى الرحلات أو الجغرافيا فحسب، وإنما يتضمن أيضا آراء فى الدين والفلسفة والتاريخ، قد دفع الأدب الجغرافى خطوة مهمة إلى الأمام.

وعندما تتقدم سنوات هذا القرن نحو منتصفه، يشهد أدب الرحلة افتتاح صفحة جديدة من صفحات ذلك الكتاب الفريد؛ حيث يحتل هذه الصفحة، بعض رحالة وجغرافيى المغرب الإسلامى، إذ شرعوا فى الدخول إلى هذا العالم على استحياء بعد أن كان قاصرًا على رحالة المشرق، ومنهم أحمد بن عمر العذرى الذى ارتحل إلى الشرق وعاش فى مكة تسعة أعوام، وخلف لنا كتابًا سماه **«نظام المرجان فى المسالك والممالك»** إلى أن نصل إلى أبو عبيد عبد الله البكرى (ت ٤٨٧هـ) أكبر رحالة الأندلس فى هذا القرن، وله كتابان هما **«المسالك والممالك»** و**«معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبقاع»**، والأخير

يعتبر أول معجم جغرافى، يتناول أسماء ومواضع عدد كبير من المدن والبلاد الإسلامية وما يخصها من الأخبار والأشعار.

القرن السادس الهجرى (ق ١٢م):

يكاد هذا القرن ينافس القرن الرابع فى حجم الإنجاز الكبير على صعيد الجغرافيا وأدب الرحلة، وإذا كان القرن الرابع قد تميز بعدد الرحالة الكبير، فقد تميز القرن السادس بقوة هؤلاء الرحالة وأهمية الآثار التى خلفوها، والمناهج التى اتبعوها فى جمع المادة وتدوين المشاهدات، بما يعد نقلة حضارية كبرى فى هذا المجال.

يبدأ هذا القرن رحلاته بخروج رحالة جسور هو أبو حامد الغرناطى الأندلسى عام ٥٠٨هـ، يطوف بالعالم الإسلامى خاصة مناطقه الشمالية حيث قضى فيها أكثر من ربع قرن، تزوج خلالها من سيدتين من هذه البلاد، وأنجب الأبناء ونشر الإسلام، وصنف كتابين هما «**تحفة الألباب ونخبة الأعجاب**» و«**المغرب عن بعض عجائب المغرب**»، وسرعان ما يعلو فى الأفق نجم كبير، هو الشريف الإدريسى (ت ٥٦٠هـ) صاحب كتاب «**نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق**»، وهو العالم الجغرافى والرحالة الشهير الذى وضع الخرائط لجميع أنحاء العالم المعمور آنذاك، ووصف البلاد التى زارها وجمع مادة عظيمة، وصمم كرة من الفضة تصور كافة تضاريس العالم، وقدمها لحاكم صقلية الأمير روجر الثانى، وقد أضاف الإدريسى الكثير إلى منهجية البحث العلمى الجغرافى، ثم نلتقى بالرحالة، الأندلسى العالم الفقيه أبو بكر العربى (ت ٥٤٣هـ) الذى كان أول من استخدم لفظ رحلة فى عنوان مؤلف، حيث وضع كتابا سماه «ترتيب الرحلة»، ويعتبر بهذا أول من وضع أساس أدب الرحلات بالصورة الفنية المأمولة، وهو يقدم لنا مادة ضخمة، تحفل بالمعلومات الثقافية والاجتماعية عن البلاد التى طوف بها.

وقد كان أبو بكر العربى خير تمهيد لظهور أديب رحالة معروف، هو ابن جبير «ت٦١٤هـ»، الذى اكتملت على يديه ملامح أساسية لأدب الرحلة العربى،

حيث حرص على تدوين مذكراته ومشاهداته يوما بيوم، وتجنب ذكر الغرائب والعجائب التى كان غيره يميل إليها، بل ويتصيدونها من أى مصدر دون تمحيص، واعتمد الصدق فى الرواية منهجا، ولم يغفل عن تسجيل انعكاس الأحداث على صفحات روحه.

ونصل مع ختام القرن إلى رحالة معاصر لابن جبير هو على الهروى، الذى لقب بالسائح من كثرة تجواله فى البلاد، لا فى طلب العلم، ولكن سعيا لزيارة أضرحة الأولياء إعجابا بأصحابها الراحلين، وقد خلف لنا كتابه الشائق **«الإشارات فى معرفة الزيارات»**.

ولن نغلق صفحة هذا القرن، دون أن نذكر الأمير المجاهد أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) الذى عمر فوق التسعين، وقضى كل عمره فى السفر والحرب والصيد، وكان صديقا للقائد العربى العظيم صلاح الدين الأيوبى، ولم يخلف لنا غير كتاب واحد، ولكنه يكفى تماما ليضع اسمه بين نجوم الرحلة، هو كتاب **«الاعتبار»** ضمنه خبراته وتجاربه وسيرة حياته وبعضا من ذكرياته فى البلاد التى ارتحل إليها، وهو كتاب جدير بأن يقتنى ويدرس، فهو يقطر عذوبة ومتعة أساسها الصدق وحرارة التجربة.

القرن السابع الهجرى (ق ١٣م)

لعل أهم إنجازات رحالة هذا القرن، هو صدور كتاب **«معجم البلدان»** لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ)، ليس فقط لأنه يتكون من عدة مجلدات ضخمة تحوى بين جوانبها مادة على قدر كبير من الثراء والقيمة عن كافة أقطار ومدن وقرى العالم الإسلامى، ولكن لأنه أسهم فى نشر شذرات مطولة مأخوذة عن مصنفات لاتزال مفقودة حتى الآن، وقد قدم بهذا خدمات جليلة من شأنها تصحيح مفاهيمنا عن بعض المؤلفين وإلقاء الضوء على آخرين، لم تكن هناك أدنى إشارة إليهم، والسبب فى ذلك أنه كان حريصا على ذكر مصادره مهما تعددت فى المادة الواحدة. ولا شك أن مطالعة المعجم حتى لغير الباحثين عملية ممتعة، بفضل ما

يتضمنه من معارف جغرافية وأدبية وتاريخية وفولكلورية، ولايزال معجم البلدان من أهم المعاجم الجغرافية التى يركن إليها.

وبعد رحيل ياقوت بأقل من ثلاثة أعوام، توفى ببغداد معاصره الطبيب الرحالة عبداللطيف البغدادى (ت ٦٢٩هـ) الذى نال شهرة واسعة بفضل كتاب صغير ألفه بعد زيارته لمصر سماه **«الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»** وميزة الكتاب الأولى أنه يرصد بدقة العالم ظروف مصر الاجتماعية والصحية أواخر القرن السادس الهجرى، خاصة المجاعة الهائلة والوباء الفتاك اللذين هددا الحياة فى مصر عامى ٥٩٧، ٥٩٨هـ.

ويتعين ألا نغفل ذكر رحالة لم ينل ما يستحق من التقدير، هو يوسف ابن يعقوب الدمشقى المشهور بابن المجاور (ت ٥٦٩ هـ) الذى طوف بالجزيرة العربية وعدن ومضى إلى جزر المحيط الهندى، وخلف لنا مادة إثنوجرافية ثمينة عن طقوس وعادات هذه البقاع، ضمها كتابه المهم **«تاريخ المستبصر»**.

وفى هذا القرن أيضا صدر كتاب مثير هو **«عجائب المخلوقات»** لزكريا القزوينى (ت ٦٨٢ هـ)، وقد أغرى هذا الكتاب الكثيرين بتقليده لاحتوائه على العجائب والغرائب، التى كانت تستهوى كل من لديه شهوة القص، كما كانت مثيرة للدهشة، ومن ثم كانت محل إعجاب وإقبال من القراء والمستمعين، ولعل من أهم من قلدوه الدمشقى وابن الوردى، إلا أننا رغم ذلك لم نجد ما يدعو للوقوف عنده لأن صاحبه - كما سبقت الإشارة - لم يقم برحلة، ولم يكتب فى أدب الرحلات، لكنه عكف على جمع ونقل كل ما هو غريب وعجيب فى عالم المخلوقات بكافة أشكالها، والقزوينى بهذا يمثل أوج ما وصلت إليه الكتابات الكوزموجرافية فى التراث العربى جميعه، ولعله كان ذا أثر فى صياغة بعض الأعمال القصصية المهمة مثل ألف ليلة وليلة.

وإذا انتقلنا من الشرق إلى الغرب، فسوف يطالعنا الرحالة الأندلسى ابن سعيد (ت ٦٧٣هـ) الذى حط الرحال بعد تجوال فى بلاد الشرق لأكثر من ربع قرن،

ولكنه حرص على العودة إلى بلاده التى عشقها وتحدث عنها بشغف وإكبار، على عكس مواطنه أبى حامد الذى قضى ثلاثة أرباع عمره بعيدا عنها، ولما عزم على العودة كان الأجل أسبق من خطواته. صنف ابن سعيد عدة كتب منها «**المغرب فى حلى المغرب**» و«**المشرق فى حلى المشرق**».

ونصل مع نهاية القرن إلى رحالة له سمات خاصة، هو الأديب الفقيه محمد العبدرى الذى بدأ رحلاته عام ٦٨٨هـ، وقد تجنب فى كل مراحلها استخدام البحر، مؤثرا البر وخلف لنا «**الرحلة المغربية**» التى اشتملت - رغم قسوته وحدته فى أحيان كثيرة - على أدق وصف لبلاد الشمال الإفريقى.

ومن هناك أيضا يخرج المغربى أبو عمر رشيد النشريسى، الذى عنى فى «**الرحلة**» بذكر سير العلماء فى كل موضع وطأته قدمه، ومن أمثال العبدرى والنشريسى سوف نلتقى بأعداد كبيرة من طالبى العلم، منهم من دون مشاهداته ونشرها ولو مبثوثة فى كتب علمية ولم تستقل بكتب خاصة، ومنهم من لم يحرص على التدوين.

القرن الثامن الهجرى (ق ١٤م)

كانت الرغبة فى إثارة الدهشة سواء لدى الكاتب أو القارئ فى كل العصور هى الدافع، الذى حفز بعض الكتاب إلى ولوج عالم الكوزموجرافيا حيث المبالغة فى القص وسرد العجائب ورواية الأساطير والغرائب، ومن هذه الكتب شهد هذا القرن ظهور كتاب «**نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر**» لشمس الدين الدمشقى (ت ٧٢٧هـ)، الذى كان ناقلاً أكثر منه رحالة أو جغرافيا أصيلا، وقد سعى لمحاكاة سلفه القزوينى، إلا أنه لم يبلغ قامته، وإذا كنا لم نستشعر حماسا للوقوف عند الدمشقى، فلم يكن بدٌ من الوقوف بباب مواطنه ومعاصره أبى الفدا (ت ٧٣٢هـ)، الذى كان حاكما لحلب ودمشق وحماة وأميرًا ينتسب إلى شجرة عريقة الأصل فى الجاه والسلطان، وقد أغرم بالرحلة والتاريخ والجغرافيا، ووضع مصنفين كبيرين طيرا صيته فى الآفاق، هما: «**مختصر تاريخ**

البشر» و«**تقويم البلدان**»، ويميل الباحثون إلى تسميتهما «**تاريخ أبى الفدا**» و«**جغرافية أبى الفدا**»، وقد حظى الكتابان باهتمام خاص لدى مؤرخى العلم فى أوروبا.

ومن رحالة هذا القرن أيضا بن رشيد الفهرى ومحمد التجانى، لكننا لا نعرف عنهما الكثير، وإن كانت بعض المؤلفات قد أشارت إليهما، وقد تجلت عناية الأول بالتاريخ الطبيعى أكثر من عنايته بالرحلة وأدبها.

وقد زين صدر هذا القرن بموسوعات مهمة، وكلها تسهم فى إضاءة أدب الرحلات وخدمته، مثل «**نهاية الأرب فى فنون الأدب**» للنويرى و«**مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار**» لأبى فضل العمرى، و«**صبح الأعشى**» للقلقشندى، ومع أن أحدا منهم لم يكن من الرحالة، إلا أنهم جميعا كانوا من كبار المثقفين الموسوعيين، ناقلين وجامعين لصنوف العلوم والمعارف، وإلى جانب احتفالهم بالمعلومات التاريخية والجغرافية، فقد حرصوا على نشر المنتخبات النثرية والشعرية التى ترتبط بالمواضع والأحداث.

وليس من شك أن هذه الموسوعات ضربت بسهم وافر فى حقل أدب الرحلة العربى، على أن كل ما أثمره هذا القرن يتضاءل كثيرا إزاء ظهور النجم الكبير والرحالة العالمى صاحب «**تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**» ذروة أدب الرحلة العربى، وأشهر من جال فى البلاد وجاس فى أمصار، والتقى بالعلماء والملوك، وتزوج النساء فى أغلب البلدان، وقطع أكثر من مائة وعشرين ألف كيلو متر، وداس جميع الأراضى التى وصل إليها بشر حسب علمه باستثناء دول الشمال، وأبرز من كتب عن إفريقيا، إنه الرحالة الأشهر **ابن بطوطة** أبو عبدالله اللواتى الطنجى، وهو آخر رحالة على المستوى العالمى.

لم يتضمن كتابه الضخم إلا ما رأى وما سمع وعاين، وليس فيه ما نقل عن غيره إلا صفحات قليلة، أضافها كاتبه «ابن جزى» هنا وهناك، ولهذا فهو رحالة محترف كبير وأصيل، أقدم على الرحلة فى البداية لأجل الحج، ولكنه عشق

الرحلة والسفر لذاتهما، وظل يخرج من بلد إلى بلد، وكلما انتوى العودة غلبه الشوق إلى سفر جديد.

يعد كتابه أكثر كتب الرحلة إمتاعا وجاذبية، فضلا عن احتوائه على كم هائل من المادة الجغرافية والإثنوجرافية والأدبية، التى أثارت غيرة البعض وحسدهم. لقد تشكك علماء الغرب فى إنجازه الفريد، ولكنهم بمرور الأيام وبعد التحقق من رواياته، لم يكن لديهم مناص من التسليم والاعتراف بقدره.

أما آخر الرحلات المهمة فهى دون جدال رحلات العالم والسياسى والمؤرخ **عبدالرحمن ابن خلدون** (ت ٨٠٨هـ)، الذى أوردها ضمن كتابه «**التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا**»، وكان تركيزه الأكبر على استعراض سيرة حياته، بينما شغلت رحلته المحل الثانى فى الأهمية، ومع ذلك فالكتاب يتضمن نصاً جيداً فى أدب الرحلة العربية؛ إذ تعددت وتنوعت وكثرت مخاطرها، ولم تخل من الملاحظات الدقيقة الذكية، التى لا نكاد نعثر عليها لدى غير هذه الشخصية الطموحة الوثابة، ولو كان ابن خلدون قد عنى بإفراد كتاب مستقل لرحلاته، مع انتهاجه أسلوبا أدبيا بسيطا متدفقا، يخلو من السجع والمحسنات البديعية لوضع مصنفًا بديعًا فى أدب الرحلة، لا يقل أهمية عن مصنفاته فى التاريخ أو الاجتماع.

وهكذا تنحسر الرحلات بعد القرن الثامن الهجرى أو تكاد، وتحوم فى الأفق الضبابى رحلات عبدالباسط بن خليل الظاهرى المصرى، والحسن بن الوزان المشهور باسم ليون الأفريقى، ورحلة أبى البقاء البلوى وأحمد المقرى ومحمد التأريخى والتمجروتى وغيرهم، ولكن هذه الرحلات تظل فى أحسن حالاتها غير جديرة بالمقارنة بالرحلات الكبرى، ولا يمنع هذا من تناولها بالتفصيل اللائق الذى يلقى عليها ما تستحق من أضواء، لولا أن المجال يكفى بالكاد لاستعراض أهم الرحلات فى التراث العربى.

ولما كانت الرحلة العربية وآدابها إحدى مرايا الحضارة العربية، فقد تقلصت نسبيا هى الأخرى خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين (١٥، ١٦م) وتوقفت

تقريبا خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين (١٧، ١٨م)، ولا نكاد نذكر إلا رحلتى النابلسى والطرابلسى والعياشى، ونحسب أن لذلك أسبابا عديدة، منها:

١- المشكلات السياسية والاقتصادية التى لحقت وعمت العالم العربى.

٢- النكوص الثقافى والحضارى والتدهور الإنسانى بشكل عام.

٣- زوال دولة الإسلام من إسبانيا.

٤- سقوط كل دولة تحت عبء مشكلاتها الداخلية والنزاع على السلطة.

٥- بدء الكشوف الجغرافية الكبرى، واكتشاف العالم الجديد فى الأمريكتين، وبداية الصعود الحضارى الأوروبى.

على أن الرحلات العربية سرعان ما عادت إلى البزوغ والازدهار من جديد فى ثوب مختلف مع السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وتحديدًا بعد الحملة الفرنسية على مصر، وقد بدأها محمد عمر التونسى سنة ١٩٠٣ برحلة إلى بلاد العرب والسودان وضمنها كتابه **«تشحيذ الأذهان»**، وتلاه الطهطاوى الذى عبد طريقا فسيحا للرحلة بكتابه **«تلخيص الإبريز»**، فسارت على دربه كوكبة كبيرة ومتألقة من الرحالة يرد ذكرهم وتفصيل رحلاتهم - إن شاء الله - فى كتابنا **«أدب الرحلة العربية فى العصر الحديث»**، يتقدمهم محمد عياد الطنطاوى صاحب كتاب **«تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا»**.

على أن الرحلات الحديثة يممت وجهها - فى الأغلب - صوب جهة واحدة هى جهة الغرب، حتى لقد أصبحت قاصرة عليه، وكأن الأرض ليس فيها إلا غربها. وقليل جدا، إن لم يكن من النادر من يتطلع إلى الشرق، ولعل هذا مرجعه التقدم الكبير الذى أحرزه الغرب خاصة بعد الثورة الصناعية، وتحديث أساليب العمل والإنتاج، وإقامة دور العلم الكبرى، فلم يعد طالبو العلم يشدون الرحال إلى بغداد ودمشق والقاهرة، كما كان العهد فى الماضى، وإنما أصبحوا جميعا ينطلقون إلى باريس ولندن، وغيرهما بمرور الوقت.

رحالة القرن الثالث الهجرى
التاسع الميلادى

١- محمد بن موسى المنجم
٢- سلام الترجمان
٣- سليمان التاجر
٤- ابن وهب القرشى
٥- اليعقوبى
٦- ابن خرداذبة
٧- ابن رستة
٨- ابن الفقيه

محمد بن موسى المنجم

٢٢٧هـ - ٨٤٢م

واحد من أوائل الذين ارتحلوا إلى غير وطنه من الأمصار، وطوَّف بعديد من البلاد، وكان عالما بالهندسة والنجوم والحكمة والموسيقى ولا نعرف عنه الكثير، غير أن اسمه هو محمد بن موسى بن شاكر المنجم الخوارزمى، ورد ذكره فى كتاب «**البلدان**» لليعقوبى حيث قال (ص٢٦٦):

«وعزم المتوكل أن يبتنى مدينة ينتقل إليها وتنسب إليه ويكون له بها الذكر، فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين أن يختاروا موضعا، فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة. وقيل له إن المعتصم قد كان على أن يبنى هاهنا مدينة ويحفر نهرا قد كان فى الدهر القديم، فاعتزم على ذلك وابتدأ النظر فيه فى سنة خمس وأربعين ومائتين».

ومن المعروف أن المتوكل سمى المدينة التى شارك فى بنائها محمد بن موسى المعزية وسماها أيضًا المتوكلية.

قام ابن موسى برحلتين استأذن فيهما الخليفة الواثق: الأولى سنة ٢٢٧هـ إلى بيزنطية، والثانية إلى بلاد الخزر بصحبة سلام الترجمان ليطمئن على أن قبائل يأجوج ومأجوج لم يفتحوا السد، وأنه لايزال قائما يحول بينهم وبين مهاجمة من هم دونه من القبائل والشعوب.

أما الرحلة الأولى فقد قام بها بعد الحصول على موافقة بيزنطية للارتحال إلى آسيا الصغرى، لفحص كهف الرقيم بين عمورية ونيقية، وليتحقق من وجود الجثث المحنطة الوارد ذكرها فى القرآن الكريم فيما يسمى «أهل الكهف».

وقد وردت أنباء عن الرحلة وبعض جوانبها فى «المسالك والممالك» لابن خرداذبة، ومروج الذهب للمسعودى، كما وردت فى معجم البلدان لياقوت

الحموى، وأهل الكهف هم سبعة من الشهداء حبسوا فى كهف، أحكم غلقه بالقرب من إفسوس أيام الاضطهاد الذى مارسه ديسيوس «حوالى ٢٥٠م»، وبعد مدة طويلة أفاق الرجال السبعة أيام ثيوديسيوس الثانى المتوفى ٤٥٠م، ثم عادوا للنوم إلى اليوم الآخر، وقصتهم شائعة فى المسيحية، ومن أشهر من تناولها فى الأدب الكاتب المسرحى والروائى الكبير توفيق الحكيم فى مسرحيته الشهيرة، التى تحمل اسمهم، وقد صدرت عام ١٩٣٣.

وقد جاء عنهم فى الذكر الحكيم قوله سبحانه فى «سورة الكهف ٩»: ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا** ﴾ وقيل فى تفسير الرقيم هو لوح رصاص، كتبت عليه أنسابهم وأسماؤهم ودينهم ومما هربوا، وقيل الرقيم: اسم القرية التى كانوا فيها، وقيل إنه اسم الجبل الذى فيه الكهف، وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال: ماأدرى ما الرقيم أكتاب أم بنيان، وروى غيره عن ابن عباس، أصحاب الرقيم سبعة وأسماؤهم: يمليخا، مكسملينا، مشلينا، مرطونس دبريوس، سرابيون، افستطيوس واسم كلبهم قطمير واسم ملكهم دقيانوس، واسم مدينتهم التى خرجوا منها أفسوس ورستاقها الرس واسم الكهف الرقيم وكان فوقهم القبطى دون الكردى، والكهف المذكور الذى فيه أصحاب الكهف بين عمورية ونيقية، وبينه وبين طرسوس عشرة أيام أو أحد عشر يوما[1].

يقول ابن خرداذبة:

«فأما أصحاب الرقيم فبخرمة رستاق بين عمورية ونيقية، وكان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم الخوارزمى إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم، وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم فحدثنى محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه معه من صار به إلى قرة ثم سار أربع مراحل، وإذا جبيل قطر أسفله من ألف ذراع، وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم».

قال محمد بن موسى:

«فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته، فإذا بئر محفورة لها سعة تبينا الماء فى قعرها، ثم نزلنا إلى باب السرب فمشينا فيه مقدار ثلاثمائة خطوة، فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه فإذا رواق فى الجبل على أساطين منقورة وفيه عدة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقداره قارة، عليه باب حجر منقورة فيه الموتى ورجل موكل بحفظهم معه خصيان روقة، وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة يريد التمويه ليدوم كسبه بهم، فقلت له دعنى أنظر إليهم وأنت برىء فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى، فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد، وإذ أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم، غير أنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته.

وأحضر الموكل بهم طعاما وسألنا الغذاء عنده، فلما ذقنا طعامه أنكرنا أنفسنا فتهوعنا، وإنما أراد أن يقتلنا أو يغصنا فيصح له ما كان يدعيه عند ملك الروم من أنهم أصحاب الرقيم، فقلنا له إنما ظننا أنك ترينا موتى يشبهون الأحياء وليس هؤلاء كذلك»[٢].

هذا هو ما ذكره ابن خرداذبة عن رحلة محمد بن موسى الخوارزمى، وقد نقلها عنه الكثيرون منهم المسعودى والحموى، وقد تشكك بعض المستشرقين فى قيام بن موسى بهذه الرحلة كما تشككوا فى رحلة سلام الترجمان، ولكنها رحلة حقيقية أجمع عدد من الرواة والعلماء على حدوثها، فضلا عما ذكره ابن خرداذبة، وقد نقل عن بن موسى مباشرة والتقى به لقاء شخصيا كما فعل مع سلام.

ولم يسجل ابن موسى عن رحلته رسالة، ولكنه لا شك قدم تقريرا عنها للخليفة الواثق الذى كلفه بها، وإن لم يرد شىء فى كتب الأخبار والسير عن هذا التقرير.

وتمثل هذه الرحلة مع رحلة سلام التباشير الأولى للرحلة العربية، وهى التى

ذكرها المؤرخون والكتاب، ولعل هناك ثمة رحلات أخرى لغيرهما لم يتحدث عنها أصحابها، وتظل لرحلات ابن موسى وسلام قيمتها التاريخية والجغرافية والدينية والأدبية أيضاً، رغم ضآلة النصوص المتبقية لنا.

ولا يفوتنا أن نشير إلى العبارات الأخيرة فى رواية ابن موسى، حيث يقول:

«..وأحضر الموكل بهم طعاما وسألنا الغذاء عنده، فلما ذقنا طعامه أنكرنا أنفسنا فتهوعنا، وإنما أراد أن يقتلنا أو يغصنا فيصح له ما كان يدعيه عند ملك الروم من أنهم أصحاب الرقيم، فقلنا له إنما ظننا إنك ترينا موتى يشبهون الأحياء وليس هؤلاء كذلك».

وتنتج لنا هذه العبارات عددا من الملاحظات:

١- أن الموكل بالحفاظ على الجثث حاول قتلهم أو تغييبهم عن الوعى ليبين بالخدعة أنهم أصحاب الكهف.

٢- يشكك ابن موسى أنهم أصحاب الكهف.

٣- أن الموكل يفعل ذلك مع زائريهم كى يدوم عيشه وعمله بوصفه مسئولا عنهم.

٤- أن الموكل يفعل ذلك لخداع ملك الروم، وهذه إشارة إلى أن كثيرا مما يقال عن بعض المعجزات، يكون فى الحقيقة من صنع القائمين عليه.

٥- كان تصور ابن موسى أنه ومن معه سوف يرى موتى، ولكنهم لازالوا كالأحياء كأن تنبت لهم شعور وتدب الحرارة فى أجسامهم وما شابه ذلك، لكنه وجد جثثهم متهرئة وملابسهم تتفرك فى اليد، وقد حفظ هذه الأجساد من التعفن ما دهنوه بها من الصبر والمر والكافور.

وكان ابن موسى كما ذكر صادقا حريصا على نقل ما رأى، دون أن يقع فريسة الأوهام باسم الدين، فيقول إنه شاهد بعينى رأسه الجثث السبعة.. إلخ.

وإذا كنا على ثقة من إتمام هذه الرحلة، فلا يتعين أن نغفل بالقصد أو بغيره ذكر أنباء عن رحلة مماثلة، وردت فى معجم البلدان، ونقلها القزوينى يحيط بها

الشك ولم نعرف بالضبط من الذى أنشأها وصاغها على هذا النحو الذى ذكرت به، وبطلها هو عبادة بن الصامت الصحابى الشهير، آمن بالنبى وصدقه قبل هجرته من مكة، وحضر بدرا، وكان له دور بارز فى فتح مصر وتولى حمص، وفى عام ٢٣هـ غزا الروم مع معاوية وتوفى بالرملة عام (٣٤هـ - ٦٥٤م) عن اثنين وسبعين عاما، والقصة على لسان عبادة بن الصامت يتحدث عن الرقيم الذى يرقد فيه أهل الكهف، إذ يقول:

«بعثنى أبو بكر رضى الله عنه سنة استخلف إلى ملك الروم، أدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب، قال فسرت حتى دخلت بلد الروم فلما دنوت إلى قسطنطينية لاح لنا جبل أحمر قيل إن فيه أصحاب الكهف والرقيم، ودفعنا فيه إلى دير وسألنا أهل الدير عنهم، فأوقفونا على سرداب فى الجبل، فقلنا لهم إنا نريد أن ننظر إليهم، فقالوا أعطونا شيئا فوهبنا لهم دينارا فدخلوا ودخلنا معهم فى ذلك السرداب وكان عليه باب حديد ففتحوه، فانتهينا إلى بيت عظيم محفور فى الجبل فيه ثلاثة عشر رجلا مضطجعين على ظهورهم، كأنهم رقود وعلى كل واحد منهم جبة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم إلى أرجلهم، فلم ندر ما ثيابهم أمن صوف أو وبر أم غير ذلك إلا أنها كانت أصلب من الديباج، وإذا هى تقعقع من الصفاقة والجودة، ورأينا على أكثرهم خفافا إلى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال محصوفة ولخفافهم ونعالهم من جودة الخرز ولين الجلود ما لم ير مثله، فكشف عن وجوههم رجلا بعد رجل فإذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء، وإذا الشيب قد خط بعضهم وبعضهم شبان سود الشعور وبعضهم موفورة شعورهم وبعضهم مطمومة هم على زى المسلمين،فانتهينا إلى آخرهم فإذا هو مضروب الوجه بالسيف، وكأنه فى ذلك اليوم ضرب، فسألنا أولئك الذين أدخلونا إليهم عن حالهم، فأخبرونا أنهم يدخلون إليهم فى كل يوم عيد لهم يجتمع أهل تلك البلاد من سائر المدن والقرى إلى باب هذا الكهف فنقيمهم أياما من غير أن يمسهم أحد فننفض جباههم وأكسيتهم من التراب ونقلم أظفارهم ونقص شواربهم، ثم نضجعهم بعد ذلك

على هيئتهم التى ترونها، فسألناهم من هم وما أمرهم ومنذ كم هم بذلك المكان، فذكروا أنهم يجدون فى كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح عليه السلام بأربعمائة سنة، وأنهم كانوا أنبياء بعثوا بعصر واحد وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئا غير هذا».

معجم البلدان جـ٣ ص٦١، ٦٢.

وعلق ياقوت الحموى على هذه الرواية قائلاً:

«قال عبدالله الفقير إليه، هذا ما نقلته عن كتاب الثقات والله أعلم بصحته».

ونحن نقول مثلما قال الحموى.

سلام الترجمان

٢٢٧هـ - ٨٤٢م

رجل من العراق عاش فى زمن الخليفة العباسى الواثق بالله[٣] (٢٢٧ - ٢٣٢هـ)، اشتهر بين أهل سر من رأى بإجادته التحدث بعديد من اللغات حتى سمى الترجمان، ولا نعرف شيئا من أخباره، ولم يرد له ذكر فى أى من معاجم الأعلام، كما لم يذكره المؤرخون وكتاب السير.

قام سلام الترجمان بتكليف من الواثق برحلة إلى بحر قزوين ليعاين سد يأجوج ومأجوج، وبدأت رحلته عام ٢٢٧هـ من سر من رأى، وقد مر بعدة بلدان حتى وصل إلى السد، وقد وردت تفاصيل رحلته فى «المسالك والممالك» لابن خرداذبة، كما ذكرها كل من الاصطخرى فى كتابه الذى يحمل الاسم نفسه وياقوت الحموى فى معجمه.

سد يأجوج ومأجوج:

يأجوج ومأجوج قوم ورد ذكرهم لأول مرة فى القرآن الكريم فى سورة [الكهف ٩٣ - ٩٨]، حيث يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ صدق الله العظيم

وورد ذكرهم فى سورة الأنبياء (٩٦)، حيث يقول جل جلاله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾.

وقد جاء فى تفسير هذه الآيات:

إن أهل القرية التى بين الجبلين قالوا لذى القرنين إن يأجوج ومأجوج يفسدون فى أرضنا، فهل نجعل لك جعلا على أن تقيم بيننا وبينهم سدا؟ قال ما جعلنى الله مكينا فيه من الملك والسلطان خير مما تبذلونه لى، فأعينونى بقوة من الفعلة أجعل بينكم وبينهم حاجزا حصينا، آتونى قطع الحديد حتى إذا سوى بين جانبى الجبلين بما وضعه منها بينهما، قال للعمال انفخوا فى الأكوار والحديد، حتى إذا جعله نارا، قال آتونى نحاسا مذابا أفرغه عليه فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه بالصعود، وما استطاعوا له نقبا.. قال هذا رحمة من ربى على عباده، فإذا جاء وعده بخروج يأجوج ومأجوج أو بقيام الساعة، جعله أرضا مستوية وكان وعد ربى كائنا لا محالة[٤].

رحلة سلام الترجمان:

رأى الواثق بالله فى منامه كأن السد الذى بناه ذو القرنين، ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج قد انفتح، ففكر أن يبعث رجلا عالما ومعه الأعوان ليتأكد من ذلك، ولعل هذا الحلم كان نتيجة الشائعات التى انتشرت عن تحرك القبائل التركية فى أواسط آسيا بسبب قضاء القرغيز على قبائل الأويغور عام ٨٤٠م، وقد فزع خشية أن يكون ما رآه صحيحا. وقد أورد ذلك سلام الترجمان فى كتاب قدمه للواثق بعد عودته من رحلته، وذكر ابن خرداذبة[٥] أن سلامًا قص عليه قصة رحلته بنفسه، وكان معه الرحالة محمد بن موسى بن شاكر المنجم.

ونرى أن ننشر النص كاملا كما ورد عند ابن خرداذبة، الذى يقول:

فحدثنى سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى فى منامه كأن السد، الذى بناه ذو القرنين بيننا وبين مأجوج قد انفتح، فطلب رجلا يخرجه إلى الموضع فيستخبر

خبره، فقال أشناس ما هاهنا أحد يصلح إلا سلام الترجمان وكان يتكلم بثلثين «ثلاثين» لسانا، فقال فدعا بى الواثق وقال أريد أن تخرج إلى السد حتى تعاينه وتجيئنى بخبره وضم إلى خمسين رجلا شباب أقوياء ووصلنى بخمسة آلاف دينار وأعطانى ديتى عشرة آلاف درهم وأمر، فأعطى كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة، وأمر أن يهيأ للرجال اللبابيد وتفش بالأديم، واستعمل لهم اللستبانات بالفراء والركب الخشب وأعطانى مائتى بغل لحمل الزاد والماء، فشخصنا من سر من رأى بكتاب من الواثق بالله إلى إسحق بن إسماعيل صاحب أرمينية وهو بتفليس فى إنفاذنا، وكتب لنا إسحق إلى صاحب السرير، وكتب لنا إلى ملك اللان، وكتب لنا ملك اللان إلى فيلان شاه، وكتب لنا فيلان شاه إلى طرخان ملك الخزر فأقمنا عند ملك الخزر يوما وليلة حتى وجه معنا خمسة أولاد، فسرنا من عنده ستة وعشرين يوما، فانتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلا نشمه من الرائحة المنكرة فسرنا فيها عشرة أيام، ثم صرنا إلى مدن خراب فسرنا فيها عشرين يوما فسألنا عن حال تلك المدن فُخبِّرنا أنها المدن التى كان يأجوج ومأجوج يتطرقونها فيخربونها، ثم صرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذى فى شق منه السد وفى تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرأون القرآن لهم كتاتيب ومساجد، فسألونا من أين أقبلنا فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين، فأقبلوا يتعجبون ويقولون: أمير المؤمنين، فنقول: نعم، فقالوا شيخ هو أم شاب فقلنا شاب فعجبوا أيضاً، فقالوا أين يكون؟ فقلنا بالعراق فى مدينة يقال لها سُر من رأى فقالوا ما سمعنا بهذا قط.

وبين كل حصن من الحصون إلى الحصن الآخر فرسخ إلى فرسخين أقل أو أكثر، ثم صرنا إلى مدينة يقال لها أية تربيعها(٦) عشرة فراسخ، ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فوقها وفيها مزارع وأرجاء داخل المدينة، وهى التى كان ينزلها ذو القرنين بعسكره بينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام وبينها وبين السد حصون وقرى حتى تصير إلى السد فى اليوم الثالث، وهو جبل مستدير ذكروا أن يأجوج ومأجوج فيه وهما صنفان، وذكروا أن يأجوج أطول من مأجوج ويكون طول

أحدهم ما بين ذراع إلى ذراع ونصف وأقل وأكثر، ثم صرنا إلى جبل عال عليه حصن، والسد الذى بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع، وهو الطريق الذى يخرجون منه فيتفرقون فى الأرض فحفر أساسه ثلاثين ذراعا إلى أسفل وبناه بالحديد والنحاس حتى ساقه إلى وجه الأرض، ثم رفع عضادتين مما يلى الجبل من جنبى الفج عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعا فى سُمك خمسين ذراعا».

ويمضى سلام فى وصف جسم السد إلى أن يقول:

وعليه سبع وثلثين «ثلاثين» شرفة، وإذا باب حديد مصراعين معلقين عرض كل مصراع خمسين وسبعين ذراعا فى تخن خمس أذرع، وقائمتاها فى دوارة على قدر الروند لا يدخل من الباب ولا من الجبل ريح كأنه خلق خلقه، وعلى الباب قفل طوله سبع أذرع فى غلظ باع فى الاستدارة، والقفل لا يحتضنه رجلان وارتفاع القفل فى الأرض خمس وعشرون ذراعا، وفوق القفل بقدر خمس أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل.

ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتى ذراع فى مائتى ذراع، وعلى باب هذين الحصنين شجرتان، وبين الحصنين عين عذبة، وفى أحد الحصنين آلة البناء التى بنى بها السد من القدور الحديد والمغارف الحديد، ورئيس تلك الحصون يركب فى كل يوم اثنين وخميس،وهم يتوارثون ذلك الباب كما يتوارث الخلفاء الخلافة، يجىء راكب ومعه ثلاثة رجال على عنق كل رجل مرزبة ومع الباب درجة فيصعد على أعلى الدرجة، فيضرب القفل ضربة فى أول النهار فيسمع لها جلبة مثل كور الزنانير، ثم يخمدون، فإذا كان عند الظهر ضربه ضربة أخرى، ويصغى بأذنه إلى الباب فتكون جلبتهم فى الثانية أشد من الأولى، ثم يخمدون فإذا كان وقت العصر ضرب ضربة أخرى فيضمون مثل ذلك ثم يقعد إلى مغيب الشمس، ثم ينصرف الغرض فى قرع القفل أن يسمع من وراء الباب، فيعلموا أن هناك حفظة، ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا فى الباب حدثا.

قال سلام:

فقلت لمن كان بالحضرة من أهل الحصون هل عاب من هذا الباب شيء قط قالوا ما فيه إلا هذا الشق، والشق كان بالعرض مثل الخيط دقيق، فقلت تخشون عليه شيئاً، فقالوا لا إن هذا الباب تخنه خمس أذرع بذراع الإسكندر يكون ذراعا ونصف بالأسود كل ذراع واحدة من ذراع الإسكندر، قال فدنوت وأخرجت من خفى سكيناً، فحككت موضع الشق فأخرج منه مقدار نصف درهم وأشده في منديل لأريه الواثق بالله، وعلى فرد مصراع الباب الأيمن فى أعلاه مكتوب بالحديد باللسان الأول، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا».

وننظر إلى البناية وأكثره مخطط ساق أصفر من نحاس وساق أسود من حديد، وفى الجبل محفور الموضع الذى صب فيه الأبواب وموضع القدور التى كان يخلط فيها النحاس، والموضع الذى كان يغلى فيه الرصاص والنحاس وقدور شبيهة بالصفر لكل قدر ثلاث عُرى[٧] فيها السلاسل والكلاليب، التى كان يمد بها النحاس إلى فوق السور وسألنا من هناك هل رأيتم من يأجوج ومأجوج أحدا، فذكروا أنهم رأوا مرة عددا فوق الجبل، فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم، وكان مقدار الرجل فى رأى العين شبرا ونصفا، والجبل من خارج ليس له متن ولا سفح ولا عليه نبات ولا حشيش ولا شجرة ولا غير ذلك، وهو جبل مُسلنطح قائم أس أبيض.

فلما انصرفنا أخذ الأدلاء بنا إلى ناحية فراسان، وكان الملك يسمى اللب ثم خرجنا من ذلك الموضع وَصرنا إلى موضع ملك يقال له طبانوين، وهو صاحب الخراج فأقمنا عندهم أياما وسرنا من ذلك الموضع حتى وردنا سمرقند فى ثمانية أشهر ووردنا على أسبيشاب، وعبرنا نهر بلخ ثم صرنا إلى شروسنة وإلى بخارا وإلى ترمذ ثم وصلنا إلى نيسابور.

ومات من الرجال الذين كانوا معنا، ومن مرض منهم فى الذهاب اثنان وعشرون رجلا، من مات منهم دفن فى ثيابه، ومن مرض خلفناه مريضا فى

بعض القرى، ومات فى المرجع أربعة عشر رجلا، فوردنا نيسابور ونحن أربعة عشر رجلا، وكان أصحاب الحصون زودونا ما كفانا، ثم صرنا إلى عبدالله ابن طاهر، فوصلنى بثمانية آلاف درهم ووصل كل رجل معى بخمسمائة درهم، وأجرى للفارس خمسة دراهم وللراجل ثلثة (ثلاثة) دراهم فى كل يوم إلى الرى، ولم يسلم من البغال التى كانت معنا إلا ثلثة (ثلاثة) وعشرون بغلا، ووردنا سر من رأى، فدخلت على الواثق فأخبرته بالقصة وأريته الحديد الذى كنت حككته من الباب فحمد الله وأمر بصدقة يتصدق بها وأعطى الرجال كل رجل ألف دينار، وكان وصولنا إلى السد فى ستة عشر شهرا، ورجعنا فى اثنى عشر شهرا وأيام».

يقول ابن خرداذبة:

فحدثنى سلام الترجمان بجملة هذا الخبر، ثم أملاه علىَّ من كتاب كان كتبه للواثق بالله.

وبوسعنا أن نلحظ أمانة الرجل فى قص ما حدث، حريصا على أدق التفصيلات دون أن يصف لنا البلاد التى مر بها ولا أحوال أهلها مكتفياً بالتركيز على الهدف من رحلته، وهو تقديم تقرير بحالة السد، دون أن يتناول غيره من المشاهدات أو العمران، وتكشف عباراته عن بساطة أسلوبه وخلوه من كل خبرة أدبية.

وعن هذه الرحلة، قال المستشرق الفرنسى **كرادى فو:**

من المحتمل أن هذه الرحلة كانت إلى الحصون الواقعة فى جبال القوقاز بالقرب من دربند فى إقليم داغستان غربى بحر قزوين(٨).

ويرى **أشبرنجر** أن الرحلة مجرد أسطورة، وليس لها من الحقيقة نصيب، ويذهب إلى مثل ما ذهب إليه **جريجوريف ومينورسكى** غير أن **دى خويه** يرى أنها رحلة حقيقة، فى حين أن **فاسيليف** لا يستبعد أن يكون سلام قد أخبر الخليفة بالحكايات المحلية التى سمعها من سكان البلدان التى وصل إليها،

ويؤيده فى ذلك **كراتشكوفسكى** قائلا:

إن رأى فاسيليف هو الأقرب إلى الصحة[٩].

أما نحن فنرى أن الرحلة حقيقية لعدة أسباب:

أولا: أنها تمت فى عهد الواثق بالله، وقد كان معروفاً عنه حبه للعلم والمعرفة ومحاولاته أن يعيد عصر المأمون وكان حريصا على تقليده ولهذا تحمس لفكرة البعث التى يمكن أن تضيف إلى عهده وجهاً من وجوه المجد خاصة أنه كان فى أولى سنوات حكمه.

ثانيا: ان ابن خرداذبة بوصفه أحد رواة هذه الرحلة كان معاصراً له، ومن مواطنى المدينة نفسها سر من رأى أى أنه - فى رأينا - الجدير بالثقة أكثر من الأصطخرى (ت ٣٢٩هـ) ومن ياقوت المتأخر عنهما (ت ٦٢٦هـ)، ولذلك اعتمدنا على روايته لأنه نقلها نقلاً مباشراً من سلام.

ثالثا: يخلو نص الرحلة من العجائب والغرائب التى اعتاد بعض الرحالة أن يحشدوا بها مصنفاتهم جذباً للانتباه وتسرية وإمتاعا للسامعين والقراء، وإذا كانت مجرد تقرير، فما الذى يدفع بعض المستشرقين إلى اعتبارها أسطورة مع اعترافنا بأن بها بعض المبالغات.

رابعا: كان بصحبة سلام فى هذه الرحلة،رحالة آخر هو محمد بن موسى المنجم، وقد ارتحل الرجل وحده فى أكثر من رحلة وقصها وغيرها على مواطنه آنذاك، فهل هو الأخرى أسطورة.

ونختم الحديث عن سلام الترجمان ورحلته، مؤكدين أنها حقيقة بغض النظر عن أنه رأى سد يأجوج ومأجوج أم رأى غيره، وهل لايزال السد قائماً أم لا، وربما يكون قد ضل الطريق إلى موضع آخر، كما يقول كراتشكوفسكى الذى يزعم أنه بلغ سور الصين[١٠]. أياً ما كان الأمر، فقد تحقق للواثق ما أراده على الأقل أدبيا وحضاريا، وبحسبه أنه خلف لنا صفحة مشرقة من صفحات الحضارة العربية.

سليمان التاجر
٢٣٧هـ - ٨٥١م

قد تكون هذه إحدى غرائب أدب الرحلة العربية الذى يحفل بالغرائب والعجائب، نعم. . قد تكون كذلك! وإن لم تكن كذلك فماذا ترانا نسميها إذاً؟!

إنها معلومة تاريخية - لم تدحض بعد - احتفظ لنا بها أبو زيد السيرافى فى «**سلسلة التواريخ**» ومن بعده المسعودى فى «**مروج الذهب**» مؤداها أن رائد أدب الرحلات البحرية فى العالم العربى وربما الإسلامى جميعه، لم يكن عالما فلكيا أو جغرافيا أو بحاثة أو ملاحا، ولم يكن مؤرخا أو سفيرا أو أميرا، وإنما كان تاجرا. . نعم مجرد تاجر من سيراف اسمه سليمان، اعتاد السفر إلى الهند والصين لجلب مختلف السلع والمنتجات التى تنتج أو تباع فى هذه البلاد، وعرضها فى أسواق الأقطار العربية خاصة العراق، وكان سبيله إلى ذلك السفر بحرا، حيث يبدأ من الخليج الفارسى إلى المحيط الهندى وشرقا إلى المحيط الهادى.

ولم يصل إلينا ما يشير إلى بقية اسمه أو جانبا من حياته، وكيف يتوفر ذلك وهو الرجل العادى المغمور، ولعل الأهم من هذا جميعه هو أن سليمان لم يفعل كما تعود التجار أن يفعلوا بأن يقصوا قصصهم ومشاهداتهم على ذويهم، ولكنه دون رحلته فى مذكرات عام ٢٣٧هـ - ٨٥١م.

وقد عنى الرجل بوصف الطريق التى سار فيها وما شاهده من الجزر والجبال وما عاينه من الأخطار، وماوقعت عليه عينه أو سمعه من حالات البحر وحيوانه دون تكليف من سلطان أو وزير، ولكنه من غير شك كان يضم بين جوانحه وعيا حضاريا وإنسانيا من نوع رفيع، حقق له تلك المكانة فى تاريخ آداب الرحلة العربية.

لم تصلنا المذكرات فى كتاب مطبوع، أو مخطوط مستقل، وإنما وردت فى كتاب «سلسلة التواريخ» الذى ألفه عراقى من مواطنى سليمان، عاش فى القرن الرابع الهجرى بعد نحو ستين عاما من كتابة سليمان، لمذكراته، وهو يدعى أبا زيد حسن السيرافى، وقد سجل رحلة سليمان وأضاف إليها طائفة من الأخبار من أهل الصين والهند، قام بجمعها من أقوال التجار والبحارة.

وقد عثر على هذه المخطوطة -[١١] المستشرق الفرنسى **رينودو** Renaudot سنة ١٧١٨م فى إحدى مكتبات باريس الخاصة، التى سلمت بعد ذلك إلى دار الكتب الأهلية، وقام المستشرق بترجمة المخطوط ونشرها بعنوان «**أخبار قديمة من الهند والصين**» أوردها اثنان من الرحالة المسلمين، سافرا إلى هناك فى القرن التاسع الميلادى»، وبعدها نشر الأصل العربى وترجمته الفرنسية سنة ١٨٤٥م.

وقد اتضح بعد ذلك أن الأب رينودو أخطأ فى وصف المخطوط، لاعتقاده أنه لاثنين من الرحالة المسلمين، والصحيح أنه رحالة واحد هو التاجر سليمان، وقام المستشرق الهولندى **فران** Ferand بنشر ترجمة جديدة للكتاب سنة ١٩٢١ مضيفا إليه فقرات من «مروج الذهب» للمسعودى ليكمل ما بها من نقص. وتعد مذكرات التاجر سليمان مستندا مهما لفهم المعارف البحرية عند كتاب العربية فى القرون الوسطى، كما يعد أول ما كتب بالعربية عن أحوال الهند والصين وسواحل البحر الشرقى الكبير على أساس من الخبرة الشخصية، والتجربة الحية المباشرة.

أبحر سليمان من سيراف عام ٢٣٨م إلى مسقط على ساحل الجزيرة العربية، ثم إلى كلم على ساحل مليبار، ثم مر بمضيق تالك بشمال جزيرة سيلان وعبر خليج البنغال فوصل إلى جزيرة لنجبا لوس «إحدى جزر نيكو بار»، ثم تقدم إلى كله بره على ساحل الملايو الغربى، ومن هناك إلى جزيرة تيومن الواقعة إلى الجنوب الغربى من ملقا، ومنها إلى رأس القديس يعقوب قرب سايجون، ومن

هناك إلى جزيرة هاينان فعبر المضيق الذى يفصلها من الصين ليصل إلى ميناء خانفوا أو كانتون الحديثة بالصين، ولم يكتف سليمان بذكر المسافات والطرق، بل خلف لنا وصفا حيا للسواحل والجزر والبحار وما فيها من الحيوان والنبات والسكان والمحاصيل والمنتجات.

نماذج من مذكرات سليمان

«والبحر الثالث بحر هر كند، وبينه وبين بحر لاروى جزائر كبيرة يقال إنها ألف وتسعمائة جزيرة، وهى فرق ما بين هذين البحرين.. وهذه الجزائر تملكها امرأة، ويقع فيها عنبر عظيم القدر.. وهو ينبت فى قعر البحر نباتاً، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره.. والجزائر عامرة بنخل النارجيل، وبعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلثة (ثلاثة) وأربعة، وكلها عامرة بالناس والنارجيل، ومالهم الودع، والملكة تدخر الودع فى خزائنها.. والودع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح فتؤخذ سعفة من سعف النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق فيها الودع، وهم يدعونه «الكبتج»، وآخر هذه الجزائر سرنديب فى بحر هر كند، وهى رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الديبجات،[١٢] وبسرنديب منها مغاص اللؤلؤ، وفى أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم عليه السلام، وقدمه فى صفا رأس هذا الجبل قدم واحدة.. وحول هذا الجبل معدن الجوهر الياقوت الأحمر والأصفر والأسمانجونى، وفى هذه الجزيرة ملكان، وهى جزيرة عظيمة، فيها العود والذهب، وفى بحرها اللؤلؤ و«الشنك» وهو البوق الذى يُنفخ فيه مما يدخرونه.

وفى هذا البحر إذا ركب إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة، غير أنها واسعة لا تضبط، منها جزيرة يقال لها «الرامنى» فيها عدة ملوك، وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ، وفيها معادن الذهب، ومعادن تدعى «فنصور» يكون الكافور الجيد منها، وفيها فيلة كثيرة، وبها البقم والخيزران، وقوم يأكلون الناس، وهى تشرع على بحرين: هركند وشلاهط.

وتلى هذه الجزائر جزيرة يقال لها: «النيان» لهم ذهب كثير، وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون، وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج، لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين زوج اثنين، وكذلك إن قتل خمسين زوج خمسين امرأة بخمسين قحفا، وسبب ذلك أن أعداهم كثير، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر.

وبعد هذا جزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق كثيرة عراة، الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقا من ورق الشجر، فإذا مرت بهم المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار، وبايعوا أهل العنبر والنارجيل بالحديد، ولا يحتاجون إلى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد، ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر، يقال له أندمان، وأهلهما يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين طوال الأرجل، قدم أحدهم مثل الزراع، عراة ليس لهم قوارب، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم.. وربما أبطأت المراكب فى البحر وتزخر بهم السير بسبب الريح، فينفذ ما فى المركب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيسقون، وربما أصابوا منهم ولكن أكثرهم يفلتون.

وبعد هذه الجزيرة جبال ليست على الطريق، يقال إن منها معادن فضة وليست بمسكونة، وليس كل مركب يريدها يصيبها، وإنما عليها جبل منها يقال له الحشنامى مر به مركب فرأوا الجبل فقصدوا له. فلما ركبوا اشتد عليهم البحر فرموا بجميع ما أخذوا منه.. ثم تجهز الناس بعد ذلك إلى هذا الجبل فلم يعرفوه، ومثل هذا فى البحر كثير لا يحصى من جزائر ممنوعة لا يعرفها البحريون ومنها ما لا يقدرون عليه.

وربما رؤى فى هذا البحر سحاب أبيض، يظل المراكب ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلى له ماء البحر مثل الزوبعة.. فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطرا فيه قذى البحر، فلا أدرى أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا.

وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيجه حتى يغلى كغليان القدور ما فيه إلى الجزائر التى فيه، ويكسر المراكب، ويقذف السمك الميت الكبار، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم، فيغلى لها البحر غليان القدور ويقذف العنبر الكثير.. وكلما كان البحر أغزر وأبعد كان العنبر أجود.. وهذا البحر، أعنى هركند، إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد، وفى هذا البحر سمك يدعى اللخم، وهو سبع يبتلع الناس.

وقد يحدث أن يقل المتاع الذى يصل من الصين إلى البصرة وبغداد. ومن أسباب قلة المتاع حريق ربما وقع بخانفو، وهو مرقى السفن ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين، فيأتى الحريق على المتاع، وذلك أن بيوتهم هناك من خشب ومن قنا مشقق.. ومن أسباب ذلك أن تنكسر المراكب الصادرة والواردة.. أو ينهبوا أو يضطروا إلى المقام الطويل، فيبيعوا المتاع فى غير بلاد العرب.. وربما رمت بهم الرياح إلى اليمن أو غيرها، فيبيعون المتاع هناك، وربما أطالوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل.

وذكر سليمان التاجر أن بخانفو رجلا مسلما يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية، يتوخى ملك الصين ذلك. . وإذا كان فى العيد صلى بالمسلمين، وأن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئا فى أحكامه وعمله بالحق، وبما فى كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام.

فأما المواضع التى يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف، وأن المتاع يحمل من البصرة ومن عمان وغيرها إلى سيراف، فيعبي فى السفن الصينية بسيراف؛ لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه.

والمسافة بين البصرة وسيراف مائة وعشرون فرسخا، فإذا عبى المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء، وخطفوا - وهذه لفظة يستعملها أهل البحر أعنى أقلعوا - إلى موضع يقال له مسقط، وهو آخر عمل عمان، والمسافة من سيراف إليه نحو مائتى

فرسخ. وفى شرقى هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف ابن الصفاق وجزيرة ابن كاوان، وفى هذا البحر جبال عمان، وفيها الموضع الذى يسمى الدردور، وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية، وفيها الجبلان و يقال لهما «كسير وعُوير» وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير.

فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موقع يقال له صحار عمان، فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها، وهناك فيه غنم من بلاد عمان، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند، وتقصد إلى كولم ملى والمسافة من مسقط إلى كولم ملى شهر على اعتدال الريح، وفى كولم ملى مسلحة لحماية الميناء والبلاد التى تحت حكمها، ومنها تؤدى السفن ما يفرض عليها؛ فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن الأصغر ما بين عشرة دنانير إلى دينار.. وبها يستعذبون الماء من آبار.

ثم تخطف المراكب - أى تقلع - إلى بحر هرْكَندْ وبين كولم ملى وبين هركند نحو من شهر، فإذا جاوزوا بحر هركند صاروا إلى موضع يقال له لَنجْ بَالُوس، لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات، وهم قوم بيض كواسج، لايلبسون الثياب، وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زوارق منقورة من خشبة واحدة، ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل، وهو شراب أبيض، فإذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل فهو حلو مثل العسل، فإذا ترك ساعة صار شرابًا، وإذا بقى أياما صار خلا، فيبيعون ذلك بالحديد، وربما وقع إليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد، وإنما يتبايعون بالإشارة يدا بيد، إن كانوا لا يفهمون اللغة، وهم حذاق فى السباحة، فربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطونهم شيئا.

«ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كلاه بار، المملكة والساحل يقال له بار، وهى من مملكة الزابج، متيامنة عن بلاد الهند، يحكمها والزابج ملك، ولباسهم الفوط، يلبس السرى والدنى منهم الفوطة الواحدة، ويستعذبون هناك

الماء من آبار عذبة، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر، والمسافة ما بين هرْكَنْد وكلَه بَار شهر.

«ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له تِيُومَة، وبها ماء عذب لمن أراده والمسافة إليها عشرة أيام.

* ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كُنْدرَنْجْ، المسافة إليه عشرة أيام، وفيه ماء عذب لمن أراده، وكذلك جزائر الهند إذا احتفرت فيها الآبار وجد بها الماء العذب.

ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صَـنَفُ مسيرة عشرة أيام، وبها ماء عذب، ومنه يؤتى بالعود الصنفى، وبها ملك؛ وهم قوم سمر يلبس كل واحد منهم فوطتين. فإذا استعذبوا منها، خطفوا إلى موضع يقال له صُنْدُرْفُولات وهى جزيرة فى البحر، والمسافة إليها عشرة أيام، وفيها ماء عذب، ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صَنْخَىْ، ثم إلى أبواب الصين، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب، فإذا سلم الله من صُنْدُرْفُولات خطفت المراكب إلى الصين فى شهر.

إلا أن الجبال التى تمر بها مسيرة سبعة أيام، فإذا جازت السفينة الأبواب ودخلت الخَوْر، صارت فى ماء عذب إلى الموضع الذى ترسى إليه من بلاد الصين وهو يسمى مدينة خَانْفُو، وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية على شواطئها مسالح وأسواق، وفيها مد وجزر مرتين فى اليوم والليلة، إلا أن المد يكون فيما يلى البصرة إلى جزيرة بنى كاوان إذا توسط القمر السماء، ويكون الجزر عند طلوع القمر وعند مغيبه، أما فيما بين الصين وجزيرة بنى كاوان فالمد يكون إذا طلع القمر، فإذا توسط السماء جزر الماء، فإذا غاب كان المد، فإذا كان فى مقابلة وسط السماء جزر.

«وذكروا أن جزيرة يقال لها مَلْحَان فيما بين سرنديب وكَلَه، وذلك من بلاد

الهند فى شرقى البحر، بها قوم من السود عراة، إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكسًا، وقطعوه وأكلوه نيًا؛ وعدد هؤلاء كثير، وهم فى جزيرة واحدة وليس لهم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل، وقصب السكر عندهم شبيه بالغياض والآجام.

«وذكروا أن فى ناحية البحر سمكا صغيرًا، يطير على وجه الماء، يسمى جراد الماء؛ وذكروا أن بناحية البحر سمكا يخرج حتى يصعد على النارجيل فيشرب ما فى النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر، وذكروا أن فى البحر حيوانا يشبه السرطان، فإذا خرج من البحر صار حجرا، قال ويتخذ منه كحل لبعض علل العين..

«وذكروا أن بقرب الزابج جبلا يسمى جبل النار، لا يقدر على الدنو منه، يظهر منه بالنهار عين باردة عذبة، وعين حارة عذبة».

وقال التاجر سليمان إنه رأى: «سمكا مثل الشراع ربما رفع رأسه فتراه كالشئ العظيم، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة. فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه، ثم فتح فاه فيرى السمك فى جوفه يفيض كأنه يفيض فى بئر. والمراكب التى تكون فى البحر تخافه؛ فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن يتكئ على المركب فيغرقه»(١٣).

ويقول سليمان عن أهل الصين والهند:

«أهل الهند والصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة فأول من يعدون من الأربعة، ملك العرب وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه، إنه ملك من أعظم الملوك وأكثرهم مالاً وأبهاهم جمالاً، وأنه ملك الدين الكبير الذى ليس فوقه شىء ثم بعد ذلك ملك العرب ملك الصين، ثم ملك الروم، فملك الهند الملقب، بلهرا، بلهراى، ملك المخرمى الآذان وهو عند اليهود أشرفهم، وبقية ملوك الهند منقادون إليه. وهو كثير المال يعطى العطاء كما تفعل العرب، وملوكهم يعمرون وربما ملك أحدهم خمسين سنة، وهم يتفانون فى حبهم للعرب لذلك تطول أعمارهم على حد زعمهم».

ويبدو الحديث عن ملوك الدنيا شبيهًا بما ذكره ابن وهب القرشى على لسان ملك الصين، والترتيب نفسه تقريبا لولا أنه أضاف إليه ملك الروم فصاروا خمسة، وليس - فى زعمنا - هذا الاتفاق أو التشابه دليل صحة وحقيقة، ولكن الأقرب إلى الصواب القول أنها جميعا تصدر عن مرجع واحد، أو إن شئت فقل عن رؤية واحدة حتى لو تعددت المصادر.

ونمضى مع سليمان الذى لا يقلل من قيمة رحلته ومذكراته أى ظن أو تشكيك: «**والفقير والغنى والصغير والكبير من أهل الصين يتعلم الخط والكتابة، ولا يمكن أن يصبح أحدهم ملكا إلا بعد الأربعين من عمره، ويقولون فى ذلك.. قد حنكته التجارب. ولهم ملوك صغار يجلسون فى بهو عظيم لينظروا أحكام الناس فأما الملك الأكبر فلا يُرى إلا كل عشرة أشهر، يقول: إذا رآنى الناس استخفوا بى، والرئاسات عندهم لا تقوم إلا بالتجبر**».

«**وإذا غلا السعر عندهم أخرج السلطان من خزانة الطعام فباعه بأرخص من سعر السوق، فلا يبقى عندهم غلاء، ومورد بيت المال الأساسى هو الجزية على الرؤوس، ويختص الملك من المعادن بالملح وحشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه فى كل مدينة بمال عظيم، ويقال له «الساخ» وهو كثير الورق رطب ومرارته قليلة، فيغلى الماء ويذر عليه، فهو ينفعهم من كل شىء وكل ما يدخل علي بيت المال من الجزية هو من هذا الملح وهذا الحشيش.**

وفى كل مدينة شىء يدعو «الدرا» وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة ومربوط بخيط ممدود على ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو فرسخ، فإذا حرك الخيط الممدود أدنى حركة تحرك الجرس، فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على الملك، فيؤذن له بالدخول ليقضى ظلامته».

«**وأهل الصين يتناصحون بينهم، وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين، وليس عليهم خراج فى ضياعهم.**

وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم، وإذا ولد لأحدهم ذكر كتب اسمه عند السلطان، فإذا بلغ ثمانى عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإن بلغ ثمانين سنة لم تؤخذ منه جزية وأجرى عليه من بيت المال، ويقولون:

«أخذنا منه شابا، ونجرى عليه شيخا».

«وأهل الصين أهل ملاه، وأهل الهند يعيبون الملاهى ولا يتخذونها ولايشربون الشراب، ولا الخل، لأنه من الشراب، وليس ذلك عن دين، ولكنه أنفة، ويقولون كيف يدير أمر ملكه من هو سكران، ولا يختتن أهل الهند ولاالصين، وأهل الصين يعبدون الأصنام، ويصلون لها، ويتضرعون لها، ولهم كتب دين، وأهل الهند يطيلون لحاهم ربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع، ولايأخذون من شواربهم، وأكثر أهل الصين لا لحا لهم، خلقة لأكثرهم، وأهل الهند إذا مات لأحدهم ميت حلق رأسه ولحيته».

«وليس لأهل الصين علم، وإنما أصل ديانتهم عن الهند وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون فى فروع دينهم، والطب بالهند والفلسفة، ولأهل الصين أيضا طب وأكبر طبهم الكى، ولهم علم بالنجوم وكذلك بالهند أكثر، ولا أعلم أحدا من الفريقين مسلما ولا يتكلم العربية».

وبعد. . فليس من قبيل المبالغة القول أن مذكرات التاجر السيرافى سليمان يتعين أن تحتل مكانة رفيعة بين نصوص أدب الرحلة العربية، ولم يغفل عن ذلك الباحثون والعلماء تقديرًا لها، بوصفها وثيقة على درجة عالية من الأهمية، من وجهة النظر التاريخية والأدبية والجغرافية.

ولا يفوتنا أن نشيد بعبارات هذا النص، التى جاءت بسيطة متدفقة ومركزة، دلت على التزام صاحبها بموضوعه دون حشو أو زيادة، ودون حشد الأشعار والأخبار والحكايات التى تتداعى إلى الذاكرة بلا توقف، ولعل سبب ذلك قلة ثقافة التاجر وافتقاده إلى الحرفية الأدبية، ومع ذلك فلا يملك المرء إلا أن يدهش

لهذه اللغة التى تفوق كثيرا لغة تاجر، ولعله أملاها على أحد من المثقفين أو ممن يفوقونه خبرة فى مجال الكتابة والتحرير.

وإذا كان هناك من يتشكك فى الرحلة من المستشرقين، فليس ذلك من قبيل التقليل من شأن العرب، ولكنها الحاسة العلمية الدقيقة التى لا تقبل إلا ما كان موثقا وتثبت الأدلة صحته فاتخذوا هذا الموقف، ومع ذلك فقد أعلن صحتها كل من فران وغوستاف لوبون وغيرهما، وتمكن فران فيما يقول كراتشكوفسكى - من أن يتتبع الطريق الذى وصفه سليمان بدقة الخرائط الحديثة[١٤]. ويبقى أن نقرر فى النهاية أن مثل سليمان - رغم بساطته وثقافته المحدودة - يمكن أن يساهم بنصيب فى صنع حضارة بلاده، لو امتلك الوعى والإيمان وحب البشرية لذاتها.

ابن وهب القرشي
(٢٥٦هـ - ٨٧٠م)

رجل غنى من قريش يعرف بابن وهب بن ولد هبَّار بن الأسود، كان ذا قرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم، قام برحلة إلى الصين ذكرها أبو زيد حسن السيرافى فى **«سلسلة التواريخ»** والمسعودى فى **«مروج الذهب»**، ويؤكد رينو المستشرق الفرنسى الشهير أن المسعودى التقى بالسيرافى سنة ٣٠٣هـ وتبادلا معارفهما.

عاش ابن وهب فى مدينة البصرة، وكان غنيا صاحب تجارة رائجة، يبتاع منتجات الصين والهند من الموانىء القريبة وخاصة سيراف، ويبيعها فى الأسواق لأهل العراق والجزيرة، وفي عام ٢٥٦ قتل الخليفة المهتدى وتولى بعده المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ)، وسرعان ما ثار فى عهده الزنج ودخلوا البصرة وكل المدن والقرى التابعة لها وهاجموا كل من فيها وما فيها، وضربوا رجالها وقتلوا منهم عددًا كبيرًا وأحرقوا متاجرها ومبانيها ونهبوا أموالا كثيرة، وألحقوا بها دمارًا لم تشهده على يد أسوأ المستعمرين، وكان ابن وهب بين من فقدوا ثرواتهم عن آخرها، وبلغ سخطه على الأحوال حدا بعيدا حتى أظلمت الدنيا فى عينه، وبدا له أن الأمور لن تشهد فى القريب بارقة أمل فى أى تحسن أو استقرار، وكان توقعه صحيحا فقد استمرت مشاكل الزنج وثوراتهم حتى سنة ٢٧٠هـ عندما قتل رئيسهم (يهودا)، الذى كان يدعى أنه نبى وأنه مطلع على الغيب وكان له منبر يصعد عليه ويسب عثمان وعليا ومعاوية وطلحة والزبير، ولما قتل زينت بغداد وطافوا فيها برأسه وهى على رمح.

ارتحل ابن وهب إلى سيراف أواخر عام ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، ومنها ركب البحر إلى بلاد الصين، وكان يخامره أمل أن يشترى سلعا ومنتجات مختلفة ويبيعها فيسترد بها ثروته، وكان رجلاً جسورًا صاحب حكمة ورأى، وكان متطلعا دائما إلى صدارة قومه، يتميز بهمة عالية وحصافة، وبعد أن بلغ الصين، دفعته همته إلى لقاء ملك الصين الأكبر، وهو الملقب بالبغبور (بغ: سماء، بور: ابن) فسار إلى حاضرة ملكه فى خمدان، وهى تبعد نحو شهرين من مدينة خانفو، تلك المدينة الشهيرة، التى تعود العرب بلوغها والمقام فيها وجلب السلع منها.

يقول المسعودى فى مروج الذهب (١٤٢، ١٤٣):

«ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلا من قريش من ولد هبار ابن الأسود لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر، خرج هذا الرجل من مدينة سيراف، وكان من أرباب البصرة وأرباب النعم بها، وذوى الأحوال الحسنة، ثم ركب منها فى بعض مراكب بلاد الهند إلى أن انتهى إلى بلاد الصين (فصار) إلى مدينة خانفو، ثم دعته همته إلى أن صار إلى دار ملك الصين، وكان الملك يومئذ بمدينة خمدان، وهى من كبار مدنهم ومن عظيم أمصارهم، فأقام بباب الملك مدة طويلة، يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب، فأمر الملك بعد هذه المدة الطويلة بإنزاله فى بعض المساكن وإزاحة العلة من أموره، وجميع ما يحتاج إليه، وكتب إلى الملك المقيم بخانفو يأمره بالبحث عنه، وسأل التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبى العرب ﷺ ، فكتب صاحب خانفو بصلة نسبه، فأذن له فى الوصول إليه ووصله بمال واسع وأعاده إلى العراق، وكان شيخًا فهما، فأخبر أنه لما وصل إليه وسأله عن العرب، وكيف أزالوا ملك العجم فقال له:

- بالله عز وجل وما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله عز وجل، فقال له:

- لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأنفسها وأوسعها ريعا وأكثرها أموالا وأعقلها رجالا وأهداها صوتا (أبعدها صيتا)، ثم قال له: فما منزلة سائر الملوك عندكم؟ فقال ابن وهب: مالى بهم علم، قال الملك للترجمان: قل له إنا نعد الملوك خمسة، أوسعهم ملكا الذى يملك العراق، لأنه فى وسط الدنيا والملوك محدقة به ونجد اسمه ملك الملوك، وبعده ملكنا هذا، ونجده عندنا ملك الناس؛ لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا، ولا أضبط ملكه من ضبطنا ملكنا ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس ومن بعده ملك السباع وهو ملك الترك الذى يلينا، وهم سباع الإنس، ومن بعده ملك الفيلة وهو ملك الهند ونجده عندنا ملك الحكمة أيضا لأن أصلها منهم، ومن بعده ملك الروم وهو عندنا ملك الرجال لأنه ليس فى الأرض أتم خلقا من رجاله، ولا أحسن وجوها منهم، فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم.

ثم قال للترجمان: قل له أتعرف صاحبك إن رأيته؟ يعنى رسول الله ﷺ ، قال القرشى: وكيف لى برؤيته وهو عند الله عز وجل فقال: لم أرد هذا وإنما أردت صورته، فقلت: أجل، فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه، فتناول منه درجًا، وقال للترجمان: أره صاحبه فرأيت فى الدرج صور الأنبياء، فحركت شفتى بالصلاة عليهم، ولم يكن عندهم أنى أعرفهم، فقال للترجمان: سله عن تحريك شفتيه، فسألنى فقلت: أصلى على الأنبياء، فقال ومن أين عرفتهم، فقال: بما صور من أمورهم، هذا نوح عليه السلام فى السفينة (ينجو) بمن معه، لما أمر الله عز وجل الماء فعم الماء الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه، فقال: أما نوح فصدقت فى تسميته، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا، وإن كان خبركم صحيحا فعن هذه القطعة، ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرها من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم، ولا نقل إلينا أسلافنا ما وصفتم، وما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها فعن الكوائن العظام التى تفزع النفوس إلى حفظه وتتداوله الأمم ناقلة له.

قال القرشى: فهبت الرد عليه وإقامة الحجة، لعلمى بدفعه ذلك، ثم قلت وهذا موسى ﷺ وبنو إسرائيل. فقال: نعم على قلة البلد الذى كان به وفساد قومه عليه، ثم قلت: هذا عيسى ابن مريم عليه السلام على حماره والحواريون معه، فقال: لقد كان قليل المدة، إنما كان أمده يزيد عن ثلاثين شهرا شيئًا يسيرًا، وعدد من سائر الأنبياء وأخبارهم ما اقتصرت علي ذكر بعضه».

ويتابع المسعودى سرد حكاية ابن وهب قائلا:

«ويزعم هذا القرشى المعروف بابن الهبار أنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قد دون فيها ذكر أسمائهم ومواضع بلدانهم ومقادير أعمارهم وأسباب نبوتهم وسيرهم، وقال: ثم رأيت صورة نبينا محمد ﷺ على جمل وأصحابه محدقون به، فى أرجلهم نعال عربية، من جلود الإبل، وفى أوساطهم الحبال، قد علقوا فيها المساويك، فبكيت، فقال للترجمان: سله عن بكائه، فقلت: هذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد ﷺ ، فقال: صدقت، لقد ملك قومه أجل الممالك، إلا أنه لم يعاين من الملك شيئًا، إنما عاينه من بعده، ومن تولى الأمر على أمته من خلفائه، ورأيت صور أنبياء كثيرة، منهم من قد أشار بيده جامعًا بين سبابته وإبهامه كالحلقة، كأنه يصف أن الخليقة فى مقدار الحلقة ومنهم من قد أشار بسبابته نحو السماء كالمرهب للخليفة بما فوق وغير ذلك، ثم سألنى عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع، فأجبته على قدر ما أعرف منها، ثم قال: كم عمر الدنيا عندكم؟ فقلت: قد تنوزع في ذلك، فبعض يقول ستة آلاف سنة وبعض يقول: دونها، وبعض يقول: أكثر منها، فقال: ذلك عن نبيكم، فقلت: نعم، فضحك ضحكًا كثيرًا ووزيره أيضًا، وهو واقف (دل) على إنكار ذلك، قال: ما حسب نبيكم قال هذا فزللت وقلت: بلى هو قال ذلك، فرأيت الإنكار فى وجهه، ثم قال أنكم تختلفون فى ذلك، فإنكم إنما اختلفتم فى قول نبيكم،

وما قالت الأنبياء لايجب أن يختلف فيه، بل هو مسلم لها، فاحذروا هذا وشبهه أن تحكيه وذكر أشياء كثيرة، ذهبت عنى لطول المدة، ثم قال لى:

- لم عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك منا دارا ونسبا، فقلت له بما حدث على البصرة ووقوعى إلى سيراف ونظرى إلى مركب ينفذ إلى الصين، وما بلغنى من جلال ملك الصين وكثرة الخير به، فأحببت الوقوع إلى تلك الناحية ومشاهدتها، وأنا راجع عنها إلى بلادى وملك ابن عمى، ونخبره بما شاهدت من جلال هذا الملك وسعة هذه البلاد، سأقول بكل حسن وآتى بكل جميل».

يقول ابن وهب: «فسره ذلك وأمر لى بجائزة سنية وبحملى على بغال البريد إلى مدينة خانفو، وكتب إلى ملكها بإكرامى، وتقديمى على جميع من فى ناحيته من سائر الملك وإقامة المنزل لى إلى وقت خروجى، فكنت فى أخصب عيش، وأنعمه إلى أن خرجت من بلاد الصين».

وكان ابن وهب قد حكى قصة رحلته لأبى زيد حسن السيرافى ووردت فى سلسلة التواريخ مع رحلة سليمان التاجر، وقد نقل المسعودى القصتين عن السيرافى.

ويتابع أبو زيد رواية ابن وهب، فيقول: وسألناه (أى القرشى) عن مدينة خمدان التى زار فيها ملك الصين وهى حاضرة الملك، فوصفها ابن وهب، قائلا:

«مدينة خمدان مقسومة إلى قسمين، يفصل بينهما شارع عظيم، فالملك ووزيره وقاضى القضاه وجنوده وخصيانه وجميع أسبابه فى الشق الأيمن منه مما يلى المشرق لا يخالطهم أحد من العامة، وليس فيه شىء من الأسواق، بل أنهار فى سككهم مطردة وأشجار عليها منتظمة ومنازل فسيحة، وفى الشق الأيسر مما يلى المغرب الرعية والتجار والمسيرة والأسواق، فإذا وضح النهار رأيت فيها قهارمة الملك وغلمانه، وغلمان وزرائه، ووكلائهم ما بين راكب وراجل، قد دخلوا إلى الشق الأيسر الذى فيه العامة والتجار، فأخذوا بضائعهم وحوائجهم ثم انصرفوا

فلا يعود واحد منهم إلى هذا الشق إلا فى اليوم الثانى، وأن هذه البلدان فيها كل نزهة وغيضة حسنة وأنهار مطردة إلا النخل فإنه معدوم عندهم.

وأما أهل الصين فمن أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة،وكل عمل لايتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة، فإن لم يخرج أحد فيه عيبا أجاز صانعه وأدخله في جملة صناعه: وإن أخرج أحد فيه عيبا طرحه ولم يجزه، وأن رجلا منهم صوّر سنبلة وقف عليها عصفور، فبقى الثوب مدة وأنه اجتاز به رجل أحد فعاب العمل، فأدخل إلى الملك، وأحضر صاحب العمل، فسأل الأحدب عن العيب، فقال: التعارف عند الناس جميعًا أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وصور هذا المصور السنبلة فنصبها قائمة لا ميل فيها، وأثبت العصفور فوقها منتصبا، فأخطأ، فصدق الأحدب ولم يثب صاحبها بشىء.

«وقصدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء؛ ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز (الحذر) وإعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد منهم بيده».

(مروج الذهب ج١، ١٤٦)

ولا نملك فى نهاية عرضنا لرحلة ابن وهب إلا أن نتوقف أمامها لحظات، نتأملها فى عجالة ونصيخ السمع لأصدائها، وأكاد أسمع إليها - رغم طول العهد - وهى توحى إلينا ببعض النقاط الدالة:

١- أننى أثق ثقة حدس لا ثقة تعتمد على دليل مادى أو عقلى فى أن رحلة ابن وهب حقيقية، بل أثق أنها واحدة من مئات الرحلات المشابهة التى حدثت فى ظروف مختلفة ودوافع متباينة، ولم تجد من يدونها وينقذها من الضياع.

٢- تكشف لنا الرحلة عن استجابة ابن وهب لدعوة الله سبحانه بالسير في الأرض الواسعة والهجرة إلى مواضع أخرى غير المواضع التى تضيق علينا.

٣- تمثل هذه الرحلة وأشباهها المصدر الرئيسى الذى اعتمدت عليه قصص كثيرة من الأدب الشعبى وخاصة ألف ليلة وليلة، وحكاية السندباد، فبطل هذه الروايات فى الأغلب يهرب من الفقر أو الدين، وقد يفر من جريمة ما إلى أن يصل إلى أحد الموانئ، فإذا به يسمع عن مركب على وشك السفر، فيلقى بنفسه فيها برضي أو بغير رضى أصحابها، ويدع نفسه لظروفها، فإذا لم يكن من الموت بد فلا بأس من انتهاج سبيل قد تدفع عنه الموت والفاقة.. ويمضى مع السفين إلى بلاد ترفعه وبلاد تخفضه، حتى يعثر بحظه، وقديما قالوا: ثلاثة خير من ثلاثة. الممات خير من الولادة، وكلب حى خير من أسد ميت، والقبر خير من الفقر «وكم من رجل عالى الهمة قوى القلب، محبا للحياة يستبدل بالقبر فى الأخيرة السفر، فيقول السفر خير من الفقر» وهكذا أمرنا الله جل وعلا.

إلا أننى لا أخفى شكى فى الحوار الذى دار بين ملك الصين وابن وهب، ورؤية صور الأنبياء فأحسب أن ذلك من تصنيف المؤلفين ومن ابتكار الرواة، وليست هذه هى المرة الأولى التى ترد فيها صور الأنبياء، فقد سبق أن ذكرها المؤرخ الشهير الدينورى منسوبة إلى عبد الله بن الصامت، ولعل المقصود بها عبادة بن الصامت الصحابى الجليل، وهو الذى ورد بمعجم ياقوت ذكر تكليف أبى بكر له بالخروج إلى الرقيم لمطالعة حال أصحاب الكهف، وسبق أن ذكرنا ذلك فى الفصل الخاص بمحمد بن موسى.

أما الواقعة الثانية من قصة عبادة والتى حفظها لنا المؤرخ الشهير الدينورى فقد بقيت مهملة إلى الآن: ولعل مرد ذلك إلى أنها نسبت سهواً إلى عبد الله ابن الصامت وليس إلى عبادة، ومسئولية هذا السهو تقع فى أغلب الاحتمال على النساخ لا على المؤرخ.

ولإعطاء فكرة عن الأسطورة نورد القصة التى ذكرها الدينورى:

«ذكر عن عبد الله بن الصامت قال:

وجهنى أبو بكر رضى الله عنه سنة استخلف إلى ملك الروم لأدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب، قال فسرت حتى أتيت القسطنطينية فأذن لنا عظيم الروم فدخلنا عليه فجلسنا ولم نسلم ثم سألنا عن أشياء من أمر الإسلام ثم صرفنا يومنا ذلك ثم دعا بنا يوماً آخر ودعا خادمًا له فكلمه بشىء، فانطلق فأتاه بعتيدة فيها بيوت كثيرة وعلى كل بيت باب صغير ففتح باباً منها فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة رجل أجمل ما يكون من الناس وجهاً مثل دارة القمر ليلة البدر، فقال أتعرفون هذا، قلنا لا، فقال هذا أبونا آدم، ثم رده مكانه، وفتح باباً آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة شيخ جميل الوجه فى وجهه تقطيب كهيئة المحزون المهموم، فقال أتدرون من هذا، قلنا: لا، قال هذا نوح، ثم فتح باباً آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء على صورة نبينا محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء، فلما نظرنا إليه بكينا، فقال ما لكم، فقلنا هذه صورة نبينا محمد ﷺ ، فقال أبدينكم أنها صورة نبيكم، قلنا نعم هى صورة نبينا كأنا نراه حياً فطواها وردها، وقال أما إنها آخر البيوت إلا أنى أحببت أن أعلم ما عندكم، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه خرقة سوداء فيها صورة بيضاء أجمل مايكون من الرجال وأشبههم بنبينا محمد ﷺ ثم قال وهذا إبراهيم، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة رجل آدم كهيئة المحزون المفكر، ثم قال هذا موسى ابن عمران، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة رجل جميل على فرس له جناحان ثم قال وهذا سليمان وهذه الريح تحمله، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة شاب جميل الوجه وفى يده عكازه وعليه مدرعة صوف ثم قال وهذا عيسى روح الله وكلمته، ثم قال إن هذه الصورة وقعت إلى الإسكندرية فتوارثها الملوك من بعده حتى أفضت».

ونؤكد من جديد شكنا فى هذه الأمور، التى لا نظنها تخرج من دائرة الابتكار الإنسانى والتصنيف، الذى يبتغى نشر فكرة ما تعن لصاحبها، والله أعلم بالحقيقة، وتعالى عما يصنعون، إذ يحسبون أنهم يؤكدون قصص القرآن الكريم، وما ورد بكتاب الله ليس فى حاجة إلى هذه الروايات الساذجة.

اليعقـوبـى
ت ٢٨٤هـ - ٨٧م

أحد أهم الجغرافيين والرحالة والمؤرخين العرب خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، ويحظى بقدر كبير من الاحترام لدى الباحثين لأمانته العلمية ودقته وابتعاده عن الغرائب والعجائب. قام برحلات كثيرة امتدت شرقاً إلى الهند، وبلغت أقصاها غرباً برحلته إلى بلاد المغارب والأندلس، وأهم ما خلف لنا من المؤلفات كتاب «**البلدان**» الذى وضعه نحو عام ٢٧٨ هـ (٨٩١م) إبان وجوده فى مصر، وله أيضا كتاب «**التاريخ**» وله أيضا «**أسماء الأمم السالفة**» و«**فتوح المغرب**» و«**مشاكلة الناس لزمانهم**».

هو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبى[١٥]، وقد لقب بالأصبهانى والكاتب المصرى[١٦]، وهو أحد أحفاد «واضح» مولى المنصور، وكان الجد قد شغل وظيفة الحاكم على أرمينيا ومصر[١٧]. ويروى أن والد اليعقوبى كان من كبار عمال البريد، ومن المحتمل أن يكون اليعقوبى قد حذا حذوه، ولا دليل هناك غير كثرة أسفاره وارتباط أغلب رجال أسرته بالوظائف الحكومية، ولا يعرف تاريخ ميلاده، أما وفاته فكانت حوالى عام ٢٨٤هـ - ٨٩٧هـ وكان معاصرًا لابن خرداذبة.

رحلة اليعقوبى:

بدأ رحلته من العراق فزار الشام وفلسطين ومصر، والمغرب وأرمينيا والهند وشبه الجزيرة العربية، وبعد أن آب من رحلته وضع كتابه «البلدان» الذى قال عنه **نفيس أحمد**[١٨]: إن كتاب البلدان يشبه التقاويم الجغرافية الحديثة، ويعد أبا الجغرافية العربية.

يحدثنا اليعقوبى فى مقدمة كتابه عن اهتمامه المبكر بعلم البلدان والمسالك، وكيف اتصلت أسفاره، وكيف وضع الخطة العلمية السديدة لجمع المعلومات والتحقق من صحتها:

«إنى عنيت في عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد؛ لأنى سافرت حديث السن واتصلت أسفارى ودام تغربى فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره فإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك، زرعه ما هو، وساكنيه من هم من عرب أو عجم... شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه مسافة ذلك البلد وما يقرب منه من البلدان، ثم أثبت كل ما يخبرنى به من أثق بصدقه واستظهر بمسألة قوم بعد قوم، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس فى الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم وذكرت من فتح بلداً بلداً وجند مصراً مصراً من الخلفاء والأمراء ومبلغ خراجه وما يرتفع من أمواله، فلم أزل أكتب هذه الأخبار، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلاً وأضيف كل خبر إلى بلده وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته وعلمت أنه لايحيط المخلوق بالغاية ولا يبلغ البشر النهاية وليست شريعة لابد من تمامها ولادين لايكمل إلا بالإحاطة به، وقد يقول أهل العلم فى علم أهل الدين الذى هو الفقه مختصر كتاب فلان الفقيه، ويقول أهل الآداب فى كتب الآداب مثل اللغة والنحو والمغازى والأخبار والسير مختصر كتاب كذا، فجعلنا هذا الكتاب مختصرا لأخبار البلدان، فإن وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا ما لم نضمنه كتابنا هذا فلم نقصد أن يحيط بكل شيء، وقد قال الحكيم ليس طلبى للعلم طمعا في بلوغ قاصيته واستيلاء على نهايته، ولكن معرفة ما لم يسع جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه. وقد ذكرت أسماء الأمصار والأجناد والكور وما فى كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم، ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر، ومن فتحه من قادة

جيوش الإسلام وتأريخ ذلك فى سنته وأوقاته ومبلغ خراجه وسهله وجبله وبره وبحره وهواءه فى شدة حره وبرده ومياهه وشربه»(١٩).

ويقول **كراتشكوفسكى** عن المنهج الذى اتبعه اليعقوبى فى تناوله للبلدان، وتقسيمها على أساس الولايات:

«ومن المستحيل إنكار النزعة التجديدة فى هذا التقسيم على أساس الولايات أما طرق المواصلات فقد نالت اهتماماً كافياً، على الرغم من أن المراحل لم تضبط بالدقة التى التزمها ابن خرداذبة. واهتمام اليعقوبى يتجه بالذات إلى الجانب الإحصائى الطوبوجرافى، وهو يولى عناية كبرى للخراج، ولكن كتابه يحفل أيضا بمسائل الإثنوغرافيا والصناعة والفنون».

وقد اعترف عدد من الباحثين بأمانة اليعقوبى العلمية وتفرده بمعلومات وافية لا توجد فى المصادر الأخرى. ويمثل وصفه للخطط التاريخية لبغداد وسامرا أهمية منقطعة النظير، كما يجب ملاحظة أنه ترك وصفاً لإفريقيا قبل انفصالها مباشرة عن بقية أراضى الخلافة على يد الفاطميين، وأنه أورد أخباراً قيمة عن الأندلس من بينها خبر إغارة النورمان عليها فى سنة ٨٤٤م؛ حيث ترد فى صدد ذلك عبارته التى اشتهرت بالتالى وهى «**الذين يقال لهم الروس**»، مما أدى إلى اشتهار اسم اليعقوبى فى الدوائر العلمية وظهور عدد من الأبحاث حول هذا.

وأول من لفت الأنظار إلى ذلك **فران** فى عام ١٨٣٨ اعتماداً على المخطوطة التى اكتشفها **مخلينسكى** قبل ذلك بقليل، وقد جمع فران بما عهد فيه من الدقة كل ما استطاع جمعه عن المؤلف وكتابه، وفى العام نفسه بين **سنكوفسكى** لجمهرة القراء أهمية الاكتشاف الذى قام به فران، وذلك فى مقال له بعنوان «أصل الروس»(٢٠) لكن اليعقوبى استهلك نحو ربع الكتاب فى الحديث عن بغداد وسامرا (سر من رأى) بحجة أنها مدينتا الملك ودار الخلافة، ومهما بلغت أهميتها فقد استغرق وصفهما الكثير مما لا يتفق والنهج العلمى المأمول، والذى التزم به إلى حد كبير بقية المصنف.

تمتع اليعقوبى - كما سبقت الإشارة - بتقدير العلماء مثل **مرجليوث ونولدكه وهوتسمان**، وكتب عنه **رينو في** مقدمته الشهيرة عن الجغرافية العربية عام ١٨٤٨، وعنى بطبع «البلدان» وترجمته المستشرق الهولندى **دى خويه** ١٨٦٠، وتناوله الكثيرون فى دراساتهم مثل **بينبول وهركافى وكونيك** وناقش **كارادى فو** منهج اليعقوبى ومواهبه فى كتابه «مفكرو الإسلام»[٢١].

واستحسن الباحثون تجنبه العجائب والخوارق، وامتدحوا كثيرا منهجه الذى يقوم على ما يمكن تسميته الجغرافيا الوصفية المقارنة، فى مثل قوله: فضل العراق وجلالتها وسعتها ووسطها للدنيا، وأنها ليست كالشام الوبيئة الهواء الضيقة المنازل الحزنة الأرض المتصلة الطواعين الجافية الأهل، ولا كمصر المتغيرة الهواء الكثيرة الوباء التى قال إنها بين بحر رطب عفن كثير البحارات الرديئة، التى تولد الأدواء وتفسد الغذاء وبين الجبل اليابس الصلد الذى ليبسه وملوحته وفساده لا ينبت فيه خضر ولاينفجر منه عين ماء، ولا كإفريقية البعيدة عن جزيرة الإسلام وعن بيت الله الحرام الجافية الأهل الكثيرة العدو» **(البلدان ٨)**.

أما عن العراق وبغداد، فقد قال:

«وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض وذكرت بغداد؛ لأنها وسط العراق، والمدينة العظمى التى ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه، وصحة هواء، ولأنه سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكور انتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع الآفاق على أوطانهم فليس من أهل البلد إلا ولهم فيها محلة، ومتجر ومنصرف، فاجتمع بها ما ليس فى مدينة فى الدنيا، ثم يجرى فى حافتيها النهران العظيمان، دجلة والفرات، فتأتيها التجارات، والمسير إليها برًا وبحرًا بأيسر السعى، حتى تكامل بها كل متجر، يحمل من المشرق ومن المغرب، من الإسلام وغير أرض الإسلام، فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت، والترك والديلم والخزر والحبشة، وسائر البلدان حتى يكون بها من تجارات البلدان،

أكثر مما فى تلك البلدان التى خرجت التجارات منها، ويكون مع ذلك أوجد وأمكن حتى كأنما سبقت إليها خيرات الأرض، وجمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت بها بركات العالم، وهى مع هذا مدينة بنى هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم، ولها الاسم المشهور والذكر الذائع ثم هى وسط الدنيا، فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثرى وعذب الماء وزكت الأشجار وطابت الثمار، وأخصبت الزروع وكثرت الخيرات وقرب مستنبط معينها، وباعتدال الهواء وطيب الثرى وعذوبة الماء حسنت أخلاق أهلها، ونضرت وجوههم، وتفتقت أذهانهم، حتى فضلوا الناس فى العلم والفهم والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحذق بكل مناظرة وإحكام كل مهنة، وإتقان كل صناعة، فليس عالم أعلم من عالمهم، ولاأدرى من راويتهم ولا أجدل من متكلميهم، ولاأعرب من نخوتهم ولاأفصح من قارئهم ولا أمهر من متطببهم ولا أكتب من كاتبهم».

تبدو عبارة اليعقوبى من النص السابق سهلة تنثال بلا افتعال، وقد أجاد اليعقوبى وصف بغداد والعراق، وتناول تقريبا مختلف ألوان الحياة فيها، وإن كان من الجلى وقوعه فى أسر عاطفته تجاه وطنه، الذى خلع عليه وعلى أهله صفات لا تتوفر لبلد آخر، الأمر الذى ينطوى على قدر من المبالغة، وإن كانت بغداد فى ذلك الوقت هى بالفعل عروس البلاد وعاصمة الخلافة وأحفل المدن بالخيرات والعلماء والأدباء، وكان حريًا أن تتأثر كتابته بالأوضاع السياسية السائدة آنذاك؛ إذ شهدت تلك الفترة التى كان الخليفة إبانها هو المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ) نزاعًا دائمًا بينه وبين أخيه الموفق طلحة لفساد الأول وانهماكه فى اللذات وكان مستضعفًا لايملك رأيًا.

وفى هذه الفترة استقل ابن طولون بمصر وظفر بحلب وأنطاكية، وضم عدداً من العواصم الأخرى وعلا شأنه، ومن الحوادث الكبرى التى حدثت فى عهده أن الزنج دخلوا البصرة وأعمالها وضربوا وقتلوا وأحرقوا وسبوا ونهبوا أموالا كثيرة واستمر القتال معهم حتى عام ٢٧٠هـ. ونمضى مع اليعقوبى فى رحلته إلى بقية المدن والأقطار، فيصف سامراء والمدائن وجولاء من مدن العراق، ثم يتجه

إلى فارس فيصف همدان وأصبهان ونيسابور، ومرو، ولا يفوته أن يصف لنا الخيرات ويحصى الخراج ويذكر الولاة الذين يتولون زمام الأمور فيها، ومن إيران يتجه شرقا حتى أطراف الهند.

ثم يعود إلى الحجاز، ويصف لنا مكة والمدينة ومدناً أخرى ويهبط إلى اليمن، ويصف صنعاء، قائلاً إنها المدينة العظمى التى ينزلها الولاة والأشراف.

ويصعد اليعقوبى شمالاً فيصل الشام ويطوف بمدنها ويصف دمشق ويتوجه إلى فلسطين ثم ينتقل إلى مصر، ويستقر بها أشهر قليلة، ما يلبث أن يتجه بعدها إلى برقة، ويقول عنها:

«ومدينة برقة فى مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة، وهى مدينة عليها سور وأبواب حديد وخندق، أمر ببناء السور المتوكل على الله[٢٢] وشرب أهلها ماء الأمطار، يأتى من الجبل فى أودية إلى برك عظام قد عملتها الخلفاء والأمراء لشرب أهل مدينة برقة، وحوالى المدينة أرباض، يسكنها الجند قُدُم قد صار لهم الأولاد والأعقاب، وهناك قبائل عربية كثيرة.

ولبرقة جبلان أحدهما يقال له الشرقى والآخر يقال له الغربى، تسكن فيه قبائل أزد وغسان».

ثم يتوجه إلى القيروان فيصفها وصفاً مفصلاً، مستعرضاً تشكيلها كمدينة عامرة بالسكان والخيرات، ومنها يركب البحر إلى الأندلس.

ويحرص اليعقوبى على ذكر الوديان والشعاب والجبال والأنهار والبحار، والمدن والقرى، والمسافات التى بين بعضها البعض. وأهم مصادر الدخل والأنشطة والحرف والزراعات والصناعات والخراج، وهو لا يعنى كثيراً بعادات الناس وطبائعهم، ولكنه يلتفت فى الوقت ذاته إلى جغرافية المكان ومهارات السكان وخيرات الأرض وما قد يوجد فى أعماق البحار، من هذا ما ذكره فى كتابه عن العنبر؛ إذ أورده النويرى فى «**نهاية الأرب**» وذكره د. حسين فوزى:

«العنبر أنواع كثيرة، وأصناف مختلفة، ومعادنه متباينة، وهو يتفاضل بمعادنه وجوهره؛ فأجود أنواعه وأرفعه وأفضله وأحسنه لوناً وأصفاه جوهراً وأغلاه قيمة العنبر الشحرى، وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشحر من أرض اليمن. وزعموا أنه يخرج من البحر فى حلقة البعير أو الصخرة الكبيرة.. تقطعه الريح وشدة الموج فترمى به إلى السواحل. وهو يفور ولا يدنو منه شىء لشدة حرارته وفورانه. فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جمد فتجمعه الناس من السواحل المتصلة بمعادنه. وربما أتت السمكة العظيمة التى يقال لها البال فابتلعت من ذلك العنبر الطافى، وهو يفور فلا يستقر فى جوفها حتى تموت وتطفو، ويطرحها البحر إلى الساحل فيشق جوفها ويستخرج ما فيه من العنبر وهو العنبر السمكى، ويسمى أيضا المبلوع: وربما طرح البحر القطعة العنبر فيبصرها طائر أسود شبيه بالخطاف فيأتى إليها ويرفرف بجناحيه، فإذا دنا منها وسقط عليها تعلقه بمخالبه ومنقاره، فيموت ويبلى ويبقى منقاره ومخالبه فى العنبر، وهو العنبر المناقيرى.

«وبعد العنبر الشحرى العنبر الزنجى، وهو الذى يؤتى به من بلاد الزنج إلى عدن، وهو عنبر أبيض. وبعده العنبر السلاهطى وهو يتفاضل، وأجود السلاهطى الأزرق الكثير الدهن، والذى يستعمل فى الغوالى. وبعد السلاهطى العنبر القاقلى، وهو أشهب جيد الريح حسن المنظر خفيف وفيه يبس يسير، وهو دون السلاهطى لا يصلح للغوالى والتطهير إلا عن ضرورة، وهو صالح للذرائر والكلسات، ويؤتى بهذا العنبر من بحر قاقلة إلى عدن. وبعد القاقلى العنبر الهندى يؤتى به من سواحل الهند الداخلة فيحمل إلى البصرة وغيرها. قال: وعنبر يؤتى به من الهند يسمى الكرك بالوس، ينسب إلى قوم من الهند يجلبونه يعوفون بالكرك بالوس يأتون به إلى قرب عمان يشتريه منهم أصحاب المراكب.

قال: وأما العنبر المغربى فإنه دون هذه الأنواع كلها يؤتى به من بحر الأندلس

فتحمله التجار إلى مصر وهو شبيه فى لونه بالعنبر الشحرى وقد يغالط به. وقد قال لى جماعة من أهل العلم بالعنبر إنه بجبال نابتة فى قرار البحر مختلفة الألوان، تقتلعه الرياح وشدة اضطراب البحر فى الأشتية الشديدة، فلذلك لايكاد يخرج فى الصيف».

(حديث السندباد القديم ١٦٤، ١٦٥).

ابن خُردَاذبة
(٢٠٧-٣٠٠هـ) (٨٢٢-٩١٢م)

هو الجغرافى الرحالة أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن خرداذبة، كان مجوسيا ثم أسلم على يد البرامكة، ويعد أحد رواد المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا الوصفية.

ولد عام ٢٠٧هـ وهو ينتمى لأسرة فارسية، كان والده واليا على طبرستان جنوبى بحر قزوين أوائل القرن الثالث الهجرى، وذاع صيته بسبب نجاحه فى إخضاع بعض مناطق الديلم وضمها إلى حظيرة الإسلام، وقد نشأ عبيد الله فى إحدى بلاد فارس، ثم أرسله أبوه إلى بغداد ليدرس الأدب والموسيقى على يد إسحق الموصلى (٢٣٥هـ - ٨٤٩م)[٢٣]، وبعد أن شب عينه والده عاملا على البريد فى إقليم الجبل.

وقد أغرم بالسفر وساعدته وظيفته على زيارة مختلف الأمصار، وتعود السفر ومشاقه، واقتضى عمله بالبريد ألا يمر بالمدن والقرى مرور السائح، ولكنه مرور العارف المدقق، فقد كان عليه أن يعرف الدروب البعيدة وغير المعبدة والمسافات والطرق، والسهول والجبال، ومواضع عبور الأنهار، وكان عليه أن يكون عالماً بالكور والرباطات والآبار، والمنتجات والمحاصيل وأبرز الرجال المسئولين والأمراء.

أقام ابن خرداذبة فى سامراء على نهر دجلة بين عامى ٨٤٤-٨٤٨م، وألف كتبا مهمة منها **«فى التاريخ»** و**«أدب السماع»** و**«الأنواء»** وكتاب **«الملاهى والأسمار»** و**«جمهرة أنساب الفرس»** وكتاب **«الطبيخ»** و**«الشراب»** و**«المسالك**

والممالك» وهو كتاب فى علم البلدان أو ما سمى بعد ذلك فى الاصطلاح الحديث «الجغرافيا الوصفية»، وقد اعتمد عليه الكثيرون فى معرفة مسالك العالم الإسلامى وممالكه، وهو الذى حفظ لنا رحلات محمد بن موسى المنجم وسلام الترجمان وغيرهما، وقد نال اهتمام الباحثين وثقتهم لأنه خلاصة تجربة حقيقية ومعاينة مباشرة.

ذكر حاجى خليفة فى كشف الظنون أن ابن خرداذبة توفى عام ٣٠٠هـ (٩١٢هـ) أى إنه عمر ما يزيد عن تسعين عاما.

المسالك والممالك:

وضع ابن خرداذبة كتابه «المسالك والممالك» نحو عام ٢٦٢هـ - ٨٧٧م[٢٤]، ويعد - فيما نعلم - أحد الكتاب الأول فى موضوعه، ولم يسبقه مؤلف متكامل فى علم البلدان، ولذلك اعتمد عليه وحذا حذوه كل من خطا بعده فى هذا السبيل مثل الجيهانى وابن حوقل والاصطخرى وقدامة بن جعفر، ويؤكد ابن حوقل أنه كان حريصا كل الحرص على ألا يفارقه كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهانى الذى وضع بعده بنحو ثلاثين عاما:

«وكان لا يفارقنى كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج قدامة بن جعفر» «صورة الأرض ٢٣٦».

وإذا كان الباحثون يرون أن علم البلدان فى صورته الكلاسيكية قد قطع شوطا طيبا نحو التطور على يد كل من أبى زيد البلخى والجيهانى، فإنهم جميعا يؤكدون أن ابن خرداذبة علامة فارقة ومهمة فى مسيرة الفكر الجغرافى العربى خاصة خلال القرن الثالث الهجرى، وقد أحسن الاستفادة من تجربته العملية بصياغة هذا المصنف العلمى، وربما كان كتابه هو الكتاب الثانى الذى يحمل هذا الاسم بعد كتاب «**المسالك والممالك**» لجعفر بن أحمد **المروزى** (ت ٢٧٣هـ).

أما كتاب معاصره أحمد بن الطيب **السرخسى** المتوفى (٢٨٧هـ - ٨٩٩م) وهو بعنوان: «**المسالك والممالك**»، فأغلب الظن أنه رأى النور مع كتاب ابن خرداذبة

وربما بعده بسنوات قليلة، وبعدهم بقرون ظهر كتاب عبدالباسط ابن خليل **الظاهرى** «زبدة المسالك فى كشف الممالك» «القرن التاسع الهجرى».

نشر الكتاب لأول مرة المستشرق الهولندى **دى خويه** فى لندن عام ١٨٨٩ وألحق به نبذا من كتاب «**الخراج وصنعة الكتابة**» **لقدامة** بن جعفر، ولم نهتد إلى السر فى إضافة صفحات من الخراج إلى المسالك، وربما كان السبب هو خوف دى خويه من ضياع صفحات بن قدامة فعمل على نشره، وقد كان المشهور أن المخطوطات العربية والضياع صنوان، يبحث كل منهما عن الآخر.

ولابن خرداذبة كتاب جغرافى آخر هو «الأنواء»، على أن الجدير بالملاحظة حقا فى إنتاج ابن خرداذبة هو محاولته دائما تصنيف مؤلفات تكاد تكون غير مسبوقة، من ذلك كتاب «أدب السماع» وكتاب فى «الطبيخ» ومثله فى «الشراب».

وليس من شك أن اقتحام هذه المحاولات، والكتابة فى هذه الموضوعات يمثل رؤية إنسانية نبيلة ووعيا حضاريا مبكرا، فضلاً عن دلالته على قوة الموهبة ووفرة الزاد الثقافى وعمق وتنوع التجربة الحياتية، وقد كان حريصاً على ترجمة تجاربه المعاشة إلى كتب، مثل كتابه «الملاهى والأسمار» وهو نتاج فترة عاشها المؤلف فى صحبة الخليفة المعتمد على الله، وكان قد قربه إليه فغدا نديمه فى مجالسه سنوات.

ويبدأ ابن خرداذبة كتابه وفقاً للتقليد المعروف بالمعلومات المعهودة من محيط الجغرافيا الرياضية خاصة وصف شكل الأرض كما هو عند بطليموس. وبعد فصل قصير عن اتجاه القبلة بالنسبة لكل بلد، يكرس المؤلف قسماً كبيراً للكلام على سواد العراق فيذكر تقسيمه الإدارى وأنواع الضرائب التى تجبى منه، مع إيراد ملاحظات عن تاريخها هنا، وفى مواضع أخرى من الكتاب: ويختتم ابن خرداذبة هذا القسم بتعداد الملوك القدماء، بدءاً من افريدون معتمدا فى ذلك المصادر الفارسية فيذكر ملوك الفرس والروم والترك والصين، ويذكر أحيانا ألقابهم.

أما القسم الرئيسى من الكتاب فيشمل وصف الطرق، وذلك بدرجات تتفاوت فى التفصيل. فيبدأ بالطرق التى تخرج من بغداد شمالا إلى آسيا الوسطى وجنوباً إلى الهند، ويصحب ذلك ملاحظات عابرة عن التقسيم الإدارى والخراج مع استشهادات شعرية عند الكلام على الأمكنة أحيانا. ويمتاز بحيوية أكثر، وصفه الطريق البحرى إلى الهند والصين. وفى خلال هذا الوصف يبدو واضحا اهتمامه بمحصولات البحار والجزر، كما يذكر بالتفصيل كيفية الحصول على الكافور ويصف الفيل ووحيد القرن، ويتحدث عن البوذية لدى ملك جاوه وعن الطبقات فى الهند.

أما فيما يتعلق بالغرب.. فإنه يصف الطريق إلى الأندلس، ويسهب فى وصف الطرق المؤدية إلى بيزنطة، ويصف طريق الشمال خلال آذربيجان والقوقاز، كما يصف الطرق الخارجة من بغداد فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى مكة والمدينة وجنوب الجزيرة العربية، فيذكر المنازل من البصرة وبغداد ومصر إلى مكة. ويختتم هذا القسم بالكلام على طريقين مهمين للغاية، كان يسلكهما التجار اليهود من أوروبا إلى الهند والصين، أحدهما يمر بالسويس والبحر الأحمر، والآخر يمر بأنطاكية إلى الفرات. وليس أقل أهمية من ذلك وصفه لطريق التجار الروس إلى الجنوب، وهو الذى يمر بنهرى الدون والفولجا، ثم يعبر بحر قزوين متجها صوب الجنوب.

ويحرص ابن خرداذبة على تحديد وضبط المسافات بين كل مدينة وقرية، وكل بلد من البلدان التى ورد ذكرها، كما يوضح المعمور وغير المعمور ونوع الثمار الموفورة، كما يذكر عدد الآبار ومواضعها فى طول المناطق التى ارتادها، وهى خدمة جغرافية وإنسانية غاية فى الأهمية لعابرى الصحراء من المسافرين والتجار والرحالة وأصحاب القوافل والعاملين فى الإدارات الحكومية.

وإذا كنا نطمئن إلى أن ابن خرداذبة لم ينقل عن مرجع سابق عليه، وإن كان قد تأثر بكتاب بطليموس، فإن هذا لا يعنى - فى زعمنا - أن كل ما ورد بالكتاب

كان هو شخصيا مصدره الوحيد، أو أنه داس كل هذه الأرض وجاس فى كل هذه الكور، وتوقف ليقيس ويحسب، ولكن الأمر - كما جرت العادة مع غيره - لا يخلو من استعانة بالتجار والمسافرين والشيوخ، وبمقدورنا أن نتصور ذلك فى ظل تولى والده الولاية على طبرستان وغيرها، وتوليه مهمة البريد، فضلاً عن الصداقة التى جمعته وكبار رجالات الأمة آنذاك.

يقول ابن خرداذبة فى وصف الطريق من مكة إلى اليمن:

«من مكة إلى ابن المرتفع فيه بئر، ثم إلى قرن المنازل قرية عظيمة ثم إلى الفتق قرية كبيرة ثم إلى صفن فيها بئران ثم إلى تربة قرية كبيرة ثم إلى كرى فيها نخل وعيون ثم إلى رنية فيها نخل وعيون ثم إلى تبالة مدينة كبيرة فيها عيون ثم إلى بيشة بعطان كبيرة فيها ماء ظاهر، ثم إلى جسداء فيها بئر ولا أهل فيها، ثم إلى بنات حرب قرية عظيمة، فيها عين وبئر ثم إلى يبمبم ولا أهل فيها، ثم إلى كتنة قرية عظيمة فيها آبار ثم إلى الثجة فيها بئر ثم إلى سروم راح قرية عظيمة فيها عيون وكروم، وجرش منها على ثمانية أميال ثم إلى المهجرة قرية عظيمة فيها عيون، وفيما بين سروم راح والمهجرة طلحة الملك شجرة عظيمة تشبه الغرب غير أنها أعظم منه، وهى الحد ما بين عمل مكة وعمل اليمن، ثم إلى عرقة، وماؤها قليل ولا أهل فيها ثم إلى صعدة مدينة عظيمة يدبغ فيها الأدم والنعل ثم إلى الأعمشية، لا أهل فيها وفيها عين صغيرة ثم إلى خيوان وهى قرية عظيمة كثيرة الكروم عظيمة العناقيد وفيها برتان وأهلها العمريون ثم إلى أثافت مدينة فيها كروم وزروع وعيون ثم إلى صنعاء مدينة اليمن».

ويرد ذكره للمسافات على هذا النحو:

«من باحمشاه إلى القادسية سبعة فراسخ، ومن القادسية إلى الكرخ خمسة فراسخ ومن الكرخ إلى جبلتا سبعة فراسخ، ومن جبلتا إلى السود قانية خمسة فراسخ، ومن السود قانية إلى بارما خمسة فراسخ، ومن بارما إلى مدينة السن خمسة فراسخ ومن السن إلى الحديثة برية يجرى فى وسطها الزاب الصغير اثنى

عشر فرسخا، ومن الحديثة إلى طهمان سبعة فراسخ ومن طهمان إلى الموصل سبعة فراسخ، ومن الموصل إلى بلد وهى مدينة سبعة فراسخ، ومن بلد إلى باعيناثا سبعة فراسخ ومن باعيناثا إلى برقعيد ستة فراسخ، ومن برقعيد إلى أزرمة ستة فراسخ»[٢٦].

ويعيب **كراتشكوفسكى** على ابن خرداذبة عدم صهر المادة التى جمعها وتقديمها فى نسق متجانس، لكنه يؤكد دوره الإيجابى فى تقديم وصف مبكر للطرق، فسهل مهمة من جاء بعده، حتى أفاد من عمله الكثيرون، يقول كراتشكوفسكى:

«لا تحس من جانب المؤلف أية محاولة لصهر هذه المادة وصبها فى قالب متجانس، فضلا عن أن الكتاب يفتقر إلى الكثير من ناحية التبويب، وقد كان بمقدور المؤلف بلا شك الاطلاع على الوثائق الرسمية، أى الأرشيف الحكومى، ويشير إلى هذا المقدسى، بل والمؤلف نفسه عند الكلام على مصادره، وقد كان لاهتمام المؤلف بالرحلات أن حفظت لنا مادة مفيدة خاصة فيما يتعلق بوصف الطرق فى عهود مبكرة، ولا شك أن عدم التناسق فى مادة هذا الكتاب هو المسئول عن التناقض فى حكم الجغرافيين العرب المتأخرين عليه، غير أن تأثيره على الأدب الجغرافى التالى كان كبيرا جدا، فأخذ عنه من المؤلفين المتقدمين اليعقوبى وابن رسته وابن حوقل والمقدسى والجيهانى والمسعودى، وذلك عن مخطوطة ثالثة هى أفضل المخطوطات جميعا. كما أن العناية به ظلت قوية حتى بين المتأخرين فعرفه الإدريسى وابن خلدون كما عرفه جيدا الجغرافيون الفرس، سواء المتقدمون منهم مثل المؤلف المجهول لكتاب «حدود العالم»، أو المتأخرون مثل حمد الله قزوينى وميروخوند وخوندمير، ولم يكن باستطاعة ابن خرداذبة أن يؤسس مدرسة جديدة، غير أن المادة التى جمعها كانت بمثابة الأساس بالنسبة لكثيرين»[٢٧].

ولكننا لا نستطيع أن نختم هذا الفصل عن ابن خرداذبة، دون أن نستعرض بعض الغرائب التى تركها تغزو صفحات كتابه نزولاً على الشائع وتصديقاً لما

يسمع دون عناية كافية من الدرس والتمحيص، مدللا بذلك على افتقاده لملكة النقد التى كانت حرية أن تظهر لتتسق مع مؤلف يغلب عليه الطابع العلمى، من ذلك:

«وحدثنى محدث أنه بدا له إلى ناحية سمرقند حاجة، فخرج إليها وله ثم صديق، فسأله عن عجائب عين هشتادان در بتلك الناحية، فأخبره أن فيها سكان الماء على خلقة بنى آدم أحسن ما خلق الله، وأن راعى غنم من هذه الناحية كان يورد غنمه إلى هذه العين، وبعض الرعاة كانوا يحدرون إليها ولا يقربونها، وكان هذا الراعى يضرب الوتر واليراع والمزمار، وكان أهل العين يطفون على وجه الماء ويستمعون إليه فيتلذذون بصوت غنائه، فبينما هو ذات يوم قد ضرب بالوترين ونام على رأس العين، إذ عمد أهل العين جهارا على وجه الماء، وقبضوه كرها إلى عندهم، فلما تم عليه يوم وليلة ولم ينصرف إلى أهله، اغتموا له، فأتوا تلك العين لاقتفاء الأثر، فوجدوه وهو طاف على وجه الماء يسير ذاهل العين يكرهونه على الزمر وضرب الوتر، وأهله يتضرعون إليهم، ويسألونهم تخليته، فلم يجيبوهم إلى سؤالهم، فبقوا على ذلك ثمانية أيام لا يتجرأ أحد منهم أن يدخل العين فيخلصه، فلما أصبحوا بعد اليوم الثامن، لم يروا الراعى، ولاأحدا منعه منهم، وخفى عنهم أمره».

وقد أشار ابن خرداذبة إلى شجرة الكافور فى القرن التاسع، وجميع الكتاب العرب يحذون حذوه، وينقلون عنه حتى بعد القرن الرابع عشر. فهى **«شجرة كبيرة تظل مائة إنسان وأكثر وأقل، ينقب أعلاها فيسيل ماء الكافور منها ما يملأ عدة جرار، ثم ينقر أسفل من ذلك وسط الشجرة فتنساب منها قطع الكافور، وهو صمغ ذلك الشجر، ثم تبطل الشجرة وتجف»**.

وقال ابن خرداذبة: **«إن بجبال الزابج حيات عظاما تبلغ الرجل والجاموس، ومنها ما يبتلع الفيل»**.

وتبقى الكلمة الأخيرة عن ابن خرداذبة، وهى تلخص رأينا فى إضافته للجغرافيا وأدب الرحلات إنه إذا كان سليمان التاجر هو أول من وصف الطريق البحرى من بلاد العرب إلى الصين، فإن ابن خرداذبة هو أول من وصف الطريق البرى إلى بلاد الصين، وهذا فى حد ذاته إنجاز كبير ومساهمة ثمينة.

ابـن رُسـتـة
٢٩٠هـ - ٩٠٣م

هو أبو على أحمد بن عمر بن رستة أحد الجغرافيين، الذين ظهروا أوائل القرن الرابع الهجرى، وأخباره لدى المؤرخين لا تكاد تذكر إلا فيما ندر، منها أنه فارسى الأصل «أصفهان»، وضع مؤلفه **«الأعلاق النفيسة»** عام ٢٩٠هـ، ويرجح أن يكون مولده نحو عام ٢٦٠هـ، وربما قبل ذلك بقليل.

ليس بين أيدينا عنه إلا كتابه «الأعلاق النفيسة»، الذى وصف فيه الأفلاك وهيئة السماء والكواكب والبروج والشمس والقمر والليل والنهار، ثم استقر على الأرض ليحدثنا بالتفصيل عن الجبال والأنهار، والبحار والقفار، المدن والمسافات، والمساجد والعمائر المختلفة، ويتحدث عن البلاد التى ارتحل إليها مثل اليمن ومصر والمغرب والقسطنطينية وبلاد الروم والخزر وروسيا.

نشر كتابه المستشرق الهولندى الشهير **دى خويـه** فى ليدن عام ١٨٩٢م، انتهج فيه ابن رستة - تقريبا - مناهج السابقين واللاحقين نفسها، بالاعتماد على المشاهدة بالإضافة إلى النقل عن الناس الذى ارتحلوا وأبحروا، أو الأخذ من الكتب التى وصفها من سبقوه ومنهم قدامة، وابن خرداذبة.

وقد حاول ابن رستة أن يقدم كتابا علميا يعنى بالمسافات، والطرق بين البلدان ويحدد الجبال والوديان والأنهار والبحار، وأن يذكر مداخل المدن ومخارجها ومواضع الاتصال بينها وبين ما جاورها مع ذكر أهم الثغور وأنشطتها ونوع العلاقات التى تربط بين الشعوب آنذاك، لكنه كان يفتقد ملكة النقد فهو ينقل دون تدقيق ويأخذ من الأفواه دون تمحيص، وكان مولعا بالعجائب، ولا تثريب

على من أغرم بها، فقد كانت إحدى سمات التصنيف قروناً عديدة، وإن كان المتعين الإشارة إلى ذلك بالوقوف عندها أو تحييدها.

ولا نلحظ فى كتابات ابن رستة عناية بالجانب الإثنوجرافى أو الإنسانى ونحسب أنه لم يكن فى خطته أو فى عزمه أن يتناوله، ولا أثر للطبائع أو العادات ونحوها فى كتابه، الذى استهدف من ورائه عرض صورة مسالكية وممالكية فحسب.

ولا نغالى إذا قلنا إنه أقرب إلى ابن خرداذبة فى عبارته ونهجه ومجمل رؤيته، لولا تميز ابن خرداذبة بالريادة والحذر من الخرافات.

يقول ابن رستة عن طرق الشام ومصر:

«طريق دمشق من الرصافة من الرقة إلى الرصافة ثمانية فراسخ ومن الرصافة طريقان: أحدهما إلى دمشق فى البرية، وآخر على حمص فى العمران. فأما طريق العمران فمن الرصافة إلى الزراعة أربعون ميلا ومن الزراعة إلى قسطل ستة وثلاثون ميلا ومن قسطل إلى سلمية ثلاثون ميلاً، ومن سلمية إلى حمص أربعة وعشرون ميلا، ومن حمص إلى شمسين الشعر ثمانية عشر ميلا، ومن شمسين إلى قارا اثنان وعشرون ميلا ومن قارا إلى النبك اثنا عشر ميلا، ومن النبك إلى القطيفة عشرون ميلا، ومن القطيفة إلى دمشق أربعة وعشرون ميلا.

فأما طريق البرية من الرصافة إلى دمشق، فمن الرصافة إلى الخربة واسمها بطلاميا خمسة وثلثون ميلا ومن بطلاميا إلى العذيب أربعة وعشرون ميلا ومن العذيب إلى نهيا عشرون ميلا ومن نهيا إلى القريتين عشرون ميلا ومن القريتين إلى جرود ستة وثلثوون ميلا ومن جرود إلى دمشق ثلثون ميلا.

ومن سلمية إلى دمشق فى طريق يعرف بالأوسط من سلمية إلى فرعايا ثمانية عشر ميلا، ومن فرعايا إلى ماء شريك عشرون ميلا ومن ماء شريك إلى صدد ثمانية عشر ميلا ومن صدد إلى النبك خمسة وثلثون ميلا.

ومن حمص أيضا إلى دمشق على طريق البقاع من حمص إلى جوسية ثلثة

عشر ميلا، ومن جوسية إلى ايعاث عشرون ميلا ومن ايعاث إلى بعلبك ثلثة أميال ومن بعلبك إلى طبرية على طريق الدراج فمن بعلبك إلى عين الجر عشرون ميلا ومن عين الجر إلى القرعون، وهو منزل فى بطن الوادى خمسة عشر ومن قرعون إلى قرية يقال لها العيون تمضى إلى كفر ليلى عشرون ميلا ومن كفر ليلى إلى طبرية خمسة عشر ميلا، وفى هذا الطريق جب يوسف عليه السلام، وإن أخذ الطريق إلى جبال الأردن من دمشق فالطريق المستقيم من دمشق إلى الكسوة اثنا عشر ميلا ومن الكسوة إلى جاسم أربعة وعشرون ميلا ومن جاسم إلى أفيق أربعة وعشرون ميلا ومن افيق إلى طبرية ستة أميال، ثم من طبرية يفترق الطريق إلى الرملة فرقتين فمن طبرية إلى اللجون على الطريق المستقيم عشرون ميلا والطريق الآخر إلى بيسان ستة عشر ميلا ثم إلى اللجون ثمانية عشر ميلا ثمن اللجون إلى قلنسوة على وادى عارا وفيه سباع عشرون ميلا ومن قلنسوة إلى الرملة أربعة وعشرون ميلا.

ومن الرملة إلى مصر من الرملة إلى ازدود فى القرى والعمران اثنا عشر ميلا ومن ازدود فى القرى والعمران إلى غزة عشرون ميلا ومن غزة إلى رفح فى بساتين عشرة وستة فى رمل كثير ومن رفح إلى العريش فى رمل أربعة وعشرون ميلا ومن العريش يفترق الطريق إلى طريق الجفار وهو الرمل وطريق الساحل على البحر «**الأعلاق النفيسة ٢١٨، ٢١٩**».

ويتحدث عن البحر الأعظم «المحيط الهندى» فيقول:

«ومن هذا البحر خليج يخرج من أرض الحبشة، ويمتد إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربرى ومقدار طوله فى الجهة التى يأخذ إليها خمس مائة ميل واصل الذى يبتدىء منه فى البحر الأعظم مائة ميل وخليج آخر يمر بالمدينة المسماة أيلة طوله منذ يبتدئ إلى حيث ينتهى ألف وأربع مائة ميل، وعند منتهاه فى المغرب والموضع المتصل بالبحر الأخضر مائتا ميل وهذا البحر الأخضر يعرف بالمحيط وباليونانية أوقيانوس ولا يعلم من أين أمره إلا ما يلى ناحية المغرب فى أقصى الحبشة ومما يلى ناحية الشمال فقط، فإن فيه من ناحية المغرب الجزائر المسماة

بالخالدات، وجزيرة أخرى تسمى غدية تقابل بلاد الأندلس عند خليج عرضه سبعة أميال يخرج من البحر الأخضر ويمر بين الأندلس وطنجة ويسمى سبطا وينفذ إلى بحر الروم وفيه أيضا من ناحية الشمال اثنتا عشرة جزيرة، وهى الجزائر التى تسمى جزائر براطانية، فإما إذا بعد هذا البحر المسمى بالمحيط فإن السفن لا تجرى فيه ولا يعلم أحد من البشر حاله.

وأما بحر الروم ومصر.. وفيه خليج يخرج إلى ناحية الشمال بالقرب من بلد رومية طوله خمسة مائة ميل يسمى إدريس، وفيه خليج آخر يخرج من الأرض المعروفة بنربونة يكون طوله مائتى ميل، وفى بحر الروم مائة واثنتان وسبعون جزيرة كان جميعها عامرا فأخرب المسلمون أكثرها بالمغازى إليها منها خمس عظام وهى جزيرة قبرس .... وجزيرة اقريطش .... وجزيرة سقلية .... وجزيرة سرتانية .... وجزيرة يابس حيال الأندلس ....

ويسيل منها خليج عند قسطنطينة حتى يصب فى بحر الروم وطوله من حيث ابتدائه من مدينة قسطنطينة إلى حيث يصب مائتان وستون ميلا، وفيه سفن وعرضه مختلف فأما عند قسطنطينة فقد ثلثة أميال وفى موضع آخر ستة أميال وفى موضع آخر ميل وأكثر وأقل، ويكون عرضه عند مصبه مقدار غلوة وبذلك الموضع صخرة عليها برج مبنى وفيه من قبل الروم من يفتش السفن.

(٢٣٠، ٢٣١).

ويعدد الجبال فيقول:

«وأما الإقليم الرابع ففيه أربعة وعشرون جبلا منها جبل الثلج بدمشق وطوله ثلثة وثمانون ميلا وجبل سنير من هذه الناحية وطوله خمسة وأربعون ميلا وجبل اللكام بهذه الناحية طوله مائة ميل وجبل متصل بحلوان وطوله مائة وخمسة عشر ميلا والجبل الذى يمر بأصبهان، ويعدل إلى جبال نهاوند وطوله أربعمائة وخمسة وثلثون ميلا والجبل المتصل بهذا الجبل المستدير فيما بين أصبهان والأهواز وطوله مائتان واثنان وعشرون ميلا والجبل المار بين اصطخر وجور

وطوله مائتان وخمسون ميلا والجبل المتصل بنهاوند وجبل طبرستان وطوله ثمانى مائة ميل، وأما الاقليم الخامس ففيه تسعة وعشرون جبلا منها جبل حارث وحويرث وطولهما ثلاثة وثلاثون ميلا والجبل الذى بين الموصل وشهرزور وطوله مائتان وخمسة وأربعون ميلا ومنها الجبل المتصل بهذا الجبل وبحارث وحويرث حتى يتصل الجبل بقزوين ويقرب من روايات وطوله مائتا ميل (٢٣٢).

ويعدد الأنهار فيذكرها على النحو التالى:

فأما الإقليم الخامس، فإن فيه من الأنهار خمسة وعشرين نهرا منها دجلة وابتداءها عند طول نيف وستين جزءا وعرض سبعة وثلثين جزءا، وتمر نحو الجنوب ثم تنحرف فى المغرب قليلا وانبعاثها من عين تمر بين جبلين عند مدينة أمد وتمر بباسورين حتى تصير إلى مدينة بلد ومدينة الموصل وفيما بينهما إلى الحديثة فإذا صارت إليها صب فيها هناك نهر، يأتى من بلد شهرزور، ويقال له الزابى ثم تمتد حتى تمر بين جبلين يعرف أحدهما ببارما والآخر باستيدما إلى أن تتجاوز مدينة سر من رأى فإذا تجاوزها قليلا وقع إليها نهر يقال له الزيب يأتى من الجبل ويقع إليها نهر آخر يأتى من الجبل أيضا، ثم تمر دجلة وسط مدينة بغداد ثم تمر بواسط إلى أن تصب إلى البطائح ومقدارها نيف وستون ميلا ثم تخرج فتفترق فرقتين فرقة تمر إلى البصرة وفرقة أخرى تمر إلى ناحية المذار ثم يصب الجميع إلى بحر فارس ومقدار مسافة دجلة منذ ابتدائها إلى منتهاها ثمانى مائة ميل ونيف.

وأما الإقليم السادس فإن فيه من الأنهار ستة وعشرين نهرا، منها الفرات وأوله من عين فى بلد الروم تخرج من جبل بروجس ويمر مغربا فى بلاد الروم حتى يماس جبلا يقال له مسفينا ويميل حتى يسير نحو أربع مائة وخمسين ميلا، ثم يعرج فى جهة الجنوب فينزل إلى بلاد الإسلام فيما بين سعرت وملطية وشمشاط ويمر بمدينة هنزيط، ثم يعرج مغربا حتى يصير إلى مدينة سميساط فيما بين قلعتها ويمر مغربا حتى يصير إلى مدينة جسر منبج ثم يعطف طالبا لناحية الجنوب حتى

يأتي بالس ثم الرقة ثم قرقيسيا ويمر بالرحبة، ثم يمر حتى يلتحف على عانة لأنها فى وسطه ثم يمتد على سننه ويمر بهيت والانبار فيتجاوز ما فينقسم قسمين منهما قسم يأخذ نحو المغرب قليلا المسمى بالعلقمى، إلى أن يصير إلى الكوفة وقسم مستقيم ويسمى سورا حتى يمر بمدينة سورا إلى النيل.

(٢٣٢، ٢٣٣).

فى ذكر ثغور الإسلام والأمم والأجيال المطيفة بها:

الأمم والأجيال المخالفة الإسلام مكتنفة له من جميع أطرافه ونهايات أعماله منهم المتقارب من دار مملكته ومنهم المتباعد عنها، وكانت ملوك الطوائف الذين ملكهم ذو القرنين يؤدون الإتاوة إلى ملك الروم خمس مائة وإحدى عشرة سنة، إلى أن جمع أردشير بن بابك المملكة بعد مشقة وطول مجاهدة، فمنع حينئذ الإتاوة التى كانت الفرس تؤديها إلى الروم بعد مشقة، فينبغى ألا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذرا منهم للروم، وقد جاءت بذلك آيات يظهر بها حقيقة ما قلته والله الموفق للمصلحة بقدرته.

فلما كانت الروم على ما وصفت، وجب أن نقدم الكلام فى الثغور المقابلة لبلد على الكلام فى غيرها، فنقول إن هذه الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر، ومنها ما يجتمع فيه الأمران وتقع المغازى من أهله فى البر والبحر والثغور البحرية على الإطلاق سواحل الشام ومصر كلها والمجتمع فيه الأمران غزو البر والبحر الثغور المعروفة بالشامية، فلنبدأ بذكرها وهى طرسوس واذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس وارتفاعها نحو المائة ألف دينار ينفق فى مصالحها وسائر وجوه شأنها وهو المراقب والحرس والفوائير والركاضة والموكلين بالدروب والمخايض والحصون وغير ذلك مما جانسه من الأمور والأحوال، ويحتاج إلى شحنتها من الجند والصعاليك وراتب مغازيها الصوائف والشواتى فى البر والبحر فى السنة على التقريب مائتى ألف دينار وعلى المبالغة، وهى أن

يتسع ثلثمائـة ألف دينار والذى يلقاها من بلاد العدو ويتصل بها، أما من جهة البر فالقبادق ويقرب منها الناطليق ومن جهة البحر سلوقية وعواصم هذه الثغور وما وراءها الينا من بلدان الإسلام وإنما سمى كل واحد منها عاصما، لأنه يعصم الثغر ويمده فى أوقات النفير، ثم ينفر إليه من أهل انطاكية والجومة والقورس، ثم يلى هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال منها الثغور المعروفة بالجزرية، وأول ما يحاد الثغور الشامية منها مرعش ويليه ثغر الحدث، وكان يلى هذه زبطرة فخربت أيام المعتصم وكان له عند النهوض إلى بلاد العدو حتى فتح عمورية الحدث المشهور، فلما انتهى إلى موضع زبطرة بنى مكانها وبالقرب منها حصونا لتقوم مقامه، وهى الحصن المعروف بطبارجى والحصن المعروف بالحسينية، والحصن المعروف ببنى المومن والحصن المعروف بابن رحوان، ثم يلى هذه الحصون ثغر كيسوم ثم ثغر حصن منصور».

(٢٥٢، ٢٥٣).

ابن الفقيه
٢٩٠هـ ٩٠٣م

اسم ذائع الصيت فى عالم الجغرافيا والرحلات، ولم نعثر على ما يفيد قيامه برحلة إلى جهة من الجهات، ولا نكاد نعرف عنه ما يكفى من الأخبار؛ إذ لم يذكره إلا **الحموى فى معجمه وابن النديم فى «الفهرست»** ولم يزد التعريف به عن سطر واحد، هو أن اسمه أبو عبدالله أحمد بن محمد بن اسحق بن إبراهيم الهمذانى، ألف **«كتاب البلدان»**، ويضيف ابن النديم أنه سلخ كتاب الجيهانى «أى نقله»، كما أننا لم نعثر على سبب لتسميته ابن الفقيه، وليس أمامنا إلا الاعتقاد بأن أباه كان فقيهاً، وعندما أراد امرؤ التعريف به أو الإشارة إليه ذكر عمل والده، فاشتهر بذلك، وعلى هذا النحو اشتهرت أسماء كثيرة من الأعلام حتى غلبت على أسمائهم الحقيقية، وهو ليس أبو الحسن أحمد **الهمذانى** صاحب كتاب **«صفة جزيرة العرب»**.

ولد وعاش فى مدينة همدان بإيران، وكان خبيراً بالرواية والأدب، وله كتاب عن الشعراء، وعماد شهرته كتابه الجغرافى الذى أفاد منه الكثيرون، وهو **«البلدان»** وكان فى ألفى صفحة موزعة على خمسة أجزاء، اختصره بعد حوالى مائة عام على الشيزرى سنة ٤١٣هـ - ١٠٢٢م.

وقد نقل ياقوت الحموى فى معجمه كثيراً عنه فى وصف المدن والقرى، ولا علم لدينا إذا كان قد طوف بالأمصار أم اكتفى بجمع المادة من مصدريها الباقيين، وهما النقل من الكتاب والأخذ عن أقوال الرواة والتجار والمسافرين.

ويقف المقدسى منه موقفا حذرا، فيقول:

«ورأيت كتابا صنفه ابن الفقيه الهمذانى فى خمسة مجلدات، سلك طريقة أخرى ولم يذكر غير المدائن العظمى ولم يرتب الكور والأجناد، وأدخل فيه ما لا يليق من العلوم، مرة يزهد فى الدنيا وتارة يرغب فيها، ودفعة يبكى وحينا يضحك ويلهى، وأما كتاب الأمصار للحافظ فصغير وكتاب ابن الفقيه فى معناه «مثله» غير أنه أكثر حشواً وحكايات، واحتجا بأنا إنما أدخلنا خلال كتبنا ما أدخلنا ليتفرج فيها الناظر إذا مل، وربما كنت أنظر فى كتاب ابن الفقيه فأقع فى حكايات وفنون أنشأ أين كنت من البلدان ولم أستحسن أنا هذا»(٢٨).

ويذهب **كراتشكوفسكى إلى** تأييد المقدسى(٢٩)، إذ يرى أن ارتباط أسلوب ابن الفقيه بأسلوب الجاحظ أمر غير مشكوك فيه، وغلبة هذا الأسلوب لديه شىء واضح للجميع، وليس كتابه إذا حكمنا من مختصره مصنفا جغرافيا بالمعنى الدقيق للكلمة، بل مجموعة أدبية عن بلاد العالم الإسلامى تذخر بكمية كبيرة من الشعر والقصص، وهو عبارة عن نخبة مختارة من الطرائف الأدبية من أجل القارئ العام لا تمس الجغرافيا أو الأسماء الجغرافية إلا من بعيد.

ويضيف كراتشكوفسكى قائلا: «إن مصادر ابن الفقيه متنوعة بشكل كبير، فجميع المؤلفين الذين مر ذكرهم على وجه التقريب وجدوا مكانا فى مصنفه، وأحيانا فى مقتطفات كبيرة كالجاحظ وابن خرداذبة وسليمان التاجر والبلاذرى وربما الجيهانى أيضا».

ورغم ذلك فالمستشرق الروسى نفسه يعود فيقول:

«غير أن الفكرة العامة عن مصنفه ستستمر فى الغالب على ما كانت عليه دون تبديل، وإذا كان كتاب ابن فقيه لا يرقى إلى مصاف عدد من مؤلفات معاصريه فى ميدان الجغرافيا، إلا أنه من وجهة نظر تاريخ الحضارة يقف أحيانا على مستوى أعلى، إذ يقدم لنا لوحة معبرة للنزعات والاتجاهات الأدبية، للمجتمع العربى المثقف فى نهاية القرن التاسع».

وليس من شك أن كتاب ابن الفقيه - ويتضح ذلك أكثر من مختصره المسمى

«**مختصر البلدان**» - وضع للقارئ العام وليس لعلم الجغرافيا، ولكنه يتضمن مادة جغرافية ثرية، تعين المسافر والرحالة والتاجر مع التجوال فى الأقطار والتنقل بين البلدان مع الائتناس بالطرائف والحكايات العجيبة، التى لم يحاول ابن الفقيه نقدها أو رفضها أو الامتناع عن نشرها، إذ رأى فى تدوينها تسرية للقارئ حتى لا يمل، من مثل هذه الحكايات قوله نقلا عن عطاء ابن خالد المخزومى(٣٠):

«وكانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار، فكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج واحد من بيته، ومن خرج اختطف.. وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطئ البحر، وكان يخرج من البحر شيء، فيأخذ من غنمه، فكمن له الراعى فى بعض المواضع حتى خرج، فإذا جارية قد نفشت شعرها، فتشبث بشعرها، ومانعته عن نفسها فقوى عليها وذهب بها إلى منزله، فأنست بهم، ورأتهم لايخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم عن ذلك فأخبروها أن من خرج من ذلك الوقت اختطف، فعملت لهم الطلسمات، وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر».

وأيضا مثل قوله عن بعض أخبار الفرس(٣١):

«إن أنوشروان لما فرغ من سد ثغر بلنجر، وقيد الفند فى البحر وأحكمه، سر بذلك سرورا، فأمر أن ينصب له على الفند سرير من ذهب. ثم رقى إليه، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا رب الأرباب، ألهمتنى سد هذا الثغر، وقمع العدو، فلك الحمد. فأحسن مثوبتى، ورد غربتى. ثم ركع وسجد ثم استوى واستلقى على فراشه وأغفى إغفاءة. فطلع طالع من البحر سد الأفق لطوله، وارتفعت معه غيامة سدت الضوء، وأهوى نحو الفند. فبادر الأساورة إلى قسيهم، وانتبه الملك فزعا فقال ما شأنكم، فقيل له. فقال: أمسكوا عن سلاحكم، فلم يكن الله عز وجل ليلهمنى الشخوص من وطنى اثنى عشر حولا، حتى أسد ثغرا يكون مرفقا لعباده، وراحة لأهل أقليمه، ثم يسلط على بهيمة من بهائم البحر. فتنحى الأساورة، وأقبل الطالع نحو الفند حتى علاه ثم قال له: أيها الملك! أنا ساكن من

سكان البحر، وقد رأيت هذا الثغر مسدودا سبع مرات، وخرابا سبع مرات، وأمر الله عز وجل إلينا معاشر سكان البحر أن ملكا عصره عصرك، وصورته صورتك، يبعثه الله يسد هذا الثغر فيسده إلى الأبد وأنت ذلك الملك فأحسن الله مثوبتك، وعلى البر معونتك، وأطال مدتك، وسكن يوم الفزع الأكبر روعتك، ثم غاص فى البحر».

وليست هذه الحكاية وغيرها إلا طاقة قصصية، تجد التحقق فى مطالعة هذا القصص وترديده، وإن كنت أزعم أن خسارة كبرى لحقت بالأدب العربى من مثل هذه المحاولات، لأنها فرغت طاقة كان الأمل أن تبحث عن ضالتها فى الابتكار والإبداع، لكنها سواء بالقصد أو بغير القصد قدمت للفن القصصى وأحاديث السمر مادة حكائية شائقة.

أما عن قول ابن النديم أن ابن الفقيه سلخ كتاب الجيهانى أى سطا عليه، فالحق أننا يجب أن نأخذ هذا القول بعين الحذر والارتياب، لأن المعروف أن كتاب «البلدان» تم تصنيفه نحو عام ٢٩٠هـ - ٩٠٣م، أما كتاب الجيهانى فقد أجمعت عدة آراء على أنه وضع بعد ذلك بقليل[٣٢]، على أن مسألة النقل فى حد ذاتها كانت شائعة، وثمة صلة وطيدة وتماثل نسبى بين مختلف التصانيف، فى الشكل والمضمون.

وقد لاحظت أن بعض النصوص الواردة فى «البلدان» تتسم بطابع ذاتى يدل على تجربة وممارسة شخصية ورؤية مباشرة، ومن ذلك مثلا حديثه عن الأهواز:

إذ يقول: «أهل الأهواز ألأم الناس وأبخلهم، وهم أصبر خلق الله على الغربة والتنقل فى البلدان، وحسبك أنك لا تدخل بلداً من جميع البلدان إلا وجدت فيه صنفا من الخوز لشحهم وحرصهم على جمع المال، وليس فى الأرض صناعة مذكورة ولا أدب شريف ولا مذهب محمود لهم فى شىء منه نصيب، وإن حسن أو دق أو جل، ولا ترى بها وجنة حمراء قط، وهى قتالة للغرباء، على أن حماها فى وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان وكل محموم فى

الأرض، فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه وفى بدنه منها بقية، فإذا نزعت فقد وجد فى نفسه منها البراءة إلا أن تعود لما يجتمع فى بطنه من الأخلاط الرديئة.

والأهواز ليست كذلك لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث لأنهم ليس يؤتون من قبل التخم والإكثار من الأكل، وإنما يؤتون من عين البلدة ولذلك كثرت بسوق الأهواز الأفاعى فى جبلها الطاعن فى منازلها المطل عليها، والجرارات فى بيوتهم ومنازلهم ومقابرهم، ولو كان فى العالم شىء شر من الأفاعى والجرارات وهى عقارب قتالة تجر ذنبها إذا مشت لا ترفعها كما تفعل سائر العقارب لما قصرت قصبة الأهواز عنه وعن توليده، ومن بليتها أن من ورائها سباخا ومناقع مياه غليظة، وفيها أنهار تشقها مسايل كنفهم ومياه أمطارهم ومتوضآتهم، لذلك الجبل قبل تشبب الصخرية التى فيها تلك الجرارات، فإذا امتلأت يبساً وحرا وعادت جمرة واحدة، قذفت ما قبلت من ذلك عليهم، وقد أنجزت تلك السباخ والأنهار، فإذا التقى عليهم ما أنجز من تلك السباخ وما قذفته ذلك الجبل فسد الهواء وفسد بفساده كل شىء يشتمل عليه ذلك الهواء، وحكى عن مشايخ الأهواز أنهم سمعوا القوابل يقلن إنهن ربما قبلن الطفل المولود فيجدونه محمومًا فى تلك الساعة يعرفون ذلك ويتحدثون به، ومما يزيد فى حرها أن طعام أهلها خبز الأرز ولا يطيب ذلك إلا سخنا، فهم يخبزون فى كل يوم فى منازلهم فيقدر أنه يسجر بها فى كل يوم خمسون ألف تنور، فما ظنك فى بلد يجتمع فيه حر الهواء وبخار هذه النيران؟ ويقول أهل الأهواز إن جبلهم إنما هو من غثاء الطوفان تحجر، وهو حجر ينبت ويزيد فى كل وقت، وسكرها جيد وثمرها كثير لا بأس به، وكل طيب يحمل إلى الأهواز فإنه يستحيل وتذهب رائحته ويبطل حتى لاينفع به»(٣٣).

ويقول عن الأندلس:

«ومن عجائب الأندلس أمر مدينة الصفر، التى يزعم قوم من العلماء أن ذا القرنين بناها وأودعها كنوزه وعلومه وطلسم بابها، فلا يقف عليها أحد وبنى

داخلها بحجر اليهتة وهو مغناطيس الناس، وذلك أن الإنسان إذا نظر إليها لم يتمالك أن يضحك ويلقى نفسه عليها فلا يزايلها أبداً حتى يموت، وهى فى بعض مفاوز الأندلس، ولما بلغ عبدالملك بن مروان خبرها وخبر ما فيها من الكنوز والعلوم وأن إلى جانبها أيضا بحيرة بها كنوز عظيمة، كتب إلى موسى ابن نصير عامله على المغرب يأمره بالمسير إليها والحرص على دخولها، وأن يعرفه ما فيها ودفع الكتاب إلى طالب بن مدرك فحمله وسار فى ألف فارس نحوها، فلما رجع كتب إلى عبدالملك بن مروان:

بسم الله الرحمن الرحيم، أصلح الله أمير المؤمنين صلاحاً يبلغ به خير الدنيا والآخرة، أخبرك يا أمير المؤمنين أنى تجهزت لأربعة أشهر وسرت نحو مفاوز الأندلسى ومعى ألف فارس من أصحابى حتى أوغلت فيها فى طرق قد انطمست ومناهل قد اندرست وعفت فيها الآثار وانقطعت عنها الأخبار، أحاول بناء مدينة لم ير الراؤون مثلها ولم يسمع السامعون بنظيرها، سرت ثلاثة وأربعين يوماً ثم لاح لنا بريق شرفها من مسيرة خمسة أيام، فأفزعنا منظرها الهائل وامتلأت قلوبنا رعبا من عظمها وبعد أقطارها، فلما قربنا منها إذ أمرها عجيب ومنظرها هائل، كأن المخلوقين ما صنعوها، فنزلت عند ركنها الشرقى وصليت العشاء الأخيرة بأصحابى، وبتنا بأرعب ليلة بات بها المسلمون، فلما أصبحنا كبرنا استئناساً بالصبح وسروراً به، ثم وجهت رجلا من أصحابى فى مائة فارس، وأمرته أن يدور مع سورها ليعرف بابها فغاب عنا يومين، ثم وافى صبيحة اليوم الثالث فأخبرنى أنه ما وجد لها باباً ولا رأى مسلكا إليها، فجمعت أمتعة أصحابى إلى جانب سورها وجعلت بعضها على بعض لينظر من يصعد إليها فيأتينى بخبر ما فيها، فلم تبلغ أمتعتنا ربع الحائط لارتفاعه وعلوه، فأمرت عند ذلك باتخاذ السلالم فاتخذت ووصلت بعضها إلى بعض بالجبال ونصبتها على الحائط وجعلت لمن يصعد إليها ويأتينى بخبرها عشرة آلاف درهم، فانتدب لذلك رجل من أصحابى ثم تسنم السلم وهو يتعوذ ويقرأ، فلما صار على سورها وأشرف على ما فيها قهقه ضاحكا ثم نزل إليها فناديناه: أخبرنا بما عندك وبما رأيته، فلم

يجبنا، فجعلت أيضا لمن يصعد إليها ويأتينى بخبرها وخبر الرجل ألف دينار، فانتدب رجل من حمير، فأخذ الدنانير فجعلها فى رحله ثم صعد فلما استوى على السور قهقه ضاحكا ثم نزل إليها فناديناه: أخبرنا بما وراءك وما الذى ترى، فلم يجبنا، ثم صعد ثالث فكانت حاله مثل حال اللذين تقدماه، فامتنع أصحابى بعد ذلك من الصعود وأشفقوا على أنفسهم، فلما آيست ممن يصعد، ولم أطمع فى خبرها رحلت نحو البحيرة وسرت مع سور المدينة، فانتهيت إلى مكان من السور فيه كتابة بالحميرية فأمرت بانتساخها، فكانت هذه:

ليعلم المرء ذو العز المنيع ومن
يرجو الخلود وما حى بمخلود
لو أن حيا ينال الخلد فى مهل
لنال ذاك سليمان بن داود
سالت له العين عين القطر فائضة
فيه عطاء جليل غير مصرود
وقال للجن: انشوا فيه لى أثراً
يبقى إلى الحشر لا يبلى ولا يودى
فصيروه صفاحا ثم ميل به
إلى البناء بإحكام وتجويد
وأفرغوا القطر فوق السور منحدراً
فصار صلبا شديدا مثل صيخود
وصب فيه كنوز الأرض قاطبة،
وسوف تظهر يوما غير محدود
لم يبق من بعدها فى الأرض سابغة
حتى تضمن رمسا بطن أخدود
وصار فى قعر بطن الأرض مضطجعا
مضمنا بطوابيق الجلاميد

هــذا ليعــلم أن الملـك منقطــع
إلا من الله ذوى التقوى وذى الجود

ثم سرت حتى وافيت البحيرة عند غـروب الشمـس، فإذا هـى مقـدار ميـل فـى ميل وهى كثيرة الأمواج، وإذا رجل قائم فوق الماء فناديناه: مـن أنـت؟ فقـال: أنا رجل من الجن كان سليمان بن داود حبس ولـدى فـى هـذه البحـيرة، فأتيتـه لأنظر ما حاله، قلنا له: فما بالك قائما على وجه الماء؟ قال: سمعت صوتا فظننته صوت رجل يأتى هذه البحيرة فى كل عام مرة، فهذا أوان مجيئه فيصلى على شاطئها أياما ويهلل الله ويمجده، قلنا: فمن تظنه؟ قال: أظنـه الخضـر، عليه السلام، ثم غاب عنا فلم ندر أين أخذ، فبتنا تلك الليلة عـلى شاطـئ البحـيرة، وقد كنت أخرجت معى عدة من الغواصين فغاصوا فى البحيرة فأخرجوا منها حبا من صفر مطبقا رأسه مختوماً برصاص، فأمرت به ففتح فخرج منه رجل من صفر على فرس من صفر بيده مطرد من صفر فطار فى الهواء وهو يقول: يا نبى الله لا أعود، ثم غاصـوا ثانيـة وثالثـة فأخرجـوا مثـل ذلك فضـج أصحابـى وخافـوا أن ينقطع بهم الزاد، فأمرت بالرحيل، وسلكت الطريق التى كنت أخذت فيها وأقبلت حتى نزلت القيروان، والحمد لله الذى حفظ لأمير المؤمنين أموره وسلم له جنوده!

قال أحمد بن محمد الهمذانى:

وجميع أعمال الروم التى تعرف وتسمى وتأتينا أخبارها على الصحة أربعة عشر عملا، منها ثلاثة خلف الخليج وأحد عشر دونه، فالأول من الثلاثة التى خلف الخليج يسمى طلايا، وهو بلد القسطنطينية، وحده من جهة المشرق الخليج الآخذ من بحر الخزر إلى بحر الشام، ومن القبلة بحر الشام، ومن المغرب سور ممدود من بحر الشام إلى بحر الخزر ويسمى مقرن تيخس، وتفسيره السور الطويل، وطوله مسيرة أربعة أيام، وهو من القسطنطينية على مسيرة مرحلتين، وأكثر هذا البلد ضياع للملك والبطارقة ومروج لمواشيهم ودوابهم.

وفى أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر فى كتابى هذا، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها علما فقد أذنت له فى إصلاحه مأجورا، ومن وراء هذا العمل عمل ترقية، وحده من وجه المشرق هذا السور الطويل، ومن القبلة عمل مقدونية، ومن المغرب بلاد برجان مسيرة خمسة عشر يوما، وعرضه من بحر الخزر إلى حد عمل مقدونية مسيرة ثلاثة أيام، ومنزل الاصطرطغوس الوالى، حصن يسمى أرقدة على سبع مراحل من القسطنطينية، وجنده خمس آلاف، ثم عمل مقدونية، وحده من المشرق السور الطويل، ومن القبلة بحر الشام، ومن المغرب بلاد الصقالبة، ومن ظهر القبلة بلاد برجان، وعرضه مسيرة خمس أيام.

ومنزل الاصطرطغوس، يعنى الوالى، حصن يسمى بابدس، وجنده خمسة آلاف، فهذه الثلاثة بلدان التى خلف الخليج ومن دون الخليج أحد عشر عملا، فأولها مما يلى بحر الخزر خليج القسطنطينية عمل أقلاجونينه، وأول حدوده على الانطماط والثانى بحر الخزر والثالث على الأرمنياق والرابع على البقلار، ومنزل الاصطرطغوس ايلاى، وهو رستاق وقرية تدعى نيقوس، وله منزل آخر يسمى سواس، وجنده خمس آلاف، وإلى جانبه عمل الانطماط، وحده الأول الخليج، وجنده أربعة آلاف، وأهل هذا العمل مخصوصون بخدمة الملك وليسوا بأهل حرب، وإلى جانبه عمل الأبسق، وحده الأول الخليج والثانى الانطماط والثالث عمل الناطلقوس والرابع عمل ترقسيس، ومنزل الاصطرطغوس حصن بطنة، وجنده ستة آلاف، وإلى جانبه عمل ترقسيس، وحده الأول الخليج والثانى الأبسيق والثالث عمل الناطلقوس والرابع بحر الشام، ومنزل الاطرطغوس فى حصن الوارثون، واسمه قانيوس، والوارثون: اسم البلد، وجنده عشرة آلاف وإلى جانبه عمل الناطلقوس وتفسيره المشرق، وهو أكبر أعمال الروم، وحده الأول الأبسيق والترقسيس والثانى عمل البقلار، ومنزل الاصطرطغوس مرج الشحم، وجنده خمسة عشر ألفا ومعه ثلاثة طرموخين، وفى هذا العمل عمورية، وهى الآن خراب، وبليس ومنبج ومرعش، وهو حصن برغوث وإلى جانبه من ناحية البحر

عمل سلوقية، وحده الأول بحر الشام والثانى عمل ترقسيس والثالث عمل الناطلقوس والرابع دروب طرسوس من ناحية قلمية والأمس، واسم صاحب هذا العمل كيليرج، ومرتبته دون مرتبة الاصطرطغوس، وتفسيره صاحب الدروب، وقيل: تفسيره وجه الملك، ومنزله سلوقية إلى أنطاكية ثم يتصل به عمل القباذق، وحده الأول جبال طرسوس وأذنه والمصيصة والثانى عمل سلوقية والثالث عمل طلغوس والرابع عمل السملار وخرشنة، ومنزل الكيليرج حصن قره، وجند أربعة آلاف، وفيه حصون كثيرة قوية.

ومن بلاده قورية أو قونية وملقونية وجردبلية وغير ذلك ويتصل به عمل خرشنة، وحده الأول عمل القيار والثانى درب والثالث عمل الارمنياق والرابع عمل البقلار، ومنزل الكيليرج حصن خرشنة، وجنده أربعة آلاف، وفيه من الحصون خرشنة وصارخة ورمسحو وباروقطة وماكثيرى ثم يتصل به عمل البقلار، وحده الأول عمل الناطلقوس والثانى القباذق وخرشنة والثالث عمل الارمنياق والرابع عمل أفلاجونيه، ومنزل الاصطرطغوس أنقرة التى بها قبر امرئ القيس، وقد ذكر فى موضعه، وجندها ثمانية آلاف، ومع صاحبها طرموخان، وفيه حصون وعدة بلاد ثم يتصل به عمل الأرمنياق، وحده الأول عمل أفلاجونيه والثانى عمل البقلار والثالث خرشنة والرابع جلدية وبحر الخزر ومنزل الاصطرطغوس حسن أماسية، وجنده تسعة آلاف ومعه ثلاثة طرموخين، وفيه عدة بلاد وحصون ثم يتصل به عمل جلدية، وحده الأول بلاد أرمينية، وأهله مخالفون للروم متاخمون لأرمينية والثانى بحر الخزر والثالث عمل الأرمنياق والرابع أيضا عمل الأرمنياق، ومنزل الاصطرطغوس أقريطة، وجنده عشرة آلاف ومعه طرموخان، وفيه بلاد وحصون(٣٤).

وقال محمد بن أحمد الهمدانى الفقيه يصف صنعاء:

«صنعاء طيبة الهواء كثيرة الماء يقال إن أهلها يشتون مرتين ويصيفون مرتين،

وكذلك أهل فران ومأرب وعدن والشحر، وإذا صارت الشمس إلى أول الحمل صار الحر عندهم مفرطاً، فإذا صارت إلى أول السرطان وزالت عن سمت رؤوسهم أربعة وعشرين شتوا، ثم تعود الشمس إليهم إذا صارت أول الميزان فيصيفون ثانية ويشتد الحر عليهم، فإذا زالت إلى الجنوب وصارت إلى الجدى شتوا ثانية غير أن شتاءهم قريب من صيفهم.

وكان لمدينة صنعاء تسعة أبواب، وكان لا يدخلها غريب إلا بإذن، كانوا يجدون فى كتبهم أنها تخرب من رجل يدخل من باب لها، يسمى باب حقل فكانت عليه أجراس متى حركت سمع صوت الأجراس من الأماكن البعيدة، وكانت مرتبة صاحب الملك على ميل من بابها، وكان من دونه إلى الباب حاجبان بين كل واحد إلى صاحبه رمية سهم، وكانت له سلسلة من ذهب من عند الحاجب إلى باب المدينة ممدودة، وفيها أجراس متى قدم على الملك أو رسول أو بريد من بعض العمال حركت السلسلة فيعلم الملك بذلك فيرى رأيه[٣٥].

وعن الإسكندرية قال ابن الفقيه:

«كانوا ينحتون السوارى من جبال أسوان وبينها وبين الإسكندرية مسيرة شهر للبريد ويحملونها على خشب الأطواف فى النيل، وهو خشب يركب بعضه على بعض وتحمل الأعمدة وغيرها عليه، وأما منارة الإسكندرية فقد قدمن إكثارهم فى وصفها ومبالغتهم فى عظمها وتهويلهم فى أمرها كل ذلك كذب لا يستحى حاكيه ولا يراقب الله راويه، ولقد شاهدتها فى جماعة من العلماء وكل عاد منا متعجبا من تخرص الرواة، وذلك إنما هى بنية مربعة شبيهة بالحصن والصومعة مثل سائر الأبنية، ولقد رأيت ركنا من أركانها، وقد تهدم فدعمه الملك الصالح ابن رزيك أو غيره من وزراء المصريين، واستجده فكان أحكم وأتقن وأحسن من الذى كان قبله، وهو ظاهر فيه كالشامة لأن حجارة هذا المستجد أحكم وأعظم من القديم وأحسن وضعا ورصفا.

وأما صفتها التى شاهدتها، فإنها حصن عال على سن جبل مشرف فى البحر

فى طرف جزيرة بارزة فى ميناء الإسكندرية، بينها وبين البحر نحو شوط فرس وليس إليها طريق إلا فى ميناء البحر المالح، وبلغنى أنه يخاض من إحدى جهاته الماء إليها، والمنارة مربعة البناء، ولها درجة واسعة يمكن الفارس أن يصعدها بفرسه، وقد سقفت الدرج بحجارة طوال مركبة على الحائطين المكتفى الدرجة فيرتقى إلى طبعة عالية يشرف منها على البحر بشرافات محيطة بموضع آخر، كأنه حصن آخر مربع يرتقى فيه بدرج أخرى إلى موضع آخر، يشرف منه على السطح الأول بشرفات أخرى.

وفى هذا الموضع قبة كأنها قبة الديدبان وليس فيها، كما يقال، غرف كثيرة ومساكن واسعة يضل فيها الجاهل بها، بل الدرجة مستديرة بشىء كالبئر فارغ، زعموا أنه مهلك وأنه إذا ألقى فيها الشىء لا يعرف قراره، ولم أختبره والله أعلم به، ولقد تطلبت الموضع الذى زعموا أن المرآة كانت فيه فما وجدته ولاأثره، والذى يزعمون أنها كانت فيه هو حائط بينه وبين الأرض نحو مائة ذراع أو أكثر، وكيف ينظر فى مرآة بينها وبين الناظر مائة ذراع أو أكثر، ومن أعلى المنارة؟ فلا سبيل للناظر فى هذا الموضع، فهذا الذى شاهدته وضبطته وكل ما يحكى غير هذا فهو كذب لا أصل له[٣٦].

الهوامش

(١) معجم البلدان الجزء الثانى ص٦١.

(٢) المسالك والممالك - ابن خرداذبة ص١٠٦، ١٠٧.

(٣) الواثق بالله: هو أبو جعفر هارون بن المعتصم، بويع بالخلافة عام ٢٢٧هـ، بعد موت أبيه، كان من أفاضل الخلفاء فطنا أديبًا وشاعرا لبيبا وكان يتشبه بالمأمون، فى عهده فتح العرب جزيرة صقيلة سنة ٢٣٢هـ وعمره ست وثلاثون سنة «لب التاريخ - محمد غنيم ص٩٤».

(٤) المصحف المفسر - محمد فريد وجدى - دار الشعب - القاهرة.

(٥) المسالك والممالك - ابن خرداذبة - ص١٩٦٢ - مكتبة المثنى - بغداد.

(٦) مساحتها المربعة.

(٧) جمع عروة وهى الحلقة.

(٨) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - د. زكى محمد حسن.

(٩) تاريخ الأدب الجغرافى العربى - كراتشكوفسكى ص١٣٩.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) حديث السندباد القديم ص٢٢.

(١٢) هذه الجزر زارها ابن بطوطة وسماها ذيبة المهل وتعرف اليوم بجزر المالديف.

(١٣) حديث السندباد القديم - ص٢٤ - ٢٩.

(١٤) تاريخ الأدب الجغرافى ص١٤٨.

(١٥) اليعقوبى - ياسين إبراهيم الجعفرى - وزارة الإعلام العراقية - ١٩٨٠ ص١١.

(١٦) معجم الأدباء - الحموى جـ٥ ص١٥٣، ١٥٤.

(١٧) كان واضح يتشيع سرا على الرغم من صلاته الوثيقة بالعباسيين، ومناصبه الرفيعة ومنها الولاية على أرمينيا وآذربيجان ثم مصر، وبعد أن يسر لإدريس العلوى سبيل الفرار إلى المغرب بعد معركة الفخ اكتشف أمره، فحكم عليه بالموت، وقد توارثت أسرته التشيع بعد سقوط الدولة الطاهرية «تاريخ الأدب العربى - كارل بروكلمان».

(١٨) جهود المسلمين فى الجغرافيا - ص٤٦.

(١٩) البلدان - طبعة النجف ص٢.

(٢٠) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص١٥٩، ١٦٠.

(٢١) اليعقوبى - ياسين الجعفرى ص٢١.

(٢٢) جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد تولى الخلافة بين عامى ٢٣٢ - ٢٤٧هـ.

(٢٣) ملحق دائرة المعارف الإسلامية ص٦٥ - كرامرز.

(٢٤) ذكر كراتشكوفسكى ص١٥٦ أن دى خويه يرى أن المسودة الأولى ترتفع إلى عام ٢٣٢هـ، ونحن لا نقر ذلك، إذ أن هذا يعنى أن ابن خرداذبة وضع مؤلفه وهو فى الخامسة والعشرين من العمر، وهو يحتاج إلى ضعف هذا العمر ليكتب هذا المصنف.

(٢٥) المسالك والممالك - ابن خرداذبة - مكتبة المثنى - بغداد ص٣٦.

(٢٦) المصدر نفسه ص٥٨.

(٢٧) تاريخ الأدب الجغرافى ص١٥٨.

(٢٨) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - المقدسى ص٥ .

(٢٩) تاريخ الأدب الجغرافى ص١٦٣ .

(٣٠) حديث السندباد القديم ص١٢٨ .

(٣١) المصدر السابق ص٧٩، ٨٠.

(٣٢) المصدر السابق ص٢٢١.

(٣٣) معجم البلدان جـ١ ص٢٨٦ .

(٣٤) معجم البلدان - جـ ٢ ص٩٨، ٩٩ .

(٣٥) معجم البلدان جـ٣ ص٤٢٦ .

(٣٦) معجم البلدان جـ١ ص١٨٧، ١٨٨ .

رحالو القرن الرابع الهجرى

العاشر الميلادى

١- أبو زيد البلخى
٢- ابن فضلان
٣- الإصطخرى
٤- قدامة بن جعفر
٥- الشبيبة المغررون
٦- المسعودى
٧- ابن حوقل
٨- أبو دلف
٩- المقدسى
١٠- المهلبى



أبوزيد البلخى
(٢٣٥ - ٣٢٢هـ) (٨٤٩ - ٩٣٤م)

فقيه وعالم وسياسى ورياضى. فيلسوف وأديب وجغرافى ورحالة مشهور لقب **«بالجاحظ الثانى»**، كان موسوعى الثقافة، غزير العلم، له من المؤلفات ما يربو على الستين.

ولد أبوزيد أحمد بن سهل البلخى بشامستيان، قرية ببلخ ومات بها، اشتغل بالتعليم كأبيه ثم طلب العلم ببغداد ثمانى سنين وطوف بالبلاد المجاورة، وتتلمذ على الكندى الفيلسوف وأعجب به، وعمل فترة كاتبا لأمير بلخ أحمدا بن سهلى المروزى فيما بين ٣٠٥ - ٣١٠هـ، وكان أبوزيد شيعيا إماميا، ثم عدل واتهم بالإلحاد، لكن الكثيرين برءوه.

وضع كتبا فى الفلسفة والفلك والرياضة والطب والجغرافيا والسياسة والتاريخ وأصول الدين والتفسير واللغة والنحو، لم يصلنا منها شىء، وينسب إليه بطريق الخطأ كتاب «البدء والتاريخ» والصحيح أنه من تأليف مطهر ابن طاهر المقدسى.

كان يميل فى مؤلفاته إلى الفلسفة، لكنه كان فى الحق أديبا ذا عبارة رصينة وشائقة، ويعد جغرافيا من المبرزين لفرط عنايته بالخرائط فى كتابه.

توفى فى الخامسة من ذى القعدة سنة ٣٢٢هـ الموافق الأول من أكتوبر سنة ٩٣٤م.

ذكره ياقوت فى «الإرشاد والتنبيه» (ص١٤١، ١٤٢) والثعالبى فى «اليتيمة» (ص٢٦) والسيوطى «البغية» (ص١٣٤).

من أهم الكتب التى بقيت فيما يذكر ابن النديم فى الفهرست (ص١٣٨) «**مصالح الأبدان والأنفس**» الذى قرر **مايرهوف وريتر** وجوده فى مكتبة أيا صوفيا، وله كتاب «**الأشكال**» أو «**صور الأقاليم**» وهو فى الأساس كتاب خرائط، وكان قائما - فيما يذهب **كرامرز** - على أساس أطلس إسلامى أقدم تأليفا[1]، وهذا الكتاب كما يقرر **ماسينون** فى مجلة العالم الإسلامى «يونيو ١٩٠٩» محفوظ فى كلية دار «**حامل المفتاح**» الإمام الحسين بكربلاء، وقد وضعه صاحبه ببلخ، فأسس بذلك المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية.

وكتاب البلخى كان مرجعا أساسيا لمعظم الرحالة والجغرافيين الذين جاءوا بعده وأشهر من استعان به أبو القاسم ابن حوقل النصيبينى، عندما وضع كتابه «صورة الأرض»، وكان قد جال فى الأندلس «المقرى ١/٢٩»، ومن المصنفات التى تنسب للبلخى أيضا كتاب «**فى أقسام العلوم**» وكتاب «**أخلاق الأمم**» وكتاب «**نظم القرآن**» و«**اختيار السير**» ورسائله إلى إخوانه، ويذكر له البيهقى «**الأمد الأقصى**» و«**كتاب الإبانة عن علل الديانة**» «المقرى ١/١٣٨، ١٣٩»، ويجمع عدد من المؤرخين والجغرافيين القدماء على أن كتاب «الأشكال» أو «صور الأقاليم» من أهم المصادر أو المراجع، التى أنجزها الجغرافيون العرب خاصة فى رسم الخرائط أوائل القرن الرابع الهجرى، ولم يعد عدم عثورنا على نسخة منه سبباً للشك فى وجوده، ويمكن الحكم عليه من ألفاظ المقدسى، الذى عاش بعده بنحو نصف قرن، إذ يقول فى أحسن التقاسيم:[2]

«وأما أبوزيد فإنه قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض، بعدما قسمها على عشرين جزءاً ثم شرح كل مثال، واختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب وترك كثيراً من أمهات المدن، فلم يذكرها وما دوخ البلدان ولا وطئ الأعمال، ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته ليستعين به، فلما بلغ نهر جيحون كتب إليه إن كنت استدعيتنى لما بلغك من صائب رأيى، فإن رأيى يمنعنى من عبور هذا النهر، فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلى بلخ».

على أن الشذرات التى نعثر عليها لدى الحموى فى معجم البلدان لاتدع مجالاً للشك فى وضع الكتاب ونسبته إلى أبى زيد البلخى، بصرف النظر عما يمكن أن يثار حول احتمال وجود اشتباك بين كتاب البلخى وكتابى الاصطخرى وابن حوقل، ونستعرض فيما يلى عدداً محدوداً من النماذج التى أوردها الحموى عليه رحمة الله.

يقول الحموى:

«ووصف القلزم أبوالحسن البلخى بما أحسن فى وصفه فقال: أما ما كان من بحر الهند من القلزم إلى ما يحاذى بطن اليمن، فإنه يسمى بحر القلزم ومقداره نحو ثلاثين مرحلة طولا وأوسع ما يكون عرضاً عبر ثلاث ليال، ثم لايزال يضيق حتى يُرَى فى بعض جوانبه الجانب المحاذى له حتى ينتهى إلى القلزم، وهى مدينة، ثم تدور على الجانب الآخر من بحر القلزم وامتداد ساحله من مخرجه يمتد بين المغرب والشمال، فإذا انتهى إلى القلزم فهو آخر امتداد البحر فيعرج حينئذ إلى ناحية المغرب مستديرا، فإنه وصل إلى نصف الدائرة فهناك القصير وهو مرسى المراكب وهو أقرب موضع فى بحر القلزم إلى قوص، ثم يمتد إلى ساحل البحر مغربا إلى أن يعرج نحو الجنوب، فإذا حاذى أيلة من الجانب الجنوبى فهناك عيذاب مدينة البجاء ثم يمتد على ساحل البحر إلى مساكن البجاء، والبجاء: قوم سود أشد سوادا من الحبشة، وقد ذكرهم فى موضع آخر، ثم يمتد البحر حتى يتصل ببلاد الحبشة، ثم إلى الزيلع حتى ينتهى إلى مخرجه من البحر الأعظم، ثم إلى سواحل البربر ثم إلى أرض الزنج فى بحر الجنوب، وبحر القلزم مثل الوادى فيه جبال كثيرة، قد علا الماء عليها وطرق السير منها معروفة لا يهتدى فيها إلا بربان، يتخلل بالسفينة فى أضعاف تلك الجبال فى ضياء النهار، وأما بالليل فلا يسلك، ولصفاء مائه ترى تلك الجبال فى البحر، وما بين القلزم وأيلة مكان يعرف بتاران، وهو أخبث مكان فى هذا البحر، وقد وصفناه فى موضعه، وبقرب تاران مكان يعرف بالجبيلات يهيج وتتلاطم أمواجه باليسير من الريح، وهو موضع

مخوف أيضاً فلا يسلك: وبين مدينة القلزم وبين مصر ثلاثة أيام، وهى مدينة مبنية على شفيرة البحر ينتهى هذا البحر إليها ثم ينعطف إلى ناحية بلاد البجة، وليس بها زرع ولا ماء، وإنما يحمل إليها من ماء آبار بعيدة منها، وهى تامة العمارة وبها فرضة مصر والشام، ومنها تحمل حمولات مصر والشام إلى الحجاز واليمن، ثم ينتهى على شط البحر نحو الحجاز، فلا تكون بها قرية ولا مدينة، سوى مواضع بها ناس مقيمون على صيد السمك وشيء من النخيل يسير، حتى ينتهى إلى تاران وجبيلات وما حاذى الطور إلى أيلة.

وقال أبوزيد عن خوزستان:

وليس بخوزستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير، يتاخم نواحى تستر وجند نيسابور وناحية إيذج وأصبهان، وأما أرض خوزستان فأشبه شيء بأرض العراق وهوائها وصحتها، فإن مياهها طيبة جارية ولا أعرف بجميع خوزستان بلدا ماؤها من الآبار لكثرة المياه الجارية بها، وأما تربتها فإن ما بَعُد دجلة إلى ناحية الشمال أيبس وأصح، وما كان قريبا من دجلة فهو من جنس أرض البصرة فى السبخ وكذلك فى الصحة، وليس بخوزستان موضع يجمد فيه الماء ويروح فيه الثلج، ولا تخلو ناحية من نواحيها المنسوب إليها من النخل، وهى وخمة والعلل بها كثيرة خصوصا فى الغرباء المترددين إليها، وأما ثمارها وزروعهم فإن الغالب على نواحى خوزستان النخل، ولهم عامة الحبوب من الحنطة والشعير والأرز فيخبزونه وهو لهم قوت كرستاق كسكر من واسط.

وفى جميع نواحيها أيضا قصب السكر إلا أن أكثره بالمسرقان ويرفع جميعه إلى عسكر مكرم، وليس فى قصب عسكر مكرم شيء كثير من قصب السكر وكذلك بتستر والسوس، وإنما يحمل إليها القصب من نواحى أخر، والذى فى هذه الثلاثة بلاد إنما يكون بحسب الأكل لا أن يستعصر منه سكر، وعندهم عامة الثمار إلا الجوز وما لا يكون إلا ببلاد الصرود.

وأما لسانهم فإن عامتهم يتكلمون بالفارسية والعربية، غير أن لهم لسانا آخر

خوزيا ليس بعبرانى ولا سريانى ولا عربى ولا فارسى، والغالب على أخلاق أهلها سوء الخلق والبخل المفرط والمنافسة فيما بينهم فى النزر الحقير، والغالب على ألوانهم الصفرة والنحافة وخفة اللحى ووفور الشعر، والضخامة فيهم قليل، وهذه صفة لعامة بلاد الجروم، والغالب عليها الاعتزال، وفى كورهم جميع الملل، وتتصل زاوية خوزستان هذه بالبحر فيكون له هور، والهور كالنهر يند من البحر ضاربا فى الأرض تدخله سفن البحر إذا انتهت إليه، فإنه يعرض وتجتمع مياه خوزستان بحصن مهدى وتنفصل منه إلى البحر ويعرض هناك حتى ينتهى فى طرفه المد والجزر ثم يتسع حتى لا يرى طرفاه، قالوا:

وغزا سابور ذو الأكتاف الجزيرة وآمد وغير ذلك من المدن الرومية، فنقل خلقا من أهلها فأسكنهم نواحى خوزستان فتناسلوا وقطنوا بتلك الديار، فمن ذلك الوقت صار نقل الديباج التسترى وغيره من أنواع الحرير بتستر والخز بالسوس والستور والفرش ببلاد بصنا ومتوث إلى هذه الغاية، والله أعلم(٣).

وقال أبوزيد عن تبوك:

تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إليه النبى ﴿ﷺ﴾، ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب عليه السلام كانوا فيها، ولم يكن شعيب منهم، إنما كان من مدين، ومدين على بحر القلزم على ست مراحل من تبوك، وتبوك بين جبل حسمى وجبل شرورى وحسمى غربيها وشرورى شرقيها».

«ياقوت ح٢ ح١٤».

وقال عن حلوان العراقية لا حلوان المصرية:

«أما حلوان فإنه مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة، والبصرة وواسط وبغداد وسر من رأى أكبر منها، وأكثر ثمارها التين، وهى بقرب الجبل، وليس

للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها، وربما يسقط بها الثلج، وأما أعلى جبلها فإن الثلج يسقط به دائما، وهى وبئة رديئة الماء وكبريتية، ينبت الدفلى على مياهها، وبها رمان ليس فى الدنيا مثله وتين فى غاية من الجودة، ويسمونه لجودته شاه أنجير أى ملك التين، وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء».

أما عن مدين، فقد قال:

مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل، وهى أكبر من تبوك، وبها البئر التى استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب، ورأيت هذه البئر مغطاة قد بنى عليها بيت وماء أهلها من عين تجرى ومدين اسم القبيلة، وهى فى الإقليم الثالث، طولها إحدى وستون درجة وثلث، وعرضها تسع وعشرون درجة وهى مدينة قوم شعيب سميت بمدين ابن إبراهيم عليه السلام».

«ياقوت ج٥ ص٧٧».

ابن فضلان
٣٠٩هـ - ٩٢١م

يحتل ابن فضلان مكانة مرموقة بين الرحالة العرب بفضل ما كتبه عن رحلته إلى بلاد البلغار، والتى قام بها عامى ٣٠٩هـ، ٣١٠هـ (٩٢١، ٩٢٢م)، وبلاد البلغار كانت دولة قوية بشرق روسيا الأوروبية بمحاذاة الفولجا الأوسط «القرون ٨ - ١٣م)، وعاصمتها بلغارى بالقرب من قازان، أخضعها المغول عام ١٢٣٦م، وانتقل فرع منها للغرب واندمج بصقالبة بلغاريا.

وقد ذكر ابن فضلان فى كتابات كثير من المؤرخين خاصة المستشرقين منهم مثل **كراتشكوفسكى**، وتوقفوا طويلاً لتحليل دروس رحلته التى سجلها فى رسالة ضافية، تؤكد موهبته القصصية، وتكشف براعة قلمه وحسن بيانه وسلامة أسلوبه ودقته فى التعبير والوصف، وحرصه على نقل مشاعره فى حالات الفرح والغبطة أو الخوف والجزع، وهو ما يخلع على الرسالة سمات إنسانية عذبة، تجعل منها نموذجا رائداً ورائعا من نماذج الكتابة فى أدب الرحلات، على أننا لانستطيع أن نفصلها عن عصرها المزهر، فهى ولا شك إحدى أزاهير القرن الرابع الهجرى الذى علا فيه نجم الحضارة العربية، وقطعت فيه العلوم والفنون العربية والإسلامية شوطاً كبيراً فى بناء منظومة الوعى الإنسانى.

وقد كان العالم المعروف آنذاك ساحة عريضة تجرى فيها الخيول العربية حاملة مشاعل الهداية والنور والخلاص من نير التخلف والاستعباد، والانطلاق مع الدين الجديد إلى عوالم رحبة يخامر أهلها الأمل فى حياة سامية ورغدة.

صاحب هذه الرحلة إلى بلاد البلغار هو أحمد ابن فضلان بن العباس ابن راشد بن حماد، مولى القائد العباسى محمد بن سلمان، الذى نجح فى

هزيمة جيوش الطولونيين وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة ٢٩٢هـ فى عهد الخليفة المكتفى بالله (٢٨٩ - ٢٩٥هـ)، ولم نعثر فيما رجعنا إليه من المصادر على تاريخ ميلاده أو وفاته، ولا يسعنا إلا الوقوف أمام النص الذى حقق له هـذه المكانة.

رحلة ابن فضلان

قام ابن فضلان برحلة إلى بلاد البلغار ألمش بن بلطوار فى ١١ من صفر عام ٣٠٩هـ الموافق ٢١ من «يونيو ٩٢١م»، استجابة لدعوة من ملك البلغار، الذى أسلم وأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله(١١) يطلب منه أن يبعث إليه من يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ويصف له الطريق الصحيح إلى رضا الله ورحمته، عملاً وقولاً وحكماً وحكمة، كما طلب من الخليفة أن يبعث إليه من يساعده فى بناء مسجد، يتوافر له الطراز المعمارى الإسلامى، وكذلك فى بناء حصن يدفع عن بلاده الأعداء من الملوك المجاورين فرحب المقتدر بالدعوة، وأمر بتشكيل بعثة دينية وهندسية إلى ملك الصقالبة برئاسة أحمد بن فضلان، بوصفه فقيهاً ورجلاً من أبرز رجال الدين فى زمنه.

سجل ابن فضلان رحلته فى رسالة قدمها إلى المقتدر بعد عودته، وعرض خلال فقراتها صورة صادقة للظروف السياسية فى الدول الإسلامية وخاصة فى المناطق التى تقع شمالا، وتمثل فى تلك الفترة أطراف العالم المتحضر مثل حوض نهر الفولجا.

وسوف نطالع فى فصل آخر من هذا الكتاب تجربة رحالة آخر، هو أبو حامد الأندلسى الذى طوف بعديد من الأمصار، منها بلاد البلغار، لكنه عاش أكثر سنى حياته فى القرن السادس الهجرى (٤٧٤ - ٥٦٤هـ)، أى بعد ما يقرب من قرنين من زمن ابن فضلان..

تتضمن الرسالة مادة وصفية تحليلية جيدة، أصبحت مرجعاً لكل من جاء بعد ابن فضلان، ورغب أن يحيط علما بهذه البلاد مثل الاصطخرى والمسعودى

وياقوت الحموى، وسوف نلحظ أن **الحموى** - طيب الله ثراه - **قدم تقريباً معظم رسالة ابن فضلان** موزعة على البلاد، التى تتناولها فى «**معجم البلدان**» كالبلغار والصقالبة والروس والخزر. وكان د. **سامى الدهان** قد حقق جزءًا يسيرًا من هذه الرسالة، وكان د. **فراوس رولدس** المتوفى عام وكان ١٩٥٧ وكان أستاذا للأدب المقارن بجامعة أوسلو بالنرويج، قد عكف على ترجمة جزء كبير منها إلى اللغة النرويجية، وعنه أخذ **مايكل كراتيون** النص الذى حوله إلى رواية بالإنجليزية باسم «**أكلة الموتى**».

وتزداد قيمة هذه الرسالة ليس فقط بفضل معلوماتها الجغرافية ووصفها الدقيق لملامح الحياة فى هذا العالم الجديد، ولكن بفضل السرد التحليلى للسمات الإثنوجرافية والأنثروبولوجية لهذه المناطق، الأمر الذى كان مجهولاً تقريبا لمعظم شعوب العالم الإسلامى، ومن هنا كان اهتمام المستشرقين والعلماء الروس بهذه الرسالة المتميزة، وتوالى العناية بطبعها وإلقاء الضوء عليها.

وسوف يدرك القارئ قيمة هذه الرسالة الأدبية والفنية، إذ تتدفق فيها العبارات، وتنثال الجمل فى سهولة ويسر دون ثرثرة أو حذلقة أو تكلف، واستطاع ابن فضلان أن يخلف لنا صياغة جيدة ومحكمة لكل ما حصل عليه ولمسه من معلومات جغرافية وإنسانية، وأن يبلور هذا الكم فى نص مترابط، أشبه بقصة متماسكة مهما تعددت فصولها وحوادثها.

يقول ابن فضلان(١٢).

«لما وصل كتاب ألمس بن شلكى بلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله يسأله فيه أن يبعث إليه من يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ويبنى له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة فى جميع بلاده وأقطار مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك والمخالفين له، فأجيب إلى ذلك، وكان السفير له نذير الحرمى، فرحلنا من مدينة السلام(١٣) يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة، خلت من صفر سنة ٣٠٩هـ.

مضى ابن فضلان فى رحلته ماراً بعدة مدن هى همدان والرى ونيسابور

ومرو حتى بلغ بخارى، التى قرر أن يبقى فيها بعض يوم للراحة، والتقى فيها بوزير السامانيين العالم الجغرافى الشهير الجيهانى، ولقى أثناء ذلك الرعاية من أمير خراسان، ثم استأجر سفينة من بخارى حملته والوفد المرافق فى نهر جيحون إلى خوارزم، ودخل على أميرها محمد بن عراف خوارزم شاه فأكرمه وأحسن ضيافته، ويذكر ابن فضلان أن الأمير نصحه أكثر من مرة بأن يرجع عن هذه الرحلة، لأنه فى الأغلب سيتعرض هو ومن معه للهلاك، وألح الأمير فى ذلك، إلا أن ابن فضلان كان يزداد تشبثاً بالمهمة ويلتهب شوقه للإقدام عليها، ربما بسبب ما يقصه الأمير عليه محاولاً منعه.

وواصل رحالتنا طريقه إلى مدينة الجرجانية وعنها يقول:

«فأقمنا بالجرجانية أياماً وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره، وكان سمُك الجمد سبعة عشر شبرا، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجول تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق وهو ثابت لا يتخلخل، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر فرأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد بره، قال له:

تعالى إلىّ حتى نتحدث فإن عندى نارا طيبة، هذا إذا بالغ فى بره وصلته إلا أن الله قد لطف بهم فى الحطب وأرخصه عليهم، حمل عجلة من حطب بدرهمين من دراهمهم وهى تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل».

تبدو لنا **دقة** ابن فضلان فى السطر الأول **«من أوله إلى آخره وسمك الجمد سبعة عشر شبرا»** وتبدو لنا **أدبيته «بابا من الزمهرير قد فتح علينا»** وهى عبارة دالة جداً على شدة البرد، وتبدو لنا أيضاً عمق نظرته الإنسانية والدينية وإشفاقه على سكان هذه البلاد وما يعانونه من البرد، لكنه يكتشف رحمة الله بهم فيقول **«إلا أن الله قد لطف بهم وأرخصه عليهم، حمل عجلة حطب بدرهمين»** ونتركه يستأنف حديثه الشائق فيقول:

«وتطاول مقامنا بالجرجانية، وذاك أنا أقمنا بها أياما من رجب وشعبان وشهر

رمضان وشوال، وكان طول مقامنا من البرد وشدته، ولقد بلغنى أن رجلين ساقا اثنى عشر جملاً ليحملا عليها حطبا، من بعض الغياض فنسيا أن يأخذا معهما قداحة وحراقة، وإنما باتا بغير نار، فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد، ولقد رأيت - لبرودة هوائها ـ أن السوق بها والشوارع تخلو، حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحداً ولا يستقبله إنسان، وقد كنت أخرج من الحمام، فإذا دخلت البيت نظرت إلى لحيتى وهى قطعة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار، ولقد كنت أنام فى بيت جوف «داخل» بيت، وفيه لبود تركية مدثر بالأكسية والفرى «الفراء» وربما التصق خدى على المخدة، ولقد رأيت الأرض تتشقق فيها أودية عظام لشدة البرد، وإن الشجرة العظيمة لتنفلق نصفين لذلك.

ويمضى ابن فضلان إلى بلاد الترك، منتقلاً من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى أخرى يصف أحوال الناس وحيواتهم وعاداتهم، فيقول عنهم:

«إنهم لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصة فى الشتاء، ولا يتستر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم، وكذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس ولقد نزلنا يوما على رجل منهم فجلسنا وامرأة الرجل معنا، فبينما هى تحدثنا إذ كشفت فرجها وحكته، ونحن ننظر إليها فسترنا وجوهنا، وقلنا:

- استغفر الله، فضحك زوجها وقال للترجمان: قل لهم: تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه هو خير من أن تغطيه وتمكن منه».

ويقول ابن فضلان عن بلد آخر:

«ووقفنا فى بلد قوم من الأتراك، يقال لهم «الباشفرد» فحذرناهم أشد الحذر وذلك أنهم شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداماً على القتل يلقى الرجل فيغرز هامته، ويأخذها ويتركه، وكل واحد منهم ينحت خشبية على قدر الإحليل «عضو الذكورة» ويعلقها عليه، فإذا أراد سفرا أو لقاء عدو قبلها وسجد لها، وقال: يا رب، افعل كذا وكذا، فقلت للترجمان:

- سل بعضهم فى هذا، ولم جعله ربه.

قال: لأنى خرجت من مثله، فلست أعرف خالقاً غيره، ومنهم من يزعم أن له اثنى عشر ربا، للشتاء رب وللصيف رب، وللمطر رب وللريح رب، وللشجر رب وللناس رب وللدواب رب، وللمساء رب وللليل رب وللنهار رب وللموت رب وللأرض رب والسماء رب وهو أكبرهم، إلا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق، ورضى كل واحد منهم بما يعمل شريكه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً، ورأينا طائفة منهم تعبد الكراكى، فعرفونى أنهم كانوا يحاربون قوماً من أعدائهم فهزموهم، وأن الكراكى صاحت وراءهم، ففزعوا وانهزموا وبعدما - هزموا عبدوا الكراكى لذلك، وقالوا هذه ربنا».

ويصل ابن فضلان ورجاله إلى بلاد الصقالبة، التى أوفدهم المقتدر إليها فيقول: «فلما كنا من ملك الصقالبة وهو الذى قصدنا له على مسيرة يوم وليلة فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم، وساروا معنا، فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه، فلما رآنا نزل، فخر ساجدا شكراً لله - جل وعز - وكان فى كمه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قبابا فنزلناها وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلثمائة، فأقمنا يوم الأحد ويوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء فى القباب(١٤)، التى ضربت لنا حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب فلما كان يوم الخميس واجتمعوا، نشرنا المطردين، اللذين كانا معنا وأسرجنا الدابة بالسرج الموجه إليه وألبسناه المواد وعممناه وأخرجت كتاب الخليفة وقلت له:

- لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ، فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته وهو رجل بدين بطين جدا.

وبدأت فقرأت صدر الكتاب، فلما بلغت منه السلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، قلت: رد على أمير المؤمنين السلام فرد وردوا جميعا بأسرهم، ولم يزل الترجمان يترجم لنا حرفا، فلما استتممنا قراءته كبروا تكبيرة ارتجت لها الأرض.

ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس وهو قائم، فلما استتممته نثر أصحابه عليه الدراهم الكثيرة، ثم أخرجت الهدايا من الطيب والثياب واللؤلؤ له ولأمرائه، فلم أزل أعرض عليهم شيئا شيئا حتى فرغنا من ذلك، ثم خلعت على امرأته بحضرة الناس وكانت جالسة إلى جانبه، وهذه سنتهم وزيهم، فلما خلعت عليها نثر النساء عليها الدراهم وانصرفنا.

فلما كان بعد ساعة وجه إلينا فدخلنا إليه وهو فى قبته والملوك عن يمينه، وأمرنا أن نجلس على يساره، وإذا أولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومى، فدعا بالمائدة فقدمت وعليها اللحم المشوى وحده، فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وثانية وثالثة، ثم أخذ قطعة دفعها إلى سوسن «مولى نذير الخرمى وحاجب المكتفى بالله»، فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة، فجعلت بين يديه، وكذلك الرسم[15] لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة، ثم ناولنى فجاءتنى مائدة ثم قطع قطعة وناولها الملك الذى عن يمينه فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الثانى فجاءته مائدة.

أكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد، ويتناول من مائدة غيره شيئا، فإذا فرغ من الطعام حمل واحد منهم ما بقى على مائدته إلى منزله، فلما أكلنا دعا بشراب العسل وهو يسمونه السجو، فشرب قدحاً، ثم قام قائماً فقال، هذا سرورى بمولاى أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه وقمنا نحن أيضا حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات انصرفنا من عنده».

هكذا كانت عين الرحالة وذهنه المتقد وملاحظاته الدقيقة الواعية ترصد كل ما يدور حوله، متوقفاً عند كل ما يحمل دلالة ويقدم معرفة، مما جرى على هذه المائدة الملكية. قص علينا ابن فضلان تفاصيل الآداب المتبعة، وهو يستشعر راحة لهذه الآداب خاصة تأكيده على أن لكل فرد مائدة لا يشركه فيها أحد، ولا يتناول من مائدة غيره شيئا.

ولنترك له فرصة استكمال مشاهدته:

- «كان يُخطب له على منبره قبل قدومى، اللهم أصلح الملك بلطوار ملك البلغار، فقلت أنا له: إن الله هو الملك، ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره - جل وعز - وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضى لنفسه أن يقال على منابره فى الشرق والغرب اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين، وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء، فقال لى:

فكيف يجوز أن يخطب، قلت: باسم واسم أبيك

قال: إن أبى كان كافراً، ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر، وأنا أيضا فما أحب أن يذكر اسمى إذا كان الذى سمانى به كافرا، ولكن ما اسم مولاى أمير المؤمنين، فقلت: جعفر.

قال: فيجوز أن أتسمى به.

قلت: نعم.

قال: قد جعلت اسمى جعفرا واسم أبى عبدالله، فتقدم إلى الخطيب بذلك، ففعلت، فكان يخطب له: اللهم أصلح عبدك جعفر بن عبدالله أمير البلغار مولى أمير المؤمنين.

ويتابع ابن فضلان الدخول بنا إلى عوالم رحلته قائلاً:

«ورأيت فى بلده العجائب ما لا أحصيها كثرة، من ذلك أن أول ليلة بتناها فى بلده، رأيت قبل مغيب الشمس بساعة أفق السماء، وقد احمر احمراراً شديداً وسمعت فى الجو أصواتا عالية وهمهمة، فرفعت رأسى فإذا غيم أحمر مثل النار قريب منى، فإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا منه أمثال الناس والدواب، وإذا فى أيدى الأشباح التى فيها قسى ورماح وسيوف، وأتبينها وأتخيلها وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها رجالاً أيضا وسلاحا ودوابا، فأقبلت هذه القطعة على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة، ففزعنا من هذه وأقبلنا على التضرع والدعاء وأهل

البلدة يضحكون منا ويتعجبون من فعلنا، وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعا ساعة، ثم تفترقان فمازال الأمر كذلك إلى قطعة من الليل ثم غابتا، فسألنا الملك عن ذلك، فزعم أن أجداده كانوا يقولون هؤلاء من مؤمنى الجن وكفارهم يقتتلون كل عشية، وأنهم ما عدموا هذا منذ كانوا فى كل ليلة..

ليس ابن فضلان كما رأينا ممن يفرحون بالعجائب ويرحبون بالغرائب ينثرونها فى كتبهم، لكنه يحكى - بالضبط - ما رأى، وإن كان الشك يخامره، فيقول «زعم الملك»، فهو إذاً ينقل لنا المشاهدة على سبيل المعرفة، دون أن يصدقها أو يطلب إلينا ذلك، يقول:

«ورأيت الحيات عندهم كثيرة حتى إن الغصن من الشجر ليلتف عليه عشر منها وأكثر، ولا يقتلونها ولا تؤذيهم، ولهم تفاح أخضر شديد الحموضة، تأكله الجوارى فيسمنْ، وليس فى بلدهم أكثر من شجر البندق ورأيت منه غياضاً تكون أربعين فرسخا من مثلها، ورأيت لهم شجراً لا أدرى ما هو، مفرط الطول وساقه أجرد من الورق ورؤوس كرؤوس النخل فيثقبونه ويجعلون تحته إناء يجرى عليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل، وإن أكثر الإنسان من شربه أسكره، كما تسكر الخمر وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الخيل على أن الحنطة والشعير كثير فى بلادهم، وكل من زرع شيئا أخذه لنفسه، ليس للملك فيه حق، غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور، وإذا أمر سرية على بعض البلدان بالغارة، كان له معهم حصة، وليس عندهم شيء من الأدهان غير دهن السمك، فإنهم يقيمونه مقام الزيت والشيرج، وكلهم يلبسون القلانس.

وإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد معه، فإذا اجتاز فى السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت إبطه، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رؤوسهم، وكذلك كل من يدخل على الملك من صغير وكبير حتى أولاده وأخوته ساعة يقع نظرهم عليه يأخذون قلانسهم فيجعلونها تحت آباطهم، ثم يومئون إليه برؤوسهم ويجلسون ثم يقومون حتى يأمرهم بالجلوس وكل من

جلس بين يديه جلس باركا ولا يخرج قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك.

والصواعق فى بلادهم كثيرة جدا، وإذا وقعت الصاعقة فى دار أحدهم لم يقربوه، ويتركونه حتى يتلفه الزمان، ويقولون:

هذا موضع مغضوب عليه وهم لا يزنون بوجه ولا سبب، ومن زنى منهم كائنا من كان ضربوا له أربع سكك وشدوا يديه ورجليه إليها، وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذه، وكذلك يفعلون بالمرأة».

أما بلاد الروس فيأخذنا ابن فضلان معه لنرى بعينيه ونسمع بأذنيه ونتأمل أحوال وعادات أهل هذه البلاد، وهو تقريبا لا يترك شيئا جديراً بالالتفات والملاحظة إلا التقطه وسجله، ولا يستنكف - كما فعل غيره - أن يذكر ما أنكره منهم مثل علانية النكاح أحيانا بلا إحساس بالخجل، ويحكى بالتفصيل أشكال الجاهلية التى لازالت تستبد بهم فى عبادتهم، كما يصف لنا أحوالهم فى الاغتسال والمرض والموت، وصف كاتب روائى يجيد السرد والحكى ويحسن الإمساك بتلابيب قارئه.. يقول ابن فضلان الذى يؤكد لنا ما ذهبنا إليه وبما لا يدع مجالاً للشك أن أدب الرحلة العربية هو البديل، الذى احتل مكان الرواية والقص فى البوتقة الإبداعية لدى أمة العرب[١٦]:

ورأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم فنزلوا على نهر إتل فلم أرَ أتم أبداناً منهم كأنهم النخل، شُقر حمر لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على إحدى شقّيه ويخرج إحدى يديه منه، ومع كلّ واحد منهم سيف وسكّين وفأس لا تفارقه، وسيوفهم صفائح مشطبة أفرنجية، ومن حدّ ظُفر الواحد منهم إلى عنقه محضر شجر وصور وغير ذلك، وكلّ امرأة منهم على ثديها حقة مشدودة إمّا من حديد وإمّا من فضة وإمّا من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره، وفى كل حقه حلقة فيها سكين مشدودة على الثدى أيضاً، وفى أعناقهن أطواق ذهب وفضة لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ

لامرأته طوقاً وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين، وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر، فربما كان فى عنق الواحدة منهن أطواق كثيرة. وأجل الحلى عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذى يكون على السفن يبالغون فيه ويشترون الخرزة منه بدرهم وينظمونه عقداً لنسائهم.

وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا يغتسلون من جنابة كأنهم الحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل وهو نهر كبير، ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب ويجتمع فى البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواريه الروقة للتجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاء بعض، وربما يدخل التاجر عليهم ليشترى من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضى أربه، ولابد لهم فى كل يوم بالغداة أن تأتى الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتقدمها إلى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه، فيغسله ويسرحه بالمشط فى القصعة، ثم يتمخط ويبصق فيها ولا يدع شيئا من القذر إلا فعله فى ذلك الماء فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصة إلى الذى يليه فيفعل مثل ما فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من فى البيت، وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئا من الخبز والماء ولايقربونه ولا يكلمونه، بل لا يتعاهدونه فى كل أيامه لاسيما إن كان ضعيفاً أو كان مملوكاً، فإن برأ وقام رجع إليهم وإن مات أحرقوه، وإن كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير، وإذا أصابوا سارقاً أو لصاً جاءوا به إلى شجرة طويلة غليظة وشدوا فى عنقه حبلاً وثيقاً وعلقوه فيها ويبقى معلقاً حتى يتقطع من المكث إما بالرياح أو الأمطار، وكان يقال لى:

إنهم كانوا يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق، فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغنى موت رجل منهم جليل، فجعلوه فى قبره وسقفوا عليه

عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها، وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغنى يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث: فثلث لأهله وثلث يقطعون له به ثياباً وثلث يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتُحرق مع مولاها، وهم مستهترون بالخمر يشربونها ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح فى يده، وإذا مات الرئيس منهم، قال أهله لجواريه وغلمانه:

من منكم يموت معه؟ فيقول بعضهم: أنا، فإذا قال ذلك فقد وجب عليه لايستوى له أن يرجع أبداً، ولو أراد ذلك ما تُرك، وأكثر ما يفعل هذا الجوارى، فلما مات ذلك الرجل الذى قدمت ذكره قالوا لجواريه، من يموت معه؟ فقالت إحداهن: أنا، فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث ما سلكت حتى إنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما، وأخذوا فى شأنه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج إليه، والجارية فى كل يوم تشرب وتغنى فارحة مستبشرة، فلما كان اليوم الذى يحرق فيه هو والجارية، حضرت إلى النهر الذى فيه سفينته فإذا هى قد أُخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخلنج وغيره، وجعل حولها أيضا مثل الأناس الكبار من الخشب ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهمه وهو بعد فى قبره لم يخرجوه، ثم جاءوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات الديباج الرومى والمساند الديباج الرومى، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ففرشت على السرير الذى ذكرناه، وهى وليت خياطته وإصلاحه، وهى تقتل الجوارى، ورأيتها حواء نيرة ضخمة مكفهرة.

فلما وافوا قبره نحوا التراب عن الخشب ونحوا الخشب واستخرجوه فى الإزار الذى مات فيه فرأيته قد اسود لبرد البلد، وقد كانوا جعلوا معه فى قبره نبيذاً وفاكهة وطنبورا، فأخرجوا جميع ذلك، وإذا هو لم يتغير منه شىء غير لونه، فألبسوه سراويل وراناً وخفا وقرطقاً وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على

رأسه قلنسوة من ديباج سمور وحملوه حتى أدخلوه القبة التى على السفينة، وأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند وجاءوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه فى السفينة ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ثم قطعوهما بالسيوف وألقوا لحمهما فى السفينة، ثم جاءوا ببقرتين فقطعوهما أيضا وألقوهما فى السفينة، ثم أحضروا ديكا ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها.

والجارية التى تُقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبلهم فيجامعها واحد واحد، وكل واحد يقول لها: قولى لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك، فلما كان وقت العصر من الجمعة جاءوا بالجارية إلى شىء عملوه مثل ملبن الباب، فوضعت رجلها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها ثم أصعدوها ثانية ففعلت كفعلها فى المرة الأولى ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ففعلت فعلها فى المرتين ثم دفعوا لها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به فأخذوا الدجاجة وألقوها فى السفينة، فسألت الترجمان عن فعلها، فقال:

قالت فى المرة الأولى هو ذا أرى أبى وأمى، وقالت فى المرة الثانية: هو ذا أرى جميع قرابتى الموتى قعدواً وقالت فى المرة الثالثة: هو ذا أرى مولاى قاعداً فى الجنة والجنة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعونى فاذهبوا بى إليه، فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانا معها، فدفعتهما إلى المرأة العجوز التى تسمى ملك الموت وهى التى تقتلها، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المعروفة بملك الموت.. ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبة وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحاً من نبيذ فغنت عليه وشربته، فقال لى الترجمان:

إنها تودع صواحباتها بذلك، ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التى فيها مولاها، فرأيتها وقد تبلدت، وأرادت الدخول إلى القبة فأدخلت رأسها بين القبة والسفينة، فأخذت

العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها العجوز وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجوارى فلا يطلبن الموت مع مواليهن، ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جنب مولاها الميت وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها، وجعلت العجوز التى تسمى ملك الموت فى عنقها حبلاً مخالفًا، ودفعته إلى اثنين ليجذباها وأقبلت ومعها خنجر عظيم عريض النصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت، ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت، فأخذ خشبة فأشعلها بالنار ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة والخشبة فى يده الواحدة ويده الأخرى على استه، وهو عريان حتى أحرق ذلك الخشب الذى قد عبوه تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التى قتلوها فى جنب مولاها، ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة، وقد ألهب رأسها فيلقيها فى ذلك الخشب فتأخذ النار فى الحطب ثم فى السفينة ثم فى القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها، ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تسعرها، وكان إلى جانبى رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذى معه، فسألته عما قال له، فقال:

إنه يقول أنتم معاشر العرب حمقى؛ لأنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه فى التراب فتأكله الهوام والدود ونحن نحرقه بالنار فى لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته، ثم ضحك ضحكاً مفرطاً وقال:

من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تأخذه فى ساعته، فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رماداً رمدداً، ثم بنوا على موضع السفينة، وكانوا أخرجوها من النهر، شبيها بالتل المَدَور ونصبوا فى وسطه خشبة كبيرة، وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا.

ومن رسم ملوك الروس أن يكون معه فى قصره أربعمائة رجل من صناديد

أصحابه وأهل الثقة عنده فهم يموتون بموته ويقتلون دونه، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب وجارية أخرى يطؤها، وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره، وسريره عظيم مرصع بنفيس الجواهر، ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه، وربما وطيء الواحدة منهن بحضرة أصحابه.

«المعجم جـ٢ ص٨٠ - ٨٢».

وهكذا. . نرى أن الروائى الأمريكى **مايكل كرايتون** لم يتجاوز الحقيقة، عندما قال «إن مخطوطة ابن فضلان هى أقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الإسكندنافى، وهو بذلك يعد وثيقة فريدة من نوعها تصف بدقة متناهية أحداثا وقعت تفوق الخيال منذ ما يزيد عن ألف عام» أما نحن فلا نحسب أن رسالة بن فضلان وأسلوبه القصصى البديع وملاحظاته الذكية الدقيقة فى حاجة إلى تعليق. ولذلك لم تكن ثمة غضاضة فى نقل عدد من صفحاتها الممتعة؛ حتى يتيسر للقارئ الاطلاع عليها بين دفتى كتابنا هذا. . الأمر الذى قد يشق على البعض الوصول إليه فى مظانه الأصيلة.

الإصطخرى

(٢٧٥ - ٣٥٠هـ)

واحد من كبار الرحالة والجغرافيين فى القرن الرابع الهجرى «العاشر الميلادى».

جاب الآفاق وارتحل فى الأمصار لأكثر من ربع قرن، وخلف لنا كتابا يعتد به، ولا يغفل عنه الدارسون، هو «**المسالك والممالك**»، رغم أن كتب السيرة تخلو من ذكره.

هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى، فارسى الأصل، ولد وعاش نشأته الأولى حتى مطالع الشباب بمدينة اصطخر الفارسية، لكنه كغيره من أبناء الفرس ارتحل إلى بغداد، بلد العلم والأدب والفقه والفن والإسلام.

تلقى العلم وتفقه فيه لكنه عشق السفر وأسرف فيه، لأنه كان السبيل الأول لنهل المعارف وتحصيل العلوم وهو السياحة والرياضة وتجديد العقل والوجدان.

لا نعرف تاريخ مولده وإن كنا نرجح أنه ولد أوائل الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى، لأنه بدأ رحلاته أوائل القرن الرابع الهجرى، ويمكن أن تكون سنه عندما بدأ تجواله بين العشرين والخامسة والعشرين ولا نعرف سنة وفاته، ولما كان قد التقى بابن حوقل عام ٣٤٠ إذاً، فلن تكون وفاته إلا بعد هذا التاريخ، ويذهب د. الحينى محقق كتاب «المسالك والممالك» إلى أنه توفى فى نحو منتصف القرن الرابع الهجرى.

زار الإصطخرى بلاد ما وراء النهر وإيران وجزيرة العرب والشام ومصر، لكنه

كغيره من جغرافيى المدرسة الكلاسيكية وصف العالم الإسلامى وحده مقسما إياه إلى عشرين إقليما، أى عشرين ولاية وتحدث عن المناطق المعمورة، كما وصف جزيرة العرب والأندلس وصقلية ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وجنوب إيران والهند وإيران الوسطى والشمالية وآرمينيا وآذربيجان وبحر الخزر.

اتسمت كتاباته بالتركيز الشديد، وشملت حدود كل قطر والمدن والمسافات وطرق المواصلات، كما يذكر فى بعض الأحيان تفاصيل متفرقة فى غير منهج عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الأجناس، وليس صحيحاً، ما أورده **د.محمد جابر الحينى** فى مقدمة كتاب «المسالك والممالك» للإصطخرى من أنه التقى بابن حوقل عام ٣٢٥، إذ الأرجح أنه التقى به عام ٣٤٠هـ - ٩٥١م على الأقل(٤)، لأن ابن حوقل فى هذا التاريخ كان لايزال شابا، ولم تتح له بعد فرصة التحصيل ولا السفر، وقد بدأ رحلاته باعترافه فى رمضان سنة ٣٣١هـ «مايو ٩٤٣م).

ويقول ابن حوقل فى كتابه «صورة الأرض» الذى رفعه إلى سيف الدولة الحمدانى قبل عام ٣٥٦هـ «سنة وفاة الحمدانى»:

«ولقيت أبا إسحق الفارسى وقد صور هذه الصورة لأرض الهند فخلطها وصور فارس فجودها، وكنت قد صورت آذربيجان التى فى هذه الصفة فاستحسنها والجزيرة فاستجداها وأخرج التى لمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ، وقال قد نظرت فى مولدك وأثرك وأنا أسألك إصلاح كتابى هذا حيث ضللت فأصلحت منه غير شكل وعزوته إليه، ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه»(٥).

وإذا كان الإصطخرى - فيما يقول **كراتشكوفسكى** - قد أعد المسودة نحو عام ٣٢١هـ، والثانية بعد أن التقى بابن حوقل أى بعد سنة ٣٤٠هـ فهذا يعنى أنه أنفق نحو ربع قرن، وهو ينقح فى كتابه بالحذف والإضافة، ويدل على ذلك قوله:

«وليس بمكة ماء جار إلا شيء بلغنى بعد خروجى عنها أنه أجرى إليها من عين كان عمل فيها بعض الولاة فاستتم فى أيام المقتدر أمير المؤمنين»، كما يدل على ذلك قوله:

«فوقعت فتنة بسمرقند فى أيام مقامى بها وأحرق الباب، وذهبت الكتابة وأعاد ذلك الباب أبو المظفر محمد بن لقمان بن نصر بن أحمد أسد، كما كان من حديد من غير تلك الكتابة».

وكتاب الإصطخرى نشر أول ما نشر - فى عصرنا الحديث - مختصرا فى نسخة بالزنكوغراف عن نسخة مخطوطة سنة ٦٩٠هـ نقلها د. مولر سنة ١٨٣٩م، ووضع لها مقدمة باللاتينية، ثم نشره دى خويه من خمس مخطوطات سنة ١٨٧٠[٦]م.

- يبدأ الإصطخرى كتابه بقوله:

«الحمد لله مبدى النعم وولى الحمد، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد، أما بعد فإنى ذكرت فى كتابى هذا أقاليم الأرض على الممالك، وقصدتُ منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها، ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض، بل جعلتُ كل قطعة أفردتها مفردة مصوّرة، تحكى موضع ذلك الإقليم، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن، وما فى أضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم، من غير أن استقصيت ذلك كراهة الإطالة، التى تؤدى إلى ملال من قرأه، ولأن الغرض فى كتابى هذا تصوير هذه الأقاليم، التى لم يذكرها أحد علمتُه، أما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات وسائر ما أنا ذاكره فقد يوجد فى الأخبار، ولا يتعذر على من أراد تقصّى شيء، من ذلك من أهل كل بلد، فلذلك تجوّزنا فى ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره، فاتخذتُ لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يسلك صورة، إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه، واتصال بعضه

ببعض، ومقدار كل إقليم من هذه الأرض، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصّلا علم موقعه من هذه الصورة، ولم تتسع هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم فى صورته، من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث، وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة، فاكتفيتُ ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه، ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة، بينت فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع فيه من المدن، وسائر ما يحتاج إليه علمه، مما آتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى.

ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليما، وابتدأت بديار العرب فجعلتها إقليماً، لأن فيها الكعبة ومكة أم القرى وهى واسطة هذه الأقاليم، ثم اتبعت ديار العرب ببحر فارس لأنه يكتنف أكثر ديار العرب، ثم ذكرت المغرب حتى انتهيت إلى مصر فذكرتها، ثم ذكرت الشام ثم بحر الروم ثم الجزيرة ثم العراق ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان ثم المنصورة، وما يتصل بها من بلاد السند والهند والإسلام، ثم آذربيجان وما يتصل بها، ثم كور «مناطق» الجبال ثم الديلم ثم بحر الخزر ثم المفازة التى بين فارس وخراسان ثم سجستان، وما يتصل بها ثم خراسان ثم ما وراء النهر.

فهذه صورة الأرض عامرها والخراب منها وهى مقسومة على الممالك، وعُماد ممالك الأرض أربعة، فأعمرها وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة فى السياسة وتقويم العمران فيها مملكة إيرانْشَهرْ، وقصبتها إقليم بابل وهى مملكة فارس، وكان حدّ هذه المملكة فى أيام العجم معلوماً، فلما جاء الإسلام أخذ من كل مملكة بنصيب، فأخذ من مملكة الروم والشام ومصر والمغرب والأندلس، وأخذ من مملكة الهند ما اتصل بأرض المنصورة والمُلتان إلى كابُل وطرف أعلى طُخَارستان، وأخذ من مملكة الصين ما وراء النهر، وانضاف إليه هذه الممالك العظيمة، فمملكة الروم تدخل فيها حدود الصقالبة ومن جاورهم من الروس والسّرير واللاّن والأرمن ومن دان بالنصرانية، ومملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التِّبت

ومن دان بدين أهل الأوثان منهم، ومملكة الهند تدخل فيها السند وقشمير، وطرف من التبت ومن دان بدينهم.

ولم نذكر بلد السودان فى المغرب والبُجَة والزنج ومن فى أعراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال، ولاحظّ لهم فى شىء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك، غير أن بعض السودان المقاربين لهذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم، ويقاربون أهل هذه الممالك مثل النوبة والحبشة، فإنّهم نصارى يرتسمون بمذاهب الروم، وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة، لأن أرض النوبة متاخمة لأرض مصر والحبشة على بحر القلزم، وبينها وبين أرض مصر مفازة فيها معدن الذهب، ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم، فهذه الممالك المعروفة وقد زادت مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من أطراف هذه الممالك.

وقسمة الأرض على الجنوب والشمال: فإذا أخذت من المشرق من الخليج الذى يأخذ من البحر المحيط بأرض الصين، إلى الخليج الذى يأخذ من هذا البحر المحيط من أرض المغرب بأرض الأندلس، فقد قسمت الأرض قسمين، وخط هذه القسمة يأخذ من بحر الصين حتى يقطع بلد الهند ووسط مملكة الإسلام، حتى يمتد إلى أرض مصر إلى المغرب، فما كان من حدّ الشمال من هذين القسمين فأهله بيض، وكلما تباعدوا فى الشمال ازدادوا بياضاً، وهى أقاليم باردة، ما كان مما يلى الجنوب من هذين القسمين فإنّ أهله سود، وكلما تباعدوا فى الجنوب ازدادوا سواداً، وأعدل هذه الأماكن ما كان فى الخط المستقيم وما قاربه.

وسنذكر كل إقليم من ذلك بما يعرف قُربه ومكانه فى الإقليم الذى يصاقبه، فأما مملكة الإسلام فإنّ شرقيها أرض الهند وبحر فارس وغربيها مملكة الروم وما يتصل بها من الأرمن واللان والران والسرير والخزر والروس وبلغار والصقالبة وطائفة من الترك، وشماليها مملكة الصين وما اتصل بها من بلاد الأتراك،

وجنوبيها بحر فارس، وأما مملكة الروم فإن شرقيّها بلاد الإسلام، وغربيها وجنوبيها البحر المحيط، وشماليها حدود عمل الصين، لأنا ضممنا ما بين الأتراك وبلد الروم من الصقالبة وسائر الأمم إلى بلد الروم، وأما مملكة الصين فإن شرقيها وشماليها البحر المحيط، وأما جنوبيها فمملكة الإسلام والهند، وأما غربيها فهو البحر المحيط، إن جعلنا يأجوج ومأجوج وما وراءهم إلى البحر من هذه المملكة، وأما أرض الهند فإن شرقيها بحر فارس، وغربيها وجنوبيها بلاد الإسلام، وشماليها مملكة الصين، فهذه حدود هذه الممالك التى ذكرناها، وأما البحار فإنّ أعظمها بحر فارس وبحر الروم، وهما خليجان.. إلخ».

والإصطخرى مؤلف ذو منهج يميزه عن غيره، أما مذهبه فى التأليف فيتبين من قوله على سبيل المثال فى إقليم الجبال:

«فأما الرى فإنا ضممناها إلى الديلم وإن كانت قائمة بنفسها، لأن اتصالها بها اتصال واحد وليس بينهما حاجز يستحق به الانفراد عنها، فمرة من الجبال ومرة من عمل خراسان»، ومن قوله أيضاً فى ما وراء النهر:

«وقد كان فى التقدير أن نصور نصف خوارزم فى صورة خراسان ونصفها فى صورة ما وراء النهر، غير أن الغرض فى هذا الكتاب معرفة هذه الأقاليم ومدنها، فاخترت أن تكون خوارزم مجموعة فى الصورة وجعلتها فى صورة ما وراء النهر فأبلغ بذلك غرضى من غير تكرار فى الصورتين»

فأنت ترى أنه مؤلف له خطة مرسومة يسير على نهجها، يخضع لها ولا يقبل التقسيم الإدارى الذى دعت إليه ظروف غير جغرافية، تراه يجعل المنطقة وحدة ولا يجزئها إلا إذا جزأتها الطبيعة، وهو مؤلف دقيق بالنسبة إلى عصره، وتتبين ذلك واضحاً من قوله على سبيل المثال:

«وأما النيل فإن ابتداء مائه لا يعلم وذلك أنه يخرج من مفازة من وراء أرض الزنج لا تُسلك حتى تنتهى إلى حدود الزنج»، فهو يرفض الخرافات التى تجعل النيل ينبع من الجنة، ويتضح ذلك أيضا فى حديثه عن الديلم **«وفى حماقات**

الأولين أن الضحاك مقيد بها»، وفى ختام حديثه عن اليمن فى قوله: **«ويُحكى عن الغيلان بها من الأعجوبة ما لا أستجيز حكايته»**، فمن هذه الأمثلة تراه رجلاً يبحث عن الحقيقة وفق ما يهديه إليه عقله، ويرفض الجرى وراء الخرافات قدر المناهج المتاحة لعصره، وهو بعد ذلك أمين فى التأليف يذكر المحاسن والمساوئ وإن كانت فى قومه الفرس، قال فى فارس:

«وقد انتحل قوم من الفرس ديانات خرجوا بها من المذاهب فدعوا إليها وانتصبوا لها، لولا إهمال أمرهم ضرب من العصبية وباب من التحامل فنذكر المنحاسن ولا نذكر غيرها».

يقول د. الحينى:

والقارئ لكتاب الإصطخرى يلاحظ فى وضوح أن منهجه فى التأليف يقوم على أسس ثلاثة: **أولا** المشاهدة والوصف وفق الرؤية، وتجد ذلك واضحاً فى حديثه عن إقليم ما وراء النهر وديار ثمود وغيرهما، **وثانيا** تحرى الدقة جهد الطاقة مخالفاً غيره تارة ومتفقاً تارة أخرى، **وثالثاً** سماع الأخبار والاقتصاد فى روايتها، ولقد بيّن ذلك فى مقدمة كتابه قائلاً:

«فقد يوجد فى الأخبار ولا يتعذر على من أراد تقصّى شىء من ذلك من أهل كل بلد، ولذلك تجوّزنا فى ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره»، وليس معنى هذا أنه استغنى عن النقل، وإنما معناه أنه تحرى الاقتصاد فى الرواية، وأثبت ما هو ضرورى ومكمل لكتابه، مما رآه متفقاً ومنهجه فى الصحة والمنطق والتصوير.

نماذج من كتابات الإصطخرى

ذكر صور أهل فارس وزيّهم ولسانهم وأديانهم:

«أما صورهم فإن أهل الجروم الغالب على خلقتهم نحافة الخَلْق، وخفة الشعر وسمرة اللون، وأهل الصرود أعبل(٧) أجساما وأكثر شعوراً وأشد بياضاً، ولهم ثلاثة ألسنة: الفارسية التى يتكلمون بها، وجميع أهل فارس يتكلمون بلغة واحدة يفهم بعضهم عن بعض، إلا ألفاظاً تختلف لا تستعجم على عامتهم، ولسانهم الذى به كتب العجم أيامهم ومكاتبات المجوس فيما بينهم هو الفهلوية التى تحتاج إلى تفسير حتى يعرفها الفرس، ولسان العربية به، مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس وأمراؤهم، وأمّا زيهم فإن زى السلطان بها الأقبية، وربما لبسوا الدراريع(٨) التى هى أوسع فرجة، وأعرض جُرُبانا(٩) وجيوباً من دراريع الكتاب، والعمائم التى تحتها قلانس مرتفعة، ويلبسون الدّنيات، وما أشبهها من القلانس المشمرة عن الأذنين مع الطيالسة والقمص والجبابَ، ولا يلبسون درّاعة ولا خفا بكسر ولا قلنسوة تغطى الأذنين.

وأما زى الكتاب فإنهم يلبسون الدراريع والعمائم، فإن لبسوا تحت العمائم قلانس جعلوها خفية، توقى الوسخ ولا تظهر، ويلبسون الخف المكسر ألطف من خف السلطان، ولا يلبسون قباءً ولا طيالسة، وأما التُّنّاء(١٠) والتجار والملوك فلباسهم شىء واحد، من الطيالسة والعمائم والخفاف التى لا كسر فيها والقمص والجباب والمبطنات، وإنما يتفاضلون فى الجودة فى الملابس، فأما الزىّ فواحد، وزيهم زى أهل العراق.

وأما أخلاق ملوكهم والتُّنّاء منهم والمخالطين للسلطان من عمال الدواوين وغيرهم فالغالب عليه استعمال المروّة فى أحوالهم، والنزاهة عما يقبح به الحديث

من الأخلاق الدنيّة، والمبالغة فى تحسين دورهم ولباسهم وأطعمتهم والمنافسة فيما بينهم فى ذلك، والآداب الظاهرة فيهم.

وأما تجارهم فالغالب عليهم محبة جمع المال، والحرص، فأما أهل سيراف والسواحل فإنهم يسيرون فى البحر حتى ربما غاب أحدهم عامة عمره فى البحر، ولقد بلغنى أن رجلاً من سيراف ألف البحر، حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحوا من أربعين سنة، وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه، فى كل مدينة يتحوّل من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت أو تشعثت فاحتيج إلى إصلاحها، وقد أُعطوا من ذلك حظا جزيلاً، حتى إن أحدهم يبلغ ملكه أربعة آلاف ألف دينار، وفى عصرنا قد بلغنى ما هو أكثر من ذلك، فتراه فى لباسه لا يتميز من أجيره، وأما أهل كازرون وفسا وغيرهم، فهم أهل تجارات فى البر، وقد أعطوا من ذلك حظاً جزيلاً، حتى أن أحدهم ليبلغ ملكه الكثير، وهم أهل صبر على الغربة وحرص على جمع المال، وفيهم اليسار الظاهر حيثما كانوا، وما علمت مدينة فى بر ولا بحر فيها قوم من الفرس مقيمون إلا وهم عيون تلك المدينة، والغالب عليهم اليسار واستقامة الحال والعفة

«المسالك والممالك ص٨٣، ٨٤».

ويقول الإصطخرى عن مذاهب أهل فارس:

وقد انتحل قوم من الفرس ديانات خرجوا بها عن المذاهب، فدعوا إليها وانتصبوا لها، لولا أن إهمال أمرهم ضرب من العصبية وباب من التحامل، فنذكر المحاسن، ولا نذكر غيرها، لكان من الواجب إهمال ذكرهم لشناعة أمرهم وفظاعة أخبارهم، ولكن الوقوف على ما أمكن من أخبار الناس وسيرهم - من محمود ومذموم - غير مكروه، فممن عرف من هؤلاء واشتهر ذكره الحسين بن منصور المعروف بالحلاج - من أهل البيضاء، وكان رجلاً حلاجاً ينتحل النسك، فمازال يرتقى به طبقا عن طبق حتى انتهى به الحال إلى أن زعم: أن من هذّب فى الطاعة جسمه، وأشغل بالأعمال الصالحة قلبه وصبر على مفارقة اللذات، وملك نفسه

فى منع الشهوات، وارتقى به إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يتنزل فى درج المصافاة، حتى يصفو عن البشرية طبعه، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب، حل فيه روح الله، الذى كان منه عيسى بن مريم، فيصير مطاعاً، فلا يريد شيئا إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله، وجميع أمره أمر الله، فكان يتعاطى هذا ويدعو إلى نفسه بتحقيق ذلك كله، حتى استمال جماعة من الوزراء وطبقات من حاشية السلطان وأمراء الأمصار وملوك العراق والجزيرة والجبال وما والاها، وكان لا يمكنه الرجوع إلى فارس ولا يطمع فى قبولهم إياه، فخاف على نفسه منهم لو ظهر لهم فأخذ ومازال فى دار السلطان ببغداد، إلى أن خيف من قبله أن يستغوى كثيراً من أهل دار الخلافة من الحجاب والخدم وغيرهم، فصلب حياً إلى أن مات.

ومنهم الحسن الجنّابى ويكنى بأبى سعيد من أهل جنّابة، كان دقاقاً أظهر مذهب القرامطة فنفى عن جنّابة، فخرج منها إلى البحرين، فأقام بها تاجراً يستميل العرب بها ويدعوهم إلى نحلته حتى استجابوا له، وملك البحرين وماوالاها، فكان من كسره عساكر السلطان وعيثه وعدوانه على أهل عُمان، وسائر ما يصاقبه من بلدان العرب ما قد انتشر ذكره، حتى قُتل وكفى الله أمره، ثم قام ابنه سليمان بن الحسن فكان من قتله الحاج، وانقطاع طريق مكة فى أيامه والتعدى فى الحرم، وانتهاب كنوز الكعبة وقتل المعتكفين بمكة ما قد اشتهر ذكره، ولما اعترض الحاج بما كان منه أُخذ عمه أخو أبى سعيد وقراباته فحبسوا بشيراز مدة - وكانوا مخالفين له فى الطريقة، يرجعون إلى صالح وسداد، وشهد لهم بالنزاهة من القرمطة - فخُلّى عنهم، والله الحافظ للإسلام وأهله، والشر لمن حادَّ الله فى أمره.

«المسالك ٨٩، ٩٠».

وعن إصطخر يقول:

بناحية إصطخر أبنية حجارة عظيمة الشأن، من تصاوير وأساطين وآثار أبنية عادية، يذكر الفرس أنه مسجد سليمان بن داود صلى الله عليهما، وأن ذلك من

عمل الجن، وهى تشبه أبنية رأيتها ببعلبك وأرض الشام ومصر فى العظم، ومما يعجز عن مثله أهل هذا العصر، وبناحية إصطخر تفاح تكون التفاحة الواحدة منه بعضها حامض وبعضها حلو، حدّث مرداس بن عمر به الحسن بن رجاء، فرأى فى وجهه إنكاراً لذلك فأحضره حتى رآه، وبقرية عبدالرحمن بئر عمقها قامات كثيرة، جافة القعر عامة السنة، حتى إذا كان الوقت المعروف من السنة ينبع منها ماء، يرتفع إلى وجه الأرض ويجرى منه ما يدير الرحى، حتى ينتفع به فى سقى الزروع وغير ذلك ثم يغور.

وبناحية سابور جبل قد صُوِّر فيه صور كل ملك وكل مرزبان معروف للعجم، وكل مذكور من سدنة النيران وعظيم من مويذ وغيره، وتتابع صور هؤلاء وأيامهم وقصصهم فى أدراج، وقد خُصّ بحفظ ذلك قوم سكان بموضع بناحية أرجان يعرف بحصن الجص، وبجور بركة على باب البلد مما يلى شيراز ليس فى تقدير رأى العين أن مثل ذلك الماء على كثرته يخرج من ذلك الثقب على ضيقه، وبقرب أبرقوه تلال عظيمة من رماد يزعم قوم أنها نار نمرود بن كنعان، التى أوقدها لإحراق إبراهيم عليه السلام وهذا خطأ، لأن الصحيح فى الأخبار أن نمرود كان مقيماً ببابل، وكذلك ملوك الكنعانيين قبل ملوك الفرس، وقد ذكرنا أنهم امتحنوا قعرها بالمثقلات والأرسان، فلم يقفوا منها على عمق يفور منها الدهر كله ماء بقدر ما يدير رحى، ويسقى تلك القرية وبكورة سابور رستاق يعرف بالهنديجان فيها بئر بين جبلين، يخرج منها دخان فيعلو حرها حتى لا يتهيأ لأحد أن يقربها، وإذا طار فوقها طائر سقط فيها واحترق، وبدشت بارين قرية تعرف بجور هى نحيسة لا شجر فيها، فيها أهل بيت ينسبون إلى السحر ويُسألون عن الأخبار، ويحكى عنها ما استفظع حكايته فى كتابى.

وبكورة أردشير خُرّه على باب شيراز عين ماء يشرب منه الناس لتنقية الجوف، فمن شرب منه قدحاً أقامه مجلساً، ومن زاد فلكل قدح مجلس، وبناحية كام فيروز بقرية تعرف بالمورجان بين جبال شاهقة كهف فيه جرن، وفى سقف هذا

الكهف ماء ينقطر إلى الجرن، فيزعم الناس أن عليه طلسما، فإن دخل ذلك الكهف رجل خرج ما يكفى رجلا، وإن دخله ألف رجل خرج بقدر حاجتهم، وعلى باب أرّجان مما يلى خوزستان قنطرة على نهر طاب، تنسب إلى الديلمى طبيب الحجّاج، وهى طاق واحد - سعة الطاق على الأرض ما بين العمودين نحو ثمانين خطوة، ارتفاعه مقدار ما يجوز فيه راكب الجمل بيده علم من أكبر ما يكون، وبناحية كُرَان طين أخضر كالسلق يؤكل، ليس فيما عملته فى بلد مثله، وبناحية جنّابة فى البحر مكان يعرف بخارك معدن اللؤلؤ، يقال إن النادر منه لايفوقه شىء، وأن الدرة اليتيمة منه إن صح ذلك.

وبناحية شيراز ريحان يعرف بسوسن نرجس، ورقة مثل ورق السوسن، وداخله مثل عين النرجس سواء، وبناحية داذين نهر ماء عذب يعرف بنهر إخشين، يشرب منه ويسقى الأراضى، وإذا غُسلت به ثياب خرجت خضراً، وبدشت بارين فى جبالها - بقرية تسمى بر - عين ماء قليل، يعرف بماء نوح، يتداوى به من العلل والعين، ويقال إنه ربما حمل منه إلى حدود الصين لاشتهاره واستعمال الناس إياه، فينتابه الناس من خراسان والبلدان النائية.

«المسالك ٩٠، ٩١».

فأما يرتفع «يُنتج» من بلدان فارس ما ينقل إلى الأمصار، وما يُضّل فى جنسه على سائر ما يرتفع فى البلدان: فمن ذلك ماء الورد الذى يرتفع من جور فإنه يفضّل فى جنسه، وينقل إلى البحر فيفرق فى الحجاز واليمن والشام ومصر والمغرب وخوزستان وخراسان والجبال، ويرتفع من غيرجور ما هو أجود إلا أن معظم الجهاز منه، ويرتفع بجور ماء الطلع وماء القيصوم الذى لا نعرفه فى بلد غير جور، وماء الزعفران المسوسن وماء الخلاف، الذى يفضل على جنسه فى سائر البلدان، ويرتفع من سابور الأدهان من كل جنس ما يُفضّل على أدهان سائر المدن إلا الخيرى والبنفسج، فإن الذى بالكوفة منهما خير، والإنْبِجات التى تحمل إلى الآفاق منها.

ويرتفع من سنيز وجنّابة وكازرون وتوّج ثياب كتاب، وللسلطان فى كـل بلد منها طراز غير كازرون، وتحمـل هذه الثيـاب إلى الآفاق من بلدان الإسلام كلها، ويرتفع من فسا أنواع من الثياب التى تجلب إلى الآفاق، وبها طراز الوشى والشعر والسوسنجرد للسلطان، فأما الوشى فإن المذهب منه أجود مما يكون بغيره من الأمصار، وأما غير المذهب فإن الذى بجهرم أجود وأكثر منه.، وأما الشعر فإنه يعمل للسلطان ثياب مثقالية تأخذ قيمة كبيرة وكلل مرتفعة وسائر أصناف الشعر.

ويتخذ من القز للسلطان ستور معلمة معينة، ويرتفع من ثياب القز والشعر ما يحمل إلى كثير من أمصار الإسلام، والسوسنجرد الذى يكون بها أرفع مما يكون بقرقوب وتوّج وتارم، وبها أكسية القز التى تبلغ قيمة كبيرة، ويرتفع من جهرم ثياب الوشى المرتفع والبسط والنخاخ والمصليات والزلالىّ المعروفة بالجهرمى، ويرتفع من يزد وأبرقوه ثياب قطن تحمل إلى الآفاق، ويرتفع من العُنْدجان - قصبة دشت بارين - من البسط والستور والمقاعد وأشباه ذلك ما يوازى به عمل الأرمينى، وبها طراز للسلطان، وتحمل منها إلى الآفاق.

وإنما فضل سوسنجرد فسا على سوسنجرد قرقوب لأن القرقوبى إبريسم وهذا صوف، والصوف أجود من الابريسم فى الصنعة، ويحمل من سيراف ما يقع إليها من أمتعة البحر، من العود والعنبر والكافور والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والفلفل والصندل وسائر الطيب والأدوية والتوابل - التى يكثر تقصيها - إلى جميع فارس والدنيا كلها، وهى فرضة لهذه المواضع، وأهلها أيسر أهل فارس.

«المسالك ٩٢».

طالعتنا فى الصفحات السابقة لغة الإصطخرى العربية السلسة، وقد تحققت لها السلامة النحوية، وأجاد من خلالها التعبير عن أفكاره فى اقتدار يكاد يدنو من أساليب أدباء العربية المعاصرين له، ولاحظنا اهتمامه بملامح وأشكال وطبائع الناس وأزيائهم، وعنايته بذكر المنتجات والصادرات والخراج وسبل التجارة ومبلغ

ثراء بعض الأفراد، ولم يغفل الإصطخرى ذكر رأيه فى العمارة، وإن كان قد سمح لبعض الغرائب أن تتسرب خلال كتاباته رغبة فى التسويق، ربما لأن بعضها يحتسب من قبيل الذكر الحسن لبلاده، وليس من شك أن كتابه هذا كان ذا فائدة لمن جاء بعده، وإن ما قدمه للرحلة العربية ولعلم الجغرافيا يصعب أن ينكر أو يهمل، ولكن الموضوعية تقتضى ألا نضعه فى مقام ابن حوقل أو المسعودى أو حتى مواطنه ابن خرداذبة، ولعل عدم وجود مؤلفات أخرى له يرجح أنه كان محدود الموهبة والعطاء.

قدامة بن جعفر
٢٧٥ - ٣٣٧هـ

ناقد وأديب ورحالة معروف، عاش فى بغداد، وتلقى بها العلم، عرف بالنباهة والذكاء، كان نصرانيا وأسلم على يد المكتفى بالله «٢٨٩ - ٢٩٥هـ»[١٧] صنف عدة كتب حققت له شهرة فى الأدب العربى، من أهمها كتاباه «**نقد الشعر**» و«**نقد النثر**»، وله أيضاً «**رياض الفكر**» و«**الرد على ابن المعتز**» و«**صناعة الجدل**» و«**نزهة القلوب وزاد المسافر**».

ولد قدامة بن جعفر بن قدامة أبو الفرج سنة ٢٧٥هـ وتوفى سنة ٣٣٧هـ، كما ورد عن الحموى ومحمد مندور[١٨]، وإن اختلف حول ذلك المؤرخون ومنهم ناشر كتابه «**الخراج وصنعة الكتابة**» الذى أورد تحت عنوان الكتاب أنه من تصنيف أبى قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى المتوفى ٣٢٠هـ، ويرى **كراتشكوفسكى** أنه وضع مؤلفه نحو عام ٣١٦هـ.

تولى مجلس الزمام فى ديوان الوزير أبى الحسن بن الفرات، وكان يتولى حصر الخراج المجموع من مختلف أنحاء المملكة الإسلامية، واقتضى عمله هذا أن يطوف بمعظم البلاد التابعة للخلافة، وقد لا يرى بعض الكتاب أنه رحالة بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكننا لا نملك إلا تقدير جهده واحتسابه من خدام الرحلة وأدب الرحلات، وإن مطالعة كتابه «الخراج وصنعة الكتابة» الذى كان مفقوداً، شأنه فى ذلك شأن كثير من ثمار العقل العربى، إلى أن عثر عليه **أحمد بن مباركشاه الحنفى** عام ٨٥٥هـ ونسخت منه عدة نسخ، لتكشف رؤيته وجهده فى تقديم صورة متعددة المرايا لكل المجتمعات التى عايشها والبلاد التى زارها.

وقد نشر الكتاب فى البداية ملحقاً بكتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، ويعتقد أنه صنفه نحو عام ٣١٦هـ.

يتميز كتاب ابن قدامة - كما جاء فى عنوانه ـ بعنايته بإنتاج الأمصار التى زارها من المحاصيل كالحنطة والشعير وأسعارها وعملائها، كما يقدم إحصائيات متميزة ونادرة عن جيوش البلاد الإسلامية ومعداتها وعدد جنودها، ولا يفوت قدامة أن يذكر المسافات بين المدن والكور والرباطات ويورد فى غير إضافة جانبا عن طبائع أهل البلاد التى مر بها وتعامل مع أبنائها، ولا يستنكف أن يذكر بعض الغرائب التى تبلغ مسامعه وهو ماض يقطع الجبال والسهول، كما تقتضى مهام عمله، وتكشف طريقة سرده عن خبرة وحذق أثمرتهما تجارب حقيقية واعية فى كافة مناحى الحياة، وهو يسوق معلوماته الكثيرة فى لغة عربية رصينة ودقيقة.

وكتاب أبى الفرج قدامة حظى بمكانة مهمة لدى جغرافيى ورحالة العالم العربى المبكرين فى القرن الرابع الهجرى، بسبب ندرة المصنفات العلمية فى هذا المجال، لذك اعتبر كتابه أحد أهم ثلاثة كتب يحرص عليها المسافر أو الباحث فى هذا العلم، كما أورد ذلك واعترف به ابن حوقل فى كتابه **«صورة الأرض»** حيث يقول: وكان لا يفارقنى كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج قدامة بن جعفر(١٩).

نماذج من كتاب «الخراج»

يقول عن أهل اليمن:

«عندهم العسل الكثير ويفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين يشترى جميع ذلك بسعر واحد، ومن عنده يجلب الأدم والنعام المشعرة والأنطاع والبرود المرتفعة والمصمت والأردية يبلغ الثوب من البرد عندهم خمس مائة دينار وألوان الفصوص والأوانى بقرانية وسعوانية والجزع وأنواع الخرز، يبلغ الفص من البقرانى مائة دينار وأكثر، ولهم سوق على حدة لا يباع فيها إلا المزامير

قد شدوها حزما ونضدوها فى حوانيتهم ولهم خانات كثيرة ومحال فيها خلق كثير يعلمون أوانى الجزع وأنواع الخرز، وليس لشىء من مساجدها رحبة إلا المسجد الجامع، ووجوههم قوم من نسل سيف بن ذى يزن فى غاية السراوة والنبل، يتقدمون فى ذلك وجوه سائر الكور وهم قوم يرجعون إلى سخاء وكرم، وللحوم ضأنهم وبقرهم خاصية، وذلك أنها لا تنضج إلا على الجمر والوقود يسخنها ولاينضجها وضياعهم أجل ضياع وأكثرها فاكهة وأحسنها عمارةً وهى على ثلاثة أصناف صنف منها غذاء وصنف منها على العيون وصنف على الآبار يستقى منها بالإبل والبقر وصنف وهى أسراها وأكثرها قيمةً على ماء السد والسد سكر قد اتخذ على فوهة جبال، قد أحاطت بمواضع تقرب من ضِياعهم قد نصبوا على أسافل ذلك السد أفواها يُجرون منها المياه فى أنهار قد احتفروها إلى ضياعهم.

وكانت قراهم عُشرية قبل ولاية ابن يعفر فوظف ابن يعفر بدل ذلك عليهم مائتى ألف دينار، ومعاملة أهل البلد بالدنانير المطوقة والدراهم السديسية والفلوس فضرب الدرهم ربما ارتفع من الستين إلى المائة بدينار والفلوس أربعة وعشرون بدرهم وزن كل درهم سدس درهم، وعندهم قرع، كبار كل قرعة مثل جرة كبيرة يباع بالأمنان مقطعا وكل ما كان أكبر كان أرطب، ونساؤهم حرائر والناس ينتشرون فى حوائجهم بالنهار ويجتمعون فى مجالس الفقهاء وغيرهم بعد العتمة إلى وقت يضرب فيه الكوس، لم يتعرض له ومن وُجد بعد ذلك خارجاً حُبس وعُوقب.

والغالب على عامة أهلها وعلى سائر اليمن التشيع وأكثر إيمانهم أن يقولوا وحق أمير المؤمنين على، وزعم أن من صنعاء على ستة فراسخ قلعة لابن يعفر صاحب اليمن وتعرف بشبام وشبام ليس إليها طريق إلا طريق واحد ضيق يُرتقى إليها من جبل صعب قد نصب عليه قنطرة يعبر إليها بها، وفيها قصور كثيرة تزيد من خمس مائة وقرى كثيرة تزيد عن أربعين قرية فيها عيون وأنهار ومزارع

وبساتين ونخل ومواش لا تحصى كثرة من الإبل والدواب وغيرها وفى شبام نفسها سوق عظيمة ومسجد جامع كبير، وهذه القلعة يجمع ما فيها من القرى كانت خاصة لابن يعفر، هذا فى خاصته وكبار قواده وقراباته فى هذه القلعة وعساكره نزول على أهلها، وفيها مساكن ومرابض تحتمل ألوفاً من الرجال والدواب وتخترقها عيون كثيرة الماء.

صفة مدينة سبأ من حضر موت

ومن شبام إلى ناحية حضر موت إلى مدينة سبأ ثلاث مراحل، ومدينة سبأ هى مدينة مدحج وسيدهم ابن الروبة، وله دار الضيافة من لدن الجاهلية وله بتلك الناحية معادن الذهب، لا يشركه فيها أحد ترتفع له منها أموال كثيرة وبها كان قصر بلقيس وعرشها وآثارها باقية إلى مجلس فيه أربعة وعشرون بابا صغاراً كل

باب شبر فى شبر معمولة على ساعات الليل والنهار فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها وإذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها وذكروا أنه اتخذ ذلك «بلونيوس» وذكر أن خيلهم معلمة لا تبرح من مكانها ولا يحتاج إلى من يمسكها إذا نزل عنها القواد ولا تصيح ولا تجلب إنما يقال لها شطة فتقف كذلك إلى أن يخرج صاحبها من عند الملك.

قال فسألت بعض الناس عن أمرها فذهبوا بى إلى ثلاثة تماثيل من صفر على هيئة الفرس منصوبة على باب الملك بلونيوس الحكيم طلسما للدواب ألا تصهل ولاتشغب بعضها على بعض، وعلى باب الملك أيضاً أربع حيات معمولة من صفر أذنابها فى أفواهها طلسماً للحيات ألا تضر يقصد الصبى إلى حية فيأخذها فلا تضره، ومما يلى باب الذهب من المدينة قبة قنطرة معقودة فى وسط سوق المدينة فيها صنمان واحد يشير، كأنه يقول بيديه هاته والآخر يشير بيده كأنه يقول اصبر ساعة وهما طلسمان، فيؤتى بالأسارى فيوقفون بين هذين الصنمين ينتظر بهم الفرج، ويذهب رسول يعلم الملك ذلك فإن رجع الرسول وهم وقوف ذهب

بهم إلى الحبس وإن وافاهم الرسول وقد جوّز بهم الصنمين قتلوا ولم يبق منهم على أحد.

بعض ماذكر قدامة عن القسطنطينية:

ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بُلغر يجرى إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوماً، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث فثلث يذهب إلى دار الملك وثلث يذهب إلى حُبوس المسلمين، والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذى بين العذب والمالح وأهل بلغر يحاربون الروم والروم تحاربهم.

«وذكر هارون أن حوالى قسطنطينية ديرات الرهبان، وعلى باب قسطنطينية دير يدعى دير ساطرا، ينزله خمسمائة راهب وهذا النهر الذى يدخل المدينة وينقسم ثلاثة أقسام يجرى فى وسطه، وعلى فرسخ مما يلى الشمال من المدينة دير يقال له مونس فيه ألف راهب، ومما يلى شرقى قسطنطينية منها على أربعة فراسخ موضع فيه أربعة ديرات فيها اثنا عشر ألف راهب أحدها مونس والثانى فسادر والثالث قوقيلى والرابع دير مريم، ومما يلى غربى المدينة ديران فيهما ستة آلاف راهب ثم تخرج فتصير فى صحراء ملساء فيها مزارع وقرى اثنتى عشرة مرحلة حتى تنتهى إلى مدينة، يقال لها سلوقية وهى مدينة عظيمة كبيرة مما يلى مشرق المدينة الجبل وغربيها البحر، ولها أربعة أنهار تسقيها، وفيها دير يقال له مرقش فيه اثنا عشر ألف راهب (١٢٧).

من الطبيعى أن يتحدث ابن قدامة عن الأديرة فقد كان نصرانيا، وإن كان الرجل يحاول تقديم إحصائيات كثيرة وشاملة لكل مظاهر الحياة التى يلقاها، لكن المبالغة فى أعداد الرهبان واضحة، ونمضى معه صاعدين شمالاً إلى بلاد الصقالبة، فإذا به يقول:

وتخرج فتسير على ساحل البحر ثلاث منازل فى صحراء ليس فيها من العمران شىء، وهى مدينة عظيمة فيها أسواق وحواليها أنهار كثيرة وتسقيها أنهار

مُطرن وعليها سوران وخندق يحيط بالمدينة، وتخرج منها فتسير فى غياض من الشجر فى وسط الصقالبة لهم بيوت من خشب ينزلونها، وهم نصارى كانوا يتنصرون على عهد بسوس الملك فهم اليوم على دين النصرانية فتسير فيهم مقدار شهر فى مشاجرة، حتى تنتهى إلى مدينة يقال لها بلاطيس، وهى مدينة عظيمة طولها ستة أميال فى مثلها وهى كثيرة الخير فيها من الزيتون وأنواع الفواكه، ولها نهران جاريان يطردان فيها وهى مدينة الانكبرديين قد نزلوا فى صحاريهم على مقدار عشرين خطوة وهم على هيئة الأكراد ينزلون الصحارى فى الخيام، وتخرج من هذه القرية فتسير وسطهم مقدار شهر فى غياض وأشجار، وربما يلقاك تلال فيها منهم أصناف حلول حتى تنتهى إلى قرية تدعى البندقيس، وهم نزول فى صحراء ملساء ليس لهم قرى ولا مدائن، إنما بيوتهم من خشب منحوت صفائح وهم على دين النصرانية فتسير فى وسطهم مقدار عشرين يوما تنزل عليهم وترتحل من عندهم وتمتار من طعامهم وتتزود منه حتى توافى مدينة الرومية.

وعن مدينة رومية يقول أبو الفرج:

«مدينة يدبر أمرها ملك يقال له الباب وطولها أربعون ميلا فى أربعين ميلاً يجرى إليها نهر من غربى المدينة، فيخترق سككها قد فرش أسفل النهر بالصفر وبنى ضفتاه أيضا بالصفر، وقد عقد عليها جسور من صفر.

وفى وسط المدينة الكنيسة العظمى طول الكنيسة مقدار فرسخين وعليها ثلثمائة وستون بابا، وفى وسط الكنيسة برج طوله فى الهواء مائة ذراع وعلى رأس البرج قبة مبنية من الرصاص، وقد اتخذ على رأس القبة تمثال زرزر من صفر فإذا كان أوان إدراك الزيتون جاءت الريح فدخلت فى الزرزر، فيصيح فيجتمع زرازر تلك المدينة فى منقار كل واحد منها زيتونة فيطرحونها على ذلك البرج، فيؤخذ ذلك الزيتون ويعصر، ويستخرج دهنها فهو يكفيهم لمصابيح الكنيسة إلى السنة القابلة من ذلك الوقت، وفى الكنيسة قبر رجلين من الحواريين معمول من ذهب أحدهما فى شرقى الكنيسة والآخر فى غربيها، يقال لأحد صاحبى القبرين شمعون الصفا والآخر بالوس، فإذا كان فصح النصارى فى كل سنة وهم يوم

الخميس جاء الملك ففتح باب القبر ونزل إلى القبر ومعه موسى فحلق رأس شمعون ولحيته وقلم أظافره، وصعد وقسم لكل رجل من أهل مملكته شعرة هذا عملهم فى كل سنة منذ تسع مائة سنة.

وحيطان هذه الكنيسة كلها مغشاة بالذهب وأبوابها الغربية من نحاس صينى والأبواب الداخلة التى على بيعة صلاتهم كلها مغشاة بالذهب والموضع الذى يقعد عليه الكهنة مغشى كله بالذهب، وفى كل ركن من أركان هذه الكنيسة برج على كل برج قبة مبنية من فضة يضرب عليها النواقيس وفيها ألف مروحة ذهب عرض كل واحدة ذراع فى ذراع مرصعة بالدر والياقوت، ولها مقابض من ذهب ولها ستمائة صليب من ذهب فى وسط كل صليب درة ووزن كل صليب ألف مثقال، ولها اثنا عشر صليبا على عدد الحواريين فى كل صليب مائة مناً ذهب ولها اثنان وسبعون صليبا على عدد تلامذة الحواريين فى كل صليب خمسمائة مثقال ذهب، وفيها ألف ومائتا كأس ذهب يجعل فيها الخمر التقريب مرصعة كلها بالجوهر.

وقد بنى بيت المذبح أربعا وعشرين ذراعا فى عرض اثنتى عشرة ذراعا، وفيها من الشمامسة والقسيسين ثلاثة آلاف ومائتا نفس على كلهم ديباج أبيض قيمة كل ثوب مائة دينار إلى مائة وخمسين ديناراً وعليهم طيالسة منسوجة بالذهب والدر ولها من السدنة ممن يتولون إشعال القناديل ست مائة، وفى غربى هذه المدينة البحر الكبير وحوالى المدينة البساتين والزيتون ويغزو أهلها البربر من ناحية الأندلس وتاهرت على البحر من بلاد إدريس بن إدريس وتاهرت العليا.

وأهل الرومية صغيرهم وكبيرهم يحلقون لحاهم كلها لا يتركون منها شعرة واحدة على أذقانهم ويحلقون وسط هاماتهم، فسألتهم عن السبب فى حلق لحاهم، وقلت لهم إن زين الرجال فى اللحى فما مرادكم من هذا الذى تفعلونه بأنفسكم، فقالوا إن كلّ من لم يحلق لحيته لم يكن نصرانياً خالصاً، وذلك إنه جاءنا شمعون الصفا والحواريون لم يكن معهم عصى ولا جراب إنما كانوا

مساكين ضعفاء وكنا نحن آنذاك ملوكاً علينا الديباج ونحن على كراسى الذهب يدعونا إلى دين النصرانية فلم نجبهم فأخذناهم وعذبناهم وحلقنا رؤوسهم ولحاهم فلما ظهر لنا صدق قولهم صرنا نحلق لحانا كفارة لما ارتكبناه من حلق لحاهم.

ومن هذه المدينة تركب البحر فتسير ثلاثة أشهر، حتى تنتهى إلى بلاد ملك برجان وتسير منها فى جبال وعقاب شهراً واحداً، حتى تنتهى إلى بلاد فرنجة ومنها تخرج فتسير أربعة أشهر حتى تنتهى إلى مدينة برطينية وهى مدينة كبيرة على ساحل بحر المغرب ويتملك عليها سبعة من الملوك وعلى باب مدينتها صنم إذا رام الغريب أن يدخلها نام، فلا يمكنه دخولها حتى يأخذه أهل المدينة فيقفوا على مغزاه ومقصده فى دخول المدينة، وهم قوم نصارى وهم آخر بلاد الروم وليس وراءهم عمران».

تدفعنا ملاحظات قدامة وعرضه الشيق ورصده لملامح روما أو رومية فى السنوات الأولى من القرن الرابع الهجرى إلى الوقوف عندها، وطلب المزيد من المعرفة بسماتها التى اختفت من الوجود، ولا يزال نص قدامة يمسك بها.. وها هو يستطرد بطريقته الإحصائية نفسها.

أيضا ما وجدناه من صفة مدينة الرومية:

«ثلاث نواحٍ منها فى البحر العظيم مما يلى القبلة والمشرق والمغرب والناحية الرابعة إلى الشرقى مما يلى البر والجربية يعنى الشمال وطولها من الباب الغربى إلى الشرقى ثمانية وعشرون ميلاً ولها حائطان من حجارة، وبينهما فضاء ستون ذراعاً وعرض السور الخارج ثمان أذرع وسمكه اثنتان وأربعون ذراعا وفى ما بين السورين نهر يسمى فسطيطالس، وهو مغطى ببلاط نحاس طول كل بلاطة ست وأربعون ذراعا وعدد ما فيه من البلاط اثنتان وأربعون ألف بلاطة وعمق النهر اثنتان وتسعون ذرعا فى عرض ست وأربعين ذراعا، وفيما بين باب الذهب إلى باب الملك اثنا عشر ميلا وسوق ممتدة من الشرق إلى الغرب مثلثة الأسطوانات،

وحنيتا الأوسط منها بعمد نحاس وقصبة العمود منها وقاعدته ورأسه مفرغة وسمك كل عمود منها ثلاثون ذراعاً.

وفوق هذه العمد نقير من نحاس من المغرب إلى المشرق يجرى فيه لسان من البحر وتجرى السفن فى هذا النقير بحمولتها وتحته حوانيت التجار للشراء والبيع فتجيء السفينة بما تحمله حتى تقف على حانوت الرجل الذى يبتاع منها.

وفى المدينة كنائس فجميع ما فيها أربع وعشرون كنيسة وكنائس أخرى تقام الصلوات فيها كل يوم ألف ومائتا كنيسة وثلاثة وعشرون ألف دير عظام، وحول سورها ألف ومائتان وعشرون عمودا فيها الرهبان جنس يسهدون الليل كله وفيها أسواق عظام وفى كل سوق قناتان عظيمتان من ماء وأسواقها، كلها مبلطة برخام أبيض وفيها أربعون ألف حمام وفيها مجامع أسواق يقام فيها التجارات خمسة وتسعون موضعا، وليس فيها من تسع ساعات من يوم السبت حتى تغيب الشمس من يوم الأحد شراء ولا بيع وهم كلهم فى الصلاة إلا ساعتين، بعد أخذهم القربان للطعام ثم ينصرفون إليها، وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم والحكمة من الرجال مائة وعشرون مجمعا.

وفى جميع كنائس المدينة من آنية الذهب والفضة عشرة آلاف قنطار وأربع مائة جرة من ذهب ومائتا جرة من نحاس شبه الذهب وخمسون وثلثمائة منارة، والذى يظهرون فى أيام الشعانين من صلب الذهب واحد وعشرون ألف صليب ومن صلب الفضة والحديد والنحاس المنقوشة المموهة بالذهب عشرة آلاف صليب، وفيها من المصاحف التى تقرأ فى الكنيسة مكتوبة بالذهب والفضة ستة آلاف وأربع مائة مصحف، وفيها من الكهنة والشمامسة، فممن يجرى عليهم الأرزاق ثمانية وأربعون ألفا لا ينقص عددهم كلما مات أحدهم أقاموا مكانه آخر، وقد تركنا من ذكر ذلك أشياء كثيرة كرهنا إيداع جميعها هذا الكتاب استسراقا واستكثاراً، ولأنها بالكذب أشبه منها بالصدق، وإن كان جميع ذلك فى الكتب يدور بين الناس قد استحسنوه وقبلوه واتفقوا على التصديق به.

«١٣١، ١٣٢».

تتنبه قدامة أخيراً إلى أن المعلومات التى يطرحها أقرب إلى الكذب منها إلى الصدق، لأنه كان فيها ناقلاً أكثر منه مشاهداً أو سامعاً، ونختم نماذجه بما كتبه عن أهل الهند، حيث يمنح من تجربته الخاصة.

صفة بلاد الهند:

ذكر أبو عبدالله محمد بن إسحاق أن عامة ملوك الهند يرون الزنا مُباحا ما خلال ملك قُمار فإنّى دخلت مدينته وأقمت عنده بها سنتين، فلم أر ملكا أغير ولا أشد فى الأشربة منه فإنه يعاقب على الزنا والشرب بالقتل، وليس أحد من ملوك الهند ممن خالطته وبايعته يسرف فى شرب الشراب ما خلا ملك البهل، فإنه بلغنى أنه يشرب وهو ملك سرنديب ينقل الخمر إليه من بلاد العرب فيشربها ورأيت تجار الهند وسائرهم لا يشربون الشراب قليله وكثيره، ويعافون الخل من الأشربة فخلهم من ماء الأرز المطبوخ يحمضونه حتى يصير بمنزله الخل ومن رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس لا يعبأون به ويزدرونه ويقولون هذا رجل ليس له قدر فى بلاده وليس ذلكخ منهم ديانة.

وذكر بعضهم، قال كنت ببلاد قمار فأخبرونى أن الملك بها جبار شديد العقوبة لا يكلم العرب ومن دخل بلاده، فأهدى له شيئاً كافاه بأضعاف ما أهدى له يككافى بالجزء مائة جزء ولم أر من الملوك فيما عاملته أحسن مكافأة من ملك قمار، والهند يقولون أن أصل كتب الهند من قمار، ومن عقوبة هذا الملك على الشرب أن من شرب من قواده وجيشه يحمى مائة حلقة من حديد بالنار، ثم يوضع ذلك كله على يد ذلك الرجل الشارب فربما أتلفت نفسه وهو ملك شديد الغيرة ليس فى ملوك الهند أشد غيرة وعقوبة منه ومن عقوبته قطع اليدين والرجلين والأنف والشفتين والأذنين، ولا يلتفت إلى الغرامة كسائر ملوك الهند.

وأصل العباد من بلاد قمار يقال إن فيها مائة ألف عابد وللملك قمار ثمانون قاضياً لو ورد عليهم ولد الملك لأنصفوا منه وأقعدوه مقعد الخصم، وله ثمانون

ذكراً لهم جمال وهيئة يصلحون للملك.

ويليه بلاد الأرمن، ولهم جمال ويزوجون أولادهم الذكور صغاراً ويزعمون أن ذلكخ خير واصد من الزنا وملك قمار مع غيرته، يقول لأصحابه إذا خرجتم إلى الحرب فلا يصحبنكم النساء فدخل ذلك على أنه قد أباح لهم ما لأعدائهم(١٣٣).

ومن بين ما رأى ابن قدامة فى الهند، صنم طوله أرجح من عشرين ذراعا على صورة رجل، وله بيت عليه سقف عظيم لا يدرى من بناه، ويقال إنه بنى منذ ألفى سنة، والهند يقولون إن هذا الصنم نزل من السماء وأمرنا بعبادته وله سدنة، يقومون عليه وله نفقات من دخل الصنمخ نزل من السماء وأمرنا بعبادته وله سدنة، يقومون عليه وله نفقات من دخل الصنم سوى ما يجرى على سدنته يطعون ويسقون ويكسون والهند، كلها ترى الحج إليه وإذا مات الرجل موسراً أوى له بشطر ماله أو بماله أجمع يتقرب إلى ذلك الصنم، ويحجون إليه من مسيرة سنة وأكثر ويحلقون رؤوسهم عنده ويطوفون سبعا على اليسار تقرباً إليه وتضرعاً ويتمرغون بين يديه ويخشعون وله أربعة أوجه حيث ما دار استقبله وجهه، ويقولون هذا إله يعبد له إقبال ولا إدبار حيث ما رأيته استقبلك بوجهه، وإذا طافوا حوله سجدوا له عند كل وجه يستقبلهم فمنهم من يقلع عينه فيضعها فى كمه، فيقول أيها البُدّ قد تقربت إليك فأطل عمرى وأرزقنى وافعل بى كذا وكذا.

وفيما أخبرنى من رأى منهم من يحمل قطعتى صندل أحمر على عاتقه كل واحدة حمل رجل من مسيرة سنة، فيضيع على قدر فرسخ من مخرجه واحدة ويتقدم بأخرى حمل رجل من مسيرة سنة، فيضع على قدر فرسخ من مخرجه واحدة ويتقدم بأخرى فيضعها ويرجع إلى الأخرى فيحملها فيتقدم بها فلايزال يقدم واحدة ويؤخر أخرى مسيرة سنة حتى يصير بهما إلى هذا الصنم الذى بالملتان، ومنهم من يستأذن الصنم ويقول ائذن لى فى الموت، فيعمد إلى خشبة

طويلة فيحدد رأسها وينصبها فى الأرض، ثم يصعد إلى فوقها فيدخل رأس الخشبة الحادة فى بطنه حتى يخرج من ظهره فيموت ويزعم أنه قد تقرب إلى الصنم، ومنهم من يأتى بالمال العظيم فيطرحه بين يدى الصنم، ويقول يا الهه وسيده أقبل هذا معونة من مالى، ولهذا الصنم وغيره من الأصنام سدنه لا يأتون النساء ولا يأكلون اللحم ولا يذبحون الذبائح ولا يلبسون الثاى الدنسة، ويتطيبون إذا صاروا إلى الأصنام، وليس يدخل عليها غيرهم ممن يطيبها بيده، وينالها بكفه فإذا دخل عليها برك على ركبتيه وجمع كفيه وبسطهما وسأله أن ينظر إليه ويحميه ويبكى ويتضرع إليه ويدعو، وله مطبخ يطبخ فيه الأرز الأبيض الجيد وبعمل له أطعمة من السمك والحشيش وتجود وتطيب، ثم يعمد إلى ورق موز عندهم عريض مقدار ما يلف فيه الرجل والرجلان فيبسط بين يدى الصنم ثم يصب الأرز عليه بقدر نصف قامة رجل، ويعمد أفضل هؤلاء القوم رجلاً فى نفسه فيأخذ ورقة موز فيروح فور الأرز وحرارته فى وجه الصنم فيقول إنه قد أكل وإنه لا يطعم بكفه وراحته.

وقبل أن يطعم يدار حول البيت الذى فيه الصنم بالصنوج والزمر والطبول وربما دارت حوله مائة جارية لهن أقدار فيقلن نحن نرقصه ونترضاه ثم يطعم ويرى الطعام لا ينقص فيغلقون عليه الباب ثم يفتحونه وينقل ذلك الطعام من بين يديه يقولون قد تصدق به فلا يبقى صنف مار ببيت ذلك الصنم إلا انتفع بذلك الأرزو حتى الطير والكلاب ولا يمنعون منه أحدا، ويقولون هذه صدقته فى كل يوم، وربما غسل بدن الصنم باللبن وربما غسل بالسمن فيغسل به بعد ذلك مرضاهم ويستشفون به.

ومن ورائه ملوك حتى تنتهى إلى بلاد الزابج، فالملك الكبير يقال له المهراج وتفسير المهراج ملك الملوك، وليس يعد فى ملوك الهند أعظم منه لأنه فى جزائر ولا يعلم ملك أكثر خيراً منه ولا أقوى.

(١٣٦، ١٣٧).

وهكذا يقص علينا قدامة بن جعفر ما رأى وعاين وسمع فى البلاد، التى طاف وعاش بين أهلها ونقل إلينا كثيراً من العادات والتقاليد. وكما كان حريصا على المنتجات والمحاصيل، كان معنياً بالسمات الإثنوجرافية، خاصة ما يتصل بالعقائد، وسواء كانت مادته منقولة من الكتب أو من الأفواه أو كانت نتاج ترحاله وتطوافه، فهى خليقة بالدرس والتأمل لما تتسم به من التميز والطرافة، وما أجدر أن تكون قريبة من أيدى القراء والمثقفين.

رحلة الشبيبة المغررين

طالعتنا فى الصفحات السابقة تفاصيل رحلات برية وبحرية عديدة، وقفنا فى كتب مؤلفيها على أخبار زاخرة عن الملاحين والربابنة والتجار والرحالة الذين جابوا المحيطين الهندى، والهادى ومنهم من اجتاز البحر الأحمر وآخرون ساحوا فى البحر الأبيض وهو أقصى ما أبحروا فيه جهة الغرب، أما المحيط الأطلسى فإن العرب لم يصلوا إليه، رغم أنهم يطلون عليه، وهم جلوس فى شرفة الأندلس، وكانت وجوههم فى أغلب الأحوال ميممة شطر الشرق، وكأن حدسا خاصا يسيطر عليهم ويدفعهم لإهمال الغرب، فليس ثمة أمل فى أن يكون فيه مثل ما فى الشرق منه خير.

وبعد أن مضى طارق بن زياد وموسى بن نصير جهة الغرب، وبلغوا الأندلس وفتحوها وعمروها واستقروا فيها وطبعوها بطابعهم، حتى غدت وكأنها خلقت عربية إسلامية، أيقن العرب أن هذا آخر العالم من جهة الغرب، ولا يبقى بعده إلا البحر المظلم أو البحر المحيط «المحيط الأطلسى»، وكانوا فى الأغلب يسمونه البحر الزفتى لأن ماءه كدر ورياحه شديدة، وهو دائم الظلمة تقريبا ربما لفرط عمقه واتساعه وهياج موجه، حتى لا يتصور وجود أرض أو حياة بعده.

ومع ذلك فقد خلف لنا القرن الرابع الهجرى بقايا أدلة، تحكى قصة بعض شباب الأندلس الذين غامروا بركوب المحيط، وإن لم يتغلغلوا فيه، ولهم معه قصة حفظها لنا الشريف **الإدريسى** فى **«نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»**.

يذكر لنا الشريف أن بمدينة لشبونة درب، يعرف بدرب المغررين أو «المغربين» فى رواية أخرى، وإن هذا الدرب كان لا يزال معروفاً إلى عصره ويقصد

بالمغررين أى الذين غرروا بأنفسهم، وتجاوزوا حدود الجسارة بركوب بحر الظلمات، والبعض يقول عنهم المغربين، أى الذين اتجهوا غرباً، وهذا فى حد ذاته عمل غريب لا مفر من ذكره تقديراً أو استنكاراً حتى عرف بهم الحى الذى كانوا يقيمون فيه، وهم بهذا أول من أبحر فى المحيط الأطلسى من رحالة العرب، وتجربتهم - رغم قلة التفاصيل - ثرية وممتعة وتطمح إلى كثير من البحث والإضاءة:

«هم ثمانية من الشباب عاشوا فى حى واحد فى مدينة أشبونة «لشبونة»، تجمع بينهم قرابة الدم «أبناء عمومة» وصداقة وطيدة ولقاءات مستمرة، وكان منهم من يعمل بصناعة المراكب والصيد، وكانوا دائمى التطلع إلى شاطىء المحيط الممتد أمام عيونهم، وطالما تساءلوا عما بعده، فيرد عليهم بأمواجه ويستفزهم، حتى قرروا أن ينزلوا إليه ويركبوه ليكشفوا كنهه، ويبلغوا منتهاه، فأنشأوا مركبا حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر(٢٠)، ثم نزلوا إلى المحيط مع هبوب الرياح الشرقية، وجروا فيه نحوا من أحد عشر يوماً، حتى بلغوا بحرا غليظ الموج كدر الروائح كثير الربوش «الأعشاب» والضباب، قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف لذلك ردوا قلاعهم إلى جهة الجنوب، وجروا فى هذا السمت نحوا من اثنى عشر يوما، حتى وصلوا إلى جزيرة كثيرة الغنم، حتى لا يأخذه عد، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر فرسوا عليها ونزلوا بها، ووجدوا بعض أشجار التين، ومياهها جارية، فاطمأنوا إلى المكان، وأخذوا شاة فذبحوها وأعدوها لطعامهم، ولكنهم لم يستطيعوا أكلها لمرارة لحمها، فعادوا إلى سفينتهم، وأقلعوا جهة الجنوب، وظلوا يمخرون عباب المحيط لنحو اثنى عشر يوماً حتى تراءت لهم جزيرة فيها عمارة وحرث، فما وصلوا إلى البر حتى رأوا رجالاً يحيطون بهم فى زوارق، أجبروهم على التسليم، وحملوهم معهم إلى مدينة رأوا بها رجالاً شقرا، شعورهم سبطة، وهم زعر طوال القدود، لنسائهم جمال عجيب، واعتقلوهم فى دار، ظلوا بها ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى فسألهم عن حالهم، وغايتهم ومن أين جاءوا، فأخبروه بقصتهم فطمأنهم ووعدهم خيراً، وقال

لهم إنه ترجمان الملك، وفى اليوم التالى أخذوا إلى حضرة هذا الملك، وسئلوا عن وجهتهم، فقالوا إنهم خرجوا فى البحر لرؤية عجائبه وخوارقه، وليقفوا على نهايته.

ضحك الملك حين سمع منهم ذلك، وقال لترجمانه: أخبرهم أن أبى أمر طائفة من عبيده أن يسيروا فى البحر، ويحاولوا أن يعرفوا شيئا عما فى داخله، وأنهم ساروا فيه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا عنه عائدين دون أدنى فائدة تذكر، وقال الملك لترجمانه: سكِّن جأشهم وعِدْهم خيرا، ثم أخذ بهم إلى معقلهم فظلوا فيه إلى أن نشطت الرياح الغربية، فأَخرجوهم فى زورق بعد أن عصبوا أعينهم، وجروا بهم فى البحر نحو ثلاثة أيام حتى انتهوها إلى بر، فأخرجوا وكتفوا إلى خلف، وألقوا بهم على ساحل أرض لا يعرفونها، وتركوهم على هذا النحو لا حول لهم ولا قوة.

وبينما هم فى ضنك وسوء حال إذ سمعوا ضوضاء وجلبة أناس، فصاحوا بأجمعهم، وسمعهم القوم، فأقبلوا عليهم فوجدوهم على هذه الحال السيئة، فحلوا عنهم وثاقهم، وسألوهم عن شأنهم، فأخبروهم قصتهم، وكانوا من البربر، فأعلموهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين، وبعد أهوال ومخاطر، وصلوا إلى بلدهم، وقصوا قصتهم، فأطلق عليهم الناس اسم الفتية أو الشبيبة المغررين، ولعل الإدريسى سمع قصتهم من أفواه أهل لشبونة.

ويظن البعض أن المغررين وصلوا إلى جزائر فى المحيط الأطلسى، وربما كانت هذه الجزائر هى أزورا وكنارى، وسكانها هم الشقر طوال القدود الذين اعتقلوا الشبيبة الثمانية، ثلاثة أيام، ولعلهم حين ألقوهم مكتفين على ساحل كانوا قد دفعوهم إلى الشواطىء الإفريقية حيث البربر، وأخيرا عادوا إلى بلادهم بعد أن ذاقوا وبال تجربتهم التى تبدو فى أنظار ذويهم طائشة، ولكننا الآن - ولعل التاريخ أيضا - لا نرى ذلك، فها نحن نذكرهم لا بوصفهم طائشين، لكن بوصفهم رواد الرحلة البحرية العربية فى المحيط الأطلسى.

وليس بين أيدينا من المصادر ما يشير إلى أن المحاولة تكررت على يد آخرين، وليس هناك ما يمنع من ذلك مهما بلغت قصة المغررين من التأثير المفزع وهم يصفون ما لاقوه فى بحر الظلمات، بحر الألغاز والطلاسم الذى ظل من المناطق المجهولة، شأنه فى ذلك شأن بحر الرمال الأعظم جنوب الصحراء الغربية المصرية.

ويقول د. **شوقى ضيف**:

يوجد من الباحثين من يظن أن عرب الأندلس وصلوا إلى أمريكا قبل كولمبس، وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على أن الأندلسيين قاموا بذلك فعلا، على أنهم إن كانوا لم يقوموا به فإنهم هم الذين هيئوا له، إذ قاموا برحلات مختلفة على الساحل الأفريقى الغربى[٢١].

ويقول د. **ز كى محمد حسن**:

إننا نرجح أنهم وصلوا أولا إلى مقربة من إحدى جزر الآزور التى تبعد عن غربى البرتغال نحو ١٣٧٠كم والواقعة بين خط ٣٧ وخط ٤٠ من العرض الشمالى وبين خط ٢٥ وخط ٣٢ من الطول الغربى، والظاهر أنها لم تكن مجهولة، عند الفينيقيين والقرطاجنيين والنورمنديين والعرب، وإن نسب كشفها فى القرن الخامس عشر الميلادى إلى الفلمنكيين فى رواية وإلى البرتغاليين فى قول آخر:

ولما انحدر الفتية إلى الجنوب وساروا اثنى عشر يوماً، فالمحتمل أنهم وصلوا إلى جزر ماديرا، وقد ذكر **عبد الحميد العبادى**[٢٢] فى مقال عن قصة أولئك الفتية أن بهذه الجزيرة كثيراً من الماعز، تقتات بنوع من العشب هو السبب فى مرارة لحومها، أما الجزيرة التى انتهى إليها المغرورن وقبض عليهم فيها، فلعلها إحدى جزر الخالدات أو الكنارى التى تبعد من الساحل الشمالى الغربى لإفريقيا بنحو مائة كيلو متر والواقعة بين خطى ٢٧، ٢٩ من العرض الشمالى وبين خط ١٣ وخط ١٨ من الطول الغربى، ولعل هذه القصة وغيرها كان قد اطلع عليها كولمبوس.

ويقول الأمير **شكيب أرسلان** عنها فى كتابه «**الحلل السندسية**»:

قصة الأخوة المغررين قصة شهيرة صارت الآن معلومة عند أهل هذا العصر بعد أن بقيت مدة طويلة مدفونة فى كتاب الإدريسى، هذا الذى لم تتداوله الأيدى، وإنما كان يطلع عليه بعض المستشرقين من علماء الإفرنج، وبعض المطلعين من العرب على خزائن الكتب وقليلا ما هم، وبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٨٩٢م، وكنت فى باريس وكان عمرى ٢٢سنة، فقرأت فى جريدة النشرة الأسبوعية التى كان ينشرها العلامة الأستاذ/ **إبراهيم الحورانى** باسم جمعية الأمريكيين فى بيروت، مقالة مترجمة عن مجلة أمريكية لا أتذكر الآن اسمها، يقول فيها بمناسبة كشف قارة أمريكية، إنه شائع من جملة الأخبار كون العرب وصلوا إلى أمريكا قبل كولمبوس، وذلك بركوبهم البحر قاصدين الغرب من جهة الأندلس، ويقول:

ليس عندنا نحن معلومات عن هذا الشأن تستند إلى وثائق خطية، وإنما هو كلام متواتر بين الناس، فكنا نود لو عرفنا ما عند العرب من هذا الموضوع وأردف الأستاذ الحورانى ذلك بنداء العلماء العرب أن أفتونا بما عندكم عن هذه المسألة، ولما عثرت على النص العربى فى كتاب «**نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق**» للإدريسى، وتصفحته لأول مرة، نسخت ما ورد عن قصة الأخوة المغررين بتمامه وضمنته فى مقال نشر بجريدة «**ثمرات الفنون**» ببيروت[٢٣].

ويذهب الأمير شكيب أرسلان إلى أن كريستوف كولمبوس لم يكن يجهل قصة المغررين، واستنتج أن وجود بر أو أرض كبيرة خلف بحر الظلمات أو المحيط الأطلنطى أمر لابد منه، ولهذا أقدم على رحلته.

وقد ذهب كثير من البحاثة العرب والمستشرقين فى الدرب نفسه الذى اختطه وعبده من قبلهم الأمير شكيب أرسلان، وقد نشر الأب **أنستاس الكرملى** بحثاً موسعاً فى مجلة المقتطف عام ١٩٤٥ عنوانه: عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها

أبناء الغرب، ويستند فيه إلى رحلة الأخوة المغررين، وإلى مثل ذلك ذهب **أحمد أمين**.

أما **د. محمد محمود الصياد** فيقول:

ولانريد أن نغالى فنقول ما قال به البعض بأن العرب قد اكتشفوا أمريكا بالفعل قبل أن يكتشفها كولمبوس بعدة قرون، فقصة المغررين الذين تحدث عنهم المسعودى فى مروج الذهب، فذكر أنهم خاطروا وركبوا بحر الظلمات، ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه ومارأوا، ثم وصف الإدريسى رحلتهم فى كتابه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق».

هى كلها من باب القصص الذى لايقوم لدينا الدليل القاطع على صحته، ولعل بعض العرب قد فكروا فعلاً فى ارتياد بحر الظلمات فلم يصلوا إلى غاية[٢٣].

المسعودى

ت ٣٤٦هـ

مؤرخ وجغرافى وفلكى وفقيه وراوية ورحالة عربى شهير سماه بعض المستشرقين «هيردوت العرب»، وقد ذاع صيته فى الشرق والغرب بفضل كتبه الموسوعية الحافلة بالمعارف والعلوم وأهمها **«مروج الذهب ومعادن الجوهر»**.

أطلق **سارتون** اسمه على النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كما ورد فى كتابه **«مقدمة فى تاريخ العلم»**؛ إذ سماه عصر المسعودى.

قام منذ بداية القرن بعدة رحلات إلى الشرق والغرب، شغلت نحو نصف قرن من الزمان ومايزيد عن ثلاثة أرباع عمره، طوف خلالها عديدًا من الأقطار، وركب البر والبحر وجمع ثروة جغرافية وتاريخية عن شعوب هذه البلاد صبها فى تصانيفه الكثيرة، التى لفتت إليه أنظار العلماء العرب والإفرنج لما احتوت عليه من الأخبار والمعلومات الفقهية والتاريخية والفلكية والأدبية والجغرافية، فضلاً عن الغرائب والأساطير، ولاتزال هذه الكتب تستحوذ علي الألباب؛ خاصة الذين يعشقون التجوال فى بحار هذه العصور للاطلاع على مادة تاريخية واجتماعية شائقة، وقد مكنته من تحصيلها إجادته لعدد من اللغات كالفارسية والهندية والعربية والسريانية واليونانية.

ومن أهم تصانيفه المتبقية، والتى عثر عليها هنا أو هناك:

١- **«أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران»**، وهو أول ما ألف من كتب، ويقع فى نحو ثلاثين مجلداً، لايوجد منه بالمكتبات غير مجلد واحد، منه نسخة بمكتبة باريس ونسخة بالقاهرة وثالثة بفيينا.

٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر.

٣- الكتاب الأوسط وتوجد منه نسخة فى مكتبة البودليان بأكسفورد.

٤- التنبيه والإشراف.

وقد أشار المسعودى نفسه فى كتابيه «مروج الذهب» و«التنبيه والإشراف» إلى نحو ثلاثين مؤلفاً وضعها وأحال القارئ إليها، لكنها غير متوافرة ولم يعثر لها على أثر، منها على سبيل المثال:

«طب النفوس، أخبار الأمم من العرب والعجم، الرؤيا والكمال، المسائل والعلل فى المذاهب والملل، الإبانة عن أصول الديانة، سر الحياة، البيان فى أسماء الأئمة، الرسائل، الاستذكار لما جرى فى سالف الأعصار، ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور».

وتكشف لنا مطالعة عناوين مؤلفاته عن اتساع أفقه وغزارة معارفه وخصوبة فكره، ووفرة عطائه، وولعه بكل ما يمس البشر، وتميزه بحس إنسانى، وانصرافه الكامل وتفرغه للقراءة والتأليف رغم تنقله بين البلدان حتى أصبح علما من الأعلام التى تفخر بها أمة العرب منذ عاش إلى يومنا هذا، ولانحسب أن نجمه سوف يلحق به الأفول قبل عدة قرون قادمة.

إنه أبو الحسن على ابن الحسين بن على بن عبد الله الهزلى المسعودى يتصل نسبه بعبد الله بن مسعود الصحابى الجليل.

لانعرف شيئاً عن تاريخ ميلاده، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أعلام هذه العصور، وليس ثمة غرابة فى ذلك إذ لم يكن سائداً تسجيل المواليد، كما أن الإحاطة بأخبار الجغرافيين والرحالة على وجه الخصوص لا تبدأ إلا متأخرة، وفى أغلب الأحوال بعد رحيلهم.

على أن المسعودى قد ذكر أنه بدأ الارتحال عام ٣٠١هـ، فإننا نرجح أن يكون قد ولد قبل ذلك - على الأقل - بنحو ربع قرن.

«ولد المسعودى بإقليم بابل، لقوله فى مروج الذهب: «وأوسط الأقاليم الإقليم الذى ولدنا به وإن كانت الأيام أنأت بيننا وبينه، وساحقت مسافتنا عنه، وولدت فى قلوبنا الحنين إليه؛ إذ كان وطننا ومسقطنا وهو إقليم بابل، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلاً وقدره عظيماً»، ثم انتقل إلى بغداد حيث نشأ وقضى سنى صباه وشبابه، وتلقى العلوم الشرعية والأدبية، لكنه غادرها سنة ٣٠١هـ عازمًا على التجوال فى البحر الشرقى الكبير، بعد أن خلبت لبه حكايات التجار والملاحين عن سحر هذا البحر وروعة ما فيه من عجائب.

رحلات المسعودى

فى عام ٣٠١هـ (٩١٥م) غادر المسعودى بغداد عازمًا على بدء رحلاته فى مختلف ممالك الإسلام مبتدئًا ببلاد فارس وكرمان، واستقر فى إصطخر لمدة عامين، ثم ارتحل إلى الهند وبقى فى بومباى نحو سنة حتى سنة ٣٠٤هـ، واتجه بعدها إلى سيلان وبلاد سيمور، وانضم إلى فريق من التجار فى رحلة إلى جزيرة مدغشقر وزنجبار وعمان، ورجع بعدها إلى بغداد بعد غياب دام نحو عشر سنوات، جمع خلالها مادة معرفية غزيرة، أضافها إلى حصيلته من الإطلاع على كتب التاريخ والسير والفقه والأدب، فعكف على وضع أول مؤلفاته وهو أخبار الزمان الذى ورد ذكره فى التنبيه والإشراف، وأحال إليه باسم أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية، والممالك الدائرة.

أما النسخة التى عثرنا عليها فى دار الكتب المصرية، فكانت معنونة بأخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران[٢٥]، وكانت النسخة الأولى منه قد اشتراها المستشرق كرامر من مكتبة فى حلب وحفظها فى مكتبة فيينا، ويذهب عدد من المؤرخين إلى أنه لم يؤلفه إلا عام ٣٣٢هـ، وهذا لا يستقيم لأنه كان فى رحلاته إلى أنطاكية وغيرها، وأخرون يرون أنه لم يبدأ فيه إلا بعد أن استقر بمصر أى بعد عام ٣٣٥هـ، وهذا أمر مستبعد أيضًا لأنه

يكون قد تجاوز الستين، وأغلب الظن أنه وضعه نحو عام ٣٢٠هـ؛ أى بعد مجموعة رحلاته الثانية التى بدأها عام ٣١٤هـ.

وحوالى عام ٣١٤هـ، وبعد أن أتم الكتاب الضخم، عاد الحنين إلى الرحلة يطرق باب قلبه، وما يلبث أن يلبى داعى السفر متجهًا هذه المرة إلى بحر الخزر (قزوين) فطاف بمدنه وتعرف حدوده، وأهله واتجه إلى طبرية وفلسطين ثم آب الرحالة إلي بغداد ليضع حمولته من المعارف المختلفة، وفى هذه الفترة طال مقامه، وأنجز الكثير من مصنفاته التى لم يصل أغلبها إلينا، إلى أن كان عام ٣٣٠هـ (٢٦)، فإذا به يشعر من جديد بحاجته إلى السفر وتجديد الطاقة وشحذ الهمة وقد تفتحت شهوته للعلم والمعرفة، فانطلق إلى مصر فإنطاكية ومدن الحدود الشامية، ثم مضى صوب البصرة وعاد إلى دمشق وبقى فيها سنوات قليلة، لينتقل إلى مصر نحو عام ٣٣٥هـ ليستقر بها إلى نهاية عمره، ما خلا بعض الزيارات العابرة إلى دمشق، ولابد أنها لم تكن لغير العلم الذى هام به وتفرغ له، وقد توفي عام ٣٤٦هـ، وهو مقيم فى الفسطاط بمصر.

وتجدر الإشارة فى البداية إلى أن المسعودى كان موسوعى الثقافة محتشداً بالمعارف والعلوم، جامعاً للخبرات والتجارب، وكانت كتبه صورة منه، ومرايا تعكس تركيبة عقله ومحتواه، فلم تكن كتاباً فى التاريخ وآخر فى الجغرافيا وثالثاً فى الأدب ورابعاً فى السير، ولم يكن كل منها خالصاً لموضوعه جامعاً له وحده مانعاً ما هو دونه، بل كان الكتاب جامعاً لكل ما يمت بصلة لمادة ما أو لموضوع بعينه، على طريقة الشىء بالشىء يذكر ولا يحق لنا أن نعيبه، فهو أولاً كان أسلوباً سائداً فى عصره، كما أنه نهج شائق ومفيد فى الآن نفسه، متنوع وممتع لا يمله القارئ، بل يدفعه ليطلب المزيد.

وبحر المسعودى محيط معرفى لا تدرك شطآنه، وقد رُوى أن مستشرقاً استهواه علم المسعودى وأسلوبه الجذاب وفتنته إحالاته العجيبة، فبحث أولاً بنفسه، ثم لجأ إلى حكومته فأمدته بالمال، وظل يبحث ويتابع البحث، حتى عثر على نسخة

من كتاب أخبار الزمان فى بلاد شنقيط بصحراء أفريقية، فرام شراءها، وعرض ثمناً غالياً، فما سمحت أنفس الشناقطة ببيعها، ولارضوا أن يستبدلوها بالذهب الوفير.

فلما أعياه شراؤها، تمنى عليهم أن يصورها بالفوتوغرافيا نظير مبلغ من المال جسيم، فما أعاروا عرضه ذلك التفاتاً، بل منعوه النظر إليها والاستمتاع بها.

فرحل عنهم، حقبة من الدهر، ولما استيقن أن القوم قد نسوا شخصه، وما كان قد جاء لأجله، عاد إليهم خائفاً يترقب، وقد عزم على استنساخها، فاكترى رجلاً منهم عهد إليه باستنساخها.

لكنهم إذ فطنوا إلى الأمر، لم يجدوا جزاءً لهذا المستشرق - الذى أحب العلم، وضحى بوقته وراحته ولذاته فى سبيله، واستمات فى تحقيق فكرة يصل نفعها إلى جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها - إلا القتل، فذهب ضحية إحالات المسعودى والبحث عن كتبه![٢٧].

ولعل هذا ما دفع المستشرق **فون كرامر** إلى أن يسمى المسعودى **هيردوت العرب** فى كتابه «تاريخ الثقافة فى الشرق[٢٨]».

ويرى المستشرق **سيديو** أن المسعودى يتميز بروح اطلاع هائلة، وهى التى تدفعه لاستيعاب كل المعارف التى تنزلق إلى طبيعته الجاذبة للعلم، وإن افتقد حاسة النقد، ويقول:

«ولانخشى التكذيب إذا قلنا إنه لم يظهر بين العرب مؤرخ بلغ من الفضل الشامل ما بلغه المسعودى، وإذا كنا نراه محتاجًا إلى روح النقد أحياناً فلنذكر أن حب الإطلاع الشديد فيه حفزه إلى زيارة الأماكن، التى أراد الوقوف على تاريخها فكان يساق إلى نقل قصص ذات أصل مشكوك فيه»[٢٩].

ويكاد المسعودى يعترف بذلك فى مقدمة كتابه «مروج الذهب ومعادن

الجوهر»، وكأنه يحس قبل قرون عديدة من وقوع كتابه الثمين بين أيدى الدارسين بأن كتابه يشتمل على أغراض كثيرة وموضوعات متعددة، موضحًا إنه لم يغفل عن ذلك، بل قصده ولذلك أسباب، فيقول:

«أما بعد، فإننا صنفنا كتابنا فى أخبار الزمان، وقدمنا القول فيه فى هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها، وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها.. ثم اتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة.. ثم اتبعناه بكتابنا الأوسط فى الأخبار على التاريخ ومن درج فى السنين الماضية.. ونعتذر عن تقصير إن كان، ونتتقل من إغفال، أو عرض كما قد شاب خواطرنا، وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار، تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، فتارة بأقصى خراسان، وتارة بأواسط أرمينيا وأذربيجان، وطورا بالعراق وطوراً بالشام.. نسرى فى الآفاق سرى الشمس فى الإشراق، كما قال بعضهم:

تيمـــم أقطـــــار البـــــلاد فتـــــارة	**لدى شروقها الأقصى وطوراً إلى الغرب**
سرى الشمس لاينفــك تقذفــه النــوى	**إلـى أفـــق نـــاء يقصـــر بالركـــب**
وفاوضنا أصـناف الملــوك عـلى تغايــر	**أخلاقهم وتباين هممهم، وتباعد دارهم**

كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»:

لاحظ المسعودى أن الكتابين اللذين سبق له وضعهما وهما أخبار الزمان، والكتاب الأوسط من الضخامة بحيث لا يتوفر لكل قارئ الوقت والجهد والمال للاطلاع عليهما، لذلك اختصرهما فى كتاب واحد هو **«مروج الذهب ومعادن الجوهر»** وقد انتهى من جمعه وتصنيفه سنة ٣٣٦هـ (٩٤٧م)، وأعاد النظر به سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م)؛ أى قبل وفاته بنحو عام وشهور قليلة.

وقد حظى الكتاب بسمعة طيبة لدى علماء الغرب خاصة، فسعوا إلى اقتنائه.

ويلخص **فاسيليف** فى كتابه **«العرب والروم»** إعجاب المؤلفين الغربيين بكتب

المسعودى بقوله: «وكتب المسعودى مما يقرؤه المسلمون والأوروبيون على السواء فيجدونه ممتعاً طليا، وذلك راجع إلى تنوع الأخبار التى يسوقها المؤلف، وإلى قدرته على جعل سرده حيا فى كتبه».

ونحسب أن ما ذهب إليه فاسيليف هو الحق، وهو أقل مايجب أن توصف به أعمال المسعودى، وقد لاحظنا روايته النابضة بالحياة خاصة فى مروج الذهب، وسرده القصصى الجذاب، وأسلوبه الممتع في تضفير الحقيقة بالأسطورة ومزج الواقع بالخيال، حتى لتحسب أن كل ما يذكره وقائع صحيحة وصادقة، وسوف يلحظ القارئ فى غير عناء أن المسعودى كان يمكن أن يكون أحد كبار قصاصينا وروائيينا، لولا أن البعض فى ذلك الزمان كان يرى هوان شأن القص وضآلة قدر أصحابه.

وقد قام بنقل «مروج الذهب» إلى الفرنسية المستشرق الفرنسى **باربيه دى مسينا** بين سنتى ١٨٦١-١٨٧٧ فى تسعة مجلدات، وقبله قام بنقلها إلى الإنجليزية المستشرق الإنجليزى **سبرنجر**، وطبع الجزء الأول عام ١٨٤١.

وفى عام ١٩٦٧ أصدرت دار الشعب المصرية طبعة شعبية من مروج الذهب من تحقيق الباحث المدقق محمد محيى الدين عبد الحميد، وأعادت إصدار الطبعة دار صادر اللبنانية.

نماذج من مشاهدات المسعودى

سرنديب:

ورأيت فى سرنديب وهى جزيرة من جزائر البحر أن الملك من ملوكهم إذا مات صير على عجلة، قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى (الغرض) وشعره ينجر على الأرض وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراث على رأسه وتنادي: أيها الناس، هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت والحي الذى لايموت فلاتغتروا بالحياة بعده، وتقول كلامًا هذا معناه من الترهيب والتزهيد فى هذا العالم ويطاف به فى جميع شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع، وقد هيأ له

الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب، فيحرق بالنار ويذر رماده فى الرياح، وكذا فعل أكثر الهند بملوكهم وخواصهم لغرض يذكرونه ونهج يتيممونه فى المستقبل والزمان، والملك، مقصور على أهل بيت لاينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء والقضاء وسائر أهل المراتب ولاتبدل.

والهند تمنع من شرب الشراب ويعنفون شاربه، لا على طريق التدين ولكن تنزها عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها ويُزيلها عما وضعت له فيهم، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه إذا كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط وربما يسمعون السماع والملاهى، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالاً مرتبة من ضحك وبكاء وربما يسقون الجوارى فيطربون بحضرتهم فتطرب الرجال لطرب الجوارى.

الجزء الأول (٨٣، ٨٤).

ليلة الغطاس:

«لها بمصر شأن عظيم عند أهلها، لاينام الناس فيها، وهى ليلة إحدى عشرة تمضى من طوبة وستة من كانون الثانى، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والأخشيد محمد بن طفيح فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألفا مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل في تلك الليلة عدة آلاف من الناس المسلمين والنصارى، منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط لايتناكرون الحضور، ويحضرون كل مايمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى أو العزف والقصف، وهى أحسن ليلة، تكون بمصر، وأشملها سروراً ولاتغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء[٣٠].

جزائر الديبجات:

وبين البحر الثالث وهو هرْكَنْد، والبحر الثانى وهو لارْوِي على ما ذكر، جزائر كثيرة هى فرز بين هذين البَحرين، ويقال إنها نحو من أَلفى جزيرة، وفى قول المحق ألف وتسعمائة جزيرة كلها عامرة بالناس. وملكة هذه الجزائر كلها امرأة... والعنبر يوجد فى هذه الجزائر يقذفه البحر، ويوجد فى بحرها كأكبر ما يكون من قطع الصخر، وأخبرنى غير واحد من ناخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرها من التجار، ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر، ويكون كتكون أنواع القطر (القُطر؟) من الأبيض والأسود والكماة ونحوها، فإذا خبث البحر واشتد، قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر..

وهذه الجزائر تعرف جميعاً بالدابيهات (الديبجات) وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب.

من اليسير أن نعثر على التماثل الشديد بين وصف المسعودى لهذه المناطق ووصف سليمان التاجر.

عن السمك والعنبر:

يقدم المسعودى خلاصة وافية لمعارف عصره عن هذا الموضوع فيقول:

«وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن وأصابتنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بالأوال (لعله يقصد الحوت)، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع بالذراع العُمَرى، وهو ذراع أهل ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك أن طوله مائة ذراع، وربما بدا بهذا البحر فيظهر طرفاً من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع، وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء فى الماء فيذهب الماء فى الجو أكثر من ممر السهم، والمراكب تفزع منه بالليل والنهار تضرب له بالخشب والدبادب لينفر من ذلك، ويحشر بذنبه وأجنحته

السمك إلى فمه وقد فغر فاه، وذلك يهوى إلى جوفه جرياً، فإذا بغت السمكة بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك، فيلصق بأصل أذنها، فلا يكون منها خلاص فتطلب قعور البحار وتضرب بنفسها حتى تموت، فتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم، وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمراكب فلا تدنو الأوال مع عظمها من المراكب، وتهرب إذا رأت الصغيرة إذ كانت آفة عليها وقاتلة لها.

(مروج الذهب جـ١ ص١٠١-١٠٢).

وعنبر هذا البحر قليل (بحر لاروى)، وذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشحر من أرض العرب، وأهل الشحر أناس من قضاعة بن مالك ابن حمير وغيرهم من العرب، ويدعى من سكن هذا البلد من العرب أن المهرة أصحاب شعور وجمم ولغتهم خلاف لغة العرب.. وهم ذو فقر وفاقة. ولهم نُجُب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية، وتشبه فى السير بالنجب البجاوية، بل عند جماعة أنها أسرع منها. فيسيرون عليها على ساحل بحرهم، فإذا أحست النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه، قد ريضت لذلك واعتادته، فيتناوله الراكب.

وأجود العنبر ما وقع إلى هذه الناحية، وجزائر الزنج وساحله، وهو المدور الأزرق النادر كبيض النعام أو دون ذلك، ومنه ما يبتلعه الحوت المعروف بالأوال المقدم ذكره، وذاك أن البحر إذا اشتد قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر على ما وصفنا، فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله، فيطفو فوق الماء. ولذلك أناس يرصدونه فى القوارب من الزنج وغيرهم فيطرحون فيه الكلاليب والحبال ويشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه، فما يخرج من بطنه يكون سهكا ويعرفه العطارون بالعراق وفارس بالند. وما لقى ظهر الحوت منه كان نقيا جدا على حسب لبثه فى بطن الحوت.. وأخبرنى غير واحد من نواخذه السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف، وغيرهم من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر (جزائر الديبجات) أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر، وتكون أنواع القطر من

الأبيض والأسود والكماة ونحوها، فإذا خبث البحر واشتد، قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر..».

بحر فارس:

يقول أبو الحسن المسعودى، وهو يتحدث عن بحر فارس:

«وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك.. وبينها وبين البحر فراسخ، وفيها مغاص لؤلؤ وهو اللؤلؤ المعروف بالخاركى.. والغوص على اللؤلؤ فى بحر فارس إنما يكون فى أول نيسان إلى آخر أيلول.. وما عدا ذلك من شهور السنة لا غوص فيها.. وهو خاص للبحر الحبشى من بلاد خارك وقطر وعُمان وسرنديب وغيرها من هذا البحر. وذكرنا كيف تكون اللؤلؤ وتنازع الناس فى ذلك، فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من المطر، ومن ذهب إلى أن ذلك من غيره، وصفة اللؤلؤ العتيق منه والحديث المسمى بالمحار المعروف بالبلبل، واللحم الذى فى الصدف والشحم، وهو حيوان يفزع من الغاصة على ما فيه من اللؤلؤ والدر كخوف المرأة على ولدها..

وأتينا على ذكر كيفية الغوص، وأن الغاصة لايكادون يتناولون شيئاً من اللحمين إلا السمك والتمر وغيره من الأقوات، وما يلحقهم من شق أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلاً من المنخرين، لأن المنخرين يجعلون عليهما شيئاً من الذَّبل، وهو ظهور السلاحف البحرية التى يتخذ منها الأمشاط، أو من القرن، يضممها كالأمشاط، لا من الخشب. ويجعل فى آذانهم القطن وفيه شىء من الدهن، فينعصر من ذلك الدهن اليسير فى قعر الماء فيضئ لهم بذلك ضياء نيراً.

ومايطلون به على أقدامهم وأسواقهم من السواد خوفا من بلع دواب البحر إياهم ونفورها من السواد، وصياح الغاصة فى قعر البحر كالكلاب، وخرق الصوت حتى يسمع صياح بعضهم بعضاً. وللغاصة والغوص أخبار عجيبة

وللؤلؤ وحيوانه ما قد أتينا على أوصاف ذلك، وصفات اللؤلؤ وأثمانه ومقادير أوزانه، فيما سلف من كتبنا

(المذهب جـ١ ص١١٤، ١١٥).

بحر الشام:

يصفه المسعودى قائلاً:

«وكذلك بحر الشام فالتنانين فيه كثيرة، وأكثر ما تكون فيه مما يلى بلاد طرابلس واللاذقية والجبل الأقرع من أعمال أنطاكية. وليس تعرف التنانين فى البحر الحبشى ولا فى شىء من خلجانه. وأكثر ما يظهر فيما يلى بحر أقيانس. فقد اختلف الناس فى التنين، فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون فى قعر البحر، وتظهر إلى النسيم وهو الجو، فتحلق بالسحاب كالزوبعة إذا ثارت من الأرض واستدارت، وأثارت معها الغبار وهشيم الأرض والنبات، ثم استطالت فى الهواء ذاهبة الصعداء، فيتوهم الناس أنها حيات سود قد ظهرت من البحر، لسواد السحاب، وذهاب الضوء، وترادف الرياح.

ومنهم من رأى أنها دواب تكون فى قعر البحر فتعظم وتؤذى دواب البحر، فيبعث الله تعالى بالسحاب والملائكة فتخرجها، وإن ذلك على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص لا يمر ذنبها بشىء إلا أتى عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل، وربما تتنفس فتحرق الكبير، فيلقيها السحاب فى بلد يأجوج ومأجوج، ويمطر عليها البرد فيقتلها، ومنها يتغذى يأجوج ومأجوج وقد ذكر فى التنين غير ما وصفنا. وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أموراً فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها من أنها حيات سود تكون فى الصحارى والجبال، فتجذبها السيول ومياه الأمطار فتقذفها فى البحر فتتغذى من دواب البحر فتعظم أجسامها وتطول أعمارها، فإذا انتهى الواحد منها في العمر خمسمائة سنة غلب على دواب البحر.. وأن منها سوداً وبيضاً على قدر الحية فى نفسها، والفرس لا تنكر كون التنين فى البحر، وتزعم أن له رءوساً سبعة وتسميه الأجْدُهَان، وتضرب به فى أخبارها الأمثال. والله أعلم بكيفية ما ذكرنا، والأخبار فى هذه المعانى تأباها كثير من النفوس، ولا تقبلها كثير من العقول، لم نعرض لإيرادها».

ومن كتاب «أخبار الزمان» نعرض الصفحات التالية:

«بلاد الصين ثلاثمائة مدينة ونيف، عامرة كلها سوى القرى والأطراف والجزائر، وأبواب الصين اثنا عشر باباً، وهو جبل فى البحر بين كل جبلين منها فرجة وبحر يصار منه إلى موضع مدينة من مدائن الصين المعروفة الكبار.

وهذه الجبال التى تمر بينها المراكب مسيرة سبعة أيام، فإذا جاوزت السفينة هذه الأبواب صارت فى بحر فسيح وماء عذب، وصارت كذلك حتى تسير إلى الموضع الذى تريده من بلاد الصين.

وأول مرسا تنزله خانفو وماؤها عذب من أنهار عذبة، وفى كلها أمن ومصالح وشجر وعمارة وزرع، وفى تلك الميناء أودية كلها تدور (بين) جزيرتين فى اليوم والليلة، وفى هذا المرسا أسواق وتجار وخروج ودخول، وتجارات تحط ومراكب تذهب وتجئ.

وجزيرة خلنجان فيما بين سرنديب وفلتن ببلاد الهند فيها قوم سود عراة إذا وقع إليهم إنسان عربى من غير بلادهم، علقوه من كسائه وقطعوه قطعاً، وليس لهم ملك.

وغذاؤهم السمك والموز النارجيل وقصب السكر، وبها أجام تنبت الخيزران، وهم عراة لا يستترون بشىء، وبقرب الصين موضع من البحر يقال له منجى وهو أخبث البحار وأكثرها رياحاً وموجاً ومضايق وجبالاً، تتطاير منه إلى المراكب صبيان مثل صبيان الزنج، طول أحدهم نحو خمسة أشبار يخرجون من الماء ويتواثبون إلى المراكب ويدورون فيها، ولا يؤذون أحداً ثم يعودون إلى البحر، فإذا كان ذلك منهم وظهروا كان ذلك علامة لأخبث الرياح عندهم، فيستعدون ويأخذون أهبتهم، ويخففون المراكب، ويلقون بعض ما فيها ويقطعون من الذقل ذراعا أو ذراعين إن خافوا كسرها.

ويقولون أيضا إنهم إذا رأوا على دور المكان سمكة يقال لها البليقة، يكون منها ما طوله مائة ذراع فى عرض عشرين ذراعاً وينبت على ظهرها الحجارة، وربما تعرضت للمراكب فكسرتها.

وزعموا أنها ربما قربت من الساحل وهى لا تعلم، فتندفع بقوتها لبعض تتبع السمك الهارب منها، فلاتشعر إلا وقد حصلت فى البر بجملتها فلايمكنها الرجوع فتهلك، فإذا كان كذلك قطع لحمها وذوب فى القدور ويصير دهنا.

وجزيرة بقرب الزنج فيها جبل يقال لها جبل النار، يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لهب نار، فلا يقدر أحد على الدنو منه.

وجزيرة المدر وهو سودان ولهم مدينة لها بارند، وأهل هذا البلد يقطعون الطريق ويسبون ويقتلون.

فالمراكب الصينية يعد فيها التجار السلاح والنفط، وربما كان فى المراكب أربعمائة نفس من التجار وخمسمائة مقاتل، فلايطمع فيها، ويطمع فى سواهم وتغتال سفينتهم.

وجزيرة الرانج وهى جزيرة عظيمة كثيرة الأهل والزرع والتجارات، ويقال إنها لما فسد من الصين بالخوارج والهرج، صارت المراكب الصينية تقصد جزيرة الرانج هذه ويقاتلون أهلها وكذلك جزائرها كلها ومدائنها.

وأصلح أبواب الصين فى التجارات الباب الذى يدخل منه إلى خانفو وهو أقرب، ومن دخل من غيره بعد الطريق عليه.

وجزائر كثيرة منها جزيرة تعرف بسديدة، تكسيرها أربعمائة فرسخ وبها متاجر وطيب.

وجزيرة الرامى أيضاً عامرة يقال إن تكسيرها ثمانية فراسخ، فيها منابت البقم وفيها الكافور والأفاويه وتكسيرها ثمانون فرسخاً.

وجزيرة كله، يقال إنها النصف بين أرض الصين وأرض العرب وتكسيرها ثمانون فرسخا

(أخبار الزمان ٣٨، ٣٩ ط١).

ونتابع الحديث مع المسعودى الذى تجول فى البحر الشرقى الكبير، وهو المحيط الهندى كما تجول فى بحر الروم وجال فى جزائره وطاف ببعض مدنه وهاهو يقول عن بعض هذه الجزائر:

وجزيرة أقريطش وهى فى بحر الروم، وبها جبال ومعدن ذهب وأنهار وثمار، وهى اثنا عشر يوما فى ستة أيام، وفى البحر الكبير جزيرة ترى على بعد فى البحر، فإذا قرب منها القاصد بعدت عنه وغابت، فإذا رجع إلى الموضع الذى كان فيه رآها كما كان يراها قبل.

وقيل إن بها شجراً بطلوع الشمس ولايزال طالعاً إلى نصف النهار ثم يعود إلى الانحطاط حتى تغيب الشمس، ويقول البحريون إن فى ذلك البحر سمكة صغيرة يقال لها السائل إذا حملها الإنسان مع نفسه أبصر الجزيرة، ولم تغب عنه ودخلها، وهذا شىء عجيب ظريف.

وجزيرة طاوراق، وهو ملك له أربعة آلاف امرأة، ومن لم يكن له ذلك فليس بملك ويتفاخرون بكثرة الأولاد، وعندهم أشجار إذا أكلوا منها قووا على الباه قوة عجيبة.

وجزيرة السيارة، والبحريون مجمعون عليها، منهم من يذكر أنه رآها مراراً كثيرة وليس بمسكون فيها. وهى جزيرة فيها جبال وعمارة، فإذا هبت الريح من الغرب صارت إلى الشرق، وإذا هبت من الشرق صارت إلى الغرب، هذا دأبها.

ويقال إن حجارتها خفيفة يكون الحجر العظيم الذى وزنه عندنا قناطير يزن عدة أرطال وأقل من ذلك، ويحمل الإنسان القطعة العظيمة من الجبل.

وذكر بعض اليهود لعنهم الله من أصحاب التجارات أن مركبهم انكسر بهم فى بعض السنين، وأن البحر طرحهم إلى جزيرة ترابها وحجارتها وكل ما فيها ذهب، فأقاموا فيها أياما لايجدون غذاء غير السمك وهو مع كل ذلك قليل، فلما خافوا على أنفسهم التلف، وكانوا مع ذلك سلم لهم زورق للمركب فجروه عندهم فأوسقوه من ذلك الذهب وثقلوه بالطمع فوق ما يحمل، ثم دخلوا به البحر واجتهدوا فى طلب النجاة، فلم يسيروا به إلا يسيرا حتى عطب بهم الزورق وتلف الذهب ولم ينج منهم إلا بعضهم من أهل السباحة.

وذكر أن في جزائر الكافور قوماً يأكلون الناس، ويأخذون رءوسهم فيجعلون فيها الكافور والطيب ويعلقونها في بيوتهم ويعبدونها، فإذا عزموا على أمر من الأمور أخذوا رأسا من تلك الرءوس فكبروا له وسجدوا بين يديه وسألوه عما يريدونه فيخبرهم ما سألوه عنه من خير وشر.

وجزيرة النساء، وهذه الجزيرة في تخوم من الصين، وحكوا عنها أنه لم يسكنها إلا النساء، وأنهن يلقحن من الريح ويلدن نساء، وزعموا أن الذهب عروق عندهن مثل الخزران، وتربتها ذهب، وأنه وقع إليهن مرة رجل فهممن بقتله، فرحمته امرأة وحملته على خشبة وسلمته في البحر، فحملته الأمواج والرياح، حتى أتت به بلاد الصين فدخل إلى ملك الصين، وعرفه حال الجزيرة، فوجه المراكب في طلبها، فطافت تطلبها ثلاثة أشهر فما وقعوا لها على خبر ولا أثر.

وجزيرة ابن أسعلاق فيها شخص مشوه لا يدرى ما هو، ذكر قوم أنه شيطان تجسد بين الجن والإنسان، وزعم قومه أنه خلق بحرى مشوه مقارب لصورة الإنسان، وأنه يأكل من وقع إليه من الناس.

«أخبار الزمان ٤٤، ٤٥».

بحر الصنف: وينتقل المسعودى إلى بحر الصنف ويعدد ما فيه قائلاً:

وفيه يكون شجر العود وليس فيه أحداً يعرفه ورأسه تخرج من قرب الظلمة الشمالية، وتعمر أيضاً على بلاد الواق.

وفيه ملك الجزائر التي يدعى المهراج، وله من الجزائر والأعمال ما لا يحصى كثرة، ولو أراد مركب من مراكب البحران أن يطوف بجزائره في سنين كثيرة لم يقدر أن يطوفها، ولملكه جميع أفاويه الطيب والكافور والقرنفل والصندل والجوزة والبسباسة والقاقلة والعود، وليس لملك من الملوك ما للملك هذا البحر من أصناف الطيب، ويقال إن فيه قصراً أبيض يسير على الماء ويتراءى لأصحاب المراكب في السحر يتباشرون به إذ هم أبصروه، ويكون لهم دليل السلامة والربح والفائدة. وفيه جزيرة برطايل، فيها جبال مسكونة يسمع فيها بالليل والنهار العزف والطبول والأصوات المنكرة ووجوه أهلها مثل المجان

المطرقة، وهم مخرقو الآذان وأكثر البحريين مجمعون على أن الدجال فيها، ومنها يخرج إذا بلغ منتهاه.

وفيها يباع القرنفل، ويشترونه التجار من قوم لا يبصرونهم وفيه البراقية، وهى مدينة لطيفة من حجر أبيض براق يسمع فيها ضوضاء وأصوات، ولا يرى بها ساكن وربما نزل إليها البحريون وأخذوا من مائها، فوجدوه أبيض زلالا حلو الطعم فيه روائح الكافور.

ومنه جزيرة بها مساكن وقباب بيض تلوح وتترايا للناس، فيطعمون فيها وكلما قربوا منها تباعدت منهم، فلايزالون كذلك حتى ييأسوا منها فينصرفوا عنها.

ويتصل هذا البحر بالواق، ويقول البحريون إنهم لا يعرفون منتهاه غير أن أقصاه جبال تتوقد ناراً ليلاً ونهاراً يسمع لها قواصف مثل قواصف الرعود من شدة التهابه، وربما سمعوا من تلك النار صوتا عرفوه يدل على موت ملك من ملوكهم أو كبير من كبرائهم، وبحر هذا الموضع لا يدرك قعره.

وبعد بحر الصنف الذى ذكرناه بحر الصين وهو بحر خبيث بارد، ليس فى غيره من البحار مثل برده ويقال إن ريحه من قعره، ويقال إنه بحر مسكون له أهل فى بطن الماء.

وأخبر الثقة من أصحاب البحر أنهم يرونهم إذا هاج البحر فى جوف الليل كهيئة الريح ويطلعون إلى المراكب، وليس يكون ذلك إلا عند هياج البحر.

وذكر البحريون أنهم لا يعرفون بعد بحر الصين بحراً يسلك، وهو بحر يغلى كما تغلى القماقم، وليس صفة ما به كسائر البحار.

وفى بحر الصين سمكة مثل الحراقة يرمى بها الماء إلى الساحل، فإذا انجذر الماء بقيت على الطين، فلاتزال تضطرب مقدار نصف نهار، ثم تنسلخ فى اضطرابها ذلك فيخرج لها جناح فتستقل به فتطير.

وزعموا أن عرض بلاد الصين الذى تمر عليه المراكب ألف وخمسمائة فرسخ،

وفى هذا البحر يرى وجه عظيم على صور الناس، إلا إنه أعظم منه مستدير يشبه لون القمر، يغطى ما بين جبلين وأبواب الصين فى البحر بين كل جبلين فرجة.

وقيل إن بمدينة بقمولية وهى القسطنطينية الأولى كنيسة فى جوف البحر، وربما تنكشف يوما فى السنة فيحج أهل النواحى إليها ويستعدون لها قبل ذلك فيقيمون فيها يومهم ويتفرقون ويهدون إليها بدنهم، فإذا كان العصر بدا الماء فى الزيادة فينصرفون ويبادرون الخروج عنها، ولايزال الماء يغطيها فتغيب إلى رأس السنة أيضا. «أخبار الزمان ٢٤، ٢٥».

وبعد . . فأحسب أنه غنى عن البيان تأثير كتابات المسعودى التى يختلط فيها الواقع بالأسطورة، والحقيقة بالعجيبة والغريبة على الأدب القصصى السائد فى تلك الفترة وما بعدها وبلوغ أصدائه أشكال الرواية والأدب الشعبى، بما يستحق أن يرصده الباحثون على نحو دقيق.

ابن حوقل

٣٣١هـ - ٩٤٣هـ

واحد من أبرز جغرافيي ورحالة القرن الرابع الهجرى «العاشر الميلادى» يمثل مع المسعودى والمقدسى طليعة هذه الكوكبة المتألقة، من خدام علم الجغرافيا وأدب الرحلات.

تنقل بين البلدان لأكثر من ثلاثين عاما، يحمل بين جوانحه قلبا عامراً بحب الجغرافيا، بعد أن قرأ - تقريباً - جميع كتبها التى وصفها السابقون عليه والمعاصرون له حتى أولع بهذا العلم، ومن هذه الكتب ما كان يحرص على أن تبقى معه دائما، ويقول عن ذلك:

«وكان لا يفارقنى كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج قدامة بن جعفر»(٣١).

لذلك أحس أبوالقاسم بن حوقل فى نفسه الرغبة أن يضع مصنفا فى ذات الموضوع ذاته، يوثق به ويعتمد عليه ويمثل إضافة حقيقية لهذا العلم الوليد، ولم يكن أمامه من سبيل غير الارتحال إلى مختلف الأمصار، وأن يجوب الآفاق ليتعرف بنفسه البلاد التى سمع بها وقرأ عنها، وتلك التى لم يسمع بها ولم يرد ذكرها فى كتاب.

وبعد أن عاد عكف على وضع كتابه صورة الأرض أو «**المسالك والممالك**»، وتحقق له قدر كبير مما تمنى بعد تجربة السفر الحية، التى أخذت من عمره الكثير.

ولد أبوالقاسم محمد بن على بن حوقل فى مدينة «نصيبين» إحدى مدن الجزيرة، لذلك يسمى فى بعض كتب السير والأخبار «ابن حوقل النصيبينى»،

ولم نعثر فى مصدر من المصادر على ذكر لتاريخ مولده، على أننا نرجح أن يكون فى مطالع القرن الرابع الهجرى (٣٠٠ - ٣٠٥هـ)، مادام قد بدأ رحلاته عام ٣٣١هـ «**ذكر ابن حوقل ذلك فى مقدمة كتابه**»، ويذكر الدكتور **الحينى** فى مقدمته لكتاب «المسالك والممالك» للإصطخرى أنه ألتقى بابن حوقل فى بغداد عام ٣٢٥هـ، وطلب إليه أن يراجع كتابه، ولا يستقيم - فى زعمنا - أن يلجأ رجل فى الستين «الإصطخرى» وقد جاب الأمصار وجرب الحياة إلى شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وربما لم يكن قد بلغها بعد طالبا منه مراجعة الكتاب، فضلا عن عدم قيام ابن حوقل برحلته، ولا يستقيم هذا أيضاً، والأرجح أن يكون اللقاء قد جرى نحو عام ٣٤٠هـ، وقد ذكر **كراتشكوفسكى** صـ ٢٠٠ التاريخ نفسه الذى نرجحه.

ثم انتقل إلى بغداد حيث قضى فيها سنوات صباه وشبابه إبان حكم المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)، ومن بعده القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢هـ)، ثم جاء الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)، الذى ضعفت الخلافة العباسية فى عهده، وارتد الروم كثيراً من البلاد التى كانت فى حوزة الدولة الإسلامية، وتم استقلال الولاة بجميع الأقاليم، فكانت مصر والشام فى يد الأخشيد، وفارس فى يد آل بويه، والموصل وديار بكر فى يد بنى خمدان، وخراسان وما وراء النهر فى يد سامان وطبرستان وجرجان فى يد الديلم - والبحرين واليمامة فى يد القرامطة والأندلس فى يد عبدالرحمن الأموى، ولم يبق للخليفة إلا بغداد وماوالاها فنقص قدر الخلافة وعم الخراب وساد الفساد وقهرت العباد، ثم مات الراضى عام ٣٢٩هـ[٣٢].

تحول ابن حوقل بعد أن تلقى تعليمه فى مدينة بغداد، إلى التجارة، ولقيت هوى فى نفسه، فأقبل عليها دون أن تمنعه من مطالعة الكتب وزيادة ثروته الثقافية، لكن أحوال الدولة غير المستقرة أثرت على تجارته، ودفعته إلى التفكير فى السفر وحثته عليه، إذ الأمور لا تؤذن بتحسن والأحداث لا توحى بالأمل فى استقرار أو رخاء، فضلاً عن تقلبه على نار اللهفة لرؤية عالم غير عالم بغداد

المضطرب، فاجتمعا إذاً عليه عامل خارج نفسه وهو كساد التجارة وسوء الأحوال، وعامل داخله يمور بالرغبة فى اكتشاف العالم، لذلك استجمع عزمه وبدأ فى عام ٣٣١هـ (٩٤٣م) سلسلة من الرحلات التى كان من ثمارها كتابه **«صورة الأرض»**.

رحلة ابن حوقل:

غادر ابن حوقل بغداد فى يوم الخميس السابع من رمضان سنة ٣٣١هـ، ماراً بالشام واتجه إلى مصر فبحر الروم والمغرب ونزل الأندلس، وأقام فى صقلية وزار نابلى وباليرمو، ثم اتجه إلى الجزيرة العربية ومنها إلى فارس وكرمان والسند وأرمينية وأذربيجان والران والجبال ثم الديلم وطبرستان وبحر الخزر وخراسان وسجستان، وكانت آخر البلاد التى زارها هى ما وراء النهر ومنها آب المسافر إلى تراب وطنه، حيث حط الرحال وأقام راضيا يدون كتابه الذى تمناه.

وضع لنا ابن حوقل المسودة الأولى من كتابه الشهير والمهم «صورة الأرض» نحو عام ٣٥٦هـ، أما المسودة الثانية فكانت عام ٣٦٧هـ، وقد عثر على نسخ عديدة منه تفاوتت تواريخ نسخها وكلها مخطوطات، لم تحقق بعد وأفضلها النسخة المحفوظة بمكتبة أحمد الثالث باستانبول، وحررت هذه المخطوطة - كما هو مدون عليها - عام ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م، وتوجد مثلها فى دار الكتب المصرية، وثمة فروق طفيفة بين المخطوطات، ترجع إلى اختلاف المسودات التى نسخت منها.

وقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية عام ١٨٠٠م وإلى الفرنسية عام ١٨٤٢م، وكانت أول طبعة من الكتاب على يد المستشرق الشهير **«دى خويه»**، وأعاد المستشرق **«كرامرز»** نشره فى ليدن سنة ١٩٣٨م، وقامت إحدى مكتبات بيروت عام ١٩٧٩ بتصوير الكتاب ونشره دون تحقيق

يقسم ابن حوقل كتابه إلى قسمين: القسم الأول، يضم المقدمة، وصورة الأرض ثم يستعرض ملامح البلاد التى زارها مبتدئاً بديار العرب

وبحر فارس والمغرب والأندلس وصقلية، فمصر والشام وبحر الشام ثم الجزيرة والعراق.

أما القسم الثانى فيبدأ من فارس وكرمان والسند ثم أرمينية وآذربيجان والران والجبال والديلم وطبرستان وبحر الخزر وسجستان وما وراء النهر وأخيرا الخاتمة.

ويتضح من هذا القسم أنه تقسيم جغرافى لا تاريخى أو زمنى، ولم يتم طبقا لظروف رحلته وتوالى زياراته للبلدان، لكنه قصد أن يكون كتابا جغرافيا قلبا وقالبا.. والقسم الأول خصصه للدول الإسلامية فى النصف الغربى من المملكة الإسلامية، كما تصوره من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى، والقسم الثانى خصصه للنصف الشرقى من المملكة بداية من فارس وحتى خراسان وما وراء النهر.

يقول ابن حوقل فى مقدمته (ص٣):

«وقد عملت كتابى هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها فى الطول والعرض وأقاليم البلاد ومحل الغامر منها والعمران، من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها، ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض، لأن الصورة الهندية التى بالقواذيان وإن كانت، صحيحة، فهى كثيرة التخليط وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلا يحكى موضع ذلك الإقليم، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع وما فى أضعافها من المدن والأصقاع، ومالها من القوانين والارتفاع وما فيها من الأنهار والبحار، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات فى الطرقات وما فيه من المجالب والتجارات.

وكان مما حضنى على تأليفه وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه، أنى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك متطلعا إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق، وتباينهم فى المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك فى الهمم

والرسوم والمعارف والعلوم والخصوص والعموم، وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ فى المسالك كتابا مقنعاً وما رأيت فيها رسما متبعا فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب واستنطاقى فيه وجوها من القول والخطاب، وأعاننى عليه تواصل السفر وانزعاجى عن وطنى مع ما سبق القدر لاستيفاء الرزق والأثر، والشهوة لبلوغ الوطر بجور السلطان وكلب الزمان وتواصل الشدائد على أهل المشرق والعدوان، واستئناس سلاطينه بالجور والطغيان بعد العدل، وكثرة الجوائح والنوائب وتعاقب الكلف والمصائب واختلال النعم وقحط الديم.

فبدأت سفرى هذا من مدينة السلام «بغداد» يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة، وفيه خرج أبو محمد الحسن ابن عبدالله ابن حمدان منهزما عنها إلى ديار ربيعة من أيدى الأتراك، وقد عملوا على القبض عليه بعد أن استتبت له الأمور بها، واتسعت به الأحوال فيها، وشرفت به الأعمال وتناهى فى الصولة ولقب بناصر الدولة «وأنا من حداثة السن وغرته وفى عنفوان الشباب وسكرته، قوى البضاعة ظاهر الاستطاعة.

وقد ذكرت فى آخر كتابى هذا كيف تعاورتنى الأسفار، واقتطعتنى فى البر دون ركوب البحار إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه فى طولها، وقطعت وتر الشمس على ظهرها، ووصفت رجالات أهل البلدان، وأعيان ملوكها من ذوى السلطان وأهل الإمكان، والمقدمين فى كل ناحية وبلد بالإحسان إلى ذكر النادرة بعد النادرة من محاسنهم، والفضيلة بعد الفضيلة من مكارمهم».

ها هو ابن حوقل يحدثنا فى مقدمته عن ظروف الكساد والطغيان واختلال النعم فى بغداد وتواصل الشدائد، حتى لم يجد مندوحة من السفر الذى يمكن أن يحقق به الغرضين: بلوغ الوطر برؤية العالم، والمشى فى الأرض من أجل الرزق «لاستيفاء الرزق والأثر».

وأحسب أن ابن حوقل كان تاجرا حتى فى رحلته، وكان ينقل البضائع معه من بلد إلى بلد، وسوف يلحظ القارئ أنه كان حريصا على استعراض الجوانب الاقتصادية فى كل مدينة، مهتما بها منذ أن تطأها قدمه «ذكر الإقليم من وجوه المال والجبايات والأعشار والخراجات وما فيه من المجالب والتجارات».

ويذكر **د. فيليب حتى** أن ابن حوقل اعتمد على كتاب «**المسالك والممالك**» للإصطخرى، الذى طلب إليه مراجعة خرائط كتابه، يذهب د. فيليب إلى أن **ابن حوقل سقط على الكتاب ونشره باسمه** بعد أن أجرى بعض التعديلات عليه، وأحسب أن الأمر لا يخلو من الاستفادة ونقل بعض الفقرات. **أما أن يكون قد وقع على الكتاب كله فهو الظلم بعينه**، وقد دأب بعض الرحالة أن ينقل البعض عن البعض - كما سلفت الإشارة - إذ لم يكن بالاستطاعة أحياناً السفر والإقامة فى كل مدن، وقرى وبلدان العالم المعروف آنذاك وقد ارتحلوا جميعا وأنفقوا الأعمار فى الأسفار ومعاينة الأمصار وصعود الجبال وعبور الأنهار واجتياز المفاوز ومواجهة الأخطار واحتمال شدائد الحر والبرد، ووعورة الطرقات، وكان منهم من إذا أثقل قلبه الحنين إلى الوطن آب معتمداً على الاطلاع على كتب غيره، وعلى أقوال الناس وحكايات التجار إلى جانب ما حصله من العلم المباشر والمشاهدة بالعيان.

ومهما يكن من أمر، فإن شخصية ابن حوقل بارزة ومتميزة، والفارق بين كتابه وكتاب الإصطخرى كبير، والصورة التى قدمها ابن حوقل للبلاد التى زارها، لا يكاد يدنو منها مصنف الإصطخرى، ولم يوفر الأخير مثل تلك الصورة البانورامية الصادقة، ولم يورد من المعلومات الجغرافية والبشرية ما أورده ابن حوقل، وأغلب الظن أن ما ذكر من تشابه بين بعض الفقرات مرجعه - فيما يذكر **د. حسين مؤنس** فى كتابه «**تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس**» - تأثرهما معاً بكتاب أبى زيد البلخى، الذى لايزال مفقوداً.

وإذا كان ابن حوقل قد أخذ عن الإصطخرى، فلماذا لم يذكره مع من ذكرهم مثل ابن خرداذبة والجيهانى وابن قدامة.

كان ابن حوقل معنيا بشئون المال وانعكس ذلك على أسلوبه فى جمع المادة التى كان للنشاط الاقتصادى فيها حظ وافر، فكان حريصاً على ذكر الحاصلات الزراعية والمنتجات الحرفية، الأمر الذى نرجح أنه لم يلفت نظر الرحالة السابقين عليه. . ها هو يتحدث عن سوق اسمها الكركى تقع فى مدينة برزغة:

«مقداره «أى السوق» فرسخ، ويجتمع فيه الناس كل يوم أحد وينتابونه من كل مكان وأوب، وغلب اسم السوق على اسم اليوم لدوامه وقولهم يوم الكركى، حتى أن كثيراً منهم إذا عد أيام الأسبوع قال الجمعة والسبت والكركى والاثنين يريد بالكركى الأحد».

وتظهر هذه النزعة، عندما يتحدث عن الأندلس فيقول:

«الأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر وطولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة فى الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية فى أكثرهم، ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته، يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم، لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم، ويسار ملكهم وقلة شغله وسقوط تكلفه بشىء يحذره، وحال يخافه إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله، ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها فى كل سنة مائتا ألف دينار.

هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده، والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالى، والرسوم على بيوع الأسواق، ومن أعاجيب الأحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنداد والأبطال»[٣٣].

يتوقف ابن حوقل طويلا عند الخيرات والأسعار ومصادر الدخل ونظام الحكم وطبائع الناس عقلاً وروحاً، ولم يكن كذلك كتاب الإصطخرى، ولا كان أغلب

من سبقوه، وهو إلى ذلك لم يكن معنياً بالجغرافية التى ارتحل من أجلها، ولم يكن غافلاً عن متطلباتها ولكنها لم تكن علم البلدان الذى اكتفى فيه البعض بذكر المسافات وأسماء الكور والأقاليم، ولكنها الجغرافيا الوصفية المتقدمة التى فاقت ما أنجزه معاصروه، يتضح ذلك فى طيات حديثه عن الأندلس وكان بها نحو عام ٣٥٠هـ[٣٤]:

«هى جزيرة ذات ثلاثة أركان مثل شكل المثلث، فقد أحاط البحران المحيط والمتوسط وهو خليج خارج من البحر المحيط قرب سلا من بر البربر، فالركن الأول هو فى هذا الموضع الذى فيه صنم قادس وعنده مخترج البحر المتوسط الذى يمتد إلى الشام وذلك من قبلى الأندلس، والركن الثانى شرقى الأندلس بين مدينة أربونة ومدينة برديل وعرض فم الخليج الخارج من البحر المحيط قدر اثنى عشر ميلاً بحيث يرى أهل الجانبين بعضهم بعضا ويتبينون زروعهم وبيادرهم، وأرض الأندلس تواجه من على البحر أرض المغرب وتونس ويحيط الخليج من بعض مغربها وجنوبها والبحر المحيط من شمالها وشرقها، وهى اليوم بأيدى الإفرنج بإزاء جزيرتى ميورقة ومنورقة المجاورة من البحرين المحيط والمتوسط ومدينة أربونة تقابل المتوسط ومدينة برديل تقابل المحيط.

والركن الثالث هو ما بين الجوف والغرب من حيز جليقية حيث الجبل الموفى على البحر، وفيه الصنم العالى المشبه بصنم قادس، وهو البلد الطالع على برباط، فالضلع الأول منها أوله حيث مخرج البحر المتوسط الشامى من البحر المحيط، وهو أول الزقاق فى موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الأندلس يقابل قصر مصمودة بإزاء سلا فى الغرب الأقصى من البر المتصل بأفريقية وديار مصر، وعرض الزقاق ههنا اثنا عشر ميلاً ثم تمر فى القبلة إلى الجزيرة الخضراء من بر الأندلس المقابلة لمدينة سبتة، وعرض الزقاق ههنا ثمانية عشر ميلاً وطوله فى هذه المسافة التى ما بين جزيرة طريف وقصر مصمودة إلى المسافة التى ما بين الجزيرة الخضراء وسبتة نحو العشرين ميلاً، ومن ههنا يتسع البحر الشامى إلى جهة المشرق ثم يمر من الجزيرة الخضراء إلى مدينة مالقة إلى حصن المنكب إلى مدينة

المرية إلى قرطاجنة الخلفاء، حتى تنتهى إلى جبل قاعون الموفى على مدينة دانية، ثم ينعطف من دانية إلى شرقى الأندلس إلى حصن قليرة إلى بلنسية، ويمتد كذلك شرقاً إلى طركونة إلى برشلونة إلى أربونة إلى البحر الرومى، وهو الشامى وهو المتوسط.

والضلع الثانى مبدؤه كما تقدم من جزيرة طريف آخذاً إلى الغرب فى الحوز المتسع الداخل فى البحر المحيط فيمر من جزيرة طريف إلى الطرف الأغر إلى جزيرة قادس، وههنا أحد أركانها، ثم يمر من قادس إلى بر المائدة حيث يقع نهر إشبيلية فى البحر، ثم إلى جزيرة سلطيش إلى وادى يانه إلى طبيرة ثم إلى شنترة إلى شلب، وهنا عطف إلى أشبونة وشنترين، وترجع إلى طرف العرف مقابل شلب، وقد يقطع البحر من شلب إلى طرف العرف مسيرة خمسين ميلاً، وتكون أشبونة وشنترة وشنترين على اليمين من حوز وطرف العرف، وهو جبل منيف داخل فى البحر نحو أربعين ميلاً وعليه كنيسة الغراب المشهورة، ثم يدور من طرف العرف مع البحر المحيط فيمر على حوز الريحانة وحوز المذرة وسائر تلك البلاد، مائلاً إلى الجوف، وفى هذا الحيز هو الركن الثانى.

والضلع الثالث ينعطف فى هذه الجهات من الجنوب إلى الشرق فيمر على بلاد جليقية وغيرها، حتى ينتهى إلى مدينة برديل على البحر المحيط المقابلة لأربونة على البحر المتوسط، وهنا هو الركن الثالث: وبين أربونة وبرديل الجبل الذى فيه هيكل الزهرة الحاجز بين الأندلس وبين بلاد أفرنجة العظمى، ومسافته من البحر نحو يومين للقاصد، ولولا هذا الجبل لالتقى البحران، ولكانت الأندلس جزيرة منقطعة عن البر فاعرف ذلك، فإن بعض من لا علم له يعتقد أن الأندلس يحيط بها البحر فى جميع أقطارها لكونها تسمى جزيرة، وليس الأمر كذلك وإنما سميت جزيرة بالغلبة كما سميت جزيرة العرب وجزيرة أقور وغير ذلك، وتكون مسيرة دورها أكثر من ثلاثة أشهر ليس فيه ما يتصل بالبر إلا مقدار يومين كما ذكرنا، وفى هذا الجبل المدخل المعروف بالأبواب.

وعن قرطبة عروس الأندلس يقول:

«وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس بجميع المغرب عندى لها شبيه فى كثرة أهل وسعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق، وهى مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ولها بابان مشرعان فى السور نفسه إلى الطريق الآخذ على الوادى من الرصافة، والرصافة مساكن أعالى البلد، متصلة بأسافله من ربضة، مشتبكة أبنيتها محيطة بها مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها، والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها ومسجد جامعها جليل والحبس منه قريب.

وقرطبة هذه بائنة بنفسها، عن مساكن أرباضها ظاهرة، وردت بها فى غير يوم فى قدر ساعة وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك وابتذال لجيد الثياب والكسى وكثرة الحلى، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع، فليس لجيوشهم حلاوة فى العين ولا علم بآيين «بنظم» الفروسية وقوانينها ولا بالشجاعة وطرقها، وأكثر ظفر جيوشهم فى القتال بالكيد، ومما يدل على ذلك أنى لم أر أحدا أجرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه فى الركب، ولايستطيعون ذلك ولا بلغنى عن أحدهم، وكل ذلك لخوفهم من السقوط».

يطالعنا ابن حوقل فيما يكتب بعبارة واضحة ودقيقة، سليمة ورصينة لايحرص على تطريزها بالسجع الذى كان سائداً فى تلك العصور، واستبد بالكتاب، وغلب عليهم حتى لم يملكوا له دفعا، ومن حاول غير ذلك بدا شاذا ومبتدعا، على أنه لم يستطع مقاومة السجع عند تحريره المقدمة، لأنها بطبيعتها عنوان الكتاب وفاتحته وفيها من التجمل والتكلف ما يتجشمه الكثيرون عند استقبال ضيف كبير الشأن رفيع المكانة، وأغلب الظن أن هذا هو شعور الكاتب قديما وحديثا وهو يضع مقدمته إلى القراء ومرحباً بهم، وهو واقف على أعتاب كتابه، آملاً أن يقع لديهم الموقع الذى يتمنى، وأن يتلقوه ببعض ما يليق بمعاناته فى بسط أعضائه ورسم أركانه وأنحائه وقد كانت شغله سنوات.

ونمضى مع ابن حوقل فنقلب معه بعض صفحاته البديعة، ونقف لحظات نطالع ما كتب عن صقلية وندع للقارئ الحكم على قدرات ابن حوقل المتميزة وآرائه السديدة ونظراته العميقة، ونعيد النظر من جديد فى مقولة جائرة تصمه بالسرقة وانتهاب جهد غيره، وكم يحتشد التراث العربى وإلى الآن بمثل هذه المقولات، التى يفتقر كثير منها إلى الصدق، وإذا قيست بميزان التحليل والدرس العلمى الموضوعى لبدت هشاشتها وبان تهافتها.

«جزيرة صقلية على شكل مثلث متساوى الساقين، زاويته الحادة من غربى الجزيرة طولها سبعة أيام فى أربعة أيام، وفى شرقى الأندلس فى لج البحر وتحاذيها من بلاد الغرب بلاد إفريقية وباجة وطبرقة إلى مرسى الخزر، وغربيها فى البحر جزيرة قرشف وجزيرة سردانية من جهة جنوب قرشف، ومن جنوب صقلية جزيرة قوصرة، وعلى ساحل البحر شرقيها من البر الأعظم الذى عليه قسطنطينية مدينة ريو ثم نواحى قلورية، والغالب على صقلية الجبال والحصون، وأكثر أرضها مزرعة، ومدينتها المشهورة بلرم، وهى قصبة صقلية على نحر البحر، والمدينة خمس نواح محدودة غير متباينة ببعد مسافة، وحدود كل واحدة ظاهرة.

وبلرم مدينة كبيرة سورها شاهق منيع مبنى من حجر، وجامعها كان بيعة وفيها هيكل عظيم، وسمعت بعض المنطقيين يقول:

إن أرسطوطاليس معلق فى خشبة فى هيكلها، وكانت النصارى تعظم قبره وتستشفى به لاعتقاد اليونان فيه، فعلقوه توسلاً إلى الله به، وقد رأيت خشبة فى هذا الهيكل معلقة يوشك أن يكون فيها، وفى بلرم والخالصة والحارات المحيطة بها ومن وراء سورها من المساجد نيف وثلاثمائة مسجد، وفى محال كانت تلاصقها وتتصل بها وبوادى عباس مجاورة المكان المعروف بالمعسكر، وهو فى ضمن البلد إلى المنزل المعروف بالبيضاء قرية تشرف على المدينة من نحو فرسخ مائتا مسجد، وقد رأيت فى بعض الشوارع من بلرم على

مقدار رمية سهم عشرة مساجد بعضها تجاه بعض وبينها عرض الطريق فقط، فسألت عن ذلك فقيل لى:

إن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم وقلة عقولهم، يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد على حدة لا يصلى فيه غيره، ومن يختص به، وربما كان أخوان ودارهما متلاصقتان وقد عمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه خاصا به يتفرد به عن أخيه والأب عن ابنه، ومدينة بلرم مستطيلة وسوقها قد أخذ من شرقها إلى غربها، وهو سوق يعرف بالسماط مفروش بالحجارة، وتطيف بالمدينة عيون من شرقها إلى غربها، وماؤها يدير رحى، وشرب بعض أهلها من آبار عذبة وملحة على كثرة المياه العذبة الجارية عندهم والعيون، والذى يحملهم على ذلك قلة مروءتهم وعدم فطنتهم وكثرة أكلهم البصل، فذاك الذى أفسد أدمغتهم وقلل حسهم.

وأهل صقلية أقل الناس عقلاً وأكثرهم حمقاً وأقلهم رغبة فى الفضائل وأحرصهم على اقتناء الرذائل، حدثنى غير إنسان، منهم أن عثمان بن الخزاز ولى قضاءهم وكان ورعاً، فلما جربهم لم يقبل شهادة واحد منهم لا فى قليل ولا فى كثير، وكان يفصل بين الناس بالمصالحات، إلى أن حضرته الوفاة فطلب منه الخليفة بعده فقال:

ليس فى جميع البلد من يوصى إليه، فلما توفى تولى قضاءهم رجل من أهلها يعرف بأبى إبراهيم إسحاق بن الماجلى والغالب على أهل المدينة المعلمون، فكان فى بلرم ثلاثمائة معلم، فسألت عن ذلك فقالوا: إن المعلم لا يكلف الخروج إلى الجهاد عند صدمة العدو، وكنت بها فى سنة ٣٦٢هـ ».

«صورة الأرض (١٢٦)».

«وبين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة أسواق كثيرة كسوق الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والحدادين والصياقلة وأسواق القمح والطرازين والسماكين، وطائفة من القصابين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والخبازين وطائفة العطارين والجزارين والدباغين والنجارين وغيرهم».

وليس من شك أن هذا الرصد التفصيلى الذى لاتزال فيه بقية فى صفحات ابن حوقل، يدل بما لا يدع مجالا للشك على تنوع خبرات ابن حوقل وعنايته بتقديم صورة تختلف كثيراً عما قدمه السابقون عليه من الإحاطة بشئون البلاد الاقتصادية وأنشطة ونصيبهم من التحضر والمدينة وقيمة العلم عندهم ومختلف طبائعهم فى حالتى السلم والحرب».

ويذكر ابن حوقل أنه وضع كتابا مستقلاً عن صقلية جعله عشرة أبواب، فيه دراسة مفصلة ووافية لكافة المعلومات والأحوال فى صقلية، ولكننا لم نعثر له على ذكر فى أى مرجع ويرجح أنه مفقود، يقول المؤلف:

«وقد استوفيت وصف هؤلاء وحكاياتهم ووصف صقلية وأهلها بما هم عليه من هذا الجنس من الفضائل فى كتاب وسمته بمحاسن أهل صقلية ثم ذكرت ما هم عليه من سوء الخلق والمآكل والمطعم المنتن والأعراض القذرة وطول المراء مع أنهم لا يتطهرون ولا يصلون ولا يحجون ولا يزكون، وربما صاموا رمضان واغتسلوا من الجنابة، ومع هذا فالقمح لا يحول عندهم وربما ساس فى البيدر لفساد هوائها، وليس يشبه وسخهم وقذرهم وسخ اليهود ولا ظلمة بيوتهم سواد الأناتين، وأجلهم منزلة تسرح الدجاج على موضعه وتذرق على مخدته وهو لايتأثر».

ويأسف الدكتور **إحسان عباس** لما خلعه ابن حوقل من أوصاف على أهل صقلية، ويرى فيها تحاملاً واضحا لا مبرر له، وفى المقابل يستعرض آراء بعض الذين زاروا صقلية وذكروها أفضل ذكر ونعتوا أهلها بأحسن الخلال والصفات[٣٦].

وأيا ما كانت مبررات ابن حوقل وأسبابه التى اعتمد عليها فى إلحاق الصفات السيئة بصقلية وأهلها، فإننا لا نملك إلا أن نقف مع الدكتور عباس رافضين هذا التحامل الذى يرجع بلا شك لأسباب شخصية، فقد يكون ابن حوقل بمحض المصادفة أو بسبب حدة فى الطبع لقى من أهلها عنتا وسوء استقبال فأحال حلوها مرا، وحسنها قبحا، ولكنها على أية حال ليست الطامة الكبرى ولا نهاية العالم،

وتحفل كتب الرحالة والأدباء بالكثير من مثل ذلك ولا يتعين أن تثير الانزعاج، فكل بلد علا شأنه أو هان، عرضة لأن يقال فيه أحياناً ولأسباب نجهلها ما يعد انتقاصاً منه أو مثلبة فى حقه، وإن كان ابن حوقل قد عمم الحكم وأسرف فى التجنى وبالغ فى التهجم.

وإذا أبحرنا معه من صقلية إلى مصر لوجدنا الصورة مغايرة من النقيض إلى النقيض، الأمر الذى يكشف عن ميل واضح للمبالغة، ها هو يقول عن الإسكندرية:

«مدينة على بحر الروم، رسومها بينة وآثار أهلها ظاهرة تنطق عن ملك وقدرة، وتعرف عن تمكن فى البلاد وسمو ونصرة، وتفصح عن عظمة وعبرة، كبيرة الحجارة، جليلة العمارة، وبها من العمد العظام وأنواع الأحجار والرخام الذى لا تقل «ترفع» القطعة منه إلا بألوف ناس، قد علقت بين السماء والأرض على فوق المائة ذراع، ما يكون الحجر منها فوق أساطين، دائرة الأسطوانة منها ما بين الخمسة عشر ذراعا إلى عشرين ذراعا والحجر فوق عشرة أذرع فى عشرة أذرع، وفى سمك عشرة أذرع بغرائب الألوان وبدائع الأصباغ، فلو سئلت عن أهلها لرأيتها.. مخبرة عن حالها بالعظام ولها طرقات مفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون، وفيها المنارة المشهورة، المبنية بالحجارة المركبة، المصببة بالرصاص وليس بجميع الأرض لمنارتها نظير يدانيها أو يقاربها فى أشكالها، ومبانيها وعجائبها ومعانيها، تشتمل على آية بينة، ويستدل بها على مملكة كانت قاهرة للملك عظيم، والخاصة من أهل الدراية يجمعون على أن مؤسسها اخترعها لرصد الفلك وأدرك ما أدركه من علم الهيئة بها وفيها، وسمكها كان يزيد على ثلاثمائة ذراع، فوقعت منه قبة عظيمة كانت رأس المنارة لطول العهد، لا كما يدعى المحاليون فى حماقات ورقاعات مصنفة، إنها بنيت لامرأة كانت فيها، ويزعم قوم أن بانيها وبانى الهرمين ملك واحد ويرى آخرون غير ذلك».

يبدو من هذا النص أن ابن حوقل لم يكن ممن يلهثون وراء العجائب ويفرحون بحشد الغرائب، وإنما يحقق قدر الإمكان ويتشكك حسب ما تواتيه

ثقافته، على الرغم مما ينسب إليه من المبالغة التى تصدر عادة عن عاطفية مفرطة أو سذاجة أو قلة ثقافة، ومن ذلك قوله «**وبدمشق مسجد ليس فى الإسلام أحسن منه**».

ونترك قليلاً بلاد العرب التى تجد الكثير من الوصف على أيدى غيره من الرحالة، ونطالع ما كتبه عن بلاد السند، حيث زار مدينة الملتان:

«والملتان مدينة عظيمة وتسمى فرج بيت الذهب، وبها الصنم الأعظم للهند الذى تحج إليه من أقاصى بلدانها وسائر أصقاعها وتعظمه، ويتقرب إلى هذا الصنم فى كل سنة بمال عظيم، فينفق على بيت الصنم وعلى سدنته والمعتكفين فيه، وسميت الملتان باسم الصنم، والصنم اسمه الملتان، وكان هذا الصنم فى قصر مبنى فى أعمر موضع بسوق الملتان بين سوق العاجيين وصف الصفارين، وفى وسط هذا القصر قبة والصنم فيها، ومن حوالىَ القبة بيوت يسكنها خدم هذا الصنم ومن اعتكف عليه.

وهذا الصنم صورة على خلقة الإنسان مربع على كرسى من جص وآخر، وقد ألبس الصنم جلداً أحمر فلا يتبين من جسده إلا عيناه، فمنهم من يزعم أن بدنه من خشب ومنهم من يدفع ذلك، غير أنه لا يترك بدنه ينكشف، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من ذهب مرتفع على ذلك الكرسى، وقد مد ذراعيه على ركبتيه، وقد فرق أصابع يديه، كمن يحسب أربعة.

وقد قيل فى هذا الصنم أحاديث غريبة عجيبة، منها أنه إذا نزل المطر لم يمسه من قريب أو بعيد، وإنه معلق بين السماء والأرض، بلا دعائم يرتكز عليها، ومن آيات هذا الصنم، إنه ما قصده مريض إلا شفى منه لساعته، وغيرها من الخوارق التى لا يصدقها عقل».

ونختتم هذه النماذج من كتاب «صورة الأرض» بما كتبه الرحالة عن بلاد ما وراء النهر، آخر ما وطئته أقدام ابن حوقل من البلاد حيث استدار بعد الطواف بها عائداً إلى بلده، وعنها يقول:

«وما وراء النهر إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلة وأنزهها وأكثرها خيرا وأهله يرجعون إلى رغبة فى الخير واستجابة لمن دعاهم إليه، مع قبلة غاية عالية وسلامة ناجية وسماحة بما ملكت أيديهم مع شدة شوكة ومنعة وبأس ونجدة وعدة وآلة وكراع «خيول» وبسالة وسلاح وعلم وصلاح».

فأما الخصب بها فليس من إقليم ذكر فى هذا الكتاب إلا يقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر مرة واحدة، ثم إن أصيبوا ببرد أو بحر أو أمة تأتى على زرعهم وغلاتهم ففى فضل ما يسلم فى عروض بلادهم ما يقوم بأودهم حتى يستغنوا عن شىء ينقل إليهم من غير بلدهم، وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرى تسقى أومباخس أو مراع لسوائمهم، وليس شىء لابد للناس منه إلا وعندهم منه ما يقوم بأودهم ويفضل عنهم لغيرهم، فأما أطعمتهم فى السعة والكثرة فعلى ما ذكرناه، وأما مياههم فإنها أعذب المياه وأبردها، وبها معادن الذهب والفضة والزيبق الذى لا يقاربه فى الغزارة والكثرة معدن ما بسائر بلدان الإسلام. (٤٦٣، ٤٦٤).

«وأما سمحاتهم فإن الناس فى أكثر ما وراء النهر كأنهم فى دار واحدة، ما ينزل أحد بأحد، إلا كأنه رجل دخل فى داره لا يجد المضيف من طارق يطرق كراهية بل يستفرغ جهده فى إقامة أوده من غير معرفة تقدمت ولا توقع لمكافأة بل اعتقاداً للسماحة فى أموالهم، وبحسبك إنك لا ترى صاحب ضيعة يستقل بمؤنته، إلا كانت همته اقتناء قصر فسيح ومنزل للأضياف رحيب، فتراه عامة نهاره متنوقاً فى إعداد ما يصلح لمن يطرقه، وهو متشوق إلى وارد عليه ليكرمه . (٤٦٥).

الفسطاط :

على شمال النيل، وهى مدينة حسنة ينقسم النيل لديها قسمين، فيعدى من الفسطاط إلى عدوة أولى فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة، تعرف بالجزيرة، ويعبر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة، ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم الثانى كالجسر الأول إلى أبنية جليلة، ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة.

والفسطاط:

مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد، ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيب واللذة، ذات رحابة فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام وممالك جسام، إلى ظاهر أنيق وهواء دقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام خضرة، والدار يكون بها طبقات سبعا وست وخمس طبقات، وربما سكن فى الدار المائتان من الناس.

«صورة الأرض ص١٤٦».

وبعد.. فلست أبالغ إذا قلت إن منهج ابن حوقل فى عرض مشاهداته من أفضل ما قرأت من عروض، وأساليب تتفوق على أساليب بعض الرحالة المتأخرين، الذين اتسعت أمامهم الرؤية، وتراكمت لديهم الخبرات ونضجت التجربة على مر القرون.

وباستطاعة القارئ العادى، فضلاً عن المتخصص، أن يدرك شمولية نظرته وبساطة عبارته، ومحاولته تقديم صورة كاملة لأحوال كل بلد أو مدينة زارها من جميع الزوايا، ولن يشعر القارئ البتة أنه بإزاء كتاب فى الجغرافيا وحدها، ولكنه إلى جانب ذلك عنى بالطبائع والعادات، بالأموال والتجارات، بالصناعات والزراعات، بالأسواق والطرقات.. بالمساجد والقصور، بالبحار والأنهار والجبال، بالمطاعم والمشارب، المرافق والخانات.. الضرائب والعملات، المقاييس والعمارات والآثار، الثمار والأسعار، الكرم والبخل. الرياء والنفاق، النجدة والنخوة، وغير ذلك من الخصال، حتى استرعى ذلك انتباه كتاب الغرب وعلمائه، فحاز إعجابهم ونشروا كتابه وترجموه غير مرة.

أبو دُلَف «مِسْعِر بن مهلهل»
(٣٠٥ - ٣٨٥هـ) (٩١٨ - ٩٩٥م)

شاعر وأديب ورحالة خفيف الظل كثير الملح، عرف بمهارته فى الجمع بين الجد والهزل وأشهر أشعاره **القصيدة الساسانية**، وهى قصيدة طويلة نظمها للصاحب **الطالقانى**(٣٧) (٣٤١ - ٣٨٧هـ)، وقد عرض **الثعالبى** نبذاً منها فى يتيمة الدهر(٣٨)، وتتناول أصناف المكدين «الصعاليك والشحاذين» وشرحها شرحاً وافياً كافياً وتقدم كثيراً على كل من الجاحظ والبيهقى، فيما يقول الثعالبى.

وقد تأثر بهذه القصيدة **بديع الزمان الهمذانى** فى أولى مقاماته، التى تناولت حياة الفقراء والشحاذين واللصوص على سبيل التفكه والتسلية.

يقول الثعالبى:

كان أبو دلف شاعراً كثير الملح والطرف، أخلق التسعين فى الأطراف والاغتراب، وركوب الأسفار والصعاب، وضرب صفحة المحراب بالجراب فى خدمة العلوم والآداب، وقد دوخ البلاد، فطاف بالهند والصين، وكان ينتاب حضرة الصاحب بن عباد، ويكثر المقام عنده، ويتزود كتبه فى أسفاره، فتجرى مجرى السفاتج فى قضاء أوطاره وقد قام مسعر برحلات كثيرة لم يدون عنها إلا مشاهداته فى رحلتين.

هو مسعر بن مهلهل الخزرجى الينبعى، ينتسب إلى قبيلة الخزرج بالمدينة، أما الينبعى فتشير إلى أنه أقام جانبا من حياته فى ينبع، الميناء المعروف بالمملكة العربية السعودية والمشرف على البحر الأحمر. ولم يرد فى كتب السيرة ما يفسر لنا سر

تسميته أبو دلف، وأغلب الظن أنها تسمية خلعها عليه ندماؤه وعارفوه، ونرجح أنها كانت اسماً لأحد الشطار أو الصعاليك المتجولين.

اختلفت الروايات حول تاريخ مولده، ولما كان من المعلوم سفره إلى الصين عام ٣٣١هـ فقد رجحنا أن يكون مولده نحو عام ٣٠٥هـ (٩١٨م)، وقد توفى عام ٣٨٥هـ، (٩٩٥م) وكان محباً للحرية والانطلاق، ولا يطيق الثبات والاستقرار مهما كانت مكاسبه.

عاش أبو دلف فى بلاط نصر الثانى بن أحمد **السامانى** (٣٠١ - ٣٣١هـ) (٩١٣ - ٩٤٢)، وفى آخر عام وقبل رحيل الأمير، وفدت إلى البلاد سفارة من الصين أوفدها ملكها يطلبون مصاهرة نصر، راغبين فى خطبة ابنته، لكنه أبى واستنكر، لحظر الشريعة، فطلبوا إليه أن يزوج ولده من ابنة الملك فوافق واستأذن أبو دلف - الذى كان مشوقاً للأسفار - فى مرافقة البعثة الصينية فى رحلة عودتها فوافق، وكانت هذه هى رحلته الأولى التى بدأت من بخارى عام ٣٣١هـ إلى الهند والصين.

ومما يورث الأسف أن تفاصيل هذه الرحلة لم تصل إلينا كاملة، ولعلها فقدت شأنها فى ذلك شأن كثير من ثروات التراث العربى، ولعل من أفضل خدمات ياقوت الحموى للثقافة العربية هو استنقاذه لبعض هذا التراث، ومنه شذرات من كتابات أبى دلف عن رحلته إلى الصين.

كما أورد **ابن النديم** بعضها فى «**الفهرست**»، وكذلك تضمنت النسخة الثانية من «**عجائب المخلوقات**» **للقزوينى** بعض الفقرات (٣٤٦هـ، ٣٥٠).

وقد قام مسعر برحلته الثانية إلى مدينة «الشيز» التى تقع بين زنجان وشهرزور والدينور ثم طاف بفارس جميعها، وآذربيجان وبلاد ما وراء النهر وأرمينيا، وبعد عودته كتب رسالته الثانية وأهداها إلى الأمير السامانى تقديراً لفضله وبالغ كرمه، وقد قام بهذه الرحلة بعد عشر سنوات على الأقل من عودته من الصين، لأنه

يحكى فى حديثه عن مدينة شهرزور عن أحداث، جرت بها عام ٣٤١ هـ ولم يكن طبعاً هناك، ولكنه عند حديثه عن قلعة الديلم يذكر أن أحداثاً جرت فيها نحو عام ٣٧٩، أى إنه كان هناك بعدها، فهل رحل إلى الديلم فى سفرة أخرى، أم أن الرسالة الثانية لم تكتب إلا نحو عام ٣٨٠هـ، وربما يكون الأمر كذلك والله أعلم، والأمر متروك للباحثين، أعانهم الله.

ومن طريف ما يحكيه الثعالبى فى كتابه «**لطائف المعارف**» عن أبى دلف وعلاقته بالملك نصر بن أحمد، قوله:

«جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس بعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة ومحاضرة ومذاكرة، فقال أبو على لأبى دلف:

«صب الله عليك طواعين الشام، وحمَّى خيبر، وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة، وسناقر دهستان «السنقر والسنقور: طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه، وهستان: بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان» وضربك بالعراق المدنى «مرض يصيب الإنسان وينسب إلى المدينة لانتشاره بها» والنار الفارسية والقروح البلخية.

فقال له أبودلف: يا مسكين.. أتقرأ «تبت» على أبى لهب وتنقر التمر إلى هجر، بل صب الله عليك ثعابين مصر، وأفاعى سجستان، وصب علىَّ برود اليمن، وقصب مصر، ودبابيج الروم، وخزوز السوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلل أصبهان، وعمائم الأبلة، وسقلاطون بغداد «ثياب من الحرير موشاة بالذهب» وسنجاب خرخير «موضع ينسب إليه جنس الترك» وسمور البلغار وثعالب الخزر وفتك كاشغر «ثعلب الصحراء ويعرف بكبر صيوان أذنيه» وفاقم التغزغز «حيوان فروه من أفخم أنواع الفراء» وحواصل هرارة «جلود تلبس للتدفئة» وتكك أرمينية «تكك: جمع تكة أو دكة وهى رباط السروال» وجوارب قزوين.

وأفرشنى: بسط أرمينية وزلالى قالقيلا ومطارح «بسط» سيسان، وحصر بغداد، وأخدمنى خصيان الروم وغلمان الترك وسراى بخارى ووصائف سمرقند.

وحملني على: عتاق البادية، ونجائب الحجاز، وبرازين طخارستان وعمير مصر وبغال برذعة.

ورزقني: تفاح الشام ورطب العراق وموز اليمن، وجوز الهند وباقلاء الكوفة، وسكر الأهواز، وعسل أصبهان وتمر كرمان، ودبس أرجان، وتين حلوان، وعنب بغداد، وعنّاب جرجان، وأجاص بست ورمان الرى، وكمثرى نهاوند، وسفرجل نيسابور، ومشمش طوس، وملبن مرو «الملبن هو عصير العنب المجفف المحشو باللوز أو الجوز أو الفستق» وبطيخ خوارزم.

وأشمّنى: مسك تُبّت وعود الهند، وعنبر الشحر، وكافور قنصور «بلد على حدود الصين» وأترج طبرستان ونارنج البصرة، ونرجس جرجان ونيلوفر السيروان، وورد جور، ومنثور بغداد، وزعفران قم.

فقال عضد الدولة فى تعجب ظاهر:

«لله درك يا أبا دلف. . ليس مثلك ينادم الملوك»، وأمر له بخلعة وصلة حسنة

وتدل هذه الرواية على كثرة طواف أبى دلف فى العالم الإسلامى، ووقوفه على خصائص كل قطر من أقطاره، وعلى حضور بديهته، وتمكنه من اللغة والأدب، وحظه الوافر من خفة الظل ودقة الملاحظة، وعمق تجربته، وما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة.

حظيت كتابات أبى دلف باهتمام الباحثين خاصة المستشرقين منهم، وعنى بها **فستنفلد**، الذى انصرف لدراستها عام ١٨٤٢ وتلاه **شلوزر** ١٨٤٤، وقام الأخير بطبعها وترجمتها إلى الألمانية، وقام على دراسته بشكل موسع وجاد المستشرق الروسى الكبير **جريجوريف** (١٨٧٢) وتبعه **روزن**، وكان لايزال حديث السن، وقد تشكك البعض فى الرحلة ورفضوا التسليم بأنها حقيقية بسبب بعض الخلط والتعقيد، وكان - للأسف كما جرت العادة - يكتبها من الذاكرة لا من المذكرات المدونة يوماً بيوم، ولعل هذه العادة كانت سبباً مباشراً فى تشكك الباحثين، لأن الذاكرة مهما كانت قوية فليس من شك أنها سوف تخطئ فى معلومات كثيرة

كأطوال المسافات وأسماء المدن والقرى أو الموانى والمحاصيل وحتى أسماء الملوك وتفاصيل القصص والمواقف، التى عاشها وعاينها الرحالة.

على أن الوقت لم يطل على أبى دلف وهو قيد التشكيك، والإنكار فقد ظهر من ينصفه، مثل **مينورسكى** الأستاذ بجامعة لندن، وكذلك المستشرق الروسى **كراتشكوفسكى**، الذى يقول: إن جميع الدلائل تحمل على رجحان حدوث الرحلة، ولم تترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل **فيران** (١٩١٣)، أما **روسكا** الخبير فى تاريخ العلوم الدقيقة عند العرب، فإنه يلفت النظر إلى أن تسلق أبى دلف لجبل دمانود «دنباوند»، التى حفظها لنا القزوينى تمثل شيئاً طريفاً للغاية وأن اهتمامه بظواهر الطبيعة يضطرنا إلى الوقوف موقف الاطمئنان من رواياته، والبعد بها عن مواطن الريب الواهية[٣٩].

أما نحن فنرى احتمال تسرب الشك إلى نفوس العلماء من وقوعهم على عبارات **ياقوت الحموى** التى أوردها أكثر من مرة فى أعقاب ذكره لبعض شذرات من رحلات أبى دلف والتى وردت فى معجم البلدان، مثل قوله «قال عبيدالله الفقير مؤلف هذا الكتاب «ياقوت عن نفسه»: هذا كله عن أبى دلف مسعر ابن المهلهل الشاعر، وأنا برىء من عهدة صحته، فإنه كان يحكى عنه الشريد والكذب، وإنما نقلته على ما وجدته، والله أعلم[٤٠]» أى إن ياقوت يرى أن أبا دلف يذكر ما لم يمحصه، وينقل كل ما يصل إليه دون تأمل ونقد».

أياً ما كان الأمر، فقد كان لأبى دلف الأديب الشاعر أسفاره المشهورة التى عرف بها لدى المؤرخين، وأثبتت الدراسات صحتها أو على الأقل صحة معظمها، وكانت له رحلات متميزة ومبكرة نسبياً، ويكفيه أنه كان سفاراً رحالة، يجمع المشاهدات بالتجربة المباشرة، ويتعرف الأمصار بالتجوال ولم يكتف كغيره بالاطلاع على الكتب وجمع المادة من أفواه الملاحين والتجار، ولعل فى النماذج التى سنطالعها فى الصفحات التالية ما يشير إلى قيمة ما قدم هذا الرحالة لخدمة أدب الرحلات بفضل كتاباته الشائقة وروحه المرحة ونفسه الأبية.

وسوف نلحظ غرامه بالبشر والعمران لا بالمسافات والأبعاد، وحرصه على القصص والحكايات والأحداث التى عاشها وعاينها، فهو من هذا الجانب رحالة، وليس جغرافيا بالمعنى الدقيق للكلمة، وهذا ما أحسبه يعنينا كثيراً فى هذه الدراسة.

ولا نجد غضاضة فى مطالعة بعض الأبيات فى قصيدة له، يتحدث فيها عن أسفاره، يقول أبودلف[٤١]:

ومن كـان مـن الأحـرار	يسلو ســلوة الحـــر
ولاسيمـا فـي الغربـة	أودى أكـــثر العمـــر
وشــاهدت أعاجيـــب	وألوانــا مـــن الدهـــر
على أنى من القوم البـ	هاليـل بنـى الغـــر
فنحن الـناس، كـل النـ	اس فـى الـبر والبحـر
أخذنـا جزيـة الخلـــق	من الصين إلى مصـر
إلى طنجة بـــل فـى كـ	ـل أرض خيلنا تســري
كنا الدنــيا بمــا فيهــا	من الإسـلام والكفـــر
فنصطاف عــلى الثلــج	ونشتــو بــلد التمــر

١- من رحلة أبي دلف إلى الصين

يقول أبو دلف عن رحلته البرية إلى الصين، وقلما نجد وصفًا للطريق البرى إلى الصين يضارع ما كتب أبو دلف:

«إنى لما رأيتكما يا سيدى»، أطال الله بقاءكما، لهجين بالتصنيف مولعين بالتأليف، أحببت أن لا أخلى دستوركما وقانون حكمتكما من فائدة وقعت إلىَّ مشاهدتها، وأعجوبة رمت بى الأيام إليها ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ويصبو إلى استيفاء قراءته القلب، وبدأت بعد حمد الله والثناء على أنبيائه بذكر المسالك المشرقية واختلاف السياسة فيها وتباين ملكها، وافتراق أحوالها وبيوت عبادتها

وكبرياء ملوكها وحكوم قوامها ومراتب أولى الأمر والنهى لديها؛ لأن معرفة ذلك زيادة فى البصيرة واجبة فى السيرة قد حض الله تعالى عليها أولى التيقظ والاعتبار وكلفه أهل العقول والأبصار فقال، جل اسمه: أفلم يسيروا فى الأرض؛ فرأيت معاونتكما لما وشج بيننا من الإخاء وتؤكد من المودة والصفاء..

ولما نبا بى وطنى ووصل بى السير إلى خراسان ضارباً فى الأرض أبصرت ملكها والموسوم بإمارتها نصر بن أحمد السامانى، عظيم الشأن كبير السلطان يستصغر فى جنبه أهل الطول وتخف عنده موازين ذوى القدرة والحول، ووجدت عنده رسل قالين بن الشخير ملك الصين راغبين فى مصاهرته طامعين فى مخالطته يخطبون إليه ابنته فأبى ذلك واستنكره لحظر الشريعة له، فلما أبى ذلك راضوه على أن يزوج بعض ولده ابنة ملك الصين، فأجاب إلى ذلك فاغتنمت قصد الصين معهم فسلكنا بلد الأتراك فأول قبيلة وصلنا إليها بعد أن جاوزنا خراسان وما وراء النهر من مدن الإسلام قبيلة فى بلد يعرف بالخركاة فقطعناها فى شهر نتغذى بالبر والشعير، ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالطخطاخ تغذينا فيها بالشعير والدخن وأصناف من اللحوم والبقول الصحراوية، فسرنا فيها عشرين يوماً فى أمن ودعة، يسمع أهلها لملك الصين ويطيعونه ويؤدون الإتاوة إلى الخركاة لقربهم إلي الإسلام ودخولهم فيه وهم يتفقون معهم فى أكثر الأوقات على غزو من بعد عنهم من المشركين.

ثم وصلنا إلى قبيلة تعرف بالبجا فتغذينا فيهم بالدخن والحمص والعدس وسرنا بينهم شهراً في أمن ودعة، وهم مشركون، ويؤدون الإتاوة إلى الطخطاخ ويسجدون لملكهم ويعظمون البقر ولا تكون عندهم ولايملكونها تعظيماً لها، وهو بلد كثير التين والعنب والزعرور الأسود وفيه ضرب من الشجر لاتأكله النار، ولهم أصنام من ذلك الخشب، ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبجناك طوال اللحى أولو أسبلة همج يغير بعضهم على بعض ويفترش الواحد المرأة على ظهر الطريق، يأكلون الدخن فقط، فسرنا فيهم اثنى عشر يوماً وأخبرنا أن بلدهم عظيم

مما يلى الشمال وبلد الصقالبة ولا يؤدون الخراج إلى أحد، ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالجكل يأكلون الشعير والجلبان ولحوم الغنم فقط ولا يذبحون الإبل ولا يقتنون البقر ولا تكون فى بلدهم، ولباسهم الصوف والفراء لايلبسون غيرهما، وفيهم نصارى قليل، وهم صباح الوجوه يتزوج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه، وليسوا مجوساً ولكن هذا مذهبهم فى النكاح، يعبدون سهيلاً وزحل والجوزاء وبنات نعش والجدى ويسمعون الشعرى اليمانية رب الأرباب، وفيهم دعة ولا يرون الشر، وجميع من حولهم من قبائل الترك يتخطفهم ويطمع فيهم.

وعندهم نبات يعرف بالكلكان طيب الطعام يطبخ مع اللحم، وعندهم معادن البازهر وحياة الحبق، وهى بقر هناك، ويعملون من الدم والذاذى البرى نبيذاً يسكر سكراً شديداً، وبيوتهم من الخشب والعظام، ولاملك لهم، فقطعنا بلدهم فى أربعين يوماً فى أمن وخفض ودعة، ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبغراج لهم أسبلة بغير لحى يعملون بالسلاح عملا حسناً فرساناً ورجالة، ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوى وأنه من ولد يحيى بن زيد وعنده مصحف مذهب على ظهره أبيات شعر رثى بها زيد، وهم يعبدون ذلك المصحف، وزيد عندهم ملك العرب وعلى ابن أبى طالب، رضى الله عنه، عندهم إله العرب لا يملكون عليهم أحداً إلا من ولد ذلك العلوى، وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم وشخصوا أبصارهم إليها، يقولون:

إن إله العرب ينزل منها ويصعد إليها، ومعجزة هؤلاء الذين يملكونهم عليهم من ولد زيد أنهم ذوو لحىّ وأنهم قيام الأنوف عيونهم واسعة وغذاؤهم الدخن ولحوم الذكران من الضأن، وليس فى بلدهم بقر ولا معز، ولباسهم اللبود لايلبسون غيرها، فسرنا بينهم شهراً على خوف ووجل، أدينا إليهم العشر من كل شىء كان معنا، ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بتبت فسرنا فيهم أربعين يوماً فى أمن وسعة، يتغذون بالبر والشعير، والباقلى وسائر اللحوم والسموك والبقول والأعناب والفواكه ويلبسون جميع اللباس، ولهم مدينة من القصب كبيرة فيها بيت عبادة من جلود البقر المدهونة، فيه أصنام من قرون غزلان المسك، وبها قوم

من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والهند ويؤدون الإتاوة إلى العلوى البغراجى ولايملكهم أحد إلا بالقرعة، ولم محبس جرائم وجنايات، وصلاتهم إلى قبلتنا.

ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالكيماك، بيوتهم من جلود يأكلون الحمص والباقلى ولحوم ذكران الضأن والمعز ولا يرون ذبح الإناث منها، وعندهم عنب نصف الحبة أبيض ونصفها أسود، وعندهم حجارة هى مغناطيس المطر يستمطرون بها متى شاؤوا، ولهم معادن ذهب فى سهل من الأرض يجدونه قطعاً، وعندهم ماس يكشف عنه السيل ونبات حلو الطعم ينوم ويخدر، ولهم قلم يكتبون به، وليس لهم ملك ولا بيت عبادة، ومن تجاوز منهم ثمانين سنة عبدوه إلا أن يكون به عاهة أو عيب ظاهر، فكان مسيرنا فيهم خمسة وثلاثين يوماً ثم انتهينا إلي قبيلة يقال لهم الغز، لهم مدينة من الحجارة والخشب والقصب ولهم بيت عبادة وليس فيه أصنام، ولهم ملك عظيم الشأن يستأدى منهم الخراج، ولهم تجارات إلى الهند وإلى الصين ويأكلون البر فقط وليس لهم بقول، ويأكلون لحوم الضأن والمعز الذكران والإناث ويلبسون الكتان والفراء ولا يلبسون الصوف، وعندهم حجارة بيض تنفع من القولنج وحجارة خضر إذا مرت على السيف لم يقطع شيئا، وكان مسيرنا بينهم شهراً فى أمن وسلامة ودعة.

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم التغزغز، يأكلون المذكى وغير المذكى ويلبسون القطن واللبود، وليس لهم بيت عبادة، وهم يعظمون الخيل ويحسنون القيام عليها، وعندهم حجارة تقطع الدم إذا علقت على صاحب الرعاف أو النزف، ولهم عند ظهور قوس قزح عيد، وصلاتهم إلى مغرب الشمس، وأعلامهم سود، فسرنا فيهم عشرين يوماً فى خوف شديد ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم الخرخيز، يأكلون الدخن والأرز ولحوم البقر والضأن والمعز وسائر اللحوم إلا الجمال، ولهم بيت عبادة وقلم يكتبون به، ولهم رأى ونظر، ولايطفئون سرجهم حتى تطفأ موادها.

ولهم كلام موزون يتكلمون به فى أوقات صلاتهم، وعندهم مسك، ولهم أعياد فى السنة، وأعلامهم خضر، يصلون إلى الجنوب ويعظمون زحل والزهرة ويتطيرون من المريخ، والسباع فى بلدهم كثيرة، ولهم حجارة تسرج بالليل يستغنون بها عن المصباح ولا تعمل فى غير بلادهم، ولهم ملك مطاع لايجلس بين يديه أحد منهم إلا إذا جاوز أربعين سنة، فسرنا فيهم شهراً فى أمن ودعة ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الخرلخ، يأكلون الحمص والعدس ويعملون الشراب من الدخن ولا يأكلون اللحم، إلا مغموساً بالملح، ويلبسون الصوف.

ولهم بيت عبادة فى حيطانه سورة متقدمى ملوكهم، والبيت من خشب لاتأكله النار، وهذا الخشب كثير فى بلادهم، والبغى والجور بينهم ظاهر ويغير بعضهم على بعض، والزنا بينهم كثير غير محظور وهم أصحاب قمار يقامر أحدهم غيره بزوجته وابنه وابنته وأمه فمادام فى مجلس القمار فللمقمور أن يفادى ويفك، فإذا انصرف القامر فقد حصل له ما قمر به يبيعه من التجار كما يريد، والجمال والفساد فى نسائهم ظاهر، وهم قليلو الغيرة فتجئ ابنة الرئيس فمن دونه أو امرأته أو أخته إلى القوافل إذا وافت البلد فتعرض للوجوه، فإن أعجبها إنسان أخذته إلى منزلها وأنزلته عندها وأحسنت إليه وتصرف زوجها وأخاها وولدها فى حوائجه ولم يقربها زوجها مادم من تريده عندها إلا لحاجة يقضيها، ثم تتصرف هى ومن تختاره فى أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها لايغيره ولا ينكره، ولهم عيد يلبسون الديباج ومن لايمكنه رفع ثوبه برقعة منه.

ولهم معدن فضة تستخرج بالزيبق، وعندهم شجر يقوم مقام الإهليلج قائم الساق وإذا طلى عصارته على الأورام الحارة أبرأها لوقتها، ولهم حجر عظيم يعظمونه ويحتكمون عنده ويذبحون له الذبائح، والحجر أخضر سلقى، فسرنا بينهم خمسة وعشرين يوماً فى أمن ودعة، ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم الخطلخ، فسرنا بين أهلها عشرة أيام، وهم يأكلون البر وحده ويأكلون سائر اللحوم غير مذكاة.

ولم أر فى جميع قبائل الترك أشد شوكة منهم، يتخطفون من حولهم ويتزوجون الأخوات ولا تتزوج المرأة أكثر من زوج واحد، فإذا مات لم تتزوج بعده، ولهم رأى وتدبير، ومن زنى فى بلدهم أحرق هو والتي يزنى بها، وليس لهم طلاق، والمهر جميع ما ملك الرجل، وخدمة الولى سنة، وللقتل بينهم قصاص وللجراح غرمٌ، فإن تلف المجروح بعد أن يأخذ الغرم بطل دمه، وملكهم ينكر الشر ولايتزوج فإن تزوج قتل، ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الختيان، يأكلون الشعير والجلبان ولا يأكلون اللحم، إلا مذكى، ويزوجون تزويجاً صحيحاً وأحكامهم أحكام عقلية تقوم بها السياسة، وليس لهم ملك، وكل عشرة يرجعون إلى شيخ له عقل ورأى فيتحاكمون إليه، وليس لهم جور على من يجتاز بهم، ولا اغتيال.

ولهم بيت عبادة يعتكفون فيه الشهر والأقل والأكثر، ولايلبسون شيئاً مصبوغاً، وعندهم مسك جيد مادام فى بلدهم فإذا حُمل منه تغير واستحال، ولهم بقول كثيرة فى أكثرها منافع، وعندهم حيات تقتل من ينظر إليها إلا أنها فى جبل لاتخرج عنه بوجه ولا سبب، ولهم حجارة تسكن الحُمى ولا تعمل فى غير بلدهم، وعندهم بازهر جيد شمعى فيه عروق خضر، وكان مسيرنا فيهم عشرين يوماً، ثم انتهينا إلى بلد بهى فيه نخل كثير وبقول كثيرة وأعناب ولهم مدينة وقرى وملك له سياسة يلقب بهى.

وفى مدينتهم قوم مسلمون ويهود ونصارى ومجوس وعبدة أصنام، ولهم أعياد، وعندهم حجارة خضر تنفع من الرمد وحجارة حمر تنفع من الطحال، وعندهم الميل الجيد القانئ المرتفع الطافى، الذى إذا سرح فى الماء لم يرسب، فسرنا فيهم أربعين يوماً فى أمن وخوف، ثم انتهينا إلى موضع يقال له القُليب فيه بوادى عرب ممن تخلف عن تُبع لما غزا بلاد الصين، لهم مصايف ومشات فى مياه ورمال، يتكلمون بالعربية القديمة لايعرفون غيرها، ويكتبون بالحميرية ولايعرفون قلمنا، يعبدون الأصنام.

وملكهم من أهل بيت منهم لايخرجون الملك عن أهل ذلك البيت، ولهم أحكام، وحظر الزنا والفسق، ولهم شراب جيد من التمر، وملكهم يهادى ملك الصين، فسرنا فيهم شهراً فى خوف وتغرير، ثم انتهينا إلى مقام الباب، وهو بلد فى الرمل تكون فيه حجبة الملك، وهو ملك الصين، ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم، فسرنا فيه ثلاثة أيام فى ضيافة الملك يغير لنا عند رأس كل فرسخ مركوب، ثم انتهينا إلى وادى المقام فاستؤذن لنا منه وتقدمنا الرسل، فأذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادى، وهو أنزه بلاد الله وأحسنها، ثلاثة أيام في ضيافة الملك؛ ثم عبرنا الوادى وسرنا يوماً تاماً فأشرفنا على مدينة سندابل، وهى قصبة الصين وبها دار المملكة، فبتنا على مرحلة منها، ثم سرنا من الغد طول نهارنا حتى مسيرة يوم، ولها ستون شارعاً ينفذ كل شارع منها إلى دار الملك، ثم سرنا إلى باب من أبوابها، فوجدنا ارتفاع سورها تسعين ذراعاً وعرضه تسعين ذراعًا، وعلى رأس السور نهر عظيم، يتفرق على ستين جزءا كل جزء منها ينزل على باب من الأبواب، تتلقاه رحى تصبه إلى ما دونها ثم إلى غيرها حتى يصب فى الأرض، ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقى البساتين ويرجع نصفه إلى المدينة يسقى أهل ذلك الشارع إلى دار الملك ثم يخرج فى الشارع الآخر إلى خارج البلد فكل شارع فيه نهران وكل خلاء فيه مجريان كل واحد يخالف صاحبه، فالداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم.

ولهم بيت عبادة عظيم، ولهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة، وبيت عبادتهم يقول إنه أعظم من مسجد بيت المقدس وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبدُ عظيم، وأهل البلد لا يذبحون ولايأكلون اللحوم أصلاً، ومن قتل منهم شيئاً من الحيوان قتل، وهى دار مملكة الهند والترك معاً، ودخلت على ملكهم فوجدته فائقاً فى فنه كاملاً فى رأيه فخاطبه الرسل بما جاؤوا به من تزويجه ابنته من نوح بن نصر، فأجابهم إلى ذلك وأحسن إلىّ وإلى الرسل، وأقمنا فى ضيافته حتى نجزت أمور المرأة وتم ما جهزها به ثم سلمها إلى مائتى خادم وثلاثمائة جارية من خواص خدمه وجواريه وحُملت إلى خراسان إلى نوح بن نصر فتزوج بها، وبلغنا أن

نصراً عمل قبره قبل وفاته بعشرين سنة، وذلك أن حُد له فى مولده مبلغ عمره ومدة انقضاء أجله، وأن موته يكون بالسل، وعرف اليوم الذى يموت فيه، فخرج يوم موته إلى خارج بخارى وقد أعلم الناس أنه ميت فى يومه ذلك، وأمرهم أن يتجهزوا له بجهاز التعزية والمصيبة ليتصورهم بعد موته بالحال التى يراهم بها، فسار بين يديه ألوف من الغلمان الأتراك المرد، وقد ظاهروا اللباس بالسواد وشقوا عن صدورهم وجعلوا التراب على رؤوسهم ثم تبعهم نحو ألفى جارية من أصناف الرقيق مختلفى الأجناس واللغات على تلك الهيئة، ثم جاء على آثارهم عامة الجيش والأولياء يجنبون دوابهم ويقودون قودهم، وقد خالفوا فى نصب سروجها عليها وسودوا نواصيها وجباهها حاثين التراب على رؤوسهم، واتصلت بهم الرعية والتجار فى غم وحزن وبكاء شديد وضجيج يتقدمهم أولادهم ونساؤهم، ثم اتصلت بهم الشاكرية والمكارون والحمالون على فرق منهم قد غيروا زيهم، وشهر نفسه بضرب من اللباس، ثم جاء أولاده يمشون بين يديه حفاة حاسرين والتراب على رؤوسهم وبين أيديهم وجوه كتابه وجلّة خدمه ورؤساؤه وقواده، ثم أقبل القضاة والمعدلون والعلماء يسايرونه فى غم وكآبة وحزن، وأحضر سجلاً كبيراً ملفوفاً فأمر القضاة والفقهاء والكتاب بختمه، فأمر نوحاً ابنه أن يعمل بما فيه، واستدعى شيئاً من حساً فى زبدية من الصينى الأصفر، فتناول منه شيئاً يسيراً ثم تغرغرت عيناه بالدموع وحمد الله تعالى وتشهد، وقال:

هذا آخر زاد نصر من دنياكم، وسار إلى قبره ودخله وقرأ عشراً فيه واستقر به مجلسه ومات، رحمه الله، وتولى الأمر نوح ابنه.

وأقمت بسندابل مدينة الصين مدة ألقى ملكها فى الأحايين فيفاوضنى فى أشياء ويسألنى عن أمور من أمور بلاد الإسلام، ثم استأذنته فى الانصراف فأذن لى بعد أن أحسن إلىّ ولم يبق غاية فى أمرى، فخرجت إلى الساحل أريد كله، وهى أول الهند وآخر منتهى مسير المراكب لا يتهيأ لها أن تتجاوزها وإلا غرقت، فلما وصلت إلى كله رأيتها، وهى عظيمة عالية السور كثيرة البساتين غزيرة الماء

ووجدت بها معدناً للرصاص القلعى، لايكون إلا فى قلعتها فى سائر الدنيا، وفى هذه القلعة تضرب السيوف القلعية وهى الهندية العتيقة، وأهل هذه القلعة يمتنعون على ملكهم إذا أرادوا ويطيعونه إن أحبوا، ورسمهم رسم الصين فى ترك الذباحة، وليس فى جميع الدنيا معدن للرصاص القلعى إلا فى هذه القلعة، وبينها وبين مدينة الصين ثلاثمائة فرسخ، وحولها مدن ورساتيق وقرى، ولهم أحكام حبوس جنايات، وأكلهم البُرّ والتمور وبقولهم كلها تباع وزناً وأرغفة خبزهم تباع عدداً.

وليس عندهم حمامات بل عندهم عين جارية يغتسلون بها، ودرهمهم يزن ثلثى درهم ويعرف بالقاهرى، ولهم فلوس يتعاملون بها، ويلبسون كأهل الصين الإفرند الصينى المثمن، وملكهم دون ملك الصين ويخطب لملك الصين، وقبلته إليه، وبيت عبادته له، وخرجت منها إلى بلد الفلفل فشاهدت نباته، وهو شجر عادى لايزول الماء من تحته، فإذا هبت الريح تساقط حمله فمن ذلك تشنجه وإنما يجتمع من فوق الماء، وعليه ضريبة للملك، وهو شجر حر لا مالك له وحمله أبداً فيه ولايزول شتاءً ولا صيفاً، وهو عناقيد فإذا حميت الشمس عليه انطبق على العنقود عدة من ورقه لئلا يحترق بالشمس، فإذا زالت الشمس زالت تلك الأوراق، وانتهيت منه إلى لحف الكافور، وهو جبل عظيم فيه مدن تشرف على البحر منها قامرون التى ينسب إليها العود الرطب المعروف بالمندل القامرونى.

ومنها مدينة يقال لها قماريان، وإليها ينسب العود القمارى، وفيه مدينة يقال لها الصنف، ينسب إليها العودالصنفى، وفى اللحف الآخر من ذلك الجبل مما يلى الشمال مدينة يقال لها الصيمور، لأهلها حظ من الجمال، وذلك لأن أهلها متولدون من الترك والصين فجمالهم لذلك، وإليها تخرج تجارات الترك، وإليها ينسب العود الصيمورى، وليس هو منها، إنما هو يحمل إليها.

ولهم بيت عبادة على رأس عقبة عظيمة وله سدنة وفيه أصنام من الفيروزج والبيجاذق، ولهم ملوك صغار، ولباسهم لباس أهل الصين، ولهم بيع وكنائس

ومساجد وبيوت نار، لايذبحون ولا يأكلون ما مات حتف أنفه، وخرجت إلى مدينة يقال لها جاجلى على رأس جبل مشرف نصفها على البحر ونصفها على البر ولها ملك مثل ملك كله يأكلون البر والبيض ولا يأكلون السمك ولايذبحون، ولهم بيت عبادة كبير معظّم، لم يمتنع على الإسكندر فى بلدان الهند غيرها، وإليها يحمل الدار صينى ومنها يحمل إلى سائر الآفاق، وشجر الدار صينى حر لا مالك له، ولباسهم كله إلا أنهم يتزينون فى أعيادهم بالحبر اليمانية، ويعظمون من النجوم قلب الأسد.

ولهم بيت رصد وحساب محكم ومعرفة بالنجوم كاملة، وتعمل الأوهام فى طباعهم، ومنها خرجت إلى مدينة يقال لها قشمير، وهى كبيرة عظيمة لها سور وخندق محكمان تكون مثل نصف سندابل مدينة الصين، وملكها أكبر من ملك مدينة كله وأتم طاعة، ولهم أعياد فى رؤوس الأهلة وفى نزول النيرين شرفهما، ولهم رصد كبير فى بيت معمول من الحديد الصينى لا يعمل فيه الزمان، ويعظمون الثريا، وأكلهم البر ويأكلون المليح من السمك ولايأكلون البيض ولايذبحون.

وسرت منها إلى كابل فسرت شهراً حتى وصلت إلى قصبتها المعروفة بطابان، وهى مدينة فى جوف جبل قد استدار عليها كالحلقة دوره ثلاثون فرسخاً لايقدر أحد على دخوله إلا بجواز لأن له مضيقاً قد غلق عليه باب ووكل به قوم يحفظونه فما يدخله أحد إلا بإذن، والأهليلج بها كثير جداً، وجميع مياه الرساتيق والقرى التى داخل المدينة تخرج من المدينة، وهم يخالفون ملة الصين فى الذباحة ويأكلون السمك والبيض ويقتل بعضهم بعضاً، ولهم بيت عبادة.

وخرجت من كابل إلى سواحل البحر الهندى متياسراً فسرت إلى بلد يعرف بمندورقين منابت غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير، وذلك أن القنا إذا جف وهبت عليه الريح احتك بعضه ببعض واشتدت فيه الحرارة للحركة فانقدحت منه نار فربما أحرقت منها مسافة خمسين فرسخاً أو أكثر من ذلك

فالطباشير الذى يحمل إلى سائر الدنيا من ذلك القنا، فأما الطباشير الجيد الذى يساوى مثقاله مائة مثقال أو أكثر فهو شىء يخرج من جوف القنا إذا هُزّ وهو عزيز جداً، وما يفجر من منابت الطباشير حمل إلى سائر البلاد وبيع على أنه توتيا الهند، وليس كذلك لأن التوتيا الهندى هو دخان الرصاص القلعى، ومقدار ما يرتفع منه كل سنة ثلاثة أمنان أو أربعة أمنان ولايتجاوز الخمسة، يباع المن منه بخمسة الآف درهم إلى ألف دينار، وخرجت منها إلى مدينة يقال لها كولم لأهلها بيت عبادة وليس فيه صنم وفيها منابت الساج والبقم، وهو صنفان وهذا دون والامرون هو الغاية.

وشجر الساج مفرط العظم والطول ربما جاوز مائة ذراع وأكثر، والخيزران والقنا بها كثير جداً، وبها شىء من السندروس قليل غير جيد والجيد منه ما بالصين، وهو من عرعر ينبت على باب مدينتها الشرقى، والسندروس شبه الكهربائية وأحلها وفيها مغناطيس يجذب كل شىء إذا أحمى بالدلك، وعندهم الحجارة التى تعرف بالسندانية يعمل بها السقوف، وأساطين بيوتهم من خرز أصلاب السمك الميت ولا يأكلونه، ولايذبحون، وأكثرهم يأكل الميتة، وأهلها يختارون للصين ملكاً إذا مات ملكهم.

وليس فى الهند طب إلا فى هذه المدينة، وبها تعمل غضائر تباع فى بلداننا على أنه صينى وليس هو صينى لأن طين الصين أصلب منه وأصبر على النار، وطين هذه المدينة الذى يعمل منه الغضائر المشبه بالصينى يخمر ثلاثة أيام لايحتمل أكثر منها، وطين الصين يخمر عشرة أيام ويحتمل أكثر منها، وخزف غضائرها أدكن اللون. وما كان من الصين أبيض وغيره من الألوان شفافاً وغير شفاف، فهو معمول فى بلاد فارس من الحصى والكلس القلعى والزجاج يعجن على البوائن وينفخ ويعمل بالماسك كما ينفخ الزجاج مثل الجامات وغيرها من الأوانى.

ومن هذه المدينة يركب إلى عمان، وبها رواند ضعيف العمل والصينى أجود

منه، والرواند قرع يكون هناك وورقه السادج الهندى، وإليها تنسب أصناف العود والكافور واللبان والقتار، وأصل العود نبت فى جزائر وراء خط الاستواء، وما وصل إلى منابته أحد ولم يعلم أحد كيف نباته وكيف شجره ولايصف إنسان شكل ورق العود، وإنما يأتى به الماء إلى جانب الشمال، فما انقلع وجاء إلى الساحل فأخذ رطباً بكله وبقامرون أو فى بلد الفلفل أو بالصنف أو بقماريان أو بغيرها من السواحل بقى إذا أصابته الريح الشمال رطباً أبداً لايتحرك عن رطبه، وهو المعروف بالقامرونى المندلى، وما جف فى البحر ورمى يابساً فهو الهندى المصمت الثقيل ومحنته أن ينال منه بالمبرد ويلقى على الماء، فإن لم ترسب برادته فليس بمختار وإن رسبت فهو الخالص الذى ما بعده غاية، وما جف منه فى مواضعه ونخر فى البحر فهو القمارى، وما نخر فى مواضعه وحمله البحر نخراً فهو الصنفى.

وملوك هذه المرافئ يأخذون ممن يجمع العود من السواحل ومن البحر العُشر، وأما الكافور فهو فى لحف جبل بين هذه المدينة وبين مندورقين مطل على البحر وهو لب شجر يشق فيوجد الكافور كامناً فيه فربما وجد مائعاً وربما كان جامداً لأنه صمغ يكون فى لب هذا الشجر، وبها شىء من الإهليلج قليل والكابلى أجود منه لأن كابل بعيدة من البحر، وجميع أصناف الإهليلج بها وكل شجر مما نثرته الريح فجاً غير نضيج فهو الأصفر، وهو حامض بارد، وما بلغ وقطف فى أوان إدراكه فهو الكابلى، وهو حلو حار، وما ترك فى شجره فى أيام الشتاء حتى يسود فهو الأسود مر حار، وبها معدن كبريت أصفر ومعدن نحاس يخرج من دخانه توتيا جيد.

وجميع أصناف التوتيا كلها من دخان النحاس إلا الهندى، فإنه كما ذكرنا يخرج من دخان الرصاص القلعى، وماء هذه المدينة وماء مندورقين من الصهاريج المختزن فيها من مياه الأمطار، ولازرع فيها إلا القرع الذى فيه الرواند فإنه يزرع بين الشوك، وكذلك أيضاً بطيخهم عزيز جداً، وبها قنبيل يقع من السماء ويجمع بأخثاء البقر، والعربى أجود منه، وسرت من مدن السواحل إلى

الملتان، وهى آخر مدن الهند ممايلى الصين وأولها مما يلينا وتلى أرض السند، وهى مدينة عظيمة جليلة القدر عند أهل الهند والصين لأنها بيت حجهم ودار عبادتهم مثل مكة عند المسلمين وبيت المقدس عند اليهود والنصارى، وبها القبة العظمى والبد الأكبر، وهذه القبة سمكها فى السماء ثلاثمائة ذراع وطول الصنم فى جوفها مائة ذراع، وبين رأسه وبين القبة مائة ذراع، وبين رجليه وبين الأرض مائة ذراع، وهو معلق من جوفها لا بقائمة من أسفله يُدعم عليها ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه.

ويعلق ياقوت الحموى قائلا: «هذا هو الكذب الصراح لأن هذا الصنم ذكره المدائنى فى فتوح الهند والسند، وذكر أن طوله عشرون ذراعاً»، قال أبو دلف:

«البلد فى يد يحيى بن محمد الأموى هو صاحب المنصورة أيضاً والسند كله فى يده، والدولة بالملتان للمسلمين وملاك عقرها ولد عمر بن على بن أبى طالب، والمسجد الجامع مصاقب لهذه القبة، والإسلام بها ظاهر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بها شامل، وخرجت منها إلى المنصورة، وهى قصبة السند، والخليفة الأموى مقيم بها يخطب لنفسه ويقيم الحدود ويملك السند كله بره وبحره، ومنها إلى البحر خمسون فرسخاً، وبساحلها مدينة الديبل، وخرجت من المنصورة إلى بغانين، وهو بلد واسع يؤدى أهله الخراج إلى الأموى وإلى صاحب بيت الذهب، وهو بيت من ذهب فى صحراء، تكون أربعة فراسخ ولايقع عليها الثلج ويثلج ما حولها»(٤٢٢).

لعلك أيها القارئ الكريم قد لاحظت أننا لم نتدخل بالتعليق على نص رحلة أبى دلف، ولم نتوقف عند بعض مشاهداته، وإنما استسلمنا لقلمه البديع وحكاياته الشائقة وسرده المثقل بالمعرفة الطريفة، والوصف المكثف بلاحشو أو استطراد، وآثرنا أن نتركه لك، ونتركك له تجوس بنفسك خلال عالمه الأثير الذى لاشك يختلف عن غيره، على الرغم من كثرة من سبقوه إلى الهند والصين وأفاضوا فى الحديث عنهما.

٢- من رحلة أبى دلف إلى فارس وأرمينيا

قال مسعر بن مهلهل الينبعى:

«شهر زور مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة وهى قصبتها فى وقتنا هذا ويقال لها نيم ازراى وأهلها عُصاة على السلطان قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان، والمدينة فى صحراء، ولأهلها بطش وشدة يمنعون أنفسهم ويحمون حوزتهم، وسمك سور المدينة ثمانية أذرع، وأكثر أمرائهم منهم، وبها عقارب قتالة أضر من عقارب نصيبين، وهم موالى عمر بن عبد العزيز، وجرأهم الأكراد بالغلبة على الأمراء ومخالفة الخلفاء، وذلك أن بلدهم مشتى ستين ألف بيت من أصناف الأكراد الجلالية والباسيان والحكمية والسولية، ولهم به مزارع كثيرة ومن صحاريهم يكون أكثر أقواتهم».

وبقرب من هذه المدينة جبل يعرف بشعران وآخر يعرف بالزلم الذى يصلح فى أدوية الجماع، ولا أعرفه فى مكان غيرّه، ومنها إلى ديلمستان سبعة فراسخ، وبشهرزور مدينة أخرى دونها فى العصيان والنجدة تعرف بشيز، وأهلها شيعة صالحية زيدية أسلموا على يد زيد بن على، وهذه المدينة مأوى كل ذاعر ومسكن كل صاحب غارة، وقد كان أهل نيم ازراى أوقعوا بأهل هذه المدينة وقتلوهم وسلبوهم وأحرقوهم بالنار للعصبية فى الدين بظاهر الشريعة، وذلك فى سنة ٣٤١هـ وبين المدينتين مدينة صغيرة، يقال لها دزدان بناؤها على بناء الشيز، وداخلها بحيرة تخرج إلى خارجها، تركض الخيل على أعلى سورها لسعته وعرضه، وهى ممتنعة على الأكراد والولاة والرعية، وكنت كثيراً ما أنظر إلى رئيسها الذى يدعونه الأمير، وهو يجلس على برج مبنى على بابها عالى البناء وينظر الجالس عليه إلى عدة فراسخ وبيده سيف مجرد فمتى نظر إلى خيل من بعض الجهات لمع بسيفه فانجفلت مواشى أهلها وعواملهم إليها، وفيها مسجد جامع، وهى مدينة منصورة.

يقال إن داود وسليمان، عليهما السلام، دعوا لها ولأهلها بالنصر فهى ممتنعة

أبداً عمن يرومها، ويقال إن طالوت كان منها وبها استنصر بنو اسرائيل، وذلك أن جالوت خرج من المشرق وداود من المغرب وأيده الله عليه، وهذه المدينة بناها دارا بن دارا ولم يظفر الإسكندر بها ولا دخل أهلها فى الإسلام إلا بعد اليأس منهم، والمتغلبون عليها من أهلها إلى اليوم يقولون إنهم من ولد طالوت، وأعمالها متصلة باخنقين وبكرخ جدان، مخصوصة بالعنب السونايا وقلة رمد العين والجدرى.

وقال أبو دلف عن الشيز:

لما شارفت الصنعة الشريفة والتجارة المربحة من التصعيدات والتعقيدات والحلو والتكليسات، خامر قلبى شك فى الحجارة واشتبهت علىّ العقاقير، فأوجب الرأى اتباع الركازات والمعادن فوصلت بالخبر والصفة إلى الشيز، وهى مدينة بين المراغة وزنجان وشهرزور والدينور بين جبال تجمع معادن الذهب ومعادن الزيبق ومعادن الأسرب ومعادن الفضة ومعادن الزرنيخ الأصفر ومعادن الحجارة المعروفة بالجُست، وأما ذهبها فهو ثلاثة أنواع: نوع منه يعرف بالقومسى، وهو تراب يصب عليه الماء فيغسل ويبقى تبراً كالذر ويجمع بالزيبق، وهو أحمر خلوقى ثقيل نقى صبغ ممتنع على النار لين يمتد، ونوع آخر يقال له السهرقى يوجد قطعاً من الحبة إلى عشرة مثاقيل صبغ صلب رزين إلا أن فيه يبساً قليلاً، ونوع آخر يقال له السحاندى أبيض رخوٌ رزين أحمر المحك يصبغ بالزاج وزرنيخها مصبغ قليل الغبار يدخل فى التزاويق، ومنها خاصة يعمل منها أهل أصبهان فصوصاً، ولاحمرة فيها، وزيبقها أجل من الخراسانى وأثقل وأنقى، وقد اختبرناه فتقرر من الثلاثين واحد فى كيان الفضة المعدنية، ولم نجد ذلك فى الشرق، وأما فضتها فإنها تعزّ بعزة الفحم عندهم.

وهذه المدينة يحيط بها سور وبها بُحير فى وسطها لا يدرك قراره، وإنى أرسبت فيه أربعة عشر ألف ذراع وكسوراً من ألف فلم تستقر المثقلة ولااطمأنت، واستدارته نحو جريب بالهاشمى، ومتى بُل بمائه تراب صار فى الوقت

حجراً صلداً، ويخرج منه سبعة أنهار، كل واحد منها ينزل على رحى ثم يخرج تحت السور، وبها بيت نار عظيم الشأن عندهم، منها تذكى نيران المجوس من المشرق إلى المغرب، وعلى رأس قبته هلال فضة هو طلسمه وقد حاول قلعه خلق من الأمراء فلم يقدروا.

ومن عجائب هذا البيت أن كانوا يوقدون فيه منذ سبعمائة سنة فلايوجد فيه رماد البتة ولا ينقطع الوقود عنه ساعة من الزمان، وهذه المدينة بناها هرمز ابن خسروشير بن بهرام بكلس وحجر، وعند هذا البيت إيوانات شاهقة وأبنية عظيمة هائلة، ومتى قصد هذه المدينة عدو ونصب المنجنيق على سورها، فإن حجره يقع فى البحيرة التى ذكرناها، فإن آخر منجنيقه ولو ذراعا واحداً وقع الحجر خارج السور والخبر فى بناء هذه المدينة أن هرمز ملك الفرس بلغه أن مولودا مباركا يولد فى بيت المقدس فى قرية يقال لها بيت لحم، وأن قربانه يكون دهناً وزيتاً ولُباناً كثيراً وأمره أن يمضى به إلى بيت المقدس ويسأل عن هذا المولود، فإذا وقف عليه دفع الهدية إلى أمه وبشرها بما يكون لولدها من الشرف والذكر وفعل الخير ويسألها أن تدعو له ولأهل مملكته، ففعل الرجل ما أمر وسار إلى مريم، عليها السلام، فدفع إليها ما وجه به معه وعرفها بركة ولدها، فلما أراد الانصراف عنها دفعت إليه جراب تراب، وقالت له:

عرّف صاحبك أنه سيكون لهذا التراب نبأ، فأخذه وانصرف، فلما صار إلى موضع الشيز، وهو إذ ذاك صحراء، مرض وأحس بالموت فدفن الجراب هناك، ثم مات، فاتصل الخبر بالملك، فتزعم الفرس أنه وجّه رجلاً ثقة وأمره بالمضى إلى المكان الذى مات فيه ويبنى بيت نار، قال: ومن أين أعرف مكانه؟ قال: امض فلن يخفى عليك، فلما وصل إلى الموضع تحير وبقى لا يدرى أى شىء يصنع، فلما أجنه الليل رأى نوراً عظيماً مرتفعاً من مكان القبر فعلم أنه الموضع الذى يريده، فسار إليه وخط حول النور خطاً وبات، فلما أصبح أمر بالبناء على ذلك الخط فهو بيت النار الذى بالشيز.

ويعلق الحموى على ذلك قائلاً:

قال عبيد الله الفقير إليه مؤلف هذا الكتاب: هذا كله عن أبى دُلف مسعر ابن المهلهل وأنا برئ من عهدة صحته فإنه كان يحكى عنه الشريد والكذب، وإنما نقلته على ما وجدته، والله أعلم(٤٣).

وينقل لنا الحموى ماذكره مسعر عن جبل دنباوند وهو فيما يبدو بركان كف قريباً عن الثوران: وقرأت فى رسالة ألفها مسعر بن مهلهل الشاعر ووصف فيها ما عاينه فى أسفاره، فقال:

دنباوند جبل عال مشرف شاهق شامخ لا يفارق أعلاه الثلج شتاءً ولا صيفاً ولا يقدر أحد من الناسِّ أن يعلو ذروته ولا يقاربها، ويعرف بجبل البيوراسف، يراه الناس من مرج القلعة ومن عقبة همذان، والناظر إليه من الرى يظن إنه مشرف عليه، وإن المسافة بينهما ثلاثة فراسخ أو اثنان، وزعم العامة أن سليمان بن داود عليه السلام، حبس فيه مارداً من مردة الشياطين يقال له صخر المارد.

وزعم آخرون أن افريدون الملك حبس فيه البيوراسف، وأن دخاناً يخرج من كهف فى الجبل يقول العامة إنه نفسه، ولذلك أيضاً يرون ناراً فى ذلك الكهف يقولون إنها عيناه، وإن همهمته تسمع من ذلك الكهف، فاعتبرت ذلك وارتصدته وصعدت فى ذلك الجبل، حتى وصلت إلى نصفه بمشقة شديدة ومخاطرة بالنفس، وما أظن أن أحداً تجاوز الموضع الذى بلغت إليه بل ما وصل إنسان إليه فيما أظن.

وتأملت الحال فرأيت عيناً كبريتية وحولها كبريت مستحجر، فإذا طلعت عليه الشمس والتهبت ظهرت فيه نار، وإلى جانبيه مجرى يمر تحت الجبل تخترقه رياح مختلفة فتحدث بينها أصوات متضادة على إيقاعات متناسبة فمرة مثل صهيل الخيل ومرة مثل نهيق الحمير ومرة مثل كلام الناس، ويظهر للمصغى إليه مثل الكلام الجهورى دون المفهوم وفوق المجهول، يتخيل إلى السامع أنه كلام بدوى ولغة إنسىّ، وذلك الدخان الذى يزعمون أنه نفسه بخار تلك العين الكبريتية،

وهذه حال تحتمل على ظاهر صورة ما تدعيه العامة، ووجدت فى بعض شعاب هذا الجبل آثار بناء قديم، وحولها مشاهد تدل على أنها مصايف بعض الأكاسرة، وإذا نظر أهل هذه الناحية إلى النمل يدخر الحب ويكثر من ذلك علموا أنها سنة قحط وجدب، وإذا دامت عليهم الأمطار وتأنوا بها وأرادوا قطعها صبوا لبن المعز على النار فانقطعت، وقد امتحنت هذا من دعواهم دفعات، فوجدتهم فيه صادقين، وما رأى أحد رأس هذا الجبل فى وقت من الأوقات منحسراً عن الثلج إلا وقعت الفتنة وأريقت الدماء من الجانب الذى يرى منحسراً، وهذه العلامة أيضاً صحيحة بإجماع أهل البلد، وبالقرب من هذا الجبل معدن الكحل الرازى والمرتك والأسرب والزاج».

يقول الحموى مؤكداً صحة ما ذكر أبو دلف «هذا كله قول مسعر، وقد حكى قريباً من هذا على بن زين كاتب المازيار الطبرى، كان حكيماً محصلاً وله تصانيف فى فنون عدة».

المقدسى

(٣٣٦-٣٩٠هـ) (٩٤٧-١٠٠٠م)

يعتبر المقدسى أبرز رجالات الرحلة والجغرافيا الوصفية فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، ويذهب بعض المستشرقين - ومنهم **شبرنجر**، - إلى أن المقدسى هو أعظم الجغرافيين العرب فى جميع العصور[١]؛ إذ شارك بسهم وافر فى رسم صورة للعالم الإسلامى من خلال كتابه المهم «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» متضمناً وصفاً إثنوجرافيا لطبائع عدد من الشعوب الإسلامية وخصال أهلها وطرائق عيشهم، وتضاريس السطح ونوعية البيئة التى يعيشون بين أحضانها، وقد فصل ذلك فى مقدمته بشكل يكفى، لبيان وعيه العميق بمهمته والغرض من وضع مؤلفه.

ولد الرحالة والجغرافى الشهير شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن أبى بكر البناء المقدسى المعروف **بالبشارى** بالقدس سنة (٣٣٦هـ - ٩٤٧م) حفيداً للمهندس المعمارى، الذى بنى أبواب عكا لابن طولون، وسمى المقدسى نسبة إلى بيت المقدس، والبعض ينطقونها المقدِّسى، وربما كان **دى خويه** ناشر الكتاب هو أول من أطلق عليه المقدسى نسبة إلى بيت المقدس، هكذا تصور اسم القدس. أما أسرة أمه فتنتمى إلى قرية بير من أعمال قومس على مقربة من حدود خراسان، ولعل عوامل النسب والقرابة قد يسرت له بعد ذلك أن يعرف نصف العالم الإسلامى.

(كراتشكوفسكى ص ٢٠٩).

عاش صباه وشبابه بالقدس فى الفترة التى كان فيها الخليفة العباسى هو أبو الفضل القاسم بن المقتدر (٣٣٤-٣٦٣هـ) وكان يسمى نفسه المطيع لله،

ثم تخلى عنها لولده أبو بكر الذى سمى نفسه الطائع لله (٣٦٣-٣٨١هـ)، وكان الرجل وابنه تحت رحمة بنى بويه، يسيرون مقاليد الأمور كيفما شاءوا.

ومما يؤسف له حقا أن المعلومات عن المقدسى قليلة رغم إنجازه الكبير المتمثل فى كتابه «**أحسن التقاسيم**» إلا أنه فيما نعتقد كان مجهولاً بين قومه؛ لأنه كان دائم الأسفار، حريصاً على معرفة بلاد غير بلده وشعوباً غير بنى وطنه. وعندما عاد وتفرغ لوضع كتابه لم يعش طويلاً بعد الانتهاء منه، ولذلك لم تتح الفرصة لتسجيل أخباره وذكر المعالم الرئيسية فى حياته، كما أنه لم يترك غير كتابه المذكور، الذى لم يُحقَّق بعد تحقيقاً عربياً محكماً.

وأحسب أن كثرة الأسفار بالنسبة للرحالة بالذات ومثلهم الجغرافيين هى التى أفقدتنا الكثير من أخبارهم، فهم جميعاً إلا القلة مثل المقدسى، لم يخلفوا لنا إلا بعض كتبهم الفريدة، ويحق لهم فيما أتصور أن يكون التقدير كبيراً والذكر أكبر؛ لأنهم اختاروا هذه المجالات الصعبة والطرق الوعرة من مجالات وطرق المعرفة.

وليس من شك أن ركوبهم واقتحامهم الأماكن المجهولة وارتيادهم الأمصار الغريبة سنوات وسنوات مع ندرة الوسائل وقلة الزاد وانعدام الأدوات العلمية، التى لم تُعرف إلا مع القرون الحديثة فسهلت السفر والتسجيل والتصوير والكتابة والاتصال، ثم عكوفهم بعد ذلك على التدوين والنقل والنسخ والتصحيح حتى لينقضى العمر فى المجهول كما هو الحال مع المقدسى، ولتحترق الشمعة فى الوقت الذى تضئ فيه طريق البشرية قروناً وقروناً لهو أمر يستحق معه أن نلتفت إلى هذه النماذج، ولا أقول ننحنى إجلالاً لهم، ولكنهم بالقطع فى حاجة إلى الكتابة عنهم وتحقيق كتبهم، التى لاتزال عسيرة القراءة غامضة الإشارات والألفاظ، إنهم ولاشك جنود الحضارة المجهولون.

ولايتعين أن تكون مقاعد المقدسى والحموى والإدريسى والبغدادى وابن حوقل وابن فضلان وأسامة وغيرهم تحت أقدام الجاحظ وأبى تمام والبحتري، أو مكانتهم أقل من مكانة المعرى أو أبى نواس وامرؤ القيس أو حتى زرياب وإسحق الموصلى، ولا يتعين تركهم طويلاً أسرى الحجرات المظلمة.

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم:

عمل المقدسى فى عدة مهن وخبر الحياة وجال فى معظم أرجاء العالم الإسلامى، ولايذكر المؤرخون أنه وضع غير كتابه، «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**»، وأول من نشره هو **دى خويه** فى ٨ مارس سنة ١٩٠٦، وأخر طبعاته نشرتها مكتبة مدبولى المصرية دون تحقيق.

وهو كتاب وضعه المقدسى بعد أن طاف مملكة الإسلام فقط دون غيرها، وعن هذا يقول: **ولم نتكلف ممالك الكفار لأننا لم ندخلها، ولم نر فائدة فى ذكرها.. بلى قد ذكرنا مواضع المسلمين منها»**[1].

ونحن لانوافق على ما ذهب إليه من أن الجدوى منقطعة من العمل بممالك غير المسلمين، فهى فكرة متخلفة، فضلاً عن أنها ربما تدل على أن المقدسى كان شخصاً انطوائياً يخشى التعامل مع الغرباء، وربما لا يأمنهم بسبب اختلاف العقيدة، وفى كلتا الحالتين يصعب مجاراته أو الرضى بما قال.

أما الغرض من وضع هذا المؤلف الذى يتجاوز خمسمائة صفحة، فقد أعفانا المقدسى من جهد البحث عنه وتلمسه بين حنايا كتابه، فذكره فى أول صفحة قائلاً:

«أما بعد فإنه مازالت العلماء ترغب فى تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم. ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سُننهم وأقفو سَننهم، وأقيم علماً أحيى به ذكرى، ونفعاً للخلق أرضى به ربى. ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه، فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه، إلا على الأخلال وهو ذكر الأقاليم الإسلامية، وما فيها من المفاوز والبحار، والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان فى كلامهم وأسواقهم وألسنتهم وألوانهم. ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم

وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار فى المفازات، وعدد المنازل فى المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال، والتلال والسهول والجبال، والحواوير والسماق، والسمين منها والرقاق ومعادن السمعة والخصب، ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم، والممالك والحدود والمصارد والجروم، والمخاليف والزموم، والصساسيج والتخوم، والصنائع والعلوم، والمباخس والمشاجر، والمناسك والمشاعر، وعلمت أنه باب لابد منه للمسافرين والتجار، ولاغنى عنه للصالحين والأخيار، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء، وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبه العامة والرؤساء، وينتفع به كل مسافر، ويحظى به كل تاجر».

والمقدسى لايقدم منهجه فقط، ولكنه يكاد يرسى قواعد البحث الإثنوجرافى؛ إذ هو فى أبسط تعريفاته الوصف الدقيق لمختلف ألوان الثقافة الإنسانية فى بيئة من البيئات، أو ببساطة أكثر وصف طبيعة كل بلد وطباع أهلها وطرق حياتهم. وقد أدرك المقدسى بحسه الفطرى والثقافى ورؤيته العلمية حاجة الناس والعلماء الخاصة والعامة إلى هذا النسق من أنساق المعرفة، وسوف نضع أيدينا على منهجه من خلال النماذج، التى سنعرضها فيما يلى من الصفحات.

وقد فرغ المقدسى منه لأول مرة عام ٣٧٥هـ، ٩٨٥م وكان فى نحو الأربعين يقيم فى شيراز، وأهداه إلى آل سامان أصحاب السلطان فى شرق إيران، ثم أعاد كتابته وأهدى النسخة إلى الفاطميين (٣٧٨هـ - ٩٨٨م).

قرأ المقدسى مؤلفات السابقين فى الجغرافيا الفلكية والوصفية وكتب الأخبار والعجائب ومدونات الرحالة، وقد أخذ على بعضها اعتماد أصحابها على الجمع والنقل، دون المشاهدة والمعاينة وتجشم مشاق الرحلة؛ لذلك قال إن كتابه «يفضلها لأنه وليد البحث والسفر والجهاد فى سبيل العلم ولقاء العلماء وكثرة

الاطلاع وبذل الأموال على التنقل والترحال»، وندعه يتحدث بنفسه فيقول (ص٢، ٣):

«وماتم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان، ودخولى أقاليم الإسلام، ولقائى العلماء، وخدمتى الملوك، ومجالستى القضاة، ودرسى على الفقهاء، واختلافى إلى الأدباء والقراء، وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة فى كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ودورانى على التخوم حتى حررتها، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشى عن المذاهب حتى علمتها، وتفطنى فى الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبرى فى الكور حتي فصلتها، وبحثى عن الأخرجة حتى أحصيتها، مع ذوق الهواء، ووزن الماء وشدة العناء، وبذل المال، وطلب الحلال، وترك المعصية ولزوم النصح للمسلمين بالحسبة، والصبر على الذل والغربة، والمراقبة لله والخشية بعدما رغبت نفسى فى الأجر، وطمعتها فى حسن الذكر، وخوفتها من الإثم وتجنبت الكذب والطغيان، وتحرزت بالحجج من الطعان، ولم أودعه المجاز والمحال، ولاسمعت إلا قول الثقات من الرجال، أعاننا الله على ما قصدناه ووفقنا لما يحبه ويرضاه، فإنا له عابدون، وإليه راجعون».

يتضح لنا من السطور السابقة مدى فهم المقدسى لمهمة الرحالة والجغرافى، والمنهج الذى يتعين اتباعه فى جمع المادة وأسلوب هذا الجمع، بل والصفات التى يجب أن يتحلى بها الراغب فى العلم والمعرفة.

أما عن مصادر بحثه فقد حددها بثلاثة مصادر، وقد سبق أن ذكرها غيره عرضا، أما هو فيقول:

«فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه، والثانى ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وغيره، ومابقيت

خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم، ولا مذكرى بلد إلا وقد شاهدتهم؛ حتى استقام لى ما ابتغيته فى هذا الباب».

ويعود المقدسى فيضيف بعض الملامح إلى منهجه، وهى جزء لايتجزأ منه، وينطوى ذكرها على أهمية بالغة توضح لنا الكثير من جوانب شخصية المقدسى من الناحية العقلية والنفسية وأساليبه المادية والمعيشية، يقول (٤٤، ٤٥):

«لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية، وركوب الكبيرة، فقد تفقهت وتأدبت، وتزهدت وتعبدت، وفقهت وأدبت وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت فى المساجد وذكرت فى الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت فى المحافل، وتكلمت فى المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقاء بين الثرائد، ومع النواتى العصائد، وطردت فى الليالى من المساجد، وسحت فى البرارى، وتهت فى الصحارى، وصدقت فى الورع زمانا، وأكلت الحرام عيانا، وصحبت عُباد جبل لبنان، وخالطت حيناً السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسى بالزنبيل، وأشرفت مرارا على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبرا، وخاطبت السلاطين والوزرا، وصاحبت فى الطرق الفساق، وبعت البضائع فى الأسواق، وسجنت فى الحبوس وأخذت على أنى جاسوس، وعاينت حرب الروم فى الشوانى، وضرب النواقيس فى الليالى، وجلدت المصاحف بالكرى، واشتريت الماء بالغلا، وركبت الكنائس والخيول ومشيت فى السمائم والثلوج، ونزلت فى عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال فى محلة الحاكة، وكم نلت العز والرفعة، ودبر فى قتلى غير مرة، وحججت وجاورت وغزوت ورابطت، وشربت بمكة من السقاية السويق، وأكلت الخبز والجلبان بالسيق، ومن ضيافة إبراهيم الخليل، وجميز عسقلان السبيل، وكسيت خلع الملوك وأمروا لى بالصلات، وعريت وافتقرت مرات، وكاتبنى السادات، ووبخنى الأشراف، وعرضت علىّ الأوقاف، وخضعت للأخلاف، ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع، وأقامنى الأمراء والقضاة

أميناً، ودخلت فى الوصايا وجُعلت وكيلا، وامتحنت الطرارين، ورأيت العيارين، واتبعنى الأرذلون، وعاندنى الحاسدون، وسُعى بى إلى السلاطين، ودخلت حمامات طبرية، والقلاع الفارسية، ورأيت يوم الفوارة، وعيد بربارة، وبئر بُضاعة، وقصر يعقوب وضياعه، ومثل هذا كثير.

ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر فى كتابنا أنا لم نصنفه جزافاً، ولا رتبناه مجازاً، ويميزه من غيره، فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه فى الرفاهية ووضعه على السماع، ولقد ذهب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل علىّ من التقصير فى أمور الشريعة، ولم يبق رُخصة مذهب إلا وقد استعملتها، وقد مسحت على القدمين وصليت بمدهامتين ونفرت قبل الزوال، وصليت الفريضة على الدواب ومع نجاسة فاحشة على الثياب، وترك التسبيح فى الركوع والسجود وسجود السهو قبل التسليم، وجمعت بين الصلوات، وقصرت لا فى سفر الطاعات، غير أنى لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة، ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتة، وماسرت فى جادة وبينى وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها، إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها قديماً، وربما اكتريت رجالاً يصحبونى، وجعلت مسيرى فى الليل لأرجع إلى رفقائى مع إضاعة المال والهم.

ألا ترى عزيزى القارئ كم هو رائع هذا النص، حتى لو كان محتواه كذبا، وهو فى الأغلب ليس كذلك، لأن ثماره داخل الكتاب وآثاره مبثوثة فى كل عبارة.. هل يا ترى يخفى عليك، جمال الصياغة وحلاوة السجع وصدقه وعمق التضاد ودلالته، ألم تبلغك حرارة التجربة وتنوعها ودهشت للصعود والهبوط فى مراقى الحياة المختلفة فى البلاد المتباينة، وفى شتى الأحوال، ألم تشعر برغبة آسرة وملحة أن تكون مثله تمضى على شوك الحياة وترفها، ولابد إنك مثلى فى غيظ شديد، لأنه لم يسجل لنا هذا الكم الهائل من الذكريات فى مؤلف مستقل، كان حقيقاً أن يقف إلى جانب عيون الأدب العالمى الخالد.

تبدأ فصول الكتاب بذكر **البحار والأنهار فى مملكة الإسلام**، فيقول المقدسى:

لم نر فى الإسلام إلا بحرين حسب، أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلاد فإذا بلغ مملكة الإسلام دار على جزيرة العرب كما مثلناه وله خلجان كثيرة وشعب عدة، وقد اختلف الناس فى وصفه والمصورون فى تمثيله، فمنهم من جعله شبه طيلسان يدور ببلد الصين والحبشة وطرف بالقلزم وطرف بعبادان، وأبوزيد[1] جعله شبه طير منقار بالقلزم، ولم يذكر شعبة ذيله، وعنقه بالعراق وذنبه بين حبشة والصين، ورأيته ممثلاً على ورقة فى خزانة أمير خراسان وعلى كرباسة عند أبى القاسم ابن الأنماطى بنيسابور وفى خزانة عضد الدولة والصاحب، وإذا كل مثال يخلف الآخر وإذا فى بعضهن خلجان وشعب لاأعرفها، وأما أنا فسرت فيه نحو ألفى فرسخ ودرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبادان، سوى ما توهت بنا المراكب إلى جزائره ولججه وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشأوا من ربانيين وأشاتمة ورياضيين ووكلاء وتجار ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها، فعلقت من ذلك صدراً صالحاً بعد ما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التى ذكرت.

ويتحدث عن آخر بحر الصين **«المحيط الهندى»** فيقول (١٣):

«بحر لا يدرك عمقه وفيه من الجزائر ما لا يحصى كثرة، فيها ملك من العرب يقال إن بها ألفا وسبعمائة جزيرة تملكهن امرأة، وزعم من دخل مملكتها أنها تجلس لرعيتها على سرير عريانة وعليها تاج وعلى رأسها أربعة آلاف وصيفة قياما عراة، ثم بحر هركند وهو قاموس فيه سرنديب تكون ثمانين فرسا فى مثلها فيها جبل آدم الذى أهبط فيه اسمه الرهن يرى من مسيرة أيام عليه أثر قد غرقت نحو سبعين ذراعاً».

أما عن البحر الآخر وهو بحر الروم **«الأبيض المتوسط»** فيقول:

«والبحر الآخر خروجه من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس،

يخرج من المحيط عريضا، ثم ينخرط ثم يعود فيعظم إلى تخوم الشام، واتفقوا «العلماء» على أنه عند معابر الأندلس إذا عاينت هذا البر ترايا «تراءى» لك البر الآخر، وفيه ثلاث جزائر عامرة آهلة اصقلية تقابل المغرب واقريطش «كريت» تقابل مصر وقبرص تقابل الشام، وله خلجان معروفة وعلى حافته بلدان كثيرة وثغور جليلة».

ويعدد الأنهار (١) فيقول:

والمشهور منها فيما رأيت وميزت اثنا عشر، دجلة والفرات والنيل وجيحون ونهر الشاش وسيحان وجيحان وبردان ومهران ونهر الرس ونهر الملك ونهر الأهواز يجرى فيها السفن، ودونها خمسة عشر أخرى نهر المروين ونهر هراة ونهر سجستان ونهر بلخ ونهر الصفد وطيفورى وزندرود ونهر العباس وبردى ونهر الأردن والمقلوب ونهر أنطاكية ونهر أرجان ونهر شيرين ونهر سمندر، ثم بعدهن صغار نذكر بعضهم فى الأقاليم».

ويتابع المقدسى رحلته مع مختلف الملامح الجغرافية الطبيعية والبشرية للعالم الإسلامى، فيذكر خصائص الأقاليم ومميزات كل إقليم عن غيره، ثم يذكر المذاهب التى لها خاص وعام ودعاة وأتباع ومناهج فيعددها، ويذكر فرقها وما وقف كل فرقة، ويتعرض لأهل الذمة أصحاب الأديان الأخرى غير الإسلام وهم اليهود والنصارى والمجوس والصابئون.

ولا يفوته عندما يذكر المسافات أن يعرفنا المقاييس التى اعتمد عليها، فيقول ص٦٥ : **فالفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربعة وعشرون أصبعاً، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض، والميل ثلث الفرسخ**

يبدأ المقدسى بجزيرة العرب، لأن بها بيت الله الحرام ومدينة النبى ﴿ﷺ﴾ ومنها انتشر دين الإسلام، وفيها كان الخلفاء الراشدون والأنصار والمهاجرون، ويمضى فيعدد أنحاءها ويذكر كورها وقراها ومدنها وصحاريها، وأهم المعالم وأوجه العمران..

يقول عن الطائف وجدة:

«الطائف مدينة صغيرة شامية الهواء باردة الماء، أكثر فواكه مكة منها موضع الرمان الكثير والزبيب والعنب الجيد والفواكه الحسنة، وهى على ظهر جبل غزوان ربما يجلد بها الماء عامتها مدابغ إذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها، جدة مدينة على البحر منه اشتق اسمها محصنة عامرة آهلة أهل تجارات ويسار خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر وبها جامع سرى، غير أنهم فى تعب من الماء، مع أن فيها بركا كثيرة ويحمل إليها الماء من البعد، قد غلب عليها الفرس لهم بها قصور عجيبة وأزقتها مستقيمة ووضعها حسن شديدة الحر جدا أمج صغيرة بها خمسة حصون اثنان حجر وثلاثة مدر والجامع على متن الطريق».

ويتحدث عن اليمن التى أقام بها سنة كاملة، وحديثه عن صحار أحق أن نقرأه:

«صحار هى قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه، عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات أسرى من زبيد وصنعاء أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر، دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة، والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة فى آخر الأسواق، ولهم آبار عذيبية وقناة حلوة وهم فى سعة من كل شىء دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن، قد غلب عليها الفرس، المصلى وسط النخيل ومسجد صحار على نصف فرسخ ثم بركت ناقة رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد بنى أحسن بناء وهواءه أطيب هواء من القصبة ومحراب الجامع بلولب يدور، تراه مرة أصفر وكرة أخضر وحينا أحمر ونزوة فى حد الجبال كبيرة، بنيانهم طين والجامع وسط السوق».

وعن التجارة فى عدن يقص علينا جانبا مما حدث له، يقول:

«لما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعى مع أبى على الحافظ المروزى فى الجلبة، فلما تأكدت المعرفة بيننا، قال لى قد شغلت والله قلبى، قلت بماذا قال: أراك رجلاً على طريقة حسنة تحب الخير وأهله، وترغب فى جمع العلوم وقد قصدت بلاداً،

قد غرت كثيراً من الناس وصدتهم عن طريق الورع والقناعة، وأخشى إذا أنت دخلت عدن فسمعت أن رجلاً ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة وآخر بكندر فرجع بمثله كافورا، طلبت نفسك التكاثر، قلت أرجو أن يعصم الله، فلما دخلتها وسمعت أكثر مما قال غرنى والله ما غر القوم، وعملت على الذهاب إلى ناحية الزنج وأتيت ما ينبغى أن يشترى وتقدمت فيه إلى الوكلاء، فبرد الله عز اسمه ذلك على قلبى بموت شريك كنت عاقدته وكسرت نفسى بذكر الموت وما بعده، وأعلم هديت أن مع كل ربح مما ذكرنا خطراً والأرباح أبدا معها الأخطار، فلا ينبغى لعاقل أن يغتر بذلك وليعلم أن الله تعالى يعطى عبده بركعتين إذا أخلصهما لله أكثر من الدنيا بحذافيرها، وما يصنع بنعمة الموت من ورائها وجمع أموال لابد من تركها.

«أحسن التقاسيم ٩٧، ٩٨».

ولنا أن نلحظ فى المقدسى سجية حسنة هى رغبته فى البوح والاعتراف، فها هو يقول: **وغرنى والله ما غر القوم، وعملت إلى الذهاب إلى ناحية الزنج وأتيت ما ينبغى أن يشترى.**

وهذا الضعف الإنسانى الذى استشعره، عندما سمع عن المكاسب الكبيرة من التجارة فى عدن فأحب أن يحذو حذو التجار، لكنه بعد حادث موت شريكه يحجم عن إتمام التجربة، عائداً إلى هدفه الذى انتوى وقصد، متعففاً عن المضى فى سلك التجارة المغرية، خاتماً تلك الفقرة بحكمة من مستودع أعماقه الدينى،فهو إلى جانب تميزه بحس قصصى ورغم حرصه على الموضوعية، فإنه يحمل قلبا تقياً ورعاً، يستحضر فى كل آن آيات من القرآن الكريم.

ويصل إلى القسطنطينية ومنها إلى الشام، ويصف كل ما يمر به ويذكر المسافات والأبعاد حتى يصل إلى فلسطين، وعن الرملة يقول:

«الرملة قصبة فلسطين بهية حسنة البناء خفيفة الماء مرية واسعة الفواكه، جامعة الأضداد بين رساتيق جليلة ومدن سرية ومشاهد فاضلة وقرى نفيسة، والتجارة

بها مفيدة والمعايش حسنة ليس فى الإسلام أبهى من جامعها ولا أحسن وأطيب من حواريها ولا أبرك من كورتها ولا ألذ من فواكهها، موضوعة بين رساتيق زكية ومدن محيطة ورباطات فاضلة ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة وأطعمة نظيفة وإدامات كثيرة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وأمور جامعة، قد خطت فى السهل وقربت من الجبل والبحر، وجمعت التين والنخل، وأنبتت الزروع على البعل، وحوت الخيرات والفضل غير أنها فى الشتاء جزيرة من الوحل وفى الصيف ذريرة من الرمل، لا ماء يجرى ولا خضر ولا طين جيد ولا ثلج كثير، البراغيث عميقة الآبار مالحة وماء المطر فى جباب مقفلة فالفقير عطشان والغريب حيران وفى الحمام ديوان، ويدور فى الدولاب خُدّام وهى ميل راجح فى ميل بنيانهم حجارة منحوتة حسنة وطوب

«أحسن التقاسيم - ١٦٤».

مصر - هذا هو الإقليم الذى افتخر به فرعون على الورى، وقام على يد يوسف بأهل الدنيا، فيه آثار الأنبياء والتيه وطور سيناء ومشاهد يوسف وعجائب موسى، وإليه هاجرت مريم بعيسى، وقد كرر الله فى القرآن ذكره وأظهر للخلق فضله أحد جناحى الدنيا ومفاخره فلا تحصى، مصر قبة الإسلام، ونهره أجل الأنهار وبخيراته تعمر الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحاج وبره يعم الشرق والغرب. قد وضعه الله بين البحرين وأعلى ذكره فى الخافقين، حسبك أن الشام على جلالتها رستاقة والحجاز مع أهلها عياله، وقيل إنه هو الربوة، ونهره جرى عسلاً فى الجنة، قد عاد فيه حضرة أمير المؤمنين ونسخ بغداد إلى يوم الدين وصار مصره أكبر مفاخر المسلمين، غير أن جدبه سبع سنين متوالية والأعناب والأتيان به غالية، ورسوم القبط عالية وفى كل حين تحل بهم الداهية عمره مصر بن حام بن نوح، وهذا شكله ومثاله (١٩٣).

ذكر بادية العرب :

أعلم أن بين أقاليم العرب، غير العرب بادية ذات مياه وغدران وآبار وعيون وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة، الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل، خفية الطرق طيبة الهواء ردية الماء، ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء ومن

الناس من يعدها من الجزيرة وليست منها، ومنهم من يجزئها على الأقاليم، ومنهم من يجعلها من الشام. وقد رأينا نحن أن نفرزها ونفرد صورتها لأن أحداً من أهل الأقاليم الثلاثة عشر لا طريق له إلى مكة فى البر إلا فيها ولا غنى له عن معرفتها وأيضاً فإن فيها مناهج لا تعرف ومياها قد تجهل وفى ذكرها فوائد لا تحصى وأجر وحسبة لا تخفى، وقد سافرت فيها غير مرة ومسحتها يمنا وشاما وشرقا وغربا وتفحصت عن طرقها وسألت عن مياهها وتبحرت فى معرفتها، حتى حزت الكثير من أسبابها وعرفت معظم طرقها، وقد جعلنا من ويلة إلى عبادان ثم إلى بالس مقوسة وقسمناها اثنى عشر طريقا: تسع طولا يؤدين إلى مكة وثلاث عرض يؤدين إلى الشام، وبها طريق آخر لقرح يؤدى إليها من البصرة ثم إلى مصر (٢٤٩).

«فيها نبت يقال له الفث على عمل الخردل ينبت من نفسه، فيجمعونه إلى الغدران، ثم يبلونه بالماء فيتفتح عن ذلك الحب ثم يطحنونه ويخبزونه ويقوتون به، ويكثرون أكل لحم اليربوع والحيات، ويقطعون الطريق ويؤون الغريب ويهدون الضال ويخفرون القوافل، وعلى الجملة لا يمكن أن يعبر أحد هذا الطريق إلا بخفير أو قوة، وترى الحاج مع قوتهم يهتكون وتؤجد أباعرهم وخزائنهم وتخوم هذه البادية تأخذ من ويلة على مدائن قوم لوط، وتصعد إلى مآب، ثم على تخوم عمان وأدرعات ورساتيق دمشق، وتدمر وسلمية وأطراف حمص إلى بالس، ثم ترجع إلى الفرات وتعطف على الرقة والرحبة والدالية إلى هيت والأنبار، ثم على الحيرة والقادسية ومغارب البطائح ثم على سواد البصرة إلى عبادان، وليس فى هذه البادية إلا تيماء وهى مدينة واسعة البقعة كثيرة النخيل هائلة البساتين غزيرة الماء، مع خفة عجيبة وعين مليحة وهى سهلة إلا أن أكثرها خرابات، الجامع فيها والعمارات حول السوق وكل تمورها جيدة وفى أهلها شره لا عالم بها يُرجع إليه ولا حاكم يعول عليه، ورأيت خطيبهم بقالاً وحاكمهم نعالاً مع تعصب عظيم ودروع داودية يلبسونها فى الفتن (٢٥٢).

إقليم الديلم:

هذا إقليم القز والصوف به صناع حذاق، وفواكه تحمل إلى الآفاق وبره

معروف بمصر، والعراق كثير الأمطار مستقيم الأسعار، مصر ظريف ولهم عمل لطيف، يجلون الشريف ويرحمون الضعيف، كبراء فى الفقه وأجلة فى الحديث رجال فى القتال، وكل عفيف رسوم حسان وذيل نظيف، بحر عميق به مدن تطيف، به أسماك سرية وضياع جليلة وفواكه لذيذة وأشياء متضادة وأرزاز كثيرة به تين وزيتون واترنج وخرنوب كثير العناب حسن الأعناب، رساتيق رحاب ومدن طياب وخيش عجاب واسم كبير وماء غزير ودخل كثير وبز خطير، وإنما نسبناه إلى الديلم، لأن به ديارهم وفيه ملكهم ومنه منبعهم وهم اليوم قد استولوا على ما يصاقبهم «ما يجاورهم» من البلدان واحتووا على أئمة الإسلام وأذعن لهم الخاص والعام - ٣٥٣».

لسان أهل الديلم

ولسان قومس وجرجان متقاربان، يستعملون الهاء يقولون هاده وهاكن. وله حلاوة، ولسان طبرستان مقارب له، إلا أن فيه عجلة، ولسان الديلم مخالف منغلق والجيل يستعملون الخاء، ولسان الخزر شديد الانغلاق. وفى ألوانهم أهل قومس ابتلاء، والديلم حسان اللحى والوجوه أيضا، ولهم طلل، وفى أهل جرجان نحافة، أهل طبرستان أحسن وأصفى، وفى الخزر مشابه من الصقالبة، وأكثر أسامى أهل جرجان أبو صادق، وأبو الربيع، وأبو نعيم. وأهل طبرستان أبو حامد ورسمهم بجرجان أن التذكير للفقهاء وأهل الروايات، ولا يكثرون التطالس.

وللديلم رسوم (نظم وأعراف) عجيبة لا يزوجون إلى غيرهم، وكنت فى بعض الخانات فإذا بصبية تعدو ورجل شاهر سيفه يعدو خلفها يروم قتلها، فقلت ما فعلت حتى استوجبت القتل، قال: إنها زوجت إلى غيرنا وقتل من فعل ذلك واجبٍ عندنا، إذا كان لهم مأتم كشفوا رؤوسهم واجتمعوا، وقد التف المعزِّى والمعزَّى فى الأكسية وأداروها على رؤوسهم ولحاهم. ولهم مجالس فى السكك والأسواق مرتفعة يجتمعون بها بأيديهم الزوبينات، وعليهم الأكسية الطبرية يسمون العالم معلما، وربما تعلقوا بى وقالوا: لوك معلم واللوك هو الجيد. ولا رسم لهم فى بيع الخبز، ويخفرون من تساءل، وإنما ينبغى للغريب أن يقصد

دورهم فيأخذ من الطعام ما يحتاج إليه، ولهم أسواق على أيام الجمعة فى السهل لكل قرية يوم، فإذا فرغوا انحاز الرجال والنساء إلى معزل يتصارعون فيه، ورجل جالس معه حبل كل من غلب عقد له عقدة. فإذا هوى الرجل امرأة راح معها فيتلقاه أهلها بالبشر والترحيب، ويتباهون به إذا رغب فى كرمهم فيضيفونه ثلاثة أيام، ثم ينادى المنادى بعد ما اجتمع معها أسبوعا فى عمارة له بمعزل. فيجتمعون ويختطون، وسألت أبا نابتة الأنصارى قلت:

هل يصيبها قبل العقد؟ قال لو علموا بذلك قتلوه، وكثيراً ما حضرت عقود أهل بيار، يجتمع النسا بعد العتمة مع كل رجل قارورة من ماء ورد، والنيران تقد على باب الختن والعروس، فيبدأ بعض المشايخ فيخطب خطبة بليغة يطلب فيها الزوجين ويطلب المرأة، ثم يجيبه آخر من قبل العروس فى خطبة بأحسن جواب، وأكثرهم خطباء أدباء ثم يعقدون النكاح، ويقوم أصحاب القوارير فيضربون بها الحيطان، ثم يعطى صاحب كل قارورة طبقاً من آفروشة، ولا ترى مثل آفروشتهم فى الدنيا.

وسمعت أن بعض الملوك استدعى برجل منهم يجيد عملها، وبدقيق من دقيقهم، وشىء من سمنهم ودوشابهم، وامرأة تعملها فلم تكن كالتى تعمل ببيار، ورأيت من حمل منها إلى مكة ثم رده ولم يتغير، ومكثت أربعة أشهر أحضر دعواتهم وأعراسهم، فما رأيتهم يزيدون على ثردة بعد لحم قد أخرج عظامه، ثم الأرز، ثم الأفروشة الرطبة، وإذا وقعت عندهم الثلوج أرسلوا النهر فى الشوارع، فحملت الثلج بأجمعه، وغسلت الأزقة، ولا ترى امرأة بالنهار إنما يخرجن بالليل فى أكسية سود، ولا تتزوج امرأة مات زوجها فإن فعلت ضرب الصبيان على بابها بالخزف (٣٦٩، ٣٧٠).

سيراف :

هى قصبة أردشيرخر، وكان أهلها حين عمارتها يفضلونها على البصرة لشدة عمارتها وحسن دورها وظروف جامعها ولباقة أسواقها ويسار أهلها وبعد صيتها، وكانت حينئذ دهليز الصين دون عمان وخزانة فارس وخراسان. وعلى الجملة ما

رأيت فى الإسلام أعجب من دورها ولا أحسن، قد بنيت من خشب الساج والآجر شاهقة، تشترى الدار الواحدة بفوق المائة ألف درهم ثم إنها خفَّت لما ولى الديلم، وانجلوا إلى سواحل البحر وعمروا قصبة عمان، ثم جاءت زلزلة سنة ٦٦، ٦٧ فقلقلتها وحركتها سبعة أيام حتى هرب الناس إلى البحر، وتهدم أكثر تلك الدور وتفطرت، وصارت آية لمن تأملها وعبرة لمن اتعظ بها، وسألتهم ما الذى صنعتم حتى رفع الله حلمه عنكم، قالوا كثر فينا الزنا وفشا فينا الربا قلت فهل اعتبرتم بما أرى، قالوا: لا وحدثت عن نسائهم بشىء قبيح ورأيت أهل فارس مع كثرة فسقهم، يضربون بهم الأمثال وأخبرت أنهم قد أخذوا فى العمارة وقد بدت ترجع إلى ما كانت، وهى باب جهنم من شدة الحر والماء يحمل إليها من البعد، ولهم قناة صغيرة عذيبية وفواكههم قليلة، موضوعة بين الجبل والبحر وما حولها فأرض قفر بالقرب منها نخيلات (٤٢٦).

السوس «إقليم خوزستان»:

لما دخلت السوس قصدت الجامع فى طلب شيخ أسمع منه شيئا من الحديث وعلىَّ جبة صوف قبرصية وفوطة بصرية، فدفعت إلى مجلس الصوفية، فلما قربت منهم لم يشكوا إلا وأنا صوفى فتلقونى بالترحيب والتحية، وأجلسونى فيما بينهم وجعلوا يسألوننى، ثم بعثوا رجلا فأتى بطعام فجعلت أنقبض عن الأكل، وما كنت صاحبت هذه الطائفة قبل ذلك فجعلوا يتعجبون من انقباضى وعدولى عن رسومهم، وقد كنت أحب أن أخالط هذه الطائفة وأعرف طريقتهم وأعلم حقائقهم، فقلت فى نفسى هذا وقتك... هذا موضع أنت به مجهول، فانبسطت إليهم فكشفت ثوب الحياء عن وجهى، فمرة كنت أراسلهم وكرة أزعق معهم وتارة أقرأ لهم القصائد، وأخرج معهم إلى الرباطات، وأذهب إلى الدعوات حتى والله حللت من قلوبهم وقلوب أهل البلد بحيث لا غاية، ووقع لى بها اسم وقصدنى الزوار وحملت إلى الثياب والصرر، وكنت آخذه وأدفعه إليهم برمته فى الوقت، لأنى كنت غنياً فى وسطى نفقة وافرة، وأنا كل يوم فى دعوة وأى دعوة، وكانوا يظنون أنى أفعله زهداً وجعل الناس يتمسحون بى ويذيعون خبرى،

ويقولون لم نر فقيراً قط أفضل من هذا حتى إذا وقفت على سرائرهم، وعرفت ما أردت منهم هربت منهم فى سجو ليلة، فأصبحت وقد قطعت أرضا فبينما وأنا بالبصرة وعلى ثوبى وغلام يتبعنى، إذ رآنى رجل منهم فوقف ينظر إلى شبه المتعجب فجزت عليه شبه المنكر (٤١٥).

نهر مهران:

لا يخالف النيل فى شىء من الحلاوة والزيادة وكون التماسيح فيه وخروجه من الناحية التى يظهر منه بعض شعب جيحون قبل الوحش، ويظهر بناحية الملتان حتى يجرى إلى حدود المنصورة فيقع فى البحر عند الديبل وعليه مزارع عند زيادته كما ذكرنا بمصر ونهر سندرود من الملتان على ثلاث مراحل وهو كبير عذب، وأما الأصنام بهذا الإقليم فصنمان بهبروا من حجر لايصل إليه أحد، له طلسم إذا وضع الرجل يده بقيت لا تصل إليه وهما على شبه الذهب والفضة كل من طلب عندهما حاجة زعموا أنها تقضى، وثم عين ماء خضراء كأنها زنجار أشد بردا من الجليد حجرها يبرىء الجراحات، والخُدَّام يأكلون من جدر الزناة وعليه أوقاف من الزناة كثيرة، ومن أراد أن يكرم ابنته جعلها وقفا عليه، فهما فتنة، ورأيت رجلاً من المسلمين ذكر أنه ارتد ورجع إلى عبادتهما وافتتن بها ثم عاد إلى نيسابور فأسلم، وهما طلسمان وبعدهما صنم الملتان وإليه تنسب الكورة، ويسمى فرج بيت الذهب، لأن المسلمين لما فتحوا الملتان كان الأمر عليهم ضيقاً، فوجدا بها من الذهب ما أغناهم.

وبيت هذا الصنم قصر مبنى فى أعمر موضع من الأسواق وسط قبة حسنة حولها بيوت الخدَّام، وهو تحت القبة على صورة رجل متربع على كرسى من جص وآجر، وقد ألبسوه جلدا يشبه السنجاب أحمر لا يتبين منه غير عينيه وهما جوهرتان وعلى رأسه إكليل ذهب قد وضع يديه على ركبتيه، وقبض أصابع يديه كأنه يسحب أربعة، وما بعد هذه الأصنام دونها».

وبعد. . فقد طوفنا عبر النماذج السابقة من كتاب «**أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم**» ببعض ملامح العالم الإسلامى، وتعرفنا منهج المقدسى وأسلوبه فى

العرض، وأدركنا مدى اتساع أفقه وشمولية نظرته وسلامة لغته الأدبية ووصفه الجيد لما يرى بما ينبئ عن دقة ملاحظاته وحرصه على الموضوعية وجمعه فى وصف شامل متكامل للطبيعة والبيئة والبشر وألسنتهم، تقاليدهم وعاداتهم، منتجاتهم الزراعية والصناعية.. ملابسهم ومساكنهم ومساجدهم.. ألوان الطعام والشراب.. ظروف المكان وطبيعته وسطوحه.. أنهاره وجباله وسهوله والمسافات التى تفصل بينه وبين غيره، الأمر الذى يجعل من هذا الكتاب رغم أنه الوحيد لمؤلفه، الذى أنفق فيه العمر جميعه، إحدى العلامات الفارقة فى تاريخ أدب الرحلة والجغرافية الوصفية فى القرون الوسطى، ولا يحول ذلك دون القول بأن الكتاب يحفل رغم عربيته الرصينة بالعبارات والألفاظ الفارسية وغيرها من اللغات الشرقية، لذلك أشفق الكثيرون من القيام على تحقيقه.

ونرى أن ينهض بدراسة الكتاب وتحقيقه باحث فى اللغات الشرقية على ثقافة، تمكنه من معرفه أصل اللفظ ومعناه ودلالاته الاجتماعية واللغوية والجغرافية وغيرها.

المهلبى
٣٧٥هـ - ٩٨٥م

واحد من أبرز رحالة وجغرافيى مصر، خلال القرن الرابع الهجرى «العاشر الميلادى» هو الحسن بن محمد المهلبى، قام بعدة رحلات إلى أفريقيا والجزيرة العربية والعراق والشام، ووضع مؤلفا لم يصل إلينا اسمه، «**المسالك والممالك**»، وقد أهداه إلى حاكم مصر الفاطمية الخليفة العزيز بالله (٣٦٨ - ٣٨٦هـ) (٩٧٨ - ٩٩٦م) لذلك سمى الكتاب أحيانا بالعزيزى، وقد اشتهرت هذه التسمية تمييزاً للكتاب عن غيره من الكتب التى تحمل العنوان نفسه، وتعددت بصورة غير مقبولة، ولا أدرى كيف يستقيم لكاتب أن يسمى كتابه باسم تحمله كتب كثيرة سابقة.

لم نعثر على الكتاب، ولا تتوفر إلا بعض شذرات متفرقة، ذكرها ياقوت فى معجمه وبعض المؤلفين المتأخرين، وقد اعتمدوا عليه عند الحديث عن إفريقيا وخاصة السودان، وومن اعتمد عليه كثيراً ونقل عنه المؤرخ الجغرافى أبوالفدا، وقد ظل كتاب المهلبى معروفا حتى أيام دولة التيموريين.

وهكذا انتهى المطاف بعد البحث، وأمامنا هذه المعلومات القليلة جدا عن المؤلف، وهذه الشذرات القليلة جدا من كتابه، وها نحن نطالع بعضها فى السطور التالية:

عن رفح، قال المهلبى:

ورفح مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق، وأهلها من لخم وجذام، وفيهم لصوصية وإغارة على أمتعة الناس حتى إن كلابهم أضر كلاب أرض بسرقة ما يسرق مثله الكلاب، ولها والى معونة برسمه عدة من الجند، ومن رفح

إلى مدينة غزة ثمانية عشر يوما، وعلى ثلاثة أيام من رفح من جنب هذه غزة، شجر جميز مصطف من جانبى الطريق عن اليمين والشمال نحو ألف شجرة متصلة أغصان بعضها ببعض مسيرة نحو يومين، وهناك منقطع رمل الجفار ويقع المسافرون فى الجلد.

وعن العريش، قال المهلبى المصرى:

مدينة جليلة، وهى كانت حرس مصر أيام فرعون، وهى آخر مدينة تتصل بالشام من أعمال مصر ويتقلدهم والى الجفار، وهى مستقرة وفيها جامعان ومنبران، وهواؤها صحيح طيب، وماؤها حلو عذب وبها سوق جامع كبير وفنادق جامعة كبيرة ووكلاء للتجار، ونخل كثير وفيها صنوف من التمور ورمان يحمل إلى كل بلد بحسبه، وأهلها من جذام ومنها إلى بئرى أبى اسحق ستة أميال، وهما بئران عظيمان ترد عليهما القوافل وعندهما أخصاص فيها باعة، ومنها إلى الشجرتين وهى أول أعمال الشام ستة أميال، ومنها إلى البرمكية ستة أميال ثم إلى رفح ستة أميال.

(الحموى ص٥٤ جـ٣)

وعن الجفار، يقول أبوالحسن المهلبى فى كتابه الذى ألفه للعزيز:

وأعيان مدن الجفار العريش ورفح والواردة، والنخل فى جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان، وأهلها بادية محتضرون، ولجميعهم فى ظواهر مدنهم أجنة وأملاك وأخصاص فيها كثير منهم، ويزرعون فى الرمل زرعاً ضعيفاً يؤدون فيه العشر، وكذلك يؤخذ من ثمارهم، ويقطع فى وقت من السنة إلى بلدهم من بحر الروم طيرٌ من السلوى يسمونه المرع يصيدون منه ما شاء الله، يأكلونه طرياً ويقتنونه مملوحاً، ويقطع أيضا إليهم من بلد الروم على البحر فى وقت من السنة جارح كثير فيصيدونه، منه الشواهين والصقور والبواشق، وقل ما يقدرون على البازى، وليس لصقورهم وشواهينهم من الفراهة مالبواشقهم، وليس يحتاجون لكثرة أجنتهم إلى الحراس.

«معجم البلدان ص١٤٥ جـ٢».

أما عن زغاوة بالسودان، فيقول المهلبي:

ولزغاوة مدينتان يقال لإحداهما مانا وللأخرى ترازكى، وهما فى الإقليم الأول، وعرضهما إحدى وعشرون درجة، ومملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان فى حد المشرق منها مملكة النوبة الذين بأعلى صعيد مصر بينهم مسيرة عشرة أيام، وهم أمم كثيرة، وطول بلادهم خمس عشرة مرحلة فى مثلها فى عمارة متصلة وبيوتهم جصوص كلها وكذلك قصر ملكهم، وهم يعظمونه ويعبدونه من دون الله تعالى ويتوهمون أنه لا يأكل الطعام، ولطعامه قومة عليه سراً يدخلونه إلى بيوته لا يعلم من أين يجيئونه به، فإن اتفق لأحد من الرعية أن يلقى الإبل التى عليها زاده قتل لوقته فى موضعه، وهو يشرب الشراب بحضرة خاصة أصحابه، وشرابه يُعمل من الذرة مقوى بالعسل، وزيه لبس سراويلات من صوف رقيق والاتشاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف الأسماط والخز السوسى والديباج الرفيع، ويده مطلقة فى رعاياه ويسترق من شاء منهم، أمواله المواشى من الغنم والبقر والجمل والخيل، وزروع بلدهم أكثرها الذرة واللوبيا، ثم القمح، وأكثر رعاياه عراة مؤتزرون بالجلود، ومعايشهم من الزروع واقتناء المواشى، وديانتهم عبادة ملوكهم يعتقدون أنهم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحون، وهى من مدائن البلماء وقصبة بلاد كاوار على مست الشرق منحرفاً إلى الجنوب.

«المعجم - جـ٢ ص١٤٢»

قال المهلبى يصف أحد شوارع سر من رأى:

وأنا اجتزت بسر من رأى منذ صلاة الصبح فى شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور، كأن اليد رفعت عنها للوقت لم تعدم إلا الأبواب والسقوف، فأما حيطانها فكالجدد، فمازلنا نسير إلى بعد الظهر حتى انتهينا إلى العمارة منها، وهى مقدار قرية يسيرة فى وسطها، ثم سرنا من الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا

من آثار البناء إلى نحو الظهر، ولا شك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ.

«معجم البلدان جـ ٣ ص١٧٦».

ويقول عن عمواس:

كورة عمواس هي ضيعة جليلة علي ستة أميال من الرملة علي طريق بيت المقدس، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ثم فشا في أرض الشام، فمات فيه خلق كثير لا يحصي من الصحابة، رضي الله عنهم، ومن غيرهم وذلك في سنة ١٨ للهجرة.

«الحموي جـ ٣ ص - ٥٤».

وقال المهلبي عن الفرما:

«وأما الفرما فحصن علي ضفة البحر لطيف لكنه فاسد الهواء، وخمه لأنه من كل جهة حوله سباخ تتوحل فلا تكاد تنضب صيفاً ولا شتاء، وليس بها زرع ولا ماء يشرب إلا ماء المطر، فإنه يخزن في الجباب، ويخزنون أيضا ماء النيل يحمل إليهم في المراكب من تنيس «دمياط»، وبظاهرها في الرمل ماء يقال له العذيب ومياه غيره في آبار بعيدة الرشاء وملحة تنزل عليها القوافل والعساكر، وأهلها نحاف الأجسام متغيرو الألوان، وهم من القبط وبعضهم من العرب من بني جري وسائر جذام، وأكثر متاجرهم في النوي والشعير والعلف لكثرة اجتياز القوافل بهم، ولهم بظاهر مدينتهم نخل كثير له رطب فائق وتمر حسن يجهز إلي كل بلد».

الحموي جـ ٤ ص ٧٥.

وقال الحسن بن المهلبي المصري:

«الطريق من الفرما إلي غزة علي الساحل من الفرما إلي رأس القس وهو لسان خارج في البحر، وعنده حصن يسكنه الناس، ولهم حدائق وأجنة وماء عذب ويزرعون زرعا ضعيفا بلاثور ميلاً.

وبعد . . فإن إطلالة متعجلة علي النماذج البسيطة السابقة تدلنا علي ملكة المهلبي، وقدراته كجغرافي ورحالة وأديب، يتميز بدقة الملاحظة حتي ليرصد حياة الكلاب وعاداتها ويحتفي بالملامح الإثنوجرافية والإنسانية، ولا تفوته الأسواق وصور العمران والمحاصيل والطيور والماء والهواء، الأمر الذي يجعل من ضياع مصنفه خسارة تستحق أن نأسف لها.

هوامش

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص٦٦.

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٤٤.

(٣) معجم البلدان جـ٢ ص٤٠٥.

(٤) تاريخ الأدب الجغرافي ص٢٠٠.

(٥) صورة الأرض ص٢٣٦ طبعة ليدن.

(٦) المسالك والممالك، الإدارة العامة للثقافة - وزارة التربية والتعليم - المقدمة.

(٧) أكبر.

(٨) الدرَّاعة جبة مشقوقة المقدم، ولا تكون إلا من صوف.

(٩) جربان: القميص مفتوح الصدر.

(١٠) أهل البلد الأصليون.

(١١) المقتدر بالله: هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد تولي الخلافة، وهو ابن ثلاثة عشر سنة ٢٩٥هـ، وكان مبذراً واتسم عهده بكثرة المنازعات حتي أن أعداءه أنزلوه عن الخلافة مرتين، ثم عاد إليها لثالث مرة، لينتهي عهده بالموت قتلاً عام ٣٢٠هـ وله من العمر ٣٨ عاماً.

(١٢) معجم البلدان الحموي - جـ١ ص٤٨٦.

(١٣) مدينة السلام: بغداد وهي مقر الخلافة العباسية.

(١٤) الخيام.

(١٥) الآداب والتقاليد.

(١٦) معجم البلدان جـ٢ ص٨٠، ٨١، ٩٢.

(١٧) كارل بروكلمان جـ٤.

(١٨) النقد المنهجي عند العرب ص٦٧.

(١٩) صورة الأرض - ابن حوقل ص٢٣٦.

(٢٠) الحضارة الإسلامية - ميتز ص٤٣٣، ٤٣٤.

(٢١) الرحلات ص٤٢.

(٢٢) حديث الفتية المغررين من أهل لشبونة - عبدالحميد العبادي - العدد ١٣٦.

(٢٣) الشريف الإدريسي - محمد عبدالغني حسن.

(٢٤) أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية - د. محمد محمود الصياد ص٣٢٣، ٣٢٤.

(٢٥) أخبار الزمان - المسعودي - الناشر عبدالحميد حنفي.

(٢٦) يذهب كثير من المؤرخين إلي أن المسعودي لم يرحل من جديد إلا عام ٣٣٢، ومنهم جورجي زيدان في «تاريخ اللغة العربية» جـ٢ ص٣١٣، ولكن المسعودي نفسه ذكر في مروج الذهب أنه كان بمصر عام ٣٣٠هـ (جـ ١ ص٣٤٣».

(٢٧) التنبيه والإشراف - المقدمة.

(٢٨) المسعودي - د. نبيه عاقل - مجلة العربي - العدد ٤٨ - نوفمبر ١٩٦٢.

(٢٩) المصدر السابق ص١١٣.

(٣٠) مروج الذهب - المسعودي - تحقيق محيي الدين عبد الحميد - دار المعرفة - بيروت.

(٣١) صورة الأرض - ص٢٣٦.

(٣٢) لب التاريخ - محمد غنيم - جـ٣ ص١٠٣، ١٠٤.

(٣٣) الرحلات - شوقي ضيف ص١٣.

(٣٤) معجم البلدان - جـ٤ ص٣٢٤.

(٣٥) صورة الأرض.

(٣٦) العرب في صقلية - د. إحسان عباس - دار المعارف ص٧٧.

(٣٧) هو الصاحب بن عباد الطالقاني، كان أديبا وشاعراً ووزيراً، لقب بالصاحب لمصاحبته ابن العميد.

(٣٨) يتيمة الدهر جـ٣ ص١٧٦ - ١٩٤.

(٣٩) ورد ذكر العام الميلادي خطأ في عدد من المصادر على أنه (٩٥٥م).

(٣٩م) كراتشكوفسكي - ص١٨٨ - ١٨٩.

(٤٠) معجم البلدان جـ٢ ص٣٨٤.

(٤١) الرسالة الثانية - مسعر بن المهلهل - الإدارة العامة للثقافة - وزارة المعارف - القاهرة ١٩٥٥.

(٤٢) معجم البلدان جـ٢ ص٤٤١ - ٤٤٧.

(٤٣) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٧٥، ٣٧٦.

(٤٤) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٨٣، ٣٨٤.

(٤٥) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٥٦.

(٤٦) المصدر نفسه جـ٢ ص٤٧٦.

(٤٧) تاريخ الأدب الجغرافي ص٢٠٨.

(٤٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٩.

(٤٩) التسول.

(٥٠) أبوزيد البلخي - الأديب الرحالة.

(٥١) أحسن التقاسيم ص١٩.

(٥٢) العزيز بالله بن المعز الخليفة الفاطمي، كان عادلاً وعاقلاً مولعاً بالصيد، وقد استقامت في عهده أمور الدولة، وافتتح بعض مدن سوريا، ومات عام ٣٨٦هـ.

رحالو القرن الخامس الهجرى
الحادى عشر الميلادى

١- البيرونى
٢- ابن بطلان
٣- أبو عبيد البكرى

البيَرُونى

(٣٦٢ - ٤٤٠هـ) (٩٧٣ - ١٠٤٨م)

هو أبو الريحان البيرونى الرياضى الفلكى الفيلسوف الجغرافى المؤرخ، صاحب المؤلفات العلمية الرائدة، التى حققت له شأنا عظيما خلال عصر النهضة العربية، بفضل ما تميز به من عقلية تحليلية وغزارة فى الإنتاج، ورغبة لاتكل فى التحصيل المعرفى والكشف العلمى، ونهم لايشبع للمطالعة والدرس، وإجادة لعدد من اللغات هى الخوارزمية والعربية والفارسية والسنسكريتية واليونانية والسريانية، فاستطاع أن يأتى على أغلب الثقافات والعلوم التى دونت بها.

يقول عنه العلامة الألمانى «**سخاو**» إنه أعظم عقلية عرفها التاريخ، وأطلق **جورج سارتون** فى كتابه القيم «**مقدمة فى تاريخ العلم**» اسم البيرونى على النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، فسماه عصر البيرونى.

والبيرونى لم يكن وحده فى زمان خلا من العباقرة والمبرزين حتى يبدو لنا وسط الدهماء وأنصاف العلماء عظيما، لكنه عاش فى عصر ضم أفذاذ الرجال كالعالم الكبير **ابن يونس المصرى**، الذى اخترع رقاص الساعة «البندول» وعالم البصريات والطبيعيات المرموق **الحسن بن الهيثم**، وفى هذا العصر أيضا ظهر الطبيب والفيلسوف الشهير **ابن سينا**، وغير هؤلاء كثرة من أعلام الحضارة، كان البيرونى على رأس الجميع وفى مقدمتهم.

خلف لنا عددا كبيرا من المؤلفات يصل إلى نحو مائة وثمانين كتابا، نشر هو بنفسه فهرسا بأسماء مائة وثلاثة منها وذلك فى مؤلفه «**رسالة فى فهرس كتب**

محمد بن زكريا الرازى»، الذى نشره **ماكس كراوزه** عام ١٩٣٦، بالإضافة إلى مؤلفاته اللاحقة، التى أتمها بعد أن كتب فهرسه، وقد ضاع الكثير من هذه المؤلفات وبعضها موزع على مكتبات العالم.

ومن أشهر مؤلفاته:

١- كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية.

٢- الهند الكبير أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرزولة.

٣- كتاب القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم.

٤- كتاب تحقيق منازل القمر.

٥- عشر مقالات فى خواص المعادن والهندسة والطبيعة والفلك.

٦- كتاب رؤية الأهلة.

٧- كتاب كرية السماء.

٨- استخراج الأوتار فى الدائرة.

٩- الصيدلة فى الطب.

١٠- تقاليد علم الهيئة.

ولد أبوالريحان محمد بن أحمد البيرونى فى ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ «سبتمبر ٩٧٣م» فى إحدى ضواحى عاصمة الدولة الخوارزمية.

عاش فى بلدته حتى بلغ الثالثة والعشرين، حيث عمل فى بادىء الأمر كمساعد لأحد علماء النبات، يجمع له الكثير منها ومن بذورها، فغرس ذلك فى نفسه حب الاستطلاع والتقصى وطلب العلم، ثم تدرب على دراسة الأجرام السماوية على يد أستاذه أبى نصر منصور بن على بن عراق، كما اتصل بابن سينا، ونشر فى تلك الفترة أوائل مؤلفاته[1].

فى عام ٣٨٥هـ، هاجر البيرونى إلى جرجان فى الجنوب الشرقى لبحر قزوين، بسبب سوء الأحوال السياسية فى بلده وفى بلاط السلطان أبوالحسن قابوس بن شمس المعالى، ووضع أولى مؤلفاته المهمة، وهو «**الآثار الباقية عن القرون الخالية**» فى عام ٣٩٠هـ، وهو الكتاب الذى يقول عنه **كراتشكوفسكى**: كتاب لا مثيل له فى جميع آداب الشرق الأدنى[٢].

وفى عام ٤٠٠هـ عاد إلى بلده بعد استقرار الأحوال السياسية، وأقام فى الجرجانية عاصمة خوارزم الجديدة متمتعاً برضا الأمير «أبوالعباس» مأمون خوارزم شاه، ولعب دوراً كبيراً فى مجلس العلوم فى الجرجانية، وفى عام ٤٠٧هـ (١٠١٧م) غزا السلطان الغزنوى محمود بن سبستكين خوارزم واحتلها، وأخذ البيرونى وطائفة من العلماء أسرى إلى مدينة غزنة عاصمة الدولة الغزنوية الجديدة، وتقع هذه المدينة الآن فى منطقة داخل حدود أفغانستان. وقرب السلطان أبا الريحان إليه للاستفادة بعلمه، فلما وضع البيرونى موسوعته المهمة فى علم الفلك سماها باسمه، وضمها كتابه «**القانون المسعودى فى الحياة والنجوم**» لذلك أهداه مسعود حمل فيل من القطع الفضية مكافأة له على هذا العمل، لكن البيرونى رفضها لأنه كان يعمل حبا فى العلم ذاته.

وعندما غزا السلطان مسعود شمال غربى الهند، اصطحب البيرونى معه حيث قام بنشر علوم الحضارة الإغريقية التى درسها، وفى الوقت ذاته قام بدراسة علوم الهنود ونشر عنها فى كتابه «**تاريخ الهند**»، وبعد سنوات قضاها البيرونى فى الهند، عاد إلى غزنة حيث أقام بها حتى وفاته فى الثالث من رجب سنة ٤٤٠هـ «١٣ ديسمبر ١٠٤٨م»، وإذا كان بعض المؤرخين يذهبون إلى أن البيرونى عاش حتى سنة ٤٤١هـ (١٠٥٠م).

رحلة البيرونى:

فتح المسلمون بلاد السند فى أواخر القرن الأول الهجرى، ولكن الإسلام لم

ينتشر بها ويستقر إلا بعد فتوحات محمود الغزنوى[3] (٩٧٠ - ١٠٣٠م)، التى استمرت على مدى ربع قرن تقريبا، وتقدم نحوها لمحاربة الراجوات سبع عشرة مرة، صحبه البيرونى فى ثلاث عشرة منها، وقد أتيحت للبيرونى الفرصة كى يدرس أحوال الهنود ويجادل فلاسفتهم ويحذق لغتهم ويقرأ أدبهم، ويطلع على ثقافتهم، ويشهد طقوس عباداتهم وتقاليدهم، ويقف على أساليبهم فى العيش والتفكير.

ومن هنا كان إقدامه على وضع سفر، يصف فيه حضارة الهند ومعالمها الجغرافية، وأبرز المعتقدات السائدة فيها والمبادىء الفلسفية التى تنتظم أفكار أبنائها، وقد فرغ منه فى المحرم عام ٤٢٣هـ (١٠٣١م) وهو فى الثامنة والخمسين من العمر، وكانت النسخة الأولى تقع فى نحو ٧٠٠ صفحة، لكنها فقدت وعثر على مخطوطة أخرى وضعت عام ٥٥٤هـ (١١٥٩م)، وهى التى حققها ونشرها لأول مرة المستشرق الألمانى «ساخاو»، وتقع فى ٣١٨ صفحة، وكان ذلك عام ١٨٨٧م، ومنها نسخة بدار الكتب المصرية.

ويقول ساخاو فى مقدمته للكتاب:

إن ذلك السفر القيم تضمن فيما تضمن الوفير من المعلومات المهمة، التى كان يجهلها المسلمون فى عصر البيرونى والأوروبيون حتى العصور الحديثة، وقد ذاع اسم ذلك الكتاب بعنوان «تاريخ الهند»، ربما بسبب قصره.

تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة فى العقل أو مرذولة

يبدأ الكتاب بمقدمة تبين أهداف الكتاب، ومنها قول صاحبه:

«وليس الكتاب حجاجا وجدلا حتى استعمل فيه بإبراز حجج الخصوم ومناقشة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورد كلام الهند على وجهه وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقارنة بينهم فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق، فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز نحلتهم

ومواصفات ناموسهم، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم، إلا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى، لتقارب الأمر بين جميعهم فى الحلول والاتحاد».

والمطلع على كتاب **«تحقيق ما للهند من مقولة»** سوف يلحظ ميل البيرونى إلى الفلسفة وتركيزه على العقائد، ولعل ذلك ربما يرجع إلى غلبة التفلسف والتأمل على معظم أهل الهند، وقوة الاعتقاد فى نفوسهم وسيطرة الفكر على سلوكهم، ولا يكاد يبدر من رجل أو امرأة سلوك ما إلا وهو نابع من فكرة أو فلسفة أو اعتقاد أو اتباع لدعوة دينية، وهم يقدمون الرأى الدينى ويحترمون الفكر ويسرفون فى الألتزام به، وربما يكون اهتمام الكتاب بذلك تلبية لما أشار به الغزنوى، الذى طلب وضع كتاب عن عقائد الهند، ويكون البيرونى بهذا الكتاب قد بر بوعده ووضع الكتاب، مستهدفاً تحليل هذه العقائد وبيان المخالف منها والموافق للعقل والمنطق.

ولعل إطلالة سريعة على عناوين فصول الكتاب تكفى لبيان مقصده، وقد قسم البيرونى كتابه إلى ثمانين فصلا، نذكر منها ما يلى:

١- معتقدات الهنود وشرائعهم.

٢- أحكام العبادات عندهم مثل القرابين والصيام والحج والأعياد والصدقات والمحرم والمباح فى الطعام والشراب.

٣- نظام الطبقات فى المجتمع الهندى.

٤- أنواع الخط وأساليب الكتابة.

٥- التراث اللغوى والأدبى.

٦- المعالم الجغرافية.

٧- علم الفلك عند الهنود.

٨- طبيعة اعتقادهم فى الله سبحانه وتعالى.

٩- فى حال الأرواح وترددها بالنتائج فى العالم.

١٠- فى منبع السنن والنواميس والرسل ونسخ الشرائع.

١١- فى المناكح والحيض وأحوال الأجنة والنفاس.

١٢- فى العقوبات والكفارات.

ولأن البيرونى ليس أديبا ولكنه عالم مدقق، فقد جاءت عبارته علمية موضوعية محددة وجافة، يصعب أحياناً فهمها، وهو نفسه يعلن رفضه للترادف بين الألفاظ واشتراك اللفظ الواحد فى أداء عدد من المعانى المتباينة، ويرى أن مثل هذه العيوب لو وجدت فى لغة، فإنها تتسبب فى عدم فهم الأحوال فى بلاد هذه اللغة، وهو يرى لذلك أن اللغة العربية هى الأقرب إلى العلم من اللغات التى يجيدها واللغات الشائعة فى ذلك الزمان، ولذلك اختارها، وفى هذا المعنى يقول فى كتاب «**الصيدنة**» الذى وضعه بعد نحو نصف قرن من كتابه «الآثار الباقية»:

«وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت إلى الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها مع آلافها وأشكالها، وأقيس هذا بنفسى وهى مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير الميزاب والزرافة فى العراب، ثم متنقلة إلى العربية والفارسية فأنا فى كل واحدة دخل ولها متكلف والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية. وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسى كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية».

وهكذا فلم يمنع الشعور القومى الإيرانى البيرونى من تفضيل اللغة العربية على الفارسية، وهو وإن أبدى فى ذلك بعض المبالغة، إلا أنه بقى مخلصا لهذا الرأى طول حياته.

وقد دون البيرونى مصنفاته بكل تأكيد بالعربية، التى كان بلا شك يمتلك ناصيتها، سواء فى الأسلوب العلمى الصارم فى مجال الرياضة والفلسفة أو فى الأسلوب القصصى البسيط الذى يحفل به خاصة أحد مصنفاته الأخيرة، وهو كتابه فى «**الجواهر**»، ورغم هذا فإن العربية لم تكن لغته الأصلية، ولعل هذا من الأسباب التى أكسبته أسلوبا خاصا لا يمكن بأية حال اعتباره سلساً. وفى مؤلفاته للخاصة يبدو ميله إلى الإيجاز الشديد، وهو نفسه يعترف بأنه لا يكتب من أجل المبتدئين، لكنه حتى فى العرض القصصى العادى يجنح من وقت لآخر إلى الخروج عن المألوف المستعمل، بل ويضحى أسلوبه عسراً وعراً يحتاج فهمه إلى إعمال الجهد.

أما عن مصنفه «**الهند الكبير**» فلا نستطيع اعتباره مصنفاً فى علم الجغرافيا مائة فى المائة ولا نحتسبه ضمن مؤلفات أدب الرحلة تماما، وإن كان الأقرب إليها، لولا احتشاده بالمعارف والمعلومات حول الهند وحضارته الروحية، كما يتضمن الكتاب مجموعة هائلة من المعلومات الإثنوجرافية، وهى نتاج الطبيعة الشخصية للمؤلف الذى يحرص على جمع مادة غزيرة لكل موضوع، أما منهجه فى العرض فبدا متسقا ومتجانسا فى جميع الفصول، إذ يسوق ملاحظات عامة، تعقبها مقتطفات موثوق بصحتها من كتابات وأقوال الهنود، ثم يتأمل المسائل التى عالجوها ويقارنها بما أنجزه اليونان ومن بعدهم العرب والمسلمون، ويتلو ذلك بتعقيبه وإبداء ملاحظاته الواعية التى تكشف عن عبقرية فذة وسابقة لعصرها.

قال **روزن** عن الكتاب:

«أثر فريد فى بابه لا مثيل له فى الأدب العلمى القديم أو الوسيط، سواء فى الغرب أو الشرق»[٤].

أما **كروسه** فيقول:

هكذا يقف البيرونى أمام أعيننا بحاثة لا يعرف الكلل، وعلامة وضع نصب عينيه أهدافا بعيدة المدى. ولكنه فى الوقت نفسه تطلب الكثير من الآخرين،

وكان أميناً فى منهجه العلمى لا تأخذه فى الحقيقة لومة لائم إذا ما أبصر تلاعبا حولها أو ضربا من الإهمال، لقد كان عالماً واسع الأفق، وسعت معرفته العلوم الدقيقة لعصره، وإن شوقه البحث والتقصى يعود بالشرف لقومه وعصره ويقف قدوة لجميع العصور التالية»(٥).

نماذج من كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة فى العقل أو مرذولة»:

يقول فى الباب الأول:

«يجب أن نتصور أمام مقصودنا الأحوال التى لها يتعذر استشفاف أمور الهند - فإما أن يسهل بمعرفتها الأمر، وإما أن يتمهد له العذر، وهو أن القطيعة تخفى ما تبديه الوصلة، ولها فيما بيننا أسباب، منها:

إن القوم يباينوننا بجميع ما تشترك فيه الأمم، وأولها اللغة، وإن تباينت الأمم بمثلها، ومتى رامها واحد لإزالة المباينة لم يسهل ذلك، لأنها فى ذاتها طويلة عريضة، تشابه العربية بتسمى الشىء الواحد فيها بعدة أسام مقتضبة ومشتقة، وبوقوع الاسم الواحد على عدة مسميات، وحوجة فى المقاصد إلى زيادة صفات - لا يفرق بينها إلا ذو الفطنة لموضع الكلام، وقياس المعنى إلى الوراء والأمام، ويفتخرون بذلك افتخار غيرهم به، من حيث هو بالحقيقة عيب باللغة، ثم هى منقسمة إلا مبتذل لا ينتفع به إلا السوقة، وإلى مصون فصيح، يتعلق بالتصاريف والاشتقاق ودقائق النحو والبلاغة، لا يرجع إليه غير الفضلاء المهرة.

ثم هى مركبة من حروف، لا يطابق بعضها حروف العربية والفارسية، ولاتشابههما، بل لا تكاد ألسنتنا ولهواتنا تنقاد لإخراجها على حقيقة مخارجها، ولا آذاننا تسمع بتمييزها من نظائرها وأشباهها، ولا أيدينا فى الكتبة لحكايتها، فيتعذر من ذلك إثبات شىء من لغتهم بخطنا، لما نضطر إليه من الاحتيال لضبطها، بتغيير النقط والعلامات، وتقييدها بإعراب إما مشهور أو معمول، هذا مع عدم اهتمام الناسخين لها، وقلة اكتراثهم بالتصحيح والمعارضة، حتى يضيع الاجتهاد، ويفسد الكتاب فى نقل له أو نقلين، ويصير ما فيه لغة جديدة، لا يهتدى لها داخل

أو خارج من كلتا الأمتين، ويكفيك معرفا أننا ربما تلقفنا من أفواههم اسما، واجتهدنا فى التوثقة منه، فإذا أعدناه عليهم - لما يكادوا يعرفونه إلا بجهد، ويجتمع فى لغتهم كما يجتمع فى سائر لغات العجم حرفان ساكنان وثلاثة: وهى التى يسميها أصحابنا متحركات بحركة خفيفة، ويصعب علينا التفوه بأكثر كلماتها وأسمائها، لافتتاحها بالسواكن».

يكشف البيرونى القناع عن المشكلات، التى تقف فى سبيل الباحث عن أحوال الهند، ويذكر فى مقدمتها اللغة، ويشرح فى تفصيل أوجه الصعوبات، التى يتعذر التغلب عليها، وإذا كانت اللغة - وهى الأداة - التى يتعرف بها الباحث شئون الهند، من مذاهب ومعتقدات وغيرها تتميز بصعوبات كثيرة، فكم من المتاعب يلاقيها الباحث فى سبيل الوصول إلى ضالته[٦].

معتقدات الهنود

يقول البيرونى فى هذا:

«ويعتقدون فى الأرض أنها أرضهم، وفى الناس أنهم جنسهم، وفى الملوك أنهم رؤساؤهم، وفى الدين أنه نحلتهم، وفى العلم أنه معهم، فيترفعون، ولايظنون أن فى الأرض غير بلدانهم، وفى الناس غير سكانها، وأن للخلق غيرهم علما غير علمهم، حتى أنهم إن حدثوا بعلم أو عالم فى خراسان وفارس - استجهلوا المخبر، ولم يصدقوه».

يعتقدون أن الأرض لهم وحدهم، ولا يعترفون بجنس من البشر غير جنسهم، ولا بملوك غير ملوكهم، وقد وصل بهم الحال إلى أنهم لا يظنون فى الأرض بلدانا غير بلدانهم، ولا سكانا يعمرونها غير سكان بلادهم، ويعتقدون أن علوم الناس لا تشبه علومهم، من حيث الدرجة والرقى، ومن أجل ذلك إذا حدثهم محدث عن عالم فى أرض «خراسان» - أنكروا على المحدث حديثه وكذبوه فى خبره، إذ لا يوجد كما يعتقدون علماء غير علمائهم».

ولذلك يصفهم البيرونى بالترفع والتعالى.

فى حال الأرواح وترددها بالتناسخ عندهم:

ويقول البيرونى فى هذا الباب:

وكما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار بإيمان المسلمين والتثليث شعار النصرانية، والأسباب علامة اليهود، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يك منها، ولم يعد من جملتها، فإنهم قالوا:

إن النفس إذا لم تكن عاقلة، لم تحط بالمطلوب إحاطة كلية دفعة بلا زمان، واحتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقرار الممكنات، وهى وإن كانت متناهية، فلعددها المتناهى كثرة، والإتيان على الكثرة - مضطرة إلى مدة ذات فسحة، ولهذا لا يحصل العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناوبها من الأفعال والأحوال، حتى يحصل لها فى كل واحدة تجربة، وتستفيد بها جديد معرفة، ولكن الأفعال مختلفة بسبب القوى، وليس العالم بمعطل عن التدبير، وإنما هو مذموم، وإلى غرض فيه مندوب، فالأرواح الباقية تتردد لذلك فى الأبدان البالية بحسب... الأفعال إلى الخير والشر، ليكون التردد مع الثواب مبنياً على الخير، فتحرص على الاستكثار منه، وفى العقاب على الشر والمكروه - فتتبالغ فى التباعد عنه، ويصير التردد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه.

ويقول أحد حكمائهم:

فأعلم أنهم ليسوا ولا نحن بموتى معاً، ولا ذاهبين ذهابا لا رجوع معه، فالأرواح غير مائتة ولا متغيرة، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان، من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة، التى عقباها موت البدن، ثم العود».

لقد أطال البيرونى فى وصف فلسفة الهنود الدينية، من حيث الاعتقاد بالله والموجودات العقلية والحسية، وتعلق النفس بالمادة والأرواح، وتناسخها ومواضع الجزاء من الجنة والنار، وكيفية الخلاص من الدنيا، ومنبع السنن والنواميس والرسل ونسخ الشرائع، ووازن فى أكثر من موضع بين عقائد الهند والإسلام،

والصوفية، والنصرانية، والفلسفة اليونانية، والأفلاطونية الحديثة، ولكن مسألة دينية مهمة - كانت من صميم الفلسفة الدينية الهندية، واتضح أن لها أثرًا كبيرًا في الإسلام - تلك المسألة هي «تناسخ الأرواح»، وهي التي أشار إليها البيروني فيما أسلفناه من قوله، ويتبين لنا من شرحه لنظرية الهنود في التناسخ - أن الأرواح لا تموت ولاتفنى، وأنها أبدية الوجود، ولكنها تنتقل من بدن إلى بدن، وتترقى النفس في الأبدان المختلفة، كما يترقى الإنسان من الطفولة إلى الشباب، فالكهولة، فالشيخوخة، ذلك أن النفس طالبة للكمال، راغبة في العلم بكل شيء، وهذا يحتاج إلى زمن فسيح، وعمر الإنسان وغيره قصير، فلابد من تنقل النفس من بدن إلى بدن، وفي كل بدن تستفيد تجارب جديدة، ومعلومات جديدة، فالأرواح الباقية تتردد في الأبدان البالية، وهي تتردد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه، لتترقى النفس في الكمال، حتى يتحقق شوقها بعلمها ما لم تعلم، واستيفاؤها شرف ذاتها، واستغناؤها عن المادة فتعرض عنها.

ثم يفيض البيروني في تصوير الفلسفة الدينية للهنود فيقول:

وقد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ، فزعموا أن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر والعلم من الجهل، فالأرواح الشريرة تتردد في النبات، وخشاش الطير، ومرذول الهوام إلى أن تستحق الثواب فتنجو من الشدة، وتتردد فيما هو أرقى، ويبدو أن التناسخ في الفلسفة الهندية كان ذا أثر بعيد في فلسفات وديانات الأمم الأخرى، فنجد أثره قويًا في الفلسفة اليونانية، وفي الديانة المانوية، وفي بعض المذاهب الإسلامية، وفي التصوف وفي النصرانية.

ولقد كان فيثاغورث الفيلسوف الرياضي الرياضي من دعاة نظرية التناسخ، ويرى كثير من مؤرخي الفلسفة اليونانية أن هذه النظرية نقلها اليونان عن الهنود، وكان فيثاغورث يقول:

إن تناسخ الأرواح واقع بين الإنسان والحيوان، وإن تحرير النفس يكون بترقيتها

فى دورة الحياة عن طريق الشعائر الدينية وبالفكر والتأمل والفلسفة، كذلك قيل:

إن أفلاطون ربط رأيه فى عالم المثل، ونظريته فى تذكر المعلومات قبل حلول الروح بالجسم بنظرية التناسخ.

ويحدثنا البيرونى عن (مانى)، فيقول:

إنه نفى من بلاد الفرس، فدخل أرض الهند، فدرس التناسخ، ثم نقله من الهنود إلى نحلته.

أما أثر التناسخ فى الإسلام، فقد كان بعيد المدى بالنسبة لبعض الفرق الدينية، إذ نرى الصوفية مثلاً، وقد تأثروا بنظرية التناسخ - يجيزون حلول الحق فى الأمكنة كالسماء والعرش والكرسى، ومنهم من يجيز حلوله فى جميع الكائنات. ويعرف البيرونى بالصوفية فيقول:

والسوفية هم الحكماء، فإن (سوف) باليونانية الحكمة، وبها سمى الفيلسوف (بيلا سويا) أى محب الحكمة، ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم - سموا باسمهم، ولم يعرف اللقب بعضهم، فنسبهم إلى «الصفة» وأنهم أصحابها فى عصر النبى ﷺ، ثم صحف بعد ذلك، فصير من صوف التيوس».

من عادات الهنود:

ونري البيرونى بعد ذلك، استطرادًا للبحث فى عقائد الهنود، يتحدث عن عادات الهنادكة ورسومهم القديمة، فيقول:

إنهم لايفرقون بين الزوجين إلا بالموت، وفى قانون النكاح عندهم أن الأجانب أفضل من الأقارب، وما كان أبعد فى النسب من الأقارب، فهو أفضل، ومنهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات، فهى للبرهمن أربع ولكشتر ثلاث، ولبيش اثنتان، ولشودر واحدة، ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات السابقة أن يتزوج فى طبقته، وفيما دونها، ولا يحل له أن يتروج من طبقة فوق طبقته، ويكون

الولد منسوبًا إلى طبقة الأم، والمرأة إذا مات عنها زوجها فليس لها أن تتزوج، وتقبل على حرق نفسها خوف الزلل، ما لم يكن لها ولد، يتكفل بصيانتها وحفظها.

والأصل فى المواريث عندهم سقوط النساء منها، ما خلا الابنة فإن لها ربع ما للابن، وجهازها من ميراثها، أما الزوجة فإن آثرت الحياة، ولم تحرق نفسها - كان على الوارث رزقها وكسوتها مادامت، والدعاوى عندهم تسمع بالكتاب المكتوب على المدعى عليه، فإن لم يكن فالشهود بغير كتاب، ولا أقل فى عددهم من أربعة، فما فوقها - إلا أن تكون عدالة الشاهد مقررة عند القاضى، فيجيزها، ويقطع بشهادة ذلك الواحد.

ولاينسى البيرونى - وهو يتحدث عن التراث الفلسفى والعلمى للهنود - أن يتحدث عن تعريفهم للعلم، بأنه طريق الخلاص، وأن الأوجه التى يحصل بها العلم للعالم ثلاثة: **أحدها إلهام بلا زمان مع الولادة، والثانى إلهام مع الولادة، والثالث بتعلم وبعد زمان كسائر الناس.**

وأن الوصول إلى العلم لايكون إلا بالنزوع عن الشر، ثم يحصى الكثير من كتبهم فى الفلك والرياضة والنجوم، وما لديهم من آلات دقيقة، ومقاييس، وموازين، وما يستخدمونه من أدوات فى الكتابة.

يقول البيرونى فى الباب السابع من كتابه «**تحقيق ما للهند**»:

إن اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل، فلذلك قصر على (راهن) الزمان الشبيه بالآن، وأنى كان يتيسر نقل الخبر من ماضى الزمان إلى مستأنفه على الألسنة، وخاصة عند تطاول الأزمنة - لولا ما أنتجته قوة النطق فى الإنسان، من إبداع الخط الذى يسرى فى الأمكنة سريان الريح، ومن الأزمنة سريان الأرواح، فسبحان متقن الخلق، ومصلح أمور الخلق.

وليس للهند عادة بالكتابة على الجلود كاليونانيين فى القديم، فقد قال «سقراط» حين سئل عن تركه تصنيف الكتب:

لست بناقل العلم من قلوب البشر الحية إلى جلود الضأن الميتة.

وكذلك كانوا فى أوائل الإسلام يكتبون على الأدم، كعهد الخيبريين من اليهود، وككتاب النبى ﷺ إلى كسرى، وكما كتبت مصاحف القرآن فى جلود الظباء، والتوراة تكتب فيها أيضا، فقوله تعالى يجعلونه قراطيس، أى : طوامير، فإن القرطاس معمول بمصر من لب البردى... وعليه صدرت كتب الخلفاء إلى قريب من زماننا؛ إذ ليس ينقاد لحك شئ منه وتغييره، بل يفسد به.

والكواغد لأهل الصين، وإنما أحدث صنعتها فى سمرقند سبى «منهم ثم عمل منه فى بلاد شتى، فكان سدادا من عوز».

«فالهند: أما فى بلادهم الجنوبية - فلهم شجر باسق كالنخل والنارجيل ذو ثمر يؤكل، وأوراق فى طول ذراع وعرض ثلاثة أصابع مضمومة، يسمونها «تادى» ويكتبون عليها، ويضم كتابهم منها خيط ينظمها من ثقبه فى أوساطها، فينفذ فى جميعها.

وأما فى واسطة المملكة وشمالها - فإنهم يأخذون من لحاء التوز.. ويسمونه (بهوج) فى طول ذراع وعرض أصابع ممدودة، فما دونه، ويعملون به عملاً كالتدهين والصقل، يصلب به ويتملس، ثم يكتبون عليها وهى متفرقة يعرف نظامها بأرقام العدد المتوالى، وتكون جملة الكتاب ملفوفة فى قطعة ثوب ومسدودة بين لوحين بقدرهما، واسم هذا الكتاب (يؤتى)، ورسائلهم وجميع أسبابهم تنفذ فى التوز أيضًا.

فأما خطهم فقد قيل فيه إنه كان اندرس، ونسى، ولم يهتم له أحد، حتى صاروا أميين، وزاد ذلك في جهلهم وتباعدهم عن العلم، حتى جدد (بياس بن براشر) حروفهم الخمسين بإلهام من الله.. وذكر بعضهم أن حروفهم كانت أقل، ثم تزايدت وذلك ممكن بل واجب، فقد كان (آسيدس) صور لتخليد الحكمة ستة عشر حرفا، وذلك فى زمان تسلط بنى إسرائيل على مصر، ثم قدم بها (عيمس

واغنون) إلى اليونانيين، فزادوا فيها أربعة أحرف، واستعملوها عشرين، وفى الأيام التى سم فيها سقراط زاد سمونون فيها أربعة أخرى، فتمت عند أهل (أثينية) حينئذ أربعة وعشرين، وذلك فى زمان أردشير بن دارا بن أردشير ابن كورش على رأى مؤرخى أهل المغرب.

عن أهل كشمير يقول البيرونى:

«وأهل كشمير رَجَّالة ليس لهم دواب ولا فيلة، ويركب كبارهم اللتوت وهى الأسرة ويحملون على أعناق الرجال، ويتعهدون حصانة الموضع فيحتاطون دائمًا فى الاستيثاق من مداخلها ودروبها؛ ولذلك تعذرت مخالطتهم وقد كان فيما مضى يدخلها الواحد والاثنان من الغرباء وخاصة من اليهود، والآن لايتركون هنديا مجهولا يدخلها فكيف غيرهم وأشهر مداخلها من قرية ببرهان، وهى على منتصف الطريق بين نهرى السند وجيلم ومنها إلى قنطرة على مجتمع ماء كسنارى وماء مهوى الخارجين من جبال شملان الواقعين إلى ماء جيلم ثمانية فراسخ ومنها مدخل الشعب الذى يخرج فيه ماء جيلم مسيرة أيام فى آخره بلد دوار المرصد على جانبى النهر، ثم يخرج إلى الصحراء وينتهى إلى أوشتان قصبة كشمير فى يومين ينزل فيها بلد أوشكارا وهووبلد جامولا عن جانبى الوادى ومدينة كشمير أربعة فراسخ مبنية بالطول على حافتى ماء جيلم وبينها الجسور والزواويق ومخرجه من جبال هرمكوت، وهى حدود غير مسلوكة لاتذوب ثلوجها ولاتفنى، ووراءها مهاجين أى الصين العظمى.

(تحقيق ما للهند ص١٠١، ١٠٢).

«وأما الجهة الجنوبية منها، فإنها البحر ويأخذ ساحله من تيز قصبة ماكران ظاعنا إلى ما بين الجنوبى والمشرق نحو ناحية الديبل أربعين فرسخا وبينها غب توران، والغب هو كالزاوية والعطفة يدخل من البحر إلى البر، ويكون للسفن فيه مخاوف وخاصة من جهة المد والجزر، والخور هو شبه الغب ولكن ليس من جهة دخول البحر، وإنما هو من مجئ المياه الجارية واتصاله بالبحر ساكنًا ومخاوف السفن فيه من جهة العذوبة، التى لا تستقل بالأثقال استقلال الملوحة به».

«وجزيرة الوقواق من جهة جزر قمير، وهو اسم لا كما تظنه العوام من شجرة حملها كرؤوس الناس تصبح ولكنه قمير قوم ألوانهم إلى البياض قصار القدود على صور الأتراك ودين الهنود مخرمى الآذان، وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان والناس فيهم أرغب، ويجلب منهم الأبنوس الأسود، وهو لب شجرة تلقى حواشيها.. وقد كان فى غب سرنديب مغاص لآلئ فبطل فى زماننا ثم ظهر بسفالة الزنج[١٠٣].

وبعد فكتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» يتناول فضلاً عما أشرنا إليه معلومات كثيرة عن بلاد الهند، وقد أوضح فيه البيرونى أن نهر السند كان حوضًا لبحر قديم زاخر بالطمى، وقد ثبت صحة ما ذهب إليه البيرونى بعد الكشف الحديث الذى أجرى فى هذه المنطقة، والذى دل على قيام حضارة قديمة، كانت مزدهرة فى حوض نهر السند، منذ خمسة آلاف سنة، ومما قاله فى ذلك:

«إن وادى السند كان حوض بحر قديم، امتلأ بالأتربة الرسوبية تدريجاً».

والكتاب فى جملته يقوم على بحوث دقيقة عميقة لبلاد الهند وأهلها، ويدل هذا الكتاب وكتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية - على سعة علم البيرونى، وإلمامه الدقيق بلغات الهند وتاريخها وثقافتها وفلسفتها الدينية، وقد أفاد بهذين الكتابين اللغة العربية، فأكسبها مرونة وطواعية فى التعبير عن دقائق التفكير الهندى، ولاريب فإن عالما كالبيرونى يرحل عدة مرات إلى الهند، ويقيم فى هذه البلاد سنوات طويلة، يدرس خلالها لغة أهل البلاد دراسة علمية عميقة - لقادر على أن يتمكن من دراسة علوم الهند وأديانهم ونحلهم المختلفة وتاريخهم، وقد أكسبته هذه الدراسات شهرة فى تاريخ الشرق، باعتباره العالم الفذ الذى ترجم إلى اللغة العربية الثقافات الهندية ترجمة دقيقة، ومما ينفرد به بين علماء وفلاسفة المسلمين - أنه يكاد يكون العالم الوحيد الذى درس الفلسفة بلغة أهلها، أما غيره من العلماء فقد درسوها مترجمة إلى اللغة العربية. وكانت رحلاته هى المعينة علي ذلك أيما عون.

ابن بُطلان
(٤٤٠هـ - ١٠٤٩م)

طبيب مشهور وشاعر وفيلسوف نصرانى من الكرخ بالعراق، بلغ ولعه بالعلم أنه كان يرتحل من بلد إلى بلد، بحثاً عن المعارف والعلوم وسعيا لاكتشاف الجديد فى الفكر والطب، وكان مغرمًا بمطالعة مصنفات الأوائل مُتأملاً ما أنجزوه، منقبًا عن أخبارهم، وكان مولعًا بالجدل والمناقشة، والمشاركة فى المناظرات العلمية، وأشهرها ما جرى بينه وبين الفيلسوف والطبيب المصرى، **ابن رضوان**(٧).

وقد ترك لنا أهم المسائل التى دار حولها الجدل والمناظرة بينهما فى خمس رسائل، حققها ونشرها المستشرقان **يوسف شاخت وماكس مايرهوف**، وأول من لفت إليه الأنظار هو البارون **روزن** فى دراسته عن **يحيى الأنطاكى** الذى كان معاصرا له.

ورحالتنا العالم الفيلسوف هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان، ويبدو أنه قد عمرّ طويلا؛ إذ عاش من خمسينيات القرن الرابع الهجرى حتى وفاته عام ٤٥٨هـ.

تعلم الطب على يد أستاذيه، أبى الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون **الحرانى** (توفى ٣٦٩هـ - ٩٨٠م) **وعبد الله أبى الفرج** (ت ٤٣٥هـ - ١٠٤٣م)(٨).

ونحن نشك فى تاريخ وفاة أستاذه الحرانى؛ لأن هذا يعنى أن ابن بطلان ولد نحو عام ٣٥٠هـ على الأقل، ولايستقيم أن يقوم شيخ، وقد تجاوز التسعين برحلة إلى مصر(٩). ولأن التواريخ العديدة التى تقترن به وبمن كانت له به علاقة تستنفر الشك، فقد أشرنا فقط تحت اسمه إلى سنة قيامه بالرحلة.

برع فى الطب حتى فاق أساتذته ووضع فيه مؤلفات عديدة، أهمها:

١- تقويم الصحة.

٢- دعوة الأطباء.

٣- المدخل إلى الطب.

٤- عمدة الطبيب.

٥- رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد.

وقد ترجمت معظم مؤلفاته إلى عدد من اللغات الأجنبية خاصة اللاتينية، كما حققت فى عدة جامعات أوروبية.

قضى حياته كلها متفرغا للعلم والأدب، ولم يتخذ امرأة ولم يعقب ولداً، وكان مشهورًا عنه قوله:

ولا أحد إن مت يبكى لميتتى سوى مجلس فى الطب والكتب باكيا

رحلة ابن بطلان (٤٤٠هـ):

يقول **ابن أبى أصيبعة** فى **«عيون الأنباء»**، كان بين ابن بطلان وابن رضوان الطبيب المصرى المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتابا أو يبتدع رأيا، إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه».

وقد تفجرت فى رأس ابن بطلان فكرة الالتقاء بابن رضوان وجهًا لوجه بوصفه أكبر مناظريه، وقد كان معروفاً بالتحدى والعناد، رغم أن أهل السير والمؤرخين وصفوه بأنه كان أعذب ألفاظا وأكثر ظرفا وأخبر فى الأدب وما يتعلق به، كما كان أكثر منطقا وإقناعاً وأقل عدوانية وحقداً وشراسة، وإن بلغت حدة الخلاف بينهما ما دفعهما لتبادل الألفاظ النابية؛ التى يأباها الحوار الموضوعى وتترفع عنها آداب الحديث والمناظرة.

أيا ما كان الأمر، فإن ما يعنينا هو محاولة الاقتراب من أدب الرحلة عند ابن بطلان، وليس ما أنجزه فى مجال الطب والفكر، وذلك من خلال النص الذى ورد فى رسالة وجهها إلى صديقه المؤرخ الرئيس هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى، متضمناً رحلته التى قام بها فى رمضان عام ٤٤٠هـ[١٠]، قاصدًا مصر،

وهذه الرسالة حفظها لنا ابن المؤرخ وهو **محمد هلال** فى مصنفه «**كتاب الربيع**»، وعنه نقلها ياقوت وابن القفطى.

سار ابن بطلان بمحازاة نهر عيسى متجها صوب الأنبار والرحبة فالرصفة والهشامية حتى وصل حلب، فأقام بها مدة، ولما لم ترق له رحل إلى أنطاكية فاللاذقية ثم مصر ليلقى ابن رضوان، وبقى إلى جواره وفى مواجهته ثلاث سنوات. انتهت بغضبه وعدم رضاه عن مناظره وأفكاره، فرحل إلى القسطنطينية ليبقى فيها سنوات ثم عاد إلى أنطاكية؛ حيث آثر الاعتزال فى الأديرة وترهب وانقطع للعبادة.

ومن الملاحظ أنه لم يخلف لنا وصفا لمعالم مصر وعمائرها وأقاليمها، ولم يتناول عادات أهلها، ولعل السبب فى ذلك هو انشغاله بالمحاورة وتدبيج المقالات التى كتبها فى دحض أفكار ابن رضوان، وقد كان ولاشك مهمومًا بالفكر، مقبلاً على مطالعة الكتب التى وجد منها بمصر الكثير.

يصف لنا ابن بطلان قصر الرصافة قائلاً:

«وبين الرصافة والرحبة مسيرة أربعة أيام، وقصر الرصافة حصن دون دار الخلافة ببغداد، مبنى بالحجارة وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفص المذهب أنشأه قسطنطين بن هيلانة، وجدد الرصافة وسكنها هشام بن عبد الملك، وكان يفزع إليها من البق فى شاطئ الفرات. وتحت البيعة صهريج فى الأرض على مثل بناء الكنيسة، معقود على أساطين الرخام مبلط بالمرمر مملوء من ماء المطر، وسكان هذا الحصن بادية أكثرهم نصارى، معاشهم تخفير القوافل وجلب المتاع والصعاليك مع اللصوص، وهذا القصر فى وسط برية مستوية السطح لايرد البصر من جوانبها إلا الأفق، ورحلنا منها إلى حلب فى أربع مراحل(١١)».

يكشف لنا هذا النص البسيط مدى دقة ابن بطلان، وهذه الأسطر القليلة تتضمن كل ما يخص هذا القصر وسكانه جغرافيا وعمرانيا واقتصاديا ودينيا

واجتماعيا، حريصا على ألا يضمن وصفه الخرافات والأساطير التى أغرم بها غيره.

فهو يذكر الذى أنشأ القصر والذى جدده والذى سكنه، وتشكيله ومعماره ومصدر مياهه وطبيعة سكانه ودينهم ومصدر عيشهم ومكان القصر والبيئة المحيطة به وبعدها عن حلب.. نص مكثف ومكتمل ودقيق، فى عبارة علمية وأدبية فى آن، الأمر الذى يجعلنا نشعر بالخسارة؛ لأنه لم يدون الكثير عما رأى من المدن والبقاع.

يمضى ابن بطلان فى رحلته فيصف لنا حلب.. عمارتها ومستشفياتها وأهلها[١٢].

«وحلب بلد مسور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب، وفى جانب السور قلعة فى أعلاها مسجد وكنيستان، وفى إحداهما كان المذبح الذى قُرِّب عليه إبراهيم عليه السلام، وفى أسفل القلعة مغارة كان يخبئ بها غنمه، وكان إذا حلبها أضاف[١٣] الناس بلبنها فكانوا يقولون حلب أم لا؟ ويسأل بعضهم بعضًا عن ذلك فسميت لذلك حلبا، وفى البلد جامع وست بيع وبيمارستان صغير، والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية، وشرب أهل البلد من صهريج فيه مملوء بماء المطر وعلى بابه نهر يعرف بقويق يمد[١٤] فى الشتاء وينضب فى الصيف، وفى وسط البلد دار علوة صاحبة البحترى وهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبيذ إلا ما يأتيه من بلاد الروم، ومن عجائب حلب أن فى قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء، يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرين ألف دينار، مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن، وما فى حلب موضع خراب أصلاً».

ها نحن مرة أخرى مع نص شامل، يصدر عن نظرات بانورامية سديدة لكل سمات المدينة من البيمارستان إلى المبيعات إلى صديقة البحترى ورحلة تاريخية مكثفة من قربان ابراهيم عليه السلام إلى يوم زارها ابن بطلان، وبحث عن النبيذ فلم يجد غير المجلوب لها من بلاد الروم.

وبعد حلب يمر ببلدة يقال لها «عم»، لايطول مقامه بها؛ إذ يقول عنها:

«وفيها من الخنازير والنساء العواهر والزنا والخمور أمر عظيم».

إنطاكية

يقول ابن بطلان عن أنطاكية، مع تركيزه على المعالم المسيحية، وهذا أمر طبيعى لا مفر منه:

وخرجنا من حلب طالبين أنطاكية، وبينهما يوم وليلة، فوجدنا المسافة التي بين حلب وأنطاكية عامرة لاخراب فيها أصلا، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون، قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها منفجرة، يقطعها المسافر فى بال رخى وأمنٍ وسكونٍ.

أنطاكية:

بلد عظيم ذو سور وفصيل، ولسوره ثلاثمائة وستون برجا يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس يُنفذون من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنة، ويستبدل بهم فى السنة الثانية، وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم دائرة، وفى رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة، وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلع عليها إلا فى الساعة الثانية، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب، وفى وسطها بيعة القسيان.

وكانت دار قسيان الملك الذى أحيا ولده فطرس رئيس الحواريين، وهو هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون، وعليه كنيسة على أساطين، وكان يدور الهيكل أروقة يجلس عليه القضاة للحكومة ومتعلمو النحو واللغة، وعلى أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلا ونهارا دائما اثنتى عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا، وفى أعلاه خمس طبقات فى الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تخر منها المياه، وعلة ذلك أن الماء ينزل عليها من الجبل المطل على المدينة.

وهناك من الكنائس ما لايحد، كلها معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع، وفى البلد بيمارستان يراعى البطريك المرضى فيه بنفسه ويدخل المجذمين الحمام فى كل سنة فيغسل شعورهم بيده، ومثل ذلك يفعل الملك بالضعفاء كل سنة ويعينه على خدمتهم الأجلاء من الرؤساء والبطارقة التماس التواضع، وفى المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله فى مدينة أخرى لذاذة وطيبة لأن وقودها الآس ومياهها تسعى سيحا بلا كلفة.

وفى بيعة القسيان من الخدم المسترزقة ما لايحصى، ولها ديوان لدخل الكنيسة وخرجها، وفي الديوان بضعة عشر كاتبا، ومنذ سنة وكسر وقعت فى الكنيسة صاعقة، وكانت حالها أعجوبة، وذلك أنه تكاثرت الأمطار فى آخر سنة ١٣٦٢ للإسكندر الواقع فى سنة ٤٤٢ للهجرة، وتواصلت أكثر أيام نيسان، وحدث فى الليلة التى صبيحتها يوم السبت الثالث عشر من نيسان رعد وبرق أكثر مما ألف وعهد، وسمع فى جملته أصوات رعد كثيرة مهولة أزعجت النفوس، ووقعت فى الحال صاعقة على صدفة مخبأة فى المذبح الذى للقسيان ففلقت من وجه النسرانية قطعة تشاكل ما قد نحت بالفأس والحديد الذى تنحت به الحجارة، وسقط صليب حديد كان منصوبًا على علو هذه الصدفة وبقى فى المكان الذى سقط فيه وانقطع من الصدفة أيضا قطعة يسيرة.

ونزلت الصاعقة من منفذ فى الصدفة وتنزل فيه إلى المذبح سلسلة فضة غليظة يعلق فيها الثميوطون، وسعة هذا المنفذ إصبعان، فتقطعت السلسلة قطعا كثيرة وانسبك بعضها ووجد ما انسبك منها ملقى على وجه الأرض، وسقط تاج فضة كان معلقا بين يدى مائدة المذبح، وكان من وراء المائدة فى غربيها ثلاثة كراس خشبية مربعة مرتفعة ينصب عليها ثلاثة صلبان كبار فضة مذهبة مرصعة، وقلع قبل تلك الليلة الصليبان الطرفيان ورفعا إلى خزانة الكنيسة وترك الوسطانى على حاله فانكسر الكرسيان الطرفيان وتشظيا وتطايرت الشظايا إلى داخل المذبح وخارجه من غير أن يظهر فيها أثر

حريق كما ظهر فى السلسلة، ولم ينل الكرسى الوسطانى ولا الصليب الذى عليه شئ، وكان على كل واحد من الأعمدة الأربعة الرخام التى تحمل القبة الفضة التى تغطى مائدة المذبح ثوب ديباج ملفوف على كل عمود فتقطع كل واحد منها قطعا كباراً وصغاراً، وكانت هذه القطع بمنزلة ما قد عفن وتهرأ، ولايشبه ما قد لامسته نار ولا ما احترق، ولم يلحق المائدة ولا شيئا من هذه الملابس التى عليها ضرر ولا بان فيها أثر، وانقطع بعض الرخام الذى بين يدى مائدة المذبح مع ما تحته من الكلس والنورة كقطع الفأس.

ومن جملته لوح رخام كبير طفر من موضعه، فتكسر إلى علو تربيع القبة الفضة التى تغطى المائدة وبقيت هناك على حالها، وتطافرت بقية الرخام إلى ما قرب من المواضع وبعد، وكان فى المجنبة التى للمذبح بكرة خشب فيها حبل قنب مجاور للسلسلة الفضة التى تقطعت وانسبك بعضها معلق فيها طبق فضة كبير عليه فراخ قناديل زجاج بقى على حاله، ولم ينطفئ شىء من قناديله ولاغيرها ولاشمعة كانت قريبة من الكرسيين الخشب، ولازال منها شىء وكان جملة هذا الحادث مما يعجب منه، وشاهد غير واحد فى داخل أنطاكية وخارجها فى ليلة الاثنين الخامس من شهر آب من السنة المقدم ذكرها فى السماء شبه كوة ينور منها نور ساطع لامع ثم انطفأ وأصبح الناس يتحدثون بذلك، وتوالت الأخبار بعد ذلك بأنه كان فى أول نهار الاثنين فى مدينة غنجرة، وهى داخل بلاد الروم على تسعة عشر يوما من أنطاكية، زلزلة مهولة تتابعت فى ذلك اليوم وسقط منها أبنية كثيرة وخسف موضع فى ظاهرها، وكان هناك كنيسة كبيرة وحصن لطيف غابا حتى لم يبق لهما أثر.

ونبع من ذلك الخسف ماء حار شديد الحرارة كثير المنبع المتدفق، وغرق منه سبعون ضيعة، وتهارب خلق كثير من تلك الضياع إلى رؤوس الجبال والمواضع المرتفعة فسلموا وبقى ذلك الماء على وجه الأرض سبعة أيام، وانبسط حول هذه المدينة مسافة يومين ثم نضب وصار موضعه وحلا، وحضر جماعة ممن شاهد هذه الحال فحدثوا بها أهل أنطاكية على ما سطرته، وحكوا أن الناس كانوا

يصعدون أمتعتهم إلى رأس الجبل فيضطرب من عظم الزلزلة فيتدحرج المتاع إلى الأرض، وفى ظاهر البلد نهر يعرف بالمقلوب يأخذ من الجنوب إلى الشمال، وهو مثل نهر عيسى وعليه رحى، ويسقى البساتين والأراضى(١٥).

اللاذقية:

ويصف مدينة اللاذقية فى سوريا قائلا:

«وهى راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه، ومن عادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس.

ومن عجائب هذا البلد، المحتسب.. أنه يجمع الزانيات والغرباء المؤثرين للفساد من الروم فى حلقة، وينادى على كل واحدة منهن، وتتزايد الفسقة لليلتها، ويؤخذون إلى الفنادق التى هى الخانات، فيسكن الغرباء بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتما هو خاتم المطران حجة بيدها من تعقب الوالى لها، فإنه متى وجد خاطئا مع خاطئة بغير ختم المطران ألزمه جناية، وفى البلد من الزهاد فى الصوامع والجبال كل فاضل، يضيق الوقت عن ذكر أحوالهم، والألفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم وأذهانهم».

ولابن بطلان كما سبقت الإشارة كتاب مهم طريف، هو «**رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد**» تكشف لنا مطالعته عن خبرة بالبشر لايوفرها إلا العلم والارتحال إلى شتى الأصقاع ومدارسة الظروف والأحوال والمعايش، والمقارنة بين أصحاب المواهب والطباع لمن ينتمى إلى مختلف الطبقات، ومن هذا الكتاب ننقل صفحات طريفة عن صفات العبيد فى عدد من الدول وعيوبهم ومزاياهم التى لا يخبرنا بها إلا طبيب حاذق ورحالة خبير، وقد جمع فى هذه النصوص بين الدراسة النظرية والخبرة العملية، وها نحن نستمع إليه يتدفق قائلا(١٦):

«فالهنديات لهن حسن القوام، وسمرة الألوان، وحظ وافر من الجمال، مع صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة، لكن الشيخوخة تسرع إليهن.. وهن

يصلحن للولد، ورجالهم لحفظ النفوس والأموال، وعمل الصنائع الدقيقة. غير أن النزلات تسرع إليهم.. والقندهاريات فى معنى الهنديات، ولهن فضيلة على كل النساء، فإن الثيب منهن تعود كالبكر. والسنديات ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور، والمدنيات سمر الألوان معتدلات القوام، قد اجتمع فيهن حلاوة القول، ونعمة الجسم، وملاحة دل وحسن شكل وبشر، لا غيرة فيهن على الرجال، قنوعات بالقليل، لا يغضبن ولا يصخبن، ويصلحن للقيان.. والمكيات خنثات مؤنثات لينات الأرساغ ألوانهن البيضا المشرب بسمرة، قدودهن حسنة، وأجسامهن ملتفة، وثغورهن نقية باردة وشعورهن جعدة، وعيونهن مراض فاترة، والطائفيات سمر مذهبات مجدولات، أخف خلق الله أرواحاً، وأحسنهم فكاهة ومزاحاً، لسن بأمهات أولاد، يكسلن فى الحبل، ويهلكن عند الولادة... والبربريات مطبوعات على الطاعة نشيطات للخدمة ويصلحن للتوليد، لأنهن أحدب شيء على ولد.

ويقول أبو عثمان وهو من سماسرة هذا الشأن: إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب، وهى بنت تسع حجج، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، وبمكة ثلاث حجج؛ ثم جاءت إلى العراق ابنة خمسة عشرة، فتأدبت بالعراق، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات، واستحقت أن تخبى فى الجفون وتوضع على العيون. والزنجيات مساويهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورتهن وتحددت أسنانهن، وقل الانتفاع بهن، وخيفت المضرة منهن؛ والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب، وليس فى خلقهن الغم، والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن، ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الزمر والرقص؛ ويقال:

لو وقع الزنجى من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع. وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق، وكثرة الريق لفساد الهضوم، وفيهن جلد على الكد، فالزنجى إذا شبع فصب العذاب عليه صباً فإنه لا يتألم، وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن، أما الحبشيات فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها،

يتعاهدهن السل والدق، لا يصلحن للغناء ولاللرقص، رقاق لايوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها، وفيهن خيرية وسلاسة انقياد، يصلحن للائتمان على النفوس، يخصهن قوة النفوس وضعف الأجسام، كما يخص النوبة قوة الأجسام وضعف النفوس، قصار الأعمار لسوء الهضم.

والبجاويات مذهبات الألوان، حسنات الوجوه، ملس الأجسام، ناعمات البشرة، جوارى متعة، إن جلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن ينكل بها - لأنهن يقورن ويمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم فصرن شهرة من الشهر، والشجاعة والسرقة فى رجال البجة (بلادهم بين الحبشة والنوبة) طبع وغريزة، ولهذا لا يؤمنون على مال، ولا يصلحون أن يكونوا خزانا. والنوبيات من جملة أجناس السودان، ذوات ترف ولطف، وأبدانهن يابسة مع لين بشرة، وهواء مصر يوافقهن، لأن ماء النيل شربهن فى بلادهن، وإذا انتقلن عن غير مصر تسلطت عليهن العلل الدموية والأمراض الحادة.

والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة، وقدودهن مابين الربع والقصير، والطول فيهن قليل، وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل، قل ما يتفق فى أولادهن وحش ولا ردى التركيب. والروميات بيض شقر سباط الشعور، زرق العيون عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة، يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن، ولا يخلو أن يكن يألفن صنائع دقيقة.

أما الأرمنيات فالملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة، والسرقة فيهن فاشية وقل ما يوجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع ولفظ، وليست النظافة فى لغتهن، وهن عبيد كد وخدمة، متى تركت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره إلى خير، لايصلحون إلا على العصا والمخافة، والواحد منهم إذا رأيته كسلانًا فليس ذلك عن عجز قوة، بل دونك والعصا، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر،

فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلاً عن الغضب: ونساؤهم لا يصلحن لمتعة، وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان كما أن الزنج أشر السودان. وما أشبه بعضهم ببعض فى قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد».

يتضح لنا من النصوص الآنفة بساطة أسلوب ابن بطلان وسلامة عبارته وتدفقها، وخلوها من الصنعة والتكلف إلا قليلا، كما نلمس حرصه على جمالها وتطريزها بالسجع أحياناً، دون أن يجور على المعنى المراد، أو يبدو متزايدا مستطردا فالعبارة على قدر الفكرة بلا زيادة أ ترهل، بما يكشف عن مواهبه الأدبية والعلمية فكان له هذا الأسلوب الشائق الجميل والمفيد النافع معا، ولايخفى على القارئ تلك الصورة التى رسمها ابن بطلان وغيره عن حرية التنقل بين أرجاء العالم الاسلامى، وحتى ما جاوره من البلدان، وكأن المسافر يمضى من مدينة إلى مدينة داخل وطنه.

أبو عُبَيْد البكرى
(٤٠٥هـ - ٤٨٧هـ) (١٠١٤-١٠٩٤م)

جغرافى وأديب وناقد ومؤرخ وفقيه أندلسى شهير، عاش خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، كان محبا للكتب وللأدب، إلا أنه خلف لنا مؤلفين مهمين فى مجال الجغرافيا، تمتعا بشهرة عريضة واعتمد عليهما المؤلفون من بعده، وقد تحمس له المستشرق **دوذى**، حتي قال عنه من فرط إعجابه بجهده» إنه أكبر جغرافى أخرجته الأندلس قاطبة»[٧].

أحد الكتابين هو «**المسالك والممالك**» والثانى هو «**معجم ما استعجم**» بالإضافة إلى مصنفاته الأدبية والدينية، مثل: «**أعلام النبوة**» و«**اشتقاق الأسماء**» و«**اللآلئ**» و«**التنبيه فى أغلاط أبى علي فى أماليه**».

وعلى الرغم من أن أبا عبيد البكرى لم يبرح الأندلس على الإطلاق؛ إلا أننا نذكره هنا بوصفه صاحب المصنفات المهمة في الأدب الجغرافى العربى، الذى أسهم بكتابيه فى إضاءة طريق الرحلة خاصة بمعجمه، الذى سبق معجم ياقوت الحموى بنحو نصف قرن.

هو أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكرى نسبة إلى بكر بن وائل، من بيت يوصف بأنه بيت إمارة ذكره ابن بسام فى «الذخيرة»، وابن دراج القسطلى فى شعره، وابن حزم في «طوق الحمامة» وابن حيان فى «المتين».

كان والده وليا على ولبة وشلطيش ثم انتزعهما منه المعتضد، فانتقل والده وأسرته إلى قرطبة.

وقد ورد فى «**نفح الطيب**» **للمقرى** أن أبا عبيد ولد عام ٤٣٢هـ -

(١٠٤٠م)، وبقى فى ولبة حتى بلغ من العمر أحد عشر عاما، ولكن **د. حسين مؤنس** فى الفصل الذى خصصه للبكرى من كتابه المهم «**تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس**» يقرر أنه كان قد تجاوز العشرين عند انتقاله إلى قرطبة، ويرجح أنه ولد عام ٤٠٥هـ (١٠١٤م) تقريبا، خاصة أن **ابن خاقان** يقول: إنه كان بلغ الثمانين عندما رأيته وكنت غلاما، ويتفق معه **د. عبد الرحمن على الحجى**[١٨].

ولد أبو عبيد فى شلطيش، وعاش سنوات شبابه فى قرطبة[١٩]، وأقبل فيها على العلم، ودرس الشريعة والآداب واللغة ونظم الشعر، ولما التقى بالأديب والجغرافي أبى العباس ابن عمر **العذرى** (ت٤٧٨هـ)، فى المرية وحدثه عن البلدان صادف ذلك فى نفسه هوى فصرف جل اهتمامه إليه، واستدرجه هذا المجال الجديد نحو المزيد من الاطلاع والعكوف علي الكتب، ومن ثم فكر فى الانتقال إلى إشبيلية؛ لأنها كانت عاصمة العلم آنذاك وساحة المناصب الكبرى، ومن الطبيعى أن يكون قد انتقل إليها بعد رحيل المعتضد، الذى طردهم من ولبة وشلطيش وتولى بعده المعتمد[٢٠] سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) الذى جمعته بالبكرى مودة وصداقة.

ومن المؤسف أنه كان يتعاطى الخمر، ويسرف أحيانا فى ذلك كما يذهب ابن خاقان، ولكنه لحسن الحظ زهد فى السياسة، وكانت علاقته بالمعتمد كفيلة أن تزج به فيها، واكتفى ببعض المناصب، وانصرف إلى العلم فخلف لنا ما لايضيع.

ومن الجدير بالذكر أن اهتمامه بالجغرافيا وتصنيف مؤلفاته فى المسالك والممالك لم يتخذ طابعاً مستقلاً، ولم يكن علميا صرفا، بل كان يخضع إلى حد كبير لميوله الأدبية، وكانت شهرته قد قامت أساسًا على شعره وبحوثه اللغوية، ومجادلاته مع اللغوى المعروف أبى على القالى، وقد رجع البكرى مرة ثانية إلى

قرطبة، وظل بها يزاول نشاطه الأدبى إلى أن لقى ربه سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤) ولذلك كان يلقب أحيانا بالقرطبى.

المسالك والممالك:

فرغ البكرى من تأليفه عام ٤٦٠هـ (١٠٦٨)، غير أن النص لم يحفظ لنا كاملا، فيما يقول **كراتشكوفسكى** على الرغم من أن مخطوطاته استمرت تظهر الواحدة بعد الأخرى، وكل ما تبقى منه هو وصفه لأفريقيا الشمالية ومصر والعراق، وجزيرة العرب، وبحر قزوين وبعض أجزاء من إسبانيا، وأكثرها تفصيلاً وصفه لمناطق شمال أفريقيا، وكان **دى سلان** قد طبع هذه الأجزاء وترجمها، ويتضح من مطالعة الكتاب الذى حقق أجزاءه د. عبد الرحمن الحجى أن البكرى اعتمد كثيرا على مذكرات **إبراهيم الطرطوش**، وكذلك ابن الوراق الذى صنف مؤلفا يحمل العنوان نفسه، كما أن هناك آثارًا ظاهرة **للمسعودى وابن رسته**.

ولن نتوقف طويلا عند هذا الكتاب، فهو - على حسن الظن به - كتاب عادى لايتميز على غيره من كتب البلدان، وتوجد منه عدة مخطوطات بالمتحف البريطانى والمكتبة الأهلية بباريس وجامعة القروين بفاس ومكتبة نور عثمان بإستنبول والإسكوريال[٢١].

معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع:

اعتاد العلماء والمثقفون أن يتمهلوا طويلاً عند ذكر معجم من المعاجم، واعتادوا أيضا أن يمتلأوا تقديرا لمؤلفه فردا كان أو جماعة أو مؤسسة، إذ إن المعاجم متخصصة كانت أو عامة تعد من الصناعات الثقيلة فى مجال التأليف والنشر على السواء، كما أن طبيعة خدمتها لأفقها العلمى عميقة وممتدة، وتتسم بسمات خاصة لاتتسم بها مؤلفات أخرى، مثل الدقة المثالية والموسوعية، ومن هنا كانت أهمية كتاب البكرى، وبفضل معجمه حظى بمكانة طيبة فى عالم الرحلة

والجغرافيا والأدب واللغة، ونزعم أن هذا التقدير يعتمد أساسا على أسبقية صدور معجم البكرى قبل معجم ياقوت، واعتمد الأخير عليه، ولو شاءت إرادة الله أن تنقلب الأوضاع، ويطلع معجم الحموى على الناس قبل معجم البكرى، لما كان هذا الذكر الذى حظى به.

وقد نشرت مخطوطة المعجم مرتين: مرة على يد **فرديناند فستنفلد** انتسخها بيده وطبعها طبعة حجر فى مجلدين، صدر أولهما عام ١٨٧٦م والثانى عام ١٨٧٧م فى جونتجن بألمانيا، وبدءا من عام ١٩٤٥ قام المعهد الخليفى للأبحاث المغربية بنشر المعجم بتحقيق **مصطفى السقا**، وصدر فى أربعة أجزاء.

وهو معجم لغوى يدور فى فلك المعاجم التقليدية، التى بدأ ظهورها مع القرن التاسع وكان أكثر واضعيها من اللغويين لا من الجغرافيين، مثل كتاب عرام ابن الأصبغ السلمى الذى وضع مؤلفا عن «أسماء جبال تهامة ومكانها» عام ٢٣١هـ وكتاب ابن الحائك «صفة جزيرة العرب»[٢٢] وغيرهما، لكن معجم البكرى يبز هذه المعاجم جميعا لدقته ووفرة مادته.

ولعل مقدمة المعجم تبرز أمامنا أفكاره الرئيسية.

يقول البكرى:

«هذا كتاب معجم ما استعجم، ذكرت فيه إن شاء الله جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة، فإنى لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس، أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كل تحريف، وقد قال أبو مالك الحضرمى رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله، فإن صحة هذا لا تدرك بالفطنة والزكاء كما يلحق المشتق من سائر الأسماء، وما أكثر المؤتلف والمختلف فى أسماء هذه المواضع» ولأن البكرى لغوى أصيل وكامل الأدوات بين النحو والصرف والبلاغة، فقد رتب معجمه على حروف الهجاء، حسب ترتيبها عند الأندلسيين فى عصره، وهو:

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز

ثم ط ظ، وبعدها: ك ل م ن

يليها: ص ض ع غ ف ق

ثم: س ش هـ و ى

وجعل ترتيب الكلمات فى كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثانى الأصليين من الكلمة، دون نظر إلى ترتيب ما بعدها من الحروف، فقد أهمل الألف مثلا فى فاتح وسامح، وجاحد، واعتبر الحرف الثانى ما بعد الألف.

وقد أعاد الأستاذ **مصطفى السقا** الذى حقق الكتاب ونشره فى القاهرة ترتيب الأعلام الجغرافيين جميعا ترتيبا أبجديا حديثا، والمعجم لا يتناول جميع البلدان المعروفة مثل ما يتناول جزيرة العرب، لأنها تحظى بالنصيب الأكبر فيبحث فى حدودها ومناطقها كالحجاز وتهامة واليمن وقبائلها المستوطنة والهجرات التى حدثت منها كما يذكر تاريخها وأشعارها، ولكنه رغم ذلك إنجاز كبير لصاحبه ولعصره، وقد اعتمد عليه الحميرى والإدريسى والحموى.

صفحة من «المسالك والممالك»:

جال البكرى فى معظم أنحاء الأندلس، ولم تكن لديه حماسة الرحلة التى تدفعه للتجوال فى البلدان، وقد اكتفى بالرحلة إليها على الورق، لذلك نكتفى مثله بمطالعة إحدى صفحات رحلته فى ربوع الأندلس وما حولها، ومنها حديثه عن برشلونة:

«وأما مدينة برشلونة فهى من القسم الثالث من الأندلس مسورة على ساحل البحر، واليهود بها يعدلون النصارى كثرة ولها ربض خارج منها.

وصاحب برشلونة اليوم راى مند بن بلنقير بن بريل «رامون برانجير الأول» وكان خرج يريد بيت المقدس سنة ست وأربعين وأربعمائة فنزل فى مدينة نربونة على رجل من كراء أهلها، فتعشق امرأته وتعشقته ثم تمادى فى سفره حتى وصل بيت المقدس، ثم كر راجعا حتى أتى نربونة فنزل على ضيفه بها وليس له هم إلا

امرأته، فحكم ذلك التعاشق بينهما، واتفق معها على أن تعمل الحيلة فى الهروب إليه من بلدها فيزوجها من نفسه، فلما وصل إلى برشلونة أرسل إليها قوماً من اليهود فى ذلك، ودخل صاحب طرطوشة فى الأمر فأوصلهم فى الشوانى «السفن» إلى نربونة، فلم تتوجه لليهود الحيلة فى أمرها، وحس زوجها ببعض شأنها، وكان بها كلفا فثقفها «أدبها» فكان تثقيفه لها سببا لمعونة أهلها على مرادها، فوصلت مع قوم منهم إلى برشلونة فنزل راى مند عن امرأته وتزوج النربونية، فلبست الأولى المسوح وخرجت مع جماعة، من أهل بيتها إلى رومة حتى أتت عظيمها وصاحب الدين بها، وهو الذى يسمونه البابة فشكت إليه ما صنع زوجها وأنه تركها بغير سبب، وهو أمر لا يحل فى دينهم، وأنه لا يجوز لهم فعله، وإنما حمله على ذلك عشقة للنربونية، وشهد لهم شهود قبلهم، فحرم البابة على صاحب برشلونة، دخول الكنائس وأمر ألا يدفن له ميت، وأن يتبرأ منه جميع من يعتقد النصرانية، فلما علم أنه لا حيلة له معه ولا بقاء فى أفق يكون فيه لنصرانى حكم، فبذل الأحوال ودس مشاهير الأساقفة والقسيسين، وأوطأهم على الشخوص إلى البابة، وأن يشهدوا له أنه تقصى عن نسب المرأة التى ترك فوجدها منه بقربى يحرمها عليه وأن النربونية فرت من زوجها لذلك، لأنه كانت منه بنسب وكان يكرهها على المقام معه، فنفذ القوم إلى البابة وشهدوا للقومس «القمص» ما أوطأهم عليه فقبلهم، وأباح لهم دخول الكنائس، ودفن من مات له وسائر ما حجر عليه[٢٣].

هوامش

(١) البيرونى - د. جمال الفندى ود. إمام إبراهيم - أعلام العرب ص٢٥.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ص٢٤٥.

(٣) فاتح الهند، ولد بغزنة، كان جده آلبى تكين القائد التركى فى جيش ملوك السامانيين فى خراسان وما وراء النهر، فتح بخارى وامتدت سطوته على أفغانستان وتركستان وخراسان وطبرستان وسجستان، انتصر فى عدة معارك على راجوات الهند (١٠٠١ - ١٠٢٥م)، واستولى على مناطق واسعة بها، أهمها البنجاب.

(٤) تاريخ الأدب الجغرافى العربى - ص٢٤٥.

(٥) المصدر نفسه ص٢٥٧.

(٦) البيرونى - أبوالفتوح التوانسى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٧ ص٩٣.

(٧) هو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر المصرى، ولد ونشأ فى الجيزة بمصر أواسط القرن الخامس الهجرى، تعلم الطب وكان أبوه فرانا. قرأ أغلب ما وجد من كتب العلماء والفلاسفة، مارس الطب وصنف الكتب حتى بلغت نحو مائة، وكان رئيس الأطباء بمصر على عهد المستنصر، وتوفى عام ١٠٦١م.

(٨) ابن بطلان - د. عبدالحليم منتصر - مجلة العربى، العدد ٢٢٧ أكتوبر ١٩٧٧.

(٩) عندما يفقد العلماء اتزانهم - د. فخرى الدباغ - مجلة العربى - الكويت العدد ٣٠١ سنة ١٩٨٣.

(١٠) ذكر كراتشكوفسكى أن ابن بطلان قام بالرحلة عام ٤٠٤هـ، وهذا غير صحيح، وربما كان خطأ مطبعيا ص٢٦١.

(١١) معجم البلدان - الحموى جـ٣ ص٤٧.

(١٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٨٣.

(١٣) أى يوزعه عليهم.

(١٤) يفيض.

(١٥) معجم البلدان الجزء الأول ص٢٦٧، ٢٦٨.

(١٦) وردت ضمن مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة براين، كما ذكر آدم ميتز فى «الحضارة الإسلامية» ص٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥.

(١٧) تاريخ الأدب الجغرافى ص٢٧٤.

(١٨) جغرافية الأندلس فى أوروبا - تحقيق د. عبدالرحمن على الحجى - دار الإرشاد للطباعة.

(١٩) الأعلام - الزركلى جـ٤ ص٢٣٣ بيروت - ١٩٦٨.

(٢٠) الأمير الشاعر المعتمد بن عباد.

(٢١) جغرافية الأندلس فى أوروبا ص٢٦.

(٢٢) يعتبر معجم ابن حائك «صفة جزيرة العرب» أول معجم جغرافى، وقد نشره المستشرق مولر سنة ١٨٨٤م بمطبعة بريل بليدن، اعتمد على مشاهداته الخاصة وما عاينه فى جزيرة العرب، وهو لا يقارن بمعجم البكرى لصغره واقتصاره على الجزيرة، وقد رتبه كالكتب لا ترتيب المعاجم بالحروف.

(٢٣) جغرافية الأندلس - ص٩٦، ٩٧.



رحالو القرن السادس الهجرى
الثانى عشر الميلادى

١- أبوبكر بن العربي
٢- الإدريسي
٣- أبوحامد الغرناطي
٤- أسامة بن منقذ
٥- ابن جبير
٦- الهروي

أبو بكر بن العربى
(٤٦٨ - ٥٤٢هـ) (١٠٧٦ - ١١٤٨م)

رحالة كبير وفقيه من أكبر فقهاء المالكية بالأندلس، يعتبر مؤسس أدب الرحلات فى الأندلس، وقد عاش بين منتصفى القرنين الرابع والخامس الهجريين. خلف لنا عن رحلاته كتابا سمّاه **«ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة»** لم تصل إلينا منه إلا فقرات فى كتب شتى، وكان له أيضا كتاب **«قانون التأويل»** فى تفسير القرآن وكتاب **«شواهد الجلة والأعيان»**.

ولد أبوبكر عبدالله بن محمد بن أحمد بن العربى فى ٢٢ شعبان سنة ٤٦٨هـ (إبريل ١٠٧٦م) فى مدينة إشبيلية، وكان أبوه عبدالله (٤٣٥ - ٤٩٣هـ) من علماء إشبيلية المعروفين، ويشغل مركزا مرموقا فى عهد المعتمد بن عباد، وكانت أمه سليلة بيت من بيوت العلم، وكان أخوها فقيها وأبوها عالما، تطلع إلى السياسة ونافس المعتصم بن عباد، وانتهى سخطه عليه بأن قتله بيده ودفنه بثيابه وقلنسوته وهيل عليه التراب داخل القصر[1].

وبعد زوال دولة آل عباد، ارتأى أبوه أن الأحوال فى البلاد لاتجرى على النحو الذى يرضيه، فقرر الارتحال إلى الشرق ليحج إلى بيت الله، وكى يتيح الفرصة لولده البالغ من العمر السادسة عشرة ليحصل العلم والمعرفة من مصادرهما الرئيسية فى مصر والشام وبغداد، فانطلقا سنة ٤٨٤هـ وكان أبوبكر فتى متفتح الذهن، قوى الحس دقيق الملاحظة مقبلاً على المعرفة.. ركبا السفينة التى أقلتهما إلى بجاية، بعد أن عانا العواصف الشديدة، ثم انتقلا إلى المهدية بتونس وبعدها إلى الإسكندرية، وقبل بلوغهما الإسكندرية ثارت عاصفة هوجاء حطمت السفينة وأوشكا على الغرق، لكن الله سلم، واستطاعا الوصول إلى

الشاطىء فى أسوأ حال عند ساحل طرابلس، وقد وصف أبوبكر هذا الحادث فى كتابه «قانون التأويل»، ثم واصلا السير إلى القاهرة، وكان الخليفة هو المنتصر والدعوة الفاطمية على أشدها[٢].

بقى أبو بكر وأبوه فى القاهرة أكثر من سنتين، وكان حريصاً على زيارة العلماء والفقهاء لتلقى العلم والأدب، إلى أن سمع بعالم كبير فى بيت المقدس وهو محمد بن الوليد الطرطوشى الفهرى المعروف بابن أبى رندقة (٤٥١ - ٥٢٠هـ) وهو رحالة وفقيه أندلسى شهير. فمضى إليه وتتلمذ على يديه، وشارك فى المناقشات التى كانت تدور فى المسجد الذى يلقى فيه الشيخ محاضراته، وتركز فى أغلب الأحاديث حول الأمر المعروف والنهى عن المنكر وفضل الصحابة على غيرهم.

أقام العربى فى بيت المقدس ثلاث سنوات، تجول خلالها فى فلسطين وزار وادى موسى، ثم رحل إلى دمشق، وحضر لبعض شيوخها فقد تفتحت شهيته للعلم والجدل، ثم انتقل إلى بغداد عام ٤٩٠هـ فى أوائل خلافة المستظهر بالله بن المقتدى، حيث استمع إلى دروس الغزالى والتبريزى اللغوى، طالت إقامته ببغداد وأقبل على شيوخها يستمع ويناظر، ويجادل وارتحل إلى الأراضى الحجازية حيث أدى الفريضة ثم عاد إلى بغداد، وبعدها حن إلى مصر، فأقام هو وأبوه بين القاهرة والإسكندرية حتى عام ٤٩٣هـ حين توفى أبوه، وعندئذ قرر العودة إلى وطنه بعد تجوال دام نحو ثمانى سنوات.

عاد إلى إشبيلية بالأندلس حيث تفرغ للتدريس والتأليف. ولسنا بحاجة إلى تقدير حجم ما حصل من المعرفة والثقافة الفقهية على مدى هذه السنوات، وسرعان ما ذاع صيته كقاض وفقيه مالكى كبير.

تولى القضاء عام ٥٢٨هـ، وفى عام ٥٣٥هـ هاجمه بعض الحاقدين عليه والثائرين ضد أوامره وأحكامه، وسلبوا كل ما فى داره خاصة كتبه، وعزل عن

القضاء، فانتقل إلى قرطبة وتفرغ للدرس والتأليف، وبعد عامين عاد إلى إشبيلية، وبقى فيها إلى أن توفى فى السابع من ربيع الأول عام ٥٤٢هـ (٢٧ يوليو ١١٤٨م)، وكان عمره ٧٥ عاما ودفن فى فاس.

كان متكلما ومحبا للجدل، عنيفا فى مواجهة خصومه ومخالفيه، وكان كابن خلدون يفكر فى المجد والسلطان، أحصى محب الدين بن الخطيب مؤلفاته فكانت نحو ٣٥ كتاباً، أغلبها فى الفقه والحديث، وقد توزعت أخبار رحلاته بين كتبه الثلاثة: «ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة» و«شواهد الجلة والأعيان» و«قانون التأويل».. يقول عن نفسه وعن الحاقدين عليه فى نص طريف قوى الديباجية حسن العبارة واضح الفكرة يكشف عن تجربة عميقة بالبشر وطباعهم.

«وفى علم علام الغيوب أنى أحرص الناس على أن تكون أوقاتى كلها مستغرقة فى باب العلم، إلا أنى منيت بحسدة من لا يتقون، ومبتدعة لايفهمون، قد قعدوا منى مزجر الكلب يبصبصون، والله أعلم بما يتربصون «قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، فتربصوا إنا معكم متربصون» بيد أن الامتناع عن التصريح بفوائد الملة والتبرع بفؤاد الرحلة لعدم المنصف أو مخافة المتعسف ليس من شأن العالمين».

ومما يؤسف له إننا لم نعثر على كتاب «ترتيب الرحلة» ولم يعثر غيرنا، وقد نقل د. حسين مؤنس بعض فقرات منه وسبقه «المقرى» إلى ذلك.

الإدريسى

(٤٩٣ - ٥٦٠هـ) (١١٠٠ - ١١٦٥م)

واحد من أبرز جغرافيى العرب في القرون الوسطى وأكثرهم أهمية، خاصة فى القرن السادس الهجرى «الثانى عشر الميلادى»، كما كان له اهتمام بالصيدلة والنباتات والطب ونظم الشعر

خلف لنا الإدريسى مصنفات مهمة، منها: «**نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق**» و«**روض الفرج ونزهة المهج**» وهو تلخيص للكتاب الكبير، وكتاب «**الجامع لصفات أشتات النباتات**» و«**روض الأندلس ونزهة النفس**».

وقد ظل «نزهة المشتاق» دليل أوروبا الأول فى علم البلدان لعدة قرون، واعتمدت عليه مئات الأبحاث والرحلات الاستكشافية والبعثات العلمية.

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن يحيى بن على ابن حمود بن ميمون بن أحمد بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن الحسين بن على ابن أبى طالب، ولذا لقب **بالشريف**، والإدريسى نسبه إلى جده الأعلى[٤]. الذى ترك المشرق إلى مراكش، وأسس إمارة مستقلة، فى عام ١٧٢هـ ٧٨٩م، ونال الشهرة بعد وفاته كولى.

ولد بمدينة سبتة المغربية سنة ٤٩٣هـ - ١١٠٠م ثم رحل إلى قرطبة عروس المدن الأندلسية آنذاك، حيث تلقى العلم، وبدأ الإدريسى أسفاره مبكراً، فزار بلاد المغرب ولشبونة وسواحل فرنسا وزار إنجلترا وصقلية كما زار آسيا الصغرى عام ٥١٠هـ (١١١٦م)، ولم نعثر على ما يدلنا أنه زار باقى إفريقيا وآسيا.

دخل صقلية عام ٥٣٣هـ (١١٣٨م) بدعوة من الملك روجر، وكان المسيحيون

النورمان قد انتزعوها من يد العرب، وطلب الملك إلى الشريف الإدريسى وضع كتاب عن جغرافية العالم المعروف آنذاك، ولبى الإدريسى الدعوة، ووضع خطة العمل المشترك مع فريق من الرحالة والجغرافيين، الذين عملوا فى معيته وتحت إمرته وتوجيهه

ونجد عرضا شبه مفصل فى مقدمة «نزهة المشتاق» لهذه الخطة المنسوبة إلى الملك روجر، وكأنه هو الجغرافى الذى أشرف بنفسه على الخطة فبحث وفحص، ثم اختار وكلف، وتابع وراجع، ثم جمع المادة ودققها وأخرج إلى النور هذا العمل الكبير

والإدريسى يتحدث عنه بصفته ولى نعمته وبوصفه، ليس فقط صاحب فكرة الكتاب، ولكن بوصفه الذى قام بكل العمل لإخراج مصنف جغرافى جامع، يقول الإدريسى فى مقدمة الكتاب:

«فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته، وتزايدت همم أهل دولته وأطاعته البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه، أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً وفى أى اقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة، التى اتفق عليها المتكلمون وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ويرجع إليه ويعد منه بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله، مثل: كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى وكتاب أبى القاسم عبدالله بن خرداذبة وكتاب أحمد بن عمر العذرى وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكى وكتاب موسى بن قاسم الفردى وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى وكتاب اسحق بن الحسن المنجم وكتاب قدامة البصرى وكتاب بطليموس الأقلودى

وكتاب أرسيوس الأنطاكى، فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلاً، بل وجده فيها مغفلا فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه، فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها فسألهم عنها بواسطة جمعاً وأفراداً فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه، وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه.

وأقام فى ذلك نحواً من خمس عشرة سنة لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته، إلى أن تم له فيه ما يريده، ثم أراد أن يستعلم يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها فأحضر إليه لوح الترسيم، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئا فشيئا مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها، فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى فى كل منها مائة درهم، واثنى عشر درهماً، فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وغامرها، وما بين كل بلد منها وغيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسى المعروفة على نص ما يخرج إليهم فى لوح الترسيم، ولا يغادروا منه شيئا ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما فى أشكالها، غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصها، والاستعمالات التى تستعمل بها والصناعات التى تنفق بها والتجارات التى تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها، وحيث هى من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وملابسهم ولغاتهم، وأن يسمى هذا الكتاب بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق،

وكان ذلك فى العشر الأول من يناير الموافق لشهر شوال الكائن فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم»

ويقول صلاح الصفدى (ت ٧٦٤هـ) عن هذه الفترة وطبيعة مهمة الإدريسى:

«رجّار ملك من الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ويقال فيه أجّار بهمزة بدل الراء وجيم مشددة وبعد الألف راء، كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية. وهو الذى استقدم الشريف الإدريسى صاحب كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، من العدوة إليه، ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالم. فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه. فطلب منه شيئاً من المعدن ليدع منه ما يريده، فحمل إليه من الفضة الحجر وزن أربعمائة ألف درهم، فصنع منها دوائر كهيئة الأفلاك، وركب بعضاً على بعض ثم شكلها له على الوضع المخصوص. فأعجب بها أجّار ودخل فى ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل وفضل له ما يقارب الثلثين فتركها له إجازة وأضاف لذلك مائة ألف درهم ومركباً مساقاً كان قد جاء إليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التى تجلب للملوك، وسأله المقام عنده، وقال له أنت من بيت الخلافة، ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك. فأجابه إلى ذلك ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك. وكان يجىء إليه راكباً بغلة، فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معاً، فقال له أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب، فوقع اختيارهما على أناس ألباء فطناء أذكياء وجهزهم رجّار إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً وسفر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لابد من معرفته. فكان إذا حضر أحد منهم بشكل، أثبته الشريف الإدريسى حتى تكامل له ما أراد، وجعله مصنفاً وهو كتاب نزهة المشتاق الذى للشريف الإدريسى»[٥].

ويلخص لنا المستشرق الإسبانى بالنثيا سبب تأليفه الكتاب بقوله:

«رغب روجر فى تأليف كتاب عن صورة الأرض، مؤلفا عن مشاهدة مباشرة لا يستخرج من الكتب، فقد كلف الإدريسى بذلك، وانتخب الإدريسى لهذه المهمة نفراً من أذكياء الرجال وبثهم فى شتى النواحى يصاحبهم الرسامون، وجعل يتلقى ما يعودون به ويسجله أولا بأول، وفرغ منه عام ٥٤٨هـ - ١١٥٤م ثم أضاف إليه أجزاء أخرى فيما بعد، وسماه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، ويعرف كذلك بالكتاب الروجرى.

ونفهم من افتتاحية الإدريسى وكلام الصفدى أن العمل فى الكتاب قد مر بثلاثة أطوار، وخلف وراءه ثلاثة آثار. أحدها نموذج فريد فى نوعه للكرة السماوية، وهو عبارة عن قرص من الفضة مرسوم عليه صورة العالم، وثانيها خارطة مرسومة على الورق، وثالثها كتاب خاص مبينة فيه الأسماء الجغرافية، وقد ثبت أن أقلها دواماً ومقاومة لطوارق الحدثان كانت الكرة الفضية، التى يقال أن الثوار حطموها ونهبوها عند اقتحامهم لقصر روجر فى عهد خلفه سنة ١١٦٠م. ومن حسن الحظ أن الكتاب والخارطة قد حفظا لنا من مخطوطات عديدة ولكنها بالتأكيد ليست معاصرة للمؤلف بأى حال من الأحوال، كما وأنها ليست كاملة دائماً. بل إنه توجد إلى جانب ذلك مسودات مختلفة لهما، ولكن على الرغم من ذلك تمكّن فى مجموعها من بناء متن الكتاب والأطلس معا، وقد بلغ عدد المخطوطات حالياً حداً كبيراً، فإلى جانب المخطوطتين المعروفتين منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر وهما مخطوطتا باريس وأكسفورد، تنضم فى أوائل هذا القرن مخطوطات إستنبول ومخطوطة القاهرة[٦]، وإلى جانب العنوان المشهور الذى مر ذكره آنفا فإن كتاب الإدريسى يحمل عنواناً آخر واسع الانتشار على الأقل فى العالم الغربى وهو كتاب روجر، أو الكتاب الروجرى، نسبة إلى راعيه وولى نعمته، لاسيما وله هذه المقدمة الواضحة الحاسمة.

وعلى الرغم من أن طريقة ترتيب كتاب الإدريسى بسيطة، فإنها لا تخلو من

آثار الصنعة، فهو يقدم لنا فى أول الأمر وصفاً موجزاً للأرض التى يتصورها على شكل كرة، طول محيطها اثنان وعشرون ألفاً وتسعمائة ميل ومعلقة فى الفضاء «كالمح فى البيضة».

وبعد وصف قصير للأقاليم والبحار والخلجان، ينتقل إلى وصف سطح الأرض بالتفصيل. وهو يتبع فى هذا مذهب بطليموس المعروف لنا بتقسيمه للأرض إلى سبعة أقاليم، أى أحزمة عريضة فوق خط الاستواء، غير أن الإدريسى أدخل على ذلك تجديداً بتقسيمه لكل إقليم من هذه الأقاليم السبعة إلى عشرة أقسام رأسية هى التى يتفرغ لوصفها فى كتابه الواحد تلو الآخر مبتدئاً من الغرب ومتجهاً نحو الشرق.

وكل وصف لقسم من هذه الأقسام يرتبط بخارطة علمية، بحيث إذا ضمت هذه الخارطات السبعون الصغيرة إلى بعضها البعض لتكوّن من ذلك خارطة عامة لكل العالم على شكل مستطيل، الأمر الذى يستحيل فعله مع «أطلس الإسلام»، ويبدو جلياً أن العيب الأساسى لمثل هذا المنهج هو فى أن وصف قطر ما يأتى موزعاً بين عدد من القطع الصغيرة المبعثرة هنا وهناك، بحيث يتطلب جمعها مجهوداً ملحوظاً.

وأهم الأقسام بالطبع هى التى أفردها لأفريقيا الشمالية وإسبانيا وصقلية ونواحى إيطاليا الأخرى، لأنها تعتمد خلافاً للأقسام الأخرى على الملاحظة الشخصية، كذلك يدل وصفه لأوروبا الغربية «فرنسا وألمانيا وأسكتلندة وأيرلندا وسواحل بحر الشمال» على المقدرة والمهارة التى اقتضتها الظروف العلمية لذلك العهد.. وقد بلغت معرفة الإدريسى شمالاً بلاد البلطيق(٧).

وأقدم طبعة عربية لهذا الكتاب كانت فى سنة ١٥٩٢م بمطبعة الميديتشى بمدينة روما، تحت عنوان طويل، هو «نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» وتضم مكتبة باريس نسخة خطية منها، وقد طبع الكتاب بعد ذلك عدة مرات، وكان أحياناً مجزءا، فقد طبع دوزى القسم المختص

بالمغرب والأندلس ومصر والسودان فى مدينة ليون ١٨٦٤م، بعد التعديل والتصحيح، وقد سبق أن ترجم الكتاب إلى عدة لغات قبل نشره بالعربية[٨].

تقول عنه دائرة المعارف الإسلامية:

«إن كتاب الإدريسى فى الجغرافية أعظم وثيقة علمية فى العصور الوسطى، ويقول عنه البارون الأيرلندى الأصل الفرنسى الجنسية **دى سيلان** De Slane، خلال بحثه المنشور بالمجلة **الآسيوية** (إبريل ١٨٤٨م):

«إن كتاب الإدريسى لا يمكن أن يوازى به أى كتاب جغرافى سابق له، وإن ثمة بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها».

ومن أشهر أعماله **الخريطة** التى رسمها للعالم، وحفرت على أسطوانة من الفضة، وقد وضع الإدريسى خريطة لكل إقليم من الأقاليم السبعة، وقال **جوتييه**: «إنه لم يكن لأوروبا مصور جغرافى للعالم إلا ما رسمه الإدريسى، وهو خلاصة علوم العرب فى هذا المجال، ولم يقع الإدريسى فى الأغلاط التى وقع فيها بطليموس فى هذا الباب»[٩].

وإذا كان هناك من يقدر عمل الإدريسى، فإن هناك أيضا من يرى أنه إنجاز عادى، بل هناك من المستشرقين من اعتبره عملا يتضمن الكثير من المثالب، وأنه صدر عن تعجل وبه عديد من الأغلاط، فضلا عن اتهامه بالضحالة والاضطراب فيما يختص بمعلوماته عن جنوب شرق آسيا، بالإضافة إلى موقفه غير النقدى من مصادره سواء المدونة أو السماعية[١٠]. ومن جانبنا نحن، فقد لاحظنا نقله عن سليمان التاجر وابن حوقل واليعقوبى وغيرهم.

وأيا ما كان الأمر، فيكفى الإدريسى ما كتبه الأوروبيون فى حقه، وكيفية أنه كان المرجع الأول لعدة قرون، ويشرفه ويشرف العرب أنه كان مستشارا علميا ومديراً لأول مؤسسة جغرافية علمية وعالمية تمت، وعملت بإشرافه وأنجزت بتوجيهاته وبدعم من الملك روجر، وهو فى أدنى صوره كان مديراً لمشروع علمى

ضخم استغرق أكثر من خمس عشرة سنة (٥٣٣هـ - ٥٤٨هـ) (١١٣٨ - ١١٥٤هـ)، واكتمل العمل فى العام نفسه الذى توفى فيه روجر، بعد أن كحل عينه برؤية ما تمنى، وغادر الإدريسى صقلية إلى سبتة بالمغرب بعد عدة سنوات، والمرجح أن ذلك كان نحو عام ١١٥٨م، وتوفى رحمة الله عليه عام ٥٦٠هـ - ١١٦٥م

وقبل أن نركب مع الإدريسى زورقه فى «**نزهة المشتاق**» التى اخترق بها الآفاق، نلقى نظرة عجلى على بعض أشعاره، التى تكشف جانبا آخر من قدرات ذلك العربى الموهوب، وقد نشر **الصفدى** نتفاً من قصائده الرقيقة العذبة.

يقول الإدريسى فى إحدى قصائده:

دعنى أجل ما بدت لـى ... سفينــة أو مطيــة
لابـد يقطـع سـيرى ... أمنيـة أو منيـة

ومن شعره:

ليت شعرى أين قبرى ... ضاع فى الغربة عمرى
لم أدع للعين ما تشـ ... ـتاق فى بر وبحر
وخبرت الناس والأرض ... لدى خير وشر
لم أجد جارا ولا دا ... را كما فى طى صدرى
فكأنى لم أسر إلا ... ببيت أو بقفر

ومنه.

إن عيبا على المشارق أن أر ... جع عنها إلى ذيول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب ... بعدما جاء فكره بالغرايب
ويقاس الظما خلال أناس ... قسموا بينهم هدايا السحايب

يصف الإدريسى مدينة سانت ماريا فيقول:

«ومدينة سانت مارية على معظم البحر الأعظم وسورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان المد، وهى مدينة متوسطة القدر حسنة الترتيب لها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها مراكب واردة وصادرة، هى كثيرة الأعناب والتين».

وعن مدينة سبتة يقول:

«مدينة سبتة تقابل الجزيرة الخضراء وهى سبعة أجبال صغار، متصلة بعضها ببعض معمورة، طولها من المغرب إلى المشرق نحو ميل ويتصل بها من جهة الغرب وعلى ميلين منها جبل موسى، وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير وهو الذى كان على يديه افتتاح الأندلس فى صدر الإسلام، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثير وقصب السكر، وأترج، يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها، ويسمى هذا المكان الذى جمع هذا كله بليونش، وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد، ويلى المدينة من جهة الشرق جبل عال يسمى جبل المنية وأعلاه بسيط وعلى أعلاه سور بناه محمد أبى عامر عندما جاز إليها من الأندلس، وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل، فمات عند فراغه من بنيان أسوارها، وعجز أهل سبتة عن الانتقال إلى هذه المدينة المسماة بالمنية، فمكثوا فى مدينتهم وبقيت «المنية» خالية، وأسوارها قائمة، وقد نبت حطب الشعراء فيها» «الإدريسى ١٤٦».

ويبدو جليا إجادته لوصف المدن وحرصه على حشد المعلومات المختلفة والمتنوعة عن كافة جوانبها فى أقل عدد من الأسطر:

يصف مدينة الجزيرة الخضراء الأندلسية:

«مدينة متحضرة لها سور حجارة مفرغ بالجيار، ولها ثلاث أبواب ودار صناعة داخل المدينة، ويشقها نهر يسمى نهر العسل وهو حلو عذب، ومنه شرب أهل

المدينة ولهم على هذا النهر بساتين وجنات بكلتا ضفتيه معا وبالجزيرة الخضراء إنشاء وأقلاع وحط، وبينها وبين مدينة سبتة مجاز البحر وعرضه هناك ثمانية عشر ميلاً».

المسجد الجامع

ويصف المسجد الجامع بقرطبة:

«وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً، طول هذا الجامع مائة باع مرسلة وعرضة ثمانون باعا ونصف مسقف ونصفه صحن للهواء وعدد قسى سقفه ١٩ قوساً، وفيه من السوارى، أعنى سوارى سقفه بين أعمدته وسوارى قبلته صغاراً وكباراً من سوارى القبة الكبرى وما فيها ألف سارية وفيه ١١٣ ثريا للوقيد، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح وأقلها تحمل ١٢ مصباحاً، ولهذا المسجد الجامع قبلة يعجز الواصفين وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها، وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملون وكان فى مخزن جامع قرطبة مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان، وهو المصحف الذى خطه بيمينه رضى الله عنه، وفيه نقط من دمه، وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة، ويتولى إخراجه رجلان من قدمة المساجد، وأمامهم رجل ثالث بشمعة وللمصحف غطاء بديع منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه».

روما

ويصف روما بصورة تشى بالمبالغة:

روما هى على جانبى نهر الصفر- أى التبر - وهى مدينة مشهورة، ومقر خليفة النصارى المسمى البابا، وهى على جنوبى خور البنادقة، وبلاد روما غربى قلفرية ودور سورها أربعة وعشرون ميلا وهو مبنى بالآجر، ولها واد يشق وسط المدينة وعليه قناطر يجاز عليها من الجهة الشرقية إلى الغربية، وامتداد كنيسة روما ستمائة

ذراع فى مثله وهى مسقوفة بالرصاص ومفروشة بالرخام وفيها أعمدة كثيرة عظيمة، وعلى يمين الداخل من أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية وفيه ماء حار أبدا، وفى صدر الكنيسة كرسى من ذهب يجلس عليه البابا، وتحته باب مصفح بالفضة، يدخل منه إلى أربعة أبواب واحد بعد آخر، يفضى إلى سرداب فيه مدفون بطرس حوارى عيسى، ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيها بولس، وبحذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم، فيه فرش الكنيسة وستورها التى تزين بها فى أعيادهم.

ويقول فى وصف مدينة مراكش:

«مدينة بناها يوسف بن تاشفين فى صدر سنة ٤٧٠، بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال واختطها له ولبنى عمه. وهى فى وطأ من الأرض، ليس حولها شىء من الجبال إلا جبل صغير يسمى إيجليز. ومنه قطع فى الحجر وليس فى موضع مدينة مراكش حجر البتة إلا ما كان من هذا الجبل.

وإنما بناؤها بالطين والطوب والطوابى المقامة من التراب... وماؤها الذى تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة... استخرج ذلك عبدالله بن يونس المهندس، وسبب ذلك أن ماءهم ليس ببعيد الغور، موجود إذا احتفر قريباً من وجه الأرض، وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبد الله بن يونس جاء إلى مراكش فى صدر بنائها، وليس بها إلا بستان واحد لأبى الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره، فقصد إلى أعلى الأرض مما يلى البستان، فاحتفر له بيرا مربعة كبيرة التربيع، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجاً إلى أسفله بميزان، حتى وصل الماء إلى البستان، وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه، فهو جار مع الأيام لا يفتر، وإذا الناظر إلى مسطح الأرض لم ير بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها، وإنما يميز ذلك عالم بالسبب الذى استخرج به ذلك بالماء، والسبب هو الوزن للأرض فاستحسن ذلك أمير المسلمين من فعل عبيد الله بن يونس، وأعطاه مالا وأثوابا وأكرم مثواه مدة بقائه عنده.

ثم أن الناس نظروا إلى ذلك ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات، واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها.

ومدينة مراكش فى هذا الوقت «القرن السادس هـ» من أكبر مدن المغرب الأقصى، لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم.. وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة، وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة، وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين، فلما كان فى هذا الوقت وتغلب عليها المصامدة تركوا ذلك الجامع معطلاً مغلق الأبواب ولا يرون الصلاة فيه، وبنوا لأنفسهم جامعاً يصلون فيه.

ويقول فى وصف مدينة سلا:

«ومدينة سلا الحديثة على ضفة البحر، وكانت فى القديم من الزمن مدينة شالة على ميلين من البحر وموضعها على ضفة نهر اسمير، الذى يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة. وهناك قصبة فى البحر، وأما شالة القديمة فهى الآن خراب وبها بقايا بنيان قائم».

«وسلا الحديثة على ضفة البحر منيعة من البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته. وهى مدينة حسنة حصينة فى أرض رمل ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لأهلها وسعة أموال ونمو أحوال، والطعام بها كثير ورخيص جداً، وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق ومزارع، ومراكب أهل إشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع، وأهل إشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير، وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية، ترسى المراكب بها فى الوادى الذى قدمنا ذكره وتجوز المراكب على فمه بدليل، لأن فى فم الوادى أحجاراً وتروشاً تتكسر عليها المراكب، وفيه أعطاف لا يدخلها إلا من يعرفها.

«وهذا الوادى يدخله المد والجزر فى كل يوم مرتين... وإذا كان المد دخلت المراكب به إلى داخل الوادى وكذا تخرج فى وقت خروجها، وفى هذا الوادى أنواع من السمك وضروب من الحيتان، والحوت بها لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته وجودته، وكل شيء من المأكولات من مدينة سلا موجود بأيسر القيمة وأهون الثمن».

وقال يذكر مدينة داى وزراعة القطن فى المغرب:

«ومدينة داى فى أسفل جبل خارج من جبل درن، وهى مدينة بها معدن النحاس الخالص الذى لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها، وهو نحاس حلو لونه إلى البياض يتحمل التزويج ويدخل فى لحام الفضة، وهو إذا طرق جاد ولم يتشرح كما يتشرح غيره من أنواع النحاس، وهذا المعدن ينسبه العوام إلى السوس، وليست مدينة داى من بلاد السوس، لأن بينهما مسافات أيام كثيرة، ومن هذا المعدن يحمل إلى سائر البلاد ويتصرف به فى كثير من الأعمال.

«ومدينة داى صغيرة، ولكنها كثيرة العامر والقوافل عليها واردة وصادرة ويزرع بها وبأرضها كثير القطن، ولكنه بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينة داى، ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيراً ويسافر به إلى الجهات ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب الأقصى، ولا يحتاجون مع قطنها إلى غيره من أنواع القطن المجلوب من سائر الأقطار».

وقال فى ذكر مدينة فاس:

«ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتى من عيون تسمى عيون صنهاجة، وعليه فى داخل المدينة أرجاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر. والمدينة الشمالية منها تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الأندلس، والأندلس ماؤها قليل، ولكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها وينتفع منه ببعضها، وأما مدينة القرويين فمياهها كثيرة تجرى منها فى كل شارع وفي كل زقاق ساقية، متى شاء أهل الموضع فجروها فغسلوا مكانهم منها ليلاً، فتصبح أزقتهم ورحابهم مغسولة،

وفى كل دار منها صغيرة كانت أو كبيرة ساقية ماء، نقياً كان أو غير نقى. وفى كل مدينة منها جامع ومنبر وإمام، وبين المدينتين أبدا فتن ومقاتلات. وبالجملة أن أهل مدينتى فاس يقتل فتيانها بعضهم بعضا».

«وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور.. ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم.، ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها وفواكهها كثيرة وخصبها زائد، وبها فى كل مكان منها عيون نابعة ومياه جارية، وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب من الزينة، وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة وجهاتها مخضرة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة وفى أهلها عزة ومنعة».

وقال فى وصف بحيرة بنزرت الغربية.

«ومدينة بنزرت صغيرة عامرة بأهلها وبها مرافق وأسواق قائمة بذاتها، وبالجهة الشرقية منها بحيرتها المعروفة والمنسوبة إليها وطولها ١٦ ميلاً وعرضها ٨ أميال وفمها متصل بالبحر، وكلما أخذت فى البرية اتسعت، وكلما قربت من البحر ضاقت وانخرطت.

«وهذه البحيرة من أعاجيب الدنيا، وذلك أن بها اثنى عشر نوعا من السمك يوجد منها فى كل شهر نوع لا يمتزج بغيره من أصناف السمك، فإذا تم الشهر لم يوجد شىء من ذلك النوع فى الشهر الآتى، ثم يوجد فى الشهر الآتى صنف من السمك آخر غير الصنف الأول لا يمتزج بغيره... هكذا لكل شهر نوع من السمك لا يمتزج بسمك غيره إلى كمال السنة، هكذا فى كل عام، وهذه الاثنا عشر نوعاً من الحوت، التى ذكرناها هى البورى والقاجوج والمحل والطلنط والاشبلينيات والشلبة والقاروص والعاج والجوجة والكحلاء والطنفلو والقلا.

ويتصل بهذه البحيرة من جهة الجنوب مع انحراف إلى الغرب بحيرة ثانية تسمى تينجة وطولها ٤ أميال فى عرض مثلها وبينهما فم تتصل منه مياه إحداهما بالأخرى، وفى هاتين البحيرتين أمر عجيب، وذلك أن ماء بحيرة تينجة عذب

وماء بحيرة بنزرت ملح، وكل واحدة من هاتين البحيرتين تصب فى أختها ستة أشهر ثم ينعكس جريهما فتمسك الجارية عن الجرى وتصب البحيرة الثانية إلى هذه الأولى ستة أشهر أخرى، فلا بحيرة تينجة يتملح ماؤها ولا يعذب ماء بحيرة بنزرت، وهذا أيضا عجب من عجائب هذا الصقيع».

الغوص على اللؤلؤ:

«وأهم جزر البحرين جزيرة أوال وهى على مسيرة خمسين مرحلة من بر الفرس، وأربع مراحل من بر العرب، وطولها ستة أميال فى عرض ستة أميال.. وحاضرة جزيرة أوال اسمها البحرين، وهى مدينة عامرة.. وفى هذه الجزيرة يسكن غاصة اللؤلؤ، فى المدينة التى يصل إليها التجار من جميع أنحاء الأرض ومعهم المال الوفير.. ويترقبون شهوراً طوالا موسم الغوص.

ويستأجر التاجر الغاصة مقابل جعل معلوم، يتفاوت مع جودة الصيد واعتقاد التجار بمهارة الغاصة، ويكون الغوص فى أغشت وشتنبر وقبل هذا إذا كانت المياه صافية، ويصطحب كل تاجر الغواص الذى اكتراه، وتخرج المراكب جماعة من الميناء فيما ينيف على مائتى دونج، وهى فلك أكبر من الفلك العادى، يقسم التجار سطحها إلى خمس أو ست بلنجات منفصلة.

ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه المصفى، له نصيب فى الكراء، ويخرج مع الغاصة أدلاء حذاق يعرفون المواضع، لأن للأصداف مواضع تغشاها، تذهب إليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها.. فإذا خرج الغاصة من جزيرة أوال، قادهم الدليل حتى إذا وصلوا إلى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر، فإذا وجد المكان مناسباً خرج وأمر بطى الشراع ورمى الأناجر، وكذلك فعل بقية الدوانج، ويبدأ الغواصون فى العمل.

«ويبلغ عمق قيعان الصيد من اثنين إلى ثلاثة باعات، ويستر الغواص سوأته، ويسدد خياشيمه بالخلنجل وهو دهان من المومياء المذاب مع زيت السمسم، ومعه سكين وكيس، ويحمل حجراً وزنه قناطير أو ما أشبه معلق بخيط رفيع متين، وهو

يلقى فى الماء من ناحية المركب، ويمسك المصفى بهذا الخيط، بينما يقف الغواص على الحجر ويمسك الحبل بيديه متهيئاً للقفز فى البحر، ثم يترك المصفى الحبل فينزل الغواص والحجر سريعاً إلى قاع الماء، وهو واقف على الحجر ممسك الحبل بيديه.. فإذا وصل إلى القاع جلس وفتح عينيه، وجمع عاجلاً كل الأصداف حوله، فإذا ملأ الكيس انتهى عمله، وإلا فإنه يسعى قليلا دون أن يترك الحبل أو الحجر، فإذا تعب صعد إلى سطح البحر ليتنفس ثم يغوص ثانيا... فإذا امتلأ الكيس جذب المصطفى الحبل والكيس، وأفرغه فى البلنج وأرسله ثانيا إلى الغواص فى البحر... ومادام الغواص يجد الأصداف فهو يستمر فى صيدها.

«وبعد ساعتين يصعد الغواصون ويلبسون ملابسهم وينامون، ويأخذ المصفى فى فتح المحار بحضور التاجر الذى يجمع ما يخرج، ويسجله فى زمام ويأكل الجميع قبيل الغروب، وينامون طول الليل حتى يبدأ العمل فى اليوم التالى بعد الإفطار، وهكذا طوال الموسم. فإذا فرغوا من قاع انتقلوا إلى غيره، حتى ينتهى الموسم بنهاية شهرى أغشت وشتنبر، ويعودوا إلى أوال ومعهم اللآلىء محزومة فى أوطاب، وعلى كل وطاب اسم صاحبه وعلامته، وهو مغلق مختوم، وتسلم الأكياس إلى الوالى بمجرد مغادرة السفن.

ويأتى يوم البيع فيجتمع التجار، ويؤتى بكل وطاب وينادى على اسم صاحبه، ثم يكسر الختم وتفرغ اللآلىء فى ثلاثة أنواع من «الغرابيل» ذات ثقوب تختلف اتساعا، ثم تباع الكمية بالمناداة، فإذا أراد التاجر أن يحتفظ بها قيدت باسمه، وإلا فإنه يبيعها ويقبض ثمنها نقداً، وتدفع أجور الغاصة ومساعديهم نقداً، وينصرف الجميع مغتبطين، ويأخذ صاحب قيس أتاوة معلومة يدفعها التجار، وهى تجمع باسمه أثناء البيع وترسل إليه، ويحتفظ صاحب أوال باللآلىء النادرة ليرسلها للخليفة.

«واللؤلؤ ينمو داخل الصدفة.. ويقول سكان بحر فارس إنها تنمو حسب أمطار شهر فبراير... فإذا لم تمطر فى ذلك الوقت، لم يجدها التجار طوال العام، وهذه مسائل ثابتة لا يشك فى شأنها أحد من سكان البلاد.

«وتعلم حرفة الغوص فى فارس، ويدفع للتمرن عليها بعض المال... فإن الغواص يتعلم كيف يتنفس من آذانه، ويحدث فى بدء تعليمه أن تصاب الآذان بالتهاب حاد، ويخرج منها صديد وتعالج بالعقاقير، وتدفع أحسن الأجور للغواص الذى يبقى فى الماء أكثر من غيره، وهم يعرفون بعضهم تحت الماء، ولايعتدون على حدود بعضهم البعض، ولا يدعون التميز على غيرهم، ولكنهم يتبارون فى نشاطهم، وأغلب مغاصات اللؤلؤ فى بحر فارس، وبها نحو ثلاثمائة مشهورة مطروقة، ولقد ذكرنا أغلبها فى مواضعها، أى فى الكلام عن سواحل البحار والجزائر، ومغاصات هذا البحر أغنى وأكثر غلة من مثيلاتها بالهند واليمن، ولذا أسهبنا فى وصفها».

وهكذا يبدو عمل الإدريسى مختلفا ومتميزا وجامعاً إلى حد كبير، أفاد به الجغرافيين والرحالة، وأضاف للعرب صفحات من المجد والفخار بفضل ما أنجز وبفضل ما فهم ووعى، وبفضل إرادة قوية وشهوة للعلم ودقة فى الملاحظة، وسفر طويل التهم جل العمر الذى لم يضع سدى.

أبو حامد الغرناطى

(٤٧٣ - ٥٦٥هـ) (١٠٨٠ - ١١٦٩م)

واحد من كبار رحالة القرن السادس الهجرى «الثانى عشر الميلادى» ويكاد فى نظرنا يبلغ مكانة ابن بطوطة، وإن لم ينل من التعريف والدرس ما يحقق له الشهرة اللائقة برجل من عشاق السفر، الراغب فيه لذاته ابتغاء كشف العالم ومشاهدة المعالم، وتحصيل المعرفة وإثراء التجربة باقتحام المخاطر والدخول إلى المجاهل.

وضع كتابين على درجة كبيرة من الأهمية، هما: **«تحفة الألباب ونخبة الأعجاب»** و**«المعرب عن عجائب المغرب»**.

ولد محمد بن عبدالرحيم بن سليمان بن ربيع القيسى الغرناطى، «هكذا ورد اسمه فى مقدمة كتابه «المعرب»، فى مدينة غرناطة عام ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) وتتناقل بعض كتب السير اسمه كما يلى: أبو عبدالله محمد بن عبدالرحيم المازنى القيسى الغرناطى الأندلسى الأقليشى القيروانى، ويكنى بأبى حامد، لأن له ولدًا اسمه حامد.

يقول فى «المعرب»:

«ومولدى فى المغرب الأقصى بجزيرة تعرف بالأندلس، فيها أربعون مدينة ومولدى فى مدينة تسمى غرناطة».

وقال أيضا فى «تحفة الألباب»:

«فإن بلدى بأندلس واسم بلدى غرناطة، وهو بلد عظيم كبير، يقال إنه مدينة دقيانوس».

غادر بلاد الأندلس حوالى عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) وكان فى السابعة والعشرين من عمره ولم يعد إليها أبداً، لا عن كراهية أو فرار، ولكن عن ولع بالأسفار وطى القفار واكتساب المعارف، وحتى يومه الأخير كان لايزال يأمل فى الترحال وقد جاوز التسعين، أنفق منها خمسة وستين يطوف بالبلدان تحركه شهوة عميقة وقوية للتأمل فى خلق الله، تدعمه ملكات عظيمة، منها: دقة الملاحظة ورغبة جامحة للعمل والحركة، وهمة عالية وحيوية ونشاط، مقبل على الحياة، آخذ بكل متعها، يعيش بالطول والعرض ولا يتخلى فى الوقت ذاته عن عبادة ربه والدعوة لدينه القويم وانتهاج صراطه المستقيم.

ويذكر **كراتشكوفسكى** (ص٢٩٥) أن الغرناطى بدأ رحلته عام ٥٠٨هـ - ١١١٤م إلى مصر، حيث استمع إلى بعض علماء القاهرة والإسكندرية ثم رجع إلى وطنه ولكنه لم يمكث به طويلاً، فغادره مرة أخرى فى عام ٥١١هـ - ١١١٧م بنية الرجوع إليه ثانية فيما يبدو، وأما عن نية الرجوع فليس من ريب أنها متوافرة، ولكن الاختلاف حول التواريخ التى ذكرها المستشرق الروسى الذى نثق به.

درس الفقه واللغة والأدب، ولما بلغ مبلغ الفتوة والشباب، وشرع فكره فى النضوج، تحول لمدارسة أحوال وطنه، وساءه أن بلاده وقعت فى أيدى النصارى وتساءل عن أحوال المسلمين فى غير وطنه، وارتأى أن السبيل إلى معرفة ذلك لايكون إلا بالسفر والمشاهدة، ولم يلبث أن أعد نفسه لذلك بعد أن أدرك بمرور الأيام أن الارتحال أصبح شاغله الأول والأخير، بوصفه طريق المعرفة.

رحلة أبى حامد الغرناطى

طاف أبو حامد المغرب الأقصى ووصل إلى سلجماسة، وكانت مركزاً تجارياً كبيراً على الحدود الشمالية للصحراء الكبرى، وانتقل إلى تونس حيث بقى فيها سنوات ثم مضى إلى الإسكندرية عام ٥١١هـ (١١١٧م) مارا بجزيرة سردينية

وصقلية، وقد التقى بكبار علماء الإسكندرية، وتلقى العلم على يد **عبدالله الرازى، وأبو بكر الطرطوشى،** وزار المنارة، ومعبد سيرابيوم،

وفى عام ٥١٢هـ زار القاهرة ويسميها مصر، يقول:

«دخلت مصر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة وهى التى تعرف بالفسطاط التى بناها عمرو بن العاص» ويظل بها حتى عام ٥١٥هـ (١١٢١م)، وبعدها يتوجه إلى دمشق حيث نزل بها ودرس الحديث وزار بعلبك وتدمر.

ويمضى بعد ذلك إلى بغداد ليقيم فيها أربع سنوات منعما برعاية الوزير يحيى بن خبير، ويتخذها قاعدة جديدة لانطلاقاته فى أسفاره، ومنها يرتحل إلى إيران والتركستان وجنوبى روسيا وحوض الفولجا وشرقى أوروبا ويصل إلى المجر، ويدخل إلى أرض خوارزم، ويعزم على الحج عام ٥٤٦هـ فيمر على بخارى وسرو ونيسابور والرى وأصفهان والبصرة إلى الأراضى الحجازية ليؤدى الفريضة ويعود إلى بغداد، وتكون هذه أول مرة يعود فيها إليها بعد مغادرتها عام ٥١٩هـ بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً قضاها، متنقلاً بين الأصقاع الشمالية، حيث عاش وتزوج عدة مرات وأنجب وتاجر وكسب الكثير من المال والمعارف.

وظل فى بغداد حتى عام ٥٥٦هـ، وكان قد بدأ فى عام ٥٤٧هـ فى تدوين كتابه الأول «المعرب فى بعض عجائب المغرب» ولما انتهى منه أهداه للوزير عون الدين بن هبيرة وفى عام ٥٥٦هـ، يرحل إلى الموصل حيث بقى فيها عاماً واحداً، وهناك يعكف على تأليف كتابه الثانى «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب» وفرغ منه عام ٥٥٧هـ، ونسخت منه نسخ كثيرة[١١].

وفى عام ٥٦٠ هـ خرج إلى حلب ثم انتقل إلى دمشق؛ حيث مات فيها عام ٥٦٥هـ (١١٦٩م) عن اثنين وتسعين عاماً.

كتاب «المعرب عن بعض عجائب المغرب»

إنه لشيء مثير حقا أن يمضى رجل فى أسفاره أكثر من خمسة وستين عاما فى

مطالعة آفاق الدنيا وعجائبها، غير مبال بالأخطار فاتحا صدره لاستيعاب كل ما تعرضه عليه أو تدهمه به.

والكتاب الأول الذى وضعه أبوحامد هو «المعرب عن بعض عجائب المغرب» ليس كبيراً بالشكل المتوقع والذى يليق برحالة هذا حجمه وهذه تجربته، ولكنه كما قصد هو جانب من غريب ما رأى، وعجيب ما صادف فى بلاد المغرب «المغارب»..

والكاتب غير منتظم أو مرتب بصورة تاريخية أو جغرافية، وليس مسلسلا حسب توالى زياراته للبلدان، وإنما هو مؤلف بالتداعى، فكل ما يرد على ذهنه يدونه خاصة ما يتسم بالغرابة وما يمكن أن يثير الدهشة، وقد كان هذا اللون من الكتابة دأب كثير من الكتاب وموضع إقبال الكثير من القراء، وقد ذكرنا ذلك سابقاً فى غير موضع.

ولو كان أبوحامد قد تمتع بقدر غير قليل من الصبر على الكتابة، أو لو كان التسجيل والتدوين بعض همه لوضع لنا مصنفا فخما وفريداً فى أدب الرحلات، وأزعم أنه كان بذلك كفيلاً أن يصل إلى مكانة ابن بطوطة رغم المساحة العريضة، التى غطاها المغربى من الأرض، على حين كان أبو حامد يزرع الشمال ذهابا وإيابا حتى حفظ عن ظهر قلب معالم هذه الأصقاع وطبائع أهلها وعاداتهم، بل علمهم ونشر الإسلام بينهم وتزوج وأنجب من نسائهم وصادق ملوكهم، ولو قيض الله له شخصا كابن جزى كاتب أبى عنان الذى سجل لابن بطوطة رحلته، وأخرجها فى ثوب بديع، لكانت مكانة الغرناطى عالية وشأنه كبيرا ولا اعتراض على ماسارت إليه الأمور، فالحياة أقدار ومواهب وظروف وأحوال.

أيا ما كان الأمر، فقد اجتهد أبوحامد فى تقديم بعض ملامح عصره الجغرافية سواء الطبيعية أو البشرية، فى بعض الأصقاع التى زارها، ولا شك أنه مما يسعد قارئ اليوم أن يقع فى كتابات أبى حامد على وصفه لأعمدة هرقل عند مضيق

جبل طارق؛ خاصة أن ذلك تم قبل فترة قصيرة من انهيارها عام ١١٤٥م، ووصفه لفنار الإسكندرية وهو فى صورته التامة قبل أن يلحقه البلى أيضا، كما أنه رأى فى عين شمس بالقاهرة المسلة المصرية المشهورة، قبل أن تسقط عام ١١٦٠م، ويحكى لنا أنه دخل إلى هرم خوفو. ولعل مثل هذه الوقفات كفيلة بإضفاء لمسات فنية وإنسانية على قدر كبير من القيمة، فضلاً عن دلالته على وعى أبى حامد وملاحظاته الدقيقة، وإن لم تتح له الفرصة لزيادة حصيلته الثقافية بشكل يثرى رؤيته.

أما الإضافة التى لا تنكر فوق مرارة التجربة وطرافة المشاهدة، فهى الرسوم التى خطها أبو حامد بيده ليصور بها بعض ما رأى من المعالم والآثار والمبانى والتماثيل، لاسيما أنه طاف ببلدان شمال آسيا وشرق أوروبا عدة مرات ووعى معالمها، ودرس ملامحها وكادت تصبح له هى البلاد والوطن، وقد كان يشتاق إليها بعد أن استقر فى بغداد عدة أعوام، وكان يتلهف للعودة إليها راغبًا فى رؤية زوجاته وأولاده.

كتاب «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب»:

فرغ أبو حامد الغرناطى من تدوين كتابه «التحفة» فى الثالث من إبريل سنة ٥٥٧هـ الموافق الثانى والعشرين من مارس ١١٦٢م وكان بالموصل، بعد خروجه من بغداد واستقراره بالمدينة العراقية الثانية فى كنف صديقه الشيخ معين الدين أبى حفص **الأردبيلى** صاحب كتاب «**وسيلة المتعبدين**(١٢)»، ولذلك يثني عليه في مقدمة الكتاب عارفًا بفضله؛ لأنه دفعه لتصنيف مؤلفه الطريف، فيقول:

«ولم يزل أيده الله وأبقاه، ومن المكاره وقاه يحثنى كلما كنت ألقاه، أن أجمع ما رأيته فى الأسفار من عجائب البلدان والبحار، وما صح عندى من نقلة الأخبار والثقاة الأخيار، فأجبته إلى ذلك، وإن لم أكن هناك (أى لا أحسب بينهم) لعزوب الفطن وضيق العطن وبعد الأهل والوطن، وتشتت الأحوال، وركوب الأهوال وطول الاغتراب والبعد عن الأحباب ومساورة العذاب، أسأل الكريم المجيب أن

يمن عليّ بالفرج القريب[14]، ويرحم الله عبدا قال آمينا، ورأيت أن أسمى هذا المجموع «تحفة الألباب» وأرتبه على مقدمة وأربعة، أبواب، فالمقدمة للبيان والتمهيد والأبواب لتتمة المقصود:

الباب الأول: فى صفة الدنيا وسكانها، من إنسها وجانها.

الباب الثانى: فى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان.

الباب الثالث: فى صفة البحار وعجائب حيواناتها، وما يخرج منها من العنبر والقار، وما فى جزائرها من أنواع النفط والنار.

الباب الرابع: فى صفة الحفائر والقبور، وما تضمنت القفار إلى يوم النشور ليكون ذلك سببا للاعتبار، وداعيًا إلى الفرار من دار البوار إلى دار القرار، جعلنا الله وإياكم من الفائزين، وأدخلنا برحمته فى عباده الصالحين.

وقد انتسخت من مخطوطة «التحفة» نسخ عديدة وتوزعت فى مكتبات كثيرة، فمنها واحدة فى باريس، وأخرى فى لينجراد، وثالثة فى المتحف البريطانى، ورابعة فى الجزائر، وخامسة فى أكاديمية التاريخ بمدريد، وسادسة فى مكتبة كيمبردج، وفى مكتبة باريس الأهلية خمس نسخ، وقد نشر النص **جابرييل فران** كاملاً سنة ١٩٢٥م كما قام بترجمته.

ونعود فنؤكد أن الغرناطى قدم خدمات جليلة للأدب الشعبى، خاصة ألف ليلة وليلة، وإسهاماته التى بدت متواضعة من حيث الحجم كان لها أثر كبير فى إلقاء الضوء على هذه المناطق من المملكة الإسلامية، وليس بوسعنا أن نوافق د.حسين مؤنس على ما ذهب إليه فى مقارنته الغرناطى بالإدريسى الذى اتجه بالجغرافيا وجهة علمية، وقد كان هذا مجاله وعالمه الذى هيئ له، وكان للغرناطى وجهته التى لا نستطيع أن نقلل منها أو نلومه عليها.

الإسكندرية:

«يأتى إلى الإسكندرية خليج من ماء النيل، ومن ذلك الخليج يشربون، ويملأون من صهاريج فى بيوتهم، ويشربون أيضا من ماء المطر، يجمعون ماء المطر وماء العين فى صهاريج فى بيوتهم، وليس فى الإسكندرية ماء إلا من النيل أو من المطر وماء العين الصدفية ماء يسير ليس بطيب».

ويصل إلى مصر ويصف خصوبة أرضها والتمساح الذى رآه بالنيل، كما يصف الأهرامات.

أما عن بلاد الخزر فيقول فى «التحفة» ص٣:

«ودخلت البحر إلى بلاد الخزر فوصلت إلى نهر عظيم أكبر من دجلة مرات أضعاف مضاعفة كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة (يقصد نهر الفولجا) وعليه مدينة يقال لها «سجسين» فيها من الغز أربعون قبيلة،لكل قبيلة أمير على حدة، ولهم دور كبيرة وفى كل دار خركاة (خيمة) عظيمة كالقبة الكبيرة، تسع الواحدة مائة رجل وأكثر مغشاة باللبود، وفى المدينة من أمم التجار والغرباء وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يحصى عددهم، وفيها جوامع يصلى فيها الجمعة فى الخزر، وهم أمم أيضاً وفى وسط البلدة أمير من أهل بلغار لهم جامع كبير يصلى فيه الجمعة، وحوله أمم من البلغاريين وجامع أيضا آخر فيه أمة يقال لها أهل صوار(١٥) وهم أيضا كثيرون، ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة، يصلى كل أمير بأمم كثيرة، ولكل أمة قضاة وفقهاء وخطباء والجميع على مذهب أبى حنيفة، إلا أولاد المغاربة، فإنهم على مذهب مالك، والغرباء على مذهب الشافعى، ودارى الآن فيهم وأمهات الأولاد وأولادى وبناتى.

والشتاء عندهم شديد البرد، وبيوتهم فى الشتاء من خشب الصنوبر، جذوع كبار، بعضها فوق بعض، وسقوفها وسطوحها من ألواح الخشب، ويوقدون النار ولها أبواب صغار مغشاة بجلود الأغنام بصوفها، وداخلها جارة مثل الحمام

والحطب عندهم كثير، ويجمد النهر حتى يصير كالأرض تمشى عليه الخيل والعجل من البهائم جميعا، ويتقاتلون على ذلك الجمد، ومشيت عرض ذلك النهر لما جمد فكان عرضه ألفى خطوة بخطوى، سوى الأنهار التى تخرج من ذلك النهر.

البلغار

وقد بقى أبو حامد فى بلاد الخزر نحو ثلاث سنوات، انتقل بعدها إلى البلغار، ولندعه يتحدث عما لقى وما شاهد من العجائب:

«لقيت فى مدينة البلغار من نسل العاديين رجلا طويلا، كان طوله أكثر من سبعة أذرع يسمى رفقى، كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الحمل الصغير، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ويقطع جسده وأعضاءه، كما يقطع باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً يحمل على عجلة، وبيضة لرأسه، كأنها مرجل، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجرة البلوط يمسكها كالعصا فى يده، لو ضرب بها الفيل قتله، وكان خيّراً متواضعاً، كان إذا التقانى يسلم على ويرحب ويكرمنى، وكان رأسى لايصل إلى حقوه رحمه الله، ولم يكن ببلغار حمام يمكن أن يدخل فيه إلا حمام واحدة واسعة الأبواب، فكان يدخل فيه، وكان من أعجب بنى آدم، لم أشاهد قط مثله، وكان له أخت على طوله، ورأيتها مراراً عدة فى بلغار وقال لى فى بلغار القاضى يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، وكان أقوى أهل بلغار، ضمته إلى صدرها فكسرت أضلاعه، فمات فى ساعته»

(التحفة ١٣٢-١٣٣).

«وسمعت ببلغار وهى مدينة فى آخر بلاد الإسلام فى الشمال فوق سجسين بأربعين يوما يكون النهار فى الصيف عشرين ساعة والنهار أربع ساعات ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت لايقدر أن يدفنه ستة شهور، لأن الأرض تكون كالحديد، ولايمكن أن يحفر فيها قبراً، ولقد مات لى بها ولد وكان في آخر

الشتاء، فلم أقدر على دفنه فبقى فى البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه وبقى الميت كالحجر».

«وفى النهر من أنواع السمك ما لم أشاهد قط فى الدنيا مثله، السمكة الواحدة حمل رجل قوى، ومنها نوع سمك حمل جمل قوى، ومنها صغار أيضا، ليس فى السمكة شوك ولا عظم فى رأسها وليس لها أسنان، كأنها إلية الحمل محشوة بلحوم الدجاج، بل أطيب من لحم الحمل السمين وأعذب، تشوى هذه السمكة، وتجعل فيها الأرز فتكون أطيب من لحم الحمل السمين ومن لحم الدجاج، وتشترى هذه السمكة التى يكون فيها مائة من بنصف دانق (المن = ٨/ ١٠ من الكيلو جرام) ويخرج من بطنها دهن يكفى السراج شهراً، ويخرج من معدتها من غرى السمك نصف من، ويقدد فيكون أحسن من كل قديد فى الدنيا، فى لون الكهرمان أحمر صافيا يؤكل مع الخبز كما هو لايحتاج أن يطبخ ولايغلى.

واللحم عندهم رخيص بحيث يكون الغنم ـ إذا جاءت القوافل من الكفار ـ الواحدة بنصف دانق، وعندهم أنواع من الفواكه لايوجد أكثر منها وفيها بطيخ حلو للغاية».

وينتقل إلى أنقورية وهى المجر، ويقول عنها:

«فلما وصلت إلى بلاد أنقورية (لعله يقصد أنجارية وهى هنجاريا وبعد ذلك المجر) وفيهم أمة يقال لهم باشفرد من أول ما جاء عن بلاد الأتراك ودخل الإفرنج (أى أنهم أول من هاجر من القبائل الآسيوية إلى الدولة الرومانية)، وهم شجعان لا عدد لهم، وبلادهم هى ثمانية وسبعون مدينة، كل مدينة لها حصون ورساتيق وقرى، وجبال وعناصير وبساتين كثيرة، وفيها من أولاد المغاربة آلاف، لاعدد لهم أيضا وفيها من أولاد الخوارزميين يخدمون الملوك ويتظاهرون بالنصرانية ويكتمون الإسلام، وأولاد المغاربة لايخدمون النصارى إلا فى الحروب وهم يعلنون الإسلام، ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرمونى، وعلمتهم شيئا من العلم،

وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية، وكنت أجتهد معهم فى الإعادة والتكرار فى فرائض الصلاة وسائر العبادات، واختصرت لهم الحجج وعلم المواريث وعلمتهم صلاة الجمعة، فعندهم الآن أكثر من عشرة آلاف مكان يخطب فيه يوم الجمعة ظاهراً وباطنا لأن ولايتهم عظيمة»[١٦].

وقد أقمت بينهم ثلاث سنين، لم أقدر أدخل إلى أربعة من المدائن وتلك الولاية «المجر» من رومية العظمى وفيها جبال يخرج منها الذهب والفضة وتلك البلاد من أكثر البلاد رخاء ونعمة، يكون الغنم عشرين بدينار والحملان والجداء ثلاثين بدينار والعسل خمسمائة رطل بدينار والجارية الحسناء بعشرة دنانير، وفى وقت الغزو تشترى الجارية الجيدة بثلاثة دنانير، واشتريت جارية مولدة، أبوها وأمها وأخوتها بالحياة اشتريتها من سيدة بعشرة دنانير، بنت خمس عشرة سنة، أحسن من القمر، سوداء الشعر والعينين بيضاء كالكافور، تعرف الطبخ والخياطة والرقم، واشتريت جارية أخرى رومية بنت ثمانى سنين بخمسة دنانير، تزوجتها وجاء منها ولد ومات، فأعتقتها وسميتها مريم، ورغبت أن تجئ معى إلى سجسين، فخشيت عليها من أمهات الأولاد الترك فى سجسين».

ويوضح لنا النص السابق نوع الحياة التى كان يعيشها أبو حامد، متمتعا بالخيرات والنعم ومكاسب التجارة التى نحدس أنه عمل بها، وأنه كان يتنقل بين الأماكن والأقطار بلا قيود ويتزوج النساء ويشترى الجوارى، وكان ولده حامد مثله وكان مع التجارة والثراء صاحب علم وجاه ودين، وحظى بمكانة كبيرة بين المسلمين وهو الذى يوجههم ويعلمهم ويدافع عنهم، وهو بمثابة الأب الروحى لهم، ومن الأمثلة الدالة علي ذلك تحريمه على المسلمين من أبناء هذه البلاد شرب الخمر وكان من قبل يتعاطونها، فى حين أباح لهم الجوارى وأربعة من الحرائر، فأنكر ذلك الملك، وقال:

«ليس هذا من العقل، لأن الخمر يقوى الجسد، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر، ودين الإسلام لايكون على وقف العقل، فقلت للترجمان: قل للملك:

شريعة المسلمين ليست شريعة النصارى، والنصرانى يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولايسكر. وذلك لايزيد فى القوة، والمسلم الذى يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر، فيذهب عقله ويصير كالمجنون يزنى ويقتل ويكفر ولا خير عنده، ويعطى سلاحه وفرسه ويضيع ماله فى طلب لذته، وهم هاهنا جندك، وإذا أمرته بالغزو لايكون له فرس ولاسلاح ولا مال قد أهلكه فى الشراب، فإذا علمت إما تقتله أو تضربه، أو تطرده أو تعطيه خيلاً وسلاحاً يفسده أيضا، وأما الجوارى والنساء، فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم، وأيضا فإنهم جندك، فإذا كثر أولادهم كثر جندك، فقال الملك: اسمعوا من هذا الشيخ فإنه عاقل، فتزوجوا ماشئتم ولا تخالفوه، ذلك الملك خالف القسيسين واستباح الجوارى، وذلك الملك يحب المسلمين».

(التحفة ١٩٧، ١٩٨).

اليورا

يقول أبو حامد الغرناطى ـ الذى كانت حياته عجيبة من العجائب ـ عن بلاد اليورا، وهم قوم يسكنون شمال شرقى الفولجا:

«والطريق إليهم فى أرض لايفارقها الثلج أبدا ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحًا ينحتونها، طول كل لوح باع وعرضه شبر، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان من الأرض، وفى وسط اللوح موضع يضع فيه الماشى رجله وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم، ويقرن بين اللوحين التى تكون فى رجليه بشندال طويل مثل عنان الفرس، يمسكه فى يده الشمال، وفى يده اليمنى عصى بطول الرجل، وفى أسفل العصى مثل كرة من الثياب، محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة، يعتمد على تلك العصى على الثلج ويدفع العصى خلف ظهره، كما يصنع الملاح فى السفينة، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحد أن يمشى هناك البتة، وأى حيوان مشى عليه يغوص في ذلك الثلج فيموت فيه إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنه

يمشى عليها بخفة وسرعة، والثعالب والأرانب فى تلك البلاد تبيض جلودها حتى تكون مثل القطن، وكذلك الذئاب أيضا تكون فى ناحية البلغار، تبيض جلودها فى زمن الشتاء».

وقام أبو حامد برسم الألواح التى يستخدمها أهل الشمال للسير على الجليد بيديه، فبدت مثالا للدقة وإجادة الوصف ودلالة على المشاهدة الحية المباشرة، وأضافت للنص الكثير من الحيوية والقيمة والمصداقية. وقد كان النص ذاته ـ كما لايخفى ـ جيد الوصف حسن التصوير، وبما يكشف عن قدرة على القص والحكى ترفدها التجربة والخبرة والممارسة، وتخلع عليها الدفء والجاذبية، ولو مضى أبو حامد على هذا النحو الصادق الذى يمتح من آباره الشخصية وحصيلته الثرية من المعاملات والتجارب، لما كان بحاجة إلى الوقوف عند العجائب والغرائب، كالسمكة الهائلة أو الرجل الذى يرفع الفرس كما يحمل الرجل العادى الحمل الصغير.

وعن أهل غانة يقول الغرناطى:

وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صورا، سبط الشعور، لهم عقول وفهم ويحجون إلى مكة، وأما فاوة وقوقو وملىّ وتكرور وغدامس، فقوم لهم بأس، وليس فى أرضهم بركة ولاخير ولادين لهم ولا عقول وأشرهم قوقو: قصار الأعناق فطس الأنوف حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسمومة بدماء حيات صفراء لاتلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم من عظمه، ولو كان فيلاً أو غيره من الأفاعى».

وبعد، فلعلنا لا نستطيع أن نضيف جديداً لما سبق قوله عن الرحالة الأندلسى الكبير أبى حامد، كما أننا ـ فيما أحسب ـ لن نستطيع أن نوفيه حقه نظير ما قدم للجغرافيا والرحلة وقبلهما للإسلام، ولذلك نختم حديثنا عنه بكلمات المستشرق العظيم «كراتشكوفسكى»:

«من المستحيل تجاهل الغرناطى فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القراء؛ لأن المنهج الذى ابتدعه فى الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة فى وحدة كوزموغرافية قد راق كثيراً للأجيال التالية، وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافى القرن الثالث عشر القزوينى، واستعمله كل من الوردى وابن إياس فى بداية القرن السادس عشر، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب **الدميرى** (ق ١٥م) وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت **الأبشيهى** (ق ١٥م). وقد خمن أبو حامد تخمينا صحيحا حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات، منذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلازمه من عنصر الغرائب محببًا إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص، وليس فى مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية فى ميدان العلم، اللهم إذا استثنينا نقاطا معينة فيه».

وتبقى فى الجعبة كلمة تستحق أن تلقى فى ذاكرة التاريخ الأدبى، وهى أننى أستطيع القول ـ دون أدنى إحساس بالمبالغة ـ إن أعمال أبى حامد الرحالة الأندلسى تكاد تمثل الصورة الأولى، إن لم تكن المصادر الأساسية للبناء الروائى الحديث الذى ظهر فى بلدان أمريكا اللاتينية، وبرع فيه كتاب من أمثال **جارسيا ماركيز** الكولومبى، والكاتب **فارجاس أيوسا** من بيرو، **وجورج أمادو** من البرازيل، والذى يصطلح النقاد على تسميته اتجاه الواقعية السحرية، والذى يرجح ما نذهب إليه هو أن أعمال الغرناطى قد ترجمت إلى اللاتينية والإسبانية منذ قرنين على الأقل.

إننى على ثقة من أننا مع رجوعنا إلى الوراء للبحث عن جذور هذا الاتجاه، سوف نجد أنفسنا فى معطف الغرناطى، وإذا التمس النقاد فى قولنا السالف قدراً من المجاملة، فليس بيننا وبينهم غير النصوص والنظر العلمى الدقيق.

أسامة بن منقذ

(٤٨٨-٥٨٤هـ) (١٠٩٥-١١٨٨م)

هو الأمير الفارس والأديب الشاعر والرحالة المغامر، والمحارب العربى الجسور، صاحب تجربة ثرية فى عالمى الحرب والسلام، عمّر إلى أن بلغ من العمر ستة وتسعين عاما هجرياً (ثلاثة وتسعين عاماً ميلادياً)، لم يتوقف خلال هذا العمر يوما عن العمل والحركة والارتحال واقتحام المخاطر والقتال، وصيد الأسود والنمور، ولذلك فهو يعد إحدى الصفحات المهمة فى كتاب الرحلة العربية، ووجها آخر من الوجوه المتميزة، التى تقدم لنا جانبا مختلفا من جوانب الصورة، التى نسعى لرسمها من خلال نصوص أدب الرحلة.

ولد أسامة بن منقذ بن على بن مقد مؤيد الدولة مجد الدين بقلعة شيزر مقر الإمارة لأسرة بنى منقذ، الذين كانوا يحكمون القلعة التى تقع شمالى حماه بسوريا فى يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨هـ، الموافق الرابع من يوليو سنة ١٠٩٥م.

كان الجو الذى نشأ فيه أسامة يحتشد بأنباء الحرب ضد الغزوات، التى يشنها الأعداء على قلعة شيزر حيث تعيش الأسرة، وحيث ولد أسامة وقضى سنوات طفولته وصباه.

تعددت الغزوات على القلعة، فبعضها من قبائل متخاصمة تقيم فى حلب، وكانت ثمة هجمات تشنها قبائل من الإسماعيلية (الحشاشين)، وأخرى من البيزنطيين وأخيراً من الصليبيين، وكان طبيعياً أن تنعكس هذه الأحوال على تربية أسامة الذى عاش بين يدى أبيه وعمه، وألف الحياة العسكرية الخشنة التى تقوم

على المخاطرة فى الحرب والصيد، وبين غزوة وأخرى، ورحلة صيد ورحلة توفر الأسرة لبنيها سبل الدرس الدينى والأدبى، فحفظ أسامة القرآن ودرسه ونسخه، كما درس الأدب وحفظ شعر العرب منذ الجاهلية إلى عصره، وقيل إن حصيلته تجاوزت من الشعر عشرين ألف بيت.

يسترجع أسامة لنا بعد أن بلغ التسعين ووضع كتابه «الاعتبار» جانبًا من هذه الحياة، فيقول إن أباه هو الذى هيأه للحياة القتالية بالمنهج الذى اتبعه فى تربيته.

تربية أسامة البيتية:

وما رأيت الوالد، رحمه الله، نهانى عن قتال ولاركب خطر مهما كان يرى فى، وأرى من إشفاقه وإيثاره لى، ولقد رأيته يوما وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الإفرنج على قطيعة قطعها لحسام الدين تمرناش بن ايلغازى، رحمه الله، فرسان إفرنج وأرمن، فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، نفذ خيرخان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم فى ظاهر شيزر، فلما ووقفا، وكل من يصل إليهما قد سيراه من خلفهم، وجئت أنا، فقال لى أبى: «اتبعهم بمن معك. وارموا أنفسكم عليهم واستخلصوا رهائنكم» فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار، واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص، وعجبت من قوله: «ارموا أنفسكم عليهم».

ومرة كنت معه، رحمه الله، وهو واقف فى قاعة داره.. وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التى فى الدار.. فوقف يبصرها، فحملت سلما كان فى جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت إليها، وهو يرانى فلا ينهانى، وأخرجت سكينا صغيرة من وسطى، وطرحتها على رقبة الحية وهى نائمة وبين وجهى وبينها دون الذراع، وجعلت أحز رأسها، وخرجت والتفت على يدى - إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار وهى ميتة.

بل رأيته، رحمه الله، وقد خرجنا يوما لقتال أسد ظهر على الجسر، فلما وصلنا، حمل علينا من أجمة كان فيها، فحمل على الخيل، ثم وقف، وأنا وأخى

بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله، بين الأسد وبين موكب فيه أبى وعمى، رحمهما الله، ومعهما جماعة من الجند. والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الأرض ويهدر، فحملت عليه.. فصاح علىَّ أبى رحمه الله: «لا تستقبله يا مجنون، فيأخذك» فطعنته، فلا والله ما تحرك من مكانه، ومات موضعه.

فما رأيته نهانى عن قتال غير ذلك اليوم[١٧].

أمضى أسامة سنى شبابه فى دمشق فى بلاط نور الدين زنكى، عم صلاح الدين الأيوبى، وكان قد رحل تلبية لرغبة أتابك عماد الدين زنكى ملك الأمراء، وأقام فى دمشق ثمانى سنوات، وشهد فيها عدة حروب.

رحب به الأمير معين الدين أمير دمشق وأكرمه، وحرص على توفير كل أسباب الراحة له، وعمل على استبقائه أطول مدة ممكنة، لكن خصوم معين الدين حاولوا النيل من مكانته مشيرين إلى إيثاره أسامة عليهم.

وفى هذا يقول شاعرنا الرحالة:

معين الدين كم لك طوق ... بجيدى مثل ألوان الحمام
يعيدنى لك الإحسان طوعا ... وفى الإحسان رق للكرام
فصار إلى مودتك انتسابى ... وإن كنت العظامى العصامى
ألم تعلم بأنى لانتمائى إليك ... رمى سوادى كل رام
ولولا أنت لم يصحب شماسى ... بقسر دون أعذار الحسام
ولكنْ خفت من نار الأعادى ... عليك فكنتُ إطفاء الضِّرام

ودفعه الإباء والكبرياء للرحيل إلى «مصر»، فغادر دمشق يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ، وأحسن الحافظ لدين الله استقباله، وعاش فى عهده مكرما منه ومن أمير الجيوش وابنه الأفضل، ولقى المعاملة نفسها بعد رحيل الحافظ وتولى الظافر بأمر الله، وكان لكليهما صديقا، كما كان من قبل صديقاً

لنور الدين ومعين الدين وصلاح الدين، وكما كان صديقا لبوهمند وتنكر وفولك من أمراء الصليبيين فى الشام إبان فترات السلم، لكنه كان لهم عدوا ومحاربا شرساً بعد اندلاع الحرب، ويذكر له المؤرخون أنه هو الذى طعن فيليب أمير الصليبيين طعنة زلزلت معسكراتهم، حتى أن قائدهم أرسل إلى صلاح الدين يريد لقاء الفارس الذى طعن فيليب.

وبعد قضائه سنوات فى مصر، رحل عنها إلى مكة ليؤدى فريضة الحج واتجه صوب بيت المقدس، وتنقل بين عدد من العواصم الإسلامية ثم استقر فى قصور الأتابكية بالموصل ومكث بها سنوات، آثر بعدها أن يعيش فى حصن «كيفا» حيث قضى معظم سنوات شيخوخته، وكان الوقت قد حان لكى يضع سيفه فى غمده، ولم تعد يده قادرة على القتال به، ولكنها كانت قادرة على الإمساك بالقلم وحمل الكتاب.

فلما قارب التسعين وكان فى حصن كيفا، أرسل إليه صديقه صلاح الدين يسترضيه بعد عهد من الجفاء ساد بينهما، وطلب إليه الحضور إلى دمشق فلبى أسامة دعوة القائد الكبير وأقام فى رعايته وكرمه، يسجل لنا هذه الصفحات الرائعة، التى حملت اسم «الاعتبار» حتى لقى ربه مساء يوم الاثنين الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤هـ الموافق الخامس عشر من نوفمبر سنة ١١٨٨م، بعد أن عاش حياة حافلة بالجمال ممثلاً فى الشعر والأدب، وبالأخطار والأهوال يصلى نارها فى القتال وصد الغزوات، حتى ليقول هو نفسه فى كتابه:

«فكم لقيت من الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام، وأنا من الأجل فى حصن حصين حتى بلغت تمام التسعين».

ودفن أسامة فى جبل قاسيون جوار دمشق.

وقد ذكر حاجى خليفة فى كشف الظنون أن لأسامة كتبًا أخرى غير الاعتبار منها «ديوان أسامة» و «أخبار النسا» «كتاب العصا» «كتاب المنازل والديار»

وكتاب «**النوم والأحلام**» وكتاب «**تاريخ القلاع والحصون**» «**نصيحة الرعاة**» وكتاب «**التجائر المربحة والمساعى المنجحة**».

ويقع «ديوان أسامة» فى جزأين[١٨]، ويشتمل على قصائد من الشعر العذب الذى جللته الخبرة الأدبية والتجربة الشخصية بغير قليل من الدفء والبهاء.

منه قوله:

لا تستعر جلدا على هجرانهم	**فقواك تضعف من صدود دائم**
واعلم بأنك إن رجعت إليهم	**طوعا وإلا عدت عودة راغم**

ومنه قوله:

انظر إلى الأيام كيف تسوقنى	**قسرا إلى الإقرار بالأقدار**

وقوله:

فاعجب لضعف يدى عن حملها قلما	**من بعد حطم القنا فى لبة الأسد**

ويقول أيضاً:

ومما أشكو تلون أهل ودى	**ولو أجدت شكايتهم شكوت**
مللت عتابهم ويئست منهم	**فما أرجوهم فيمن رجوت**
إذا أدمت قوارصهم فؤادى	**كظمت علىَّ آذاهم وانطويت**
ورحت عليهم طلق المحيا	**كأنى ماسمعت ولا رأيت**
تجنوا لى ذنوبا ماجنتها	**يداى ولا أمرت ولانهيت**
ولا والله ما أضمرت غدرا	**كما قد أظهروة ولانويت**
ويوم الحشر موعلنا وتبدو	**صحيفة ما جنوه وما جنيت**

كتاب «الاعتبار»

يحتوى الكتاب على مادة متميزة، يقل نظيرها؛ إذ يتضمن مواقف ومشاهدات وخبرات من نوع خاص لانكاد نعثر على مثلها فى غيره من الكتب أو

المخطوطات، **فضلاً** عن أنه يعتبر سيرة ذاتية لصاحبه ذى الحياة الفريدة المبهرة، وتسجيل السيرة الذاتية هو فى حد ذاته من الأمور النادرة بغض النظر عن محتواها وما تكشف عنه من أسرار شخصية، والمرء يأسى ولاريب لأن أدبنا العربى كان دائما يفتقد لهذا اللون من الاعترافات، التى تمثل شهادة من صاحبها على ذاته وعلى عصره ورفاقه، وقد كان غياب السير الذاتية سببا فى ضياع الكثير من المعلومات عن رجال بارزين فى العلم والأدب والسياسة، لم تبق لنا عنهم إلا الأخبار والنوادر والأشعار.

كما أن هذا الكتاب لاتوجد منه فى العالم غير تلك المخطوطة الفريدة فى مكتبة **الإسكوريال بإسبانيا**، التى نقلت عن أخرى كتبت بعد وفاة أسامة بست وعشرين سنة وعليها توقيع ابنه «**مرهف**» منها نسخة مصورة غير محققة بدار الكتب المصرية، وقد طبعت هذه المخطوطة للمرة الأولى عام ١٩٣٠ فى مطبعة جامعة برنستون الأمريكية بإشراف وتحقيق الدكتور **فيليب** متى، وقد كتب لها مقدمة ضافية عن الكتاب وصاحبه، وكان المستشرق «**در بنورغ**» قد ترجم الكتاب إلى الفرنسية، ثم قام المستشرق الألمانى «**شومان**» بترجمته من الفرنسية إلى الألمانية، على حين قام الدكتور متى بترجمته إلى الإنجليزية، فى سنة ١٩٢٩ وطبعه فى نيويورك، وترجمه «**ساليه**» إلى الروسية بتقديم وتعليق المستشرق الروسى الكبير **كراتشكوفسكى**(١٩)، ثم نشرها **قاسم السامرائى** فى عام ١٩٨٤.

ولم يظهر عن هذا الأمير المجاهد الرحالة ـ فيما نعلم ـ غير كتابين اثنين، هما: أسامة بن منقذ «الأمير العربى الشاعر المجاهد للعراقى «جمال الألوسى»، و«أسامة بن منقذ» للدكتور أحمد كمال زكى فى سلسلة أعلام العرب، إصدار يوليو ١٩٦٨ (القاهرة).

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أبواب، هى:

الباب الأول: يتضمن حروبه وأسفاره وأشجع المحاربين الذين التقى بهم وقتاله مع الإفرنج - مقامه فى دمشق ومصر والعراق، زيارته الثانية لدمشق، صيد الأسود والضوارى، اختباراته وملاحظاته.

الباب الثانى: يشتمل على الطرائف والنوادر، وأخبار الصالحين والطرق الغريبة للتطبيب والشفاء.

الباب الثالث: يتضمن أخبار الصيد - السيوف وأفضل من حملها - طرق الصيد فى سوريا ومصر - الحيوانات المفترسة وجوارح الطير - صيد السمك.

ويتضمن كل باب عدداً كبيراً من الفقرات التى تحمل عناوين فرعية خاصة بها، فليست الأجزاء متصلة موضوعياً أو زمنيا، ولكنها فيما يبدو دونت حسب ورودها على فكر صاحبها بلا خطة.

يكشف لنا توزيع الموضوعات على الأبواب بالشكل السابق ذكره أهمية الباب الأول الذى يتناول الحروب والأسفار والمعارك والأخطار، كما يتعرض للفترة التى قضاها فى سوريا ثم رحيله إلى مصر وأسبابه وفيه أيضا تأملاته ونظراته فى الحياة والأحياء.

وتدلنا محتويات الكتاب على تنوع الخبرات التى حصلها أسامة، والمهارات التى تميز بها، والحيوات التى عاشها عبر ما يقرب من القرن؛ الأمر الذى يدفعنا إلى الإحساس بمدى الظلم الذى تعرض له الرجل على أيدى المؤرخين والباحثين العرب قديمًا وحديثًا، وكان يتعين أن تلقى هذه الشخصية العربية البارزة حظها اللائق فى كتب الأخبار والسير، وأن يكون لها نصيب فى قاعات الدرس المعاصرة بوصفها نموذجاً لقدامى الشعراء والمحاربين الذين يمزجون القول بالعمل، ويقبلون على المعارف إقبالهم على الكفاح والجهاد من أجل نصرة العروبة والإسلام.

يقول أسامة واصفًا تقلب الحوادث فى مصر بعد وفاة الحافظ لدين الله:

«بينما كنا جلوسًا فى الرواق، وفى القصر أكثر من ألف رجل من المصريين، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلى القاعة، وصوت السيوف، على إنسان فقلت لغلام لى: أبصر من هذا المقتول، فمضى ثم عاد وقال: ما هؤلاء مسلمون هذا مولاى أبو الأمانة، يعنى الأمير جبريل (أحد أمراء الفاطميين) قد قتلوه وواحد قد شق بطنه، يجذب مصارينه ثم خرج عباس (أحد الخلفاء الفاطميين)، وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف وقد ضربه بسيف والدم يفور منه، وأبو البقاء بن أخيه مع نصر بن عباس فأدخلوهما فى خزانة فى القصر وقتلوهما، وفى القصر ألف سيف مجردة، وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التى مرت بى، لما جرى فيه من البغى القبيح الذى ينكره الله تعالى وجميع الخلق».

وإذا كان قد قص لنا حكاية عن حوادث ضاق بها وأنكرها لبشاعتها ومدى الجور فيها دون أن تطوله، فها هو يحدثنا عن واقعة امتدت إليه حتى كان من خلالها من الموت قاب قوسين أو أدنى:

«انقطعت يومًا عن أصحابى وتحتى حصان أبيض هو أردأ خيلى، شده الركابى ولايدرى ما يجرى، وما معى من السلاح غير سيفى، فحمل علىّ العرب فلم أجد ما أدافعهم به ولاينجينى منهم حصانى، وقد وصلتنى رماحهم، قلت أثب عن الحصان، وأجذب سيفى أدفعهم، فجمعت نفسى لأثب فتتعتع الحصان فوقفت على حجارة وأرض خشنة، فانقطعت قطعة من جلدة رأسى، ودخت حتى مابقيت أدرى بما أنا فيه، فوقف علىّ منهم قوم، وأنا جالس مكشوف الرأس، غائب الذهن، وسيفى مرمى بجهازه، فضربنى واحد منهم ضربتين بالسيف ثم أخذوا حصانى وسيفى.

ورأني الأتراك فغادروا إلى، ونفذ لى ناصر الدين بن عباس حصانا وسيفا، وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحى، فسبحان من لايزول ملكه.

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد، وإذا أردت شرب ماء ترجلت وشربت بيدى، عجزت عن حمل أهلى فرددتهم من بلبيس إلى عند الملك الصالح أبى الغارات طلائع بن زريك، رحمه الله فأحسن إليهم وأنزلهم فى دار، وأجرى لهم ما يحتاجونه، ولما أراد العرب الذين يقاتلوننا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبا إذا عدنا.

قتال السباع

ويحدثنا عن قتاله السباع فيقول:

«قاتلت السباع فى عدة مواقف لا أحصيها، وقتلت عدة منها، ما شاركنى فى قتلها أحد حتى خبرت عنها، وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيرى، فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم، يخاف ابن آدم ويهرب منه، وفيه غفلة وبله، ما لم يجرح فحينئذ هو الأسد، وذلك الوقت يخاف منه وإذا خرج من غاب أو أجمة، وحمل على الخيل فلابد له من الرجوع إلى الأجمة، التى خرج منها ولو أن النيران فى طريقه، وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة فمتى حمل على الخيل، وقفت فى طريق رجوعه، قبل أن يجرح فإذا رجع تركته إلى أن يتجاوزنى وطعنته فقتلته».

«والنمر لا يكاد يألف الناس ولا يستأنس بهم، وقد كنت مرة مجتازاً بمدينة حيفا من الساحل وهى للإفرنج، فقال لى إفرنجى منهم تشترى منها هذا فهو جيد، قلت: نعم، فجاءنى بنمر قد ربّاه حتى صار قد الكلب، قلت: لا.. مايصلح لى.. هذا نمر ماهو فهد.

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب وعيناه زرقاوان، والفهد وجهه مدور وعيناه سوداوان».

ومن الجانب الآخر من الحياة وصورها، ينقل لنا أسامة عن شخصية إفرنجية يروم أن تكون تعبيراً عن رأيه فيهم وأهم عيوبهم، وهو افتقاد النخوة والثورة للشرف ص١٣٠.

«ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل فى دار رجل، يقال له معز داره عمارة المسلمين، لها طاقات تفتح إلى الطريق ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجى يبيع الخمر للتجار، فجاء يومًا ووجد رجلاً مع امرأته فى الفراش، فقال له: أى شىء أدخلك عند امرأتى؟ قال: كنت تعبان (كذا) دخلت أستريح، قال: كيف دخلت إلى فراشى؟ قال: وجدت فراشا مفروشا نمت فيه، قال: والمرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها وما كنت أقدر أمنعها من فراشها، قال: وحق دينى إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته».

وفى المقابل يقدم لنا أسامة صورة للفارس العربى، تحت عنوان «**شرف الفارس جمعة**».

«فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملتهم نفوسهم على الأخطار، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا، صاحب حماة ذلك الوقت، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب، والمراكب واقفة والطراد بين التسرعة، فجاءنى رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بنى نمير، وهو يبكى، فقلت له «ما لك يا أبا محمود؟ هذا وقت بكاء!»، قال «طعننى سرهنك ابن إبى منصور، قلت وإذا طعنك سرهنك أى شىء يكون، قال: ما يكون شىء إلا يطعننى مثل سرهنك، والله إن الموت أسهل على من أن يطعننى لكنه استغفلنى واغتالنى».

فجعلت أسكنه وأهون الأمر عليه، فرد رأس فرسه راجعًا، فقلت «إلى أين يا أبا محمود؟» قال «إلى سرهنك.. والله لأطعننه أو لأموتن دونه».

فغاب ساعة واشتغلت أنا ببعض مشاغلى ثم عاد وهو يضحك فقلت: ما

عملت؟» فقال «طعنته والله، ولو لم أطعنه لفاضت روحى» فحمل عليه فى جميع أصحابه فطعنه وعاد[٢٠].

منزلة الفارس عند الإفرنج:

والإفرنج، مافيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا الفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان. فهم أصحاب الرأى وهم أصحاب القضاء والحكم، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق، فقلت للملك فلك ابن فلك «هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن أتلفها»، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان «قوموا اعملوا له حكما» فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شىء واحد وعادوا إلى مجلس الملك. فقالوا «قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم»؛ فأمره الملك بالغرامة فتوسل إلى وثقل على، وسألنى حتى أخذت من أربع مائة دينار، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمى الإفرنج يغيره ولا ينقضه».

ولقد قال لى الملك «يا فلان، وحق دينى لقد فرحت البارحة فرحًا عظيمًا»، قلت «والله يفرح الملك بماذا فرحت» قال: «قالوا لى إنك فارس عظيم، وما كنت أعتقد أنك فارس» قلت: «يا مولاى، أنا فارس من جنسى وقومى»، وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم[٢١].

الصيد:

وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين، رحمه الله، إلى عكا إلى عند ملك الإفرنج فلك بن فلك، فرأينا رجلا من الجنوية قد وصل من بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركى، ومعه كلبة صغيرة إذا أرسل الباز على الكركى عدت تحته، فإذا أخذ الكركى وحطه عضته فلايقدر على الخلاص منها، وقال لنا ذلك الجنوى «إن الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركى»

فعددنا ذنب ذلك الباز، فكان كذلك فطلبه الأمير معين الدين، رحمه الله، من الملك فأخذه من ذلك الجنوى، هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين، فجاء معنا فرأيته فى الطريق يثب إلى الغزلان كما يثب إلى اللحم... ووصلنا به إلى دمشق، فما طال عمره بها ولاصاد شيئًا ومات[٢٢].

وكان الوالد أكثر ما يستدعى البزاة ويشتريها من وادى ابن الأحمر بالغلاء، فأحضر قومًا من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشيلا وبسمالخ وحلة عارا وتحدث معهم فى أن يعملوا فى مواضعهم مصايد للبزاة، ووهبهم وكساهم، فمضوا وعملوا بيوت الصيد.. فاصطادوا بزاة كثيرة فراخًا ومقرنصة وزوارق، فحملوها إلى الوالد وقالوا: «يا مولانا، نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا فى خدمتك، ونشتهى أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمنا نعرفه لا نتجاذب فيه.. فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشر ديناراً، وثمن الزرق المقرنص نصفها.. وانفتح للجبليين أخذ دنانير بغير كلفة ولا تعب، إنما يعمل له بيتا بحجارة على قد خلقته، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل له نافذة، ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها إليه ويخرجه من تلك النافذة، يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح أجنحته، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه، فإذا أحس به الصياد جذب القضيب إلى النافذة ومد يده قبض رجلى الباز، وهو قابض للطير الحمام وأنزله إليه وخيط عينيه... ويصبح من الغد يصلنا به، يأخذ ثمنه ويعود إلى بيته بعد يومين[٢٣].

محاكمات إفرنجية:

شهدت يومًا بنابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة، وكان سبب ذلك أن حرامية كبسوا ضيعة من ضياع نابلس، فاتهموا بها رجلاً من الفاتحين وقالوا: «هو دل الحرمية على الضيعة»... فهرب فنفذ الملك فقبض أولاده، فعاد إليه وقال «انصفنى، أنا أبارز الذى قال عنى أنى دللت الحرامية على القرية» فقال الملك لصاحب القرية المقطع «احضر من يبارزه»، فمضى إلى قريته وفيها رجل حداد

فأخذه، وقال له: تبارز «إشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته. فشاهدت هذا الحداد، وهو شاب قوى إلا أنه قد انقطع، يمشى ويجلس يطلب ما يشربه، وذلك الآخر الذى طلب البراز شيخ إلا أنه قوى النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة، فجاء البسكند وهو شحنة البلد، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة.

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد، وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة، ثم يعود إلى الوسط، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم.. فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة.. ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة، وأعيى ذلك الشيخ.. فضربه الحداد، فوقع، ووقعت عصاه تحت ظهره فبرك عليه الحداد، يداخل أصابعه فى عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله، فطرحوا فى رقبته فى الوقت حبلاً وجروه وشنقوه. وجاء صاحب الحداد فأعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف.

وهذا من جملة فقههم وحكمهم..

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين، رحمه الله إلى القدس، فنزلنا نابلس فخرج لى عنده رجل أعمى، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم، وحمل له فاكهة وسأله فى أن يأذن له فى الوصول إلى خدمته إلى دمشق ففعل، وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوجة لرجل إفرنجى، فقتلته، وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الإفرنج، جلسوا بتية عظيمة وملأوها ماء وعرضوا عليها دف خشب، وكتفوا ذلك المتهم، وربطوا فى كتافه حبلاً ورموه فى البتية، فإن كان بريا غاص فى الماء، فرفعوه بذلك الحبل لا يموت فى الماء، وإن كان له الذنب ما يغوص فى الماء، فحرص ذلك لما رموه فى الماء أن يغوص، فما قدر فوجب عليه حكمهم(٢٤).

أخبار الطب والتطبيب:

«وأصاب رجلا من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة فجاءنى أخوه، وقال: «أخى

تالف.. قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها، وهو مغمور ما يفيق» قلت:« ارجع افصده» قال «قد خرج منه عشرون رطل دم» قلت «ارجع افصده»، فأنا أخبر منك بالجراح، وليس له دواء غير الفصاد، فمضى غاب عنى ساعتين ثم عاد وهو مستبشر. قال «أنا فصدته، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس» قلت «الحمد لله ولولا أنى جربت هذا فى نفسى عدة مرار ما وصفته لك».

عجائب الطب الأفرنجى:

ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه.. فأرسل إليه طبيبًا نصرانيا يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له «ما أسرع ما داويت المرضى» فقال: «احضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وأصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب أفرنجى فقال لهم «هذا ما يعرف شىء يداويهم» فقال للفارس «أيهما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين» قال «أعيش برجل واحدة» قال «احضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا»، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر.. فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس «اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها» فضربه وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته، وأبصر المرأة فقال «هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها، فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال «الشيطان قد دخل فى رأسها» فأخذ الموس وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت فى وقتها، فقلت لهم «بقى لكم إلى حاجة؟ قالوا «لا» فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه.

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك.. كان للملك خازن من فرسانهم يقال له

برنارد فرمحه حصان فى ساقه فعملت عليه رجله، وفتحت فى أربعة عشر موضعا.. والجراح كلما ختم موضع فتح موضع، فجاءه طبيب افرنجى فأزال عنه تلك المراهم بغسلها بالخل الحاذق.. فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان».

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح له ولد قد طلع فى رقبته خنازير، وكلما ختم موضع فتح موضع.. فدخل إنطاكية فى شغل له وابنه معه، فرآه رجل إفرنجى فسأله عنه فقال «هو ولدى»، قال: «تحلف لى بدينك أن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه»، فحلف. فقال له «تأخذ أشناناً غير مطحون تحره وتربه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع، ثم خذ الرصاص المحرق وربه بالسمن، ثم داوه به فهو يبرئه»، فداواه بذلك فبرأ، وختمت تلك الجراح، وعاد إلى ما كان عليه من الصحة.

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وزال ما كان يشكوه(٢٥).

وفى نهاية المذكرات ومع قرب انطفاء شمعة الحياة، يقول:

ولم أدر أن داء الكبر عام، يعدى من أغفله الحمام فلما بلغت ذروة التسعين، وأبلانى مر الأيام والسنين صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل البعض من الكبر فى بعض، حتى أنكرت نفسى وتحسرت على أمسى، وقلت فى وصف حالى:

لما بلغت فى الحياة إلى مدى	قد كنت أهواه تمنيت الردى
لم يبق طول العمر منى منة	ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدى
فإذا نهضت حسبت أنى حامل	جبلاً وأمشى إن مشيت مقيدا
وأدب فى كفى العصا وعهدتها	فى الحرب تحمل أسمرا ومهندا
وأبيت فى لين المهاد مسهدا	قلقا كأنى افترشت الجلمدا
والمرء ينكس فى الحياة وبينما	بلغ الكمال وتم كما بدا

وبعد:

فهل تخفى على القارئ النابه تلك النفحات القصصية حتى وهو ينظم الشعر؟! أغلب الظن أن الأمر كما ذكرنا من قبل. . إذ يجب أن يمنح هذا الرجل مكاناً ومكانة على صفحات الكتب وفى موسوعات الأعلام، وأن يقدمه شعره وكفاحه وتجربته للشبيبة الناهضة لتطل فى مرآتها الناصعة، لترى وجهاً متألقا من وجوه البطولة والفروسية، تمثلت فى حياة أمير كان يسيرا عليه أن يركن إلى حياة الدعة والترف.

ابن جُبَيْر

(٥٤٠هـ - ٦٢٦هـ) (١١٤٥ - ١٢٢٩م)

أديب وشاعر وفقيه وأشهر رحالة القرن السادس الهجرى «١٢ ميلادى» بعد الإدريسى. قام بثلاث رحلات كانت جميعها بغرض الحج إلى بيت الله الحرام، لكنه لا يعود بعد أداء الفريضة مباشرة إلى مدينة غرناطة، بل يؤثر أن يدفع خطاه مشوقا لتعرف بعض البلاد العربية والإسلامية، وقد حظيت رحلاته باهتمام المؤرخين والعلماء مع أنه لم يدون غير رحلته الأولى فقط، وقد بدت من خلالها شخصيته التقية وصدقه وأدبه الجم فى وصف ما تقع عليه عينه، غير معنى بالغرائب والخوارق.

وعلى كثرة ما كتب ونظم وحدَّث وعلّم، فلم يترك لنا غير مجموعة من القصائد وكتابه، الذى يضم رحلته، وهو بعنوان «تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار» الذى نشره المستشرقون باسم «رحلة ابن جبير».

ولد أبوالحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى فى بلنسية سنة ٥٤٠هـ - ١١٤٥م، لأسرة تنتمى إلى بلدة شاطبة بالأندلس.

شمله أبوه برعايته واهتم بتربيته، فدرس العلوم الدينية واللغوية، وما أن بلغ سن الصبا حتى تيقظت مواهبه الأدبية، وأقبل على القراءة وخاصة أشعار القدماء من العرب وسرعان ما استهواه الشعر ونظمه، وتناقل الناس قصائده، كما كتب نثراً جميلاً يفيض بالحكمة، وذاع صيته حتى عرف فى غرناطة وسمع به حاكمها أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن، فأمر بأن ينضم إلى كُتّاب ديوانه، ولما جلس إليه أحبه وقربه، وكان يدعوه إلى جميع مجالسه، حتى مجلس شرابه،

وكان حاكم غرناطة كثيراً ما يطلب إليه مشاركتهم فيأبى أبوالحسن وتنقبض روحه وقد فطره الله على التقوى وأدبه أبوه فأحسن أدبه . . . وكان أبوالحسن يحرص فى كل مرة على الخلاص من صحبة الشاربين ومجلسهم، الذى يخرج بهم عن الوقار.

وفى إحدى المرات، طلب إليه الحاكم أن يشرب معهم، فاعتذر ابن جبير فأقسم الأمير ليشرب أبوالحسن سبعة كؤوس، فاضطر ابن جبير أن يشرب على مضض كأساً بعد كأس، وسر الأمير وأخذ يقهقه معبراً عن فرحه بسلطته وسعادته بطاعة الجميع وإذعانهم له، خاصة الفقيه الكبير ابن جبير الذى كان قد بلغ أعلى درجات السخط والكمد، حتى أدرك الأمير ذلك، وأراد أن يطيب خاطره، فملأ له الكأس التى شرب فيها بالدنانير الذهبية وأفرغها فى حجره، ثم ملأها ثانية وثالثة حتى السابعة بعدد الكؤوس التى تجرعها مرغماً.

ومع ذلك ظل ابن جبير مقطب الجبين يزلزله غضب وذلة، إلى أن خامرته فكرة رضى عنها وابتهج، لقد قرر أن ينفق هذه الدنانير على رحلة حج إلى بيت الله الحرام، فيجعلها كفارة شرابه، أملاً أن يغفر الله له ذنوبه.

ولما كان من العسير أن يرحل دون علم الأمير، لم يجد بداً من مكاشفته بما عزم عليه، تفكر أبوعثمان الحاكم لحظات، لكن ابن جبير قال له: لقد حلفت أيماناً على ذلك ولابد من البر بها، وأنا على يقين أن الله دفعك أن تفعل بى ما فعلت، ثم ألقى فى روعى طلب رضاه، وتمثلت صورة المسجد الحرام أمام عينى لأنه كتب على الحج وهيأنى له.

عندئذ ابتسم حاكم غرناطة، وقال: صدقت يا بن جبير . . إنها حقا إرادة الله، ونعم ما عزمت عليه.

وأمر الحاكم أن يقدم له كل عون حتى يتمم رحلته على خير وجه.

خرج ابن جبير من غرناطة، وهو فى نحو الأربعين من عمره، وكان معه جده القاضى ابن عطية وصديقاه أبوجعفر الطيب وأحمد بن حسان يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨هـ الموافق الثالث من فبراير سنة ١١٨٣م، وركب سفينة يملكها بعض من أهل جنوة، وقضى فى البحر من سبتة إلى الإسكندرية نحو ثلاثين يوما، وولى وجهه إلى القاهرة، ومنها إلى قوص بصعيد مصر فعيذاب حيث اجتاز البحر إلى جدة، واتجه منها إلى مكة المكرمة فأدى الفريضة وزار المدينة، وظل بين المدينتين نحو ستة أشهر، ينهل من ينابيع النور الذى أشرق على العالمين منذ ولد محمد سيد الخلق أجمعين، ولم يكن يود أن يبرح هذه الديار التى تهفو إليها قلوب مئات الملايين من البشر.

ولما ارتوى ابن جبير، اتخذ الطريق النجدى إلى الكوفة وزار بغداد والموصل وفى كل طريق يتأمل ويدرس، وفى كل مدينة يسكن ويتفحص ويسجل، متنبهاً لجدوى ارتحاله بين البلاد، وقد جذبته أوجه التشابه والاختلاف بين هذه الأصقاع.

انتقل إلى الشام وقد قرر أن يعود عن طريق سوريا، وكان للصليبيين فيها مستعمرات كثيرة، فمضى عبر هذه المستعمرات التى كانت بحلب وحمص وحماه والنبك ودمشق وعكا.

استقل بن جبير من عكا مركباً مسيحياً إلى صور، فنزل بها وطاف ثم اتجه إلى صقلية حيث نزل بها وجاس خلال أنحائها وتعرف أهلها، ودون مشاهداته فى الشوارع والبلدان، ثم رحل عائداً إلى غرناطة فوصلها فى الخامس عشر من المحرم سنة ٥٨١هـ الموافق الخامس والعشرين من إبريل سنة ١١٨٥م.

يرجح المؤرخون - ونحن معهم - أن ابن جبير كان يسجل ما يشاهده فى أوراق منفصلة على شكل مذكرات يومية، إذ نجد مع وصف كل بلدة أو جزيرة، تاريخ الزيارة أو المشاهدة باليوم والشهر[٢٦] وعندما عاد إلى غرناطة وحصل على

الراحة اللازمة بعد السفر الذى دام نحو سنتين وثلاثة أشهر، أطلع بعض تلاميذه على هذه الأوراق، فعكفوا عليها يجمعونها وينسخونها، وقد نشرت بعد ذلك باسم «**تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار**»، وأغلب الظن أنها لم تنشر إلا بعد وفاته، وإن كان المستشرقون فى العصر الحديث ومن بعدهم العرب قد نشروها باسم «**رحلة ابن جبير**»، ولعل ذلك راجع إلى رفض العلماء والمحدثين والأوروبيين بوجه خاص العناوين الطويلة، لذلك فهم لا يميلون إلى ذكر اسم كتاب «**تحفة النظار إلى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**» لابن بطوطة، ويكتفون بتسميته رحلة ابن بطوطة، وهذا شأنهم مع كتاب **ابن خلدون** «**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر**»، فقد جرت عادتهم على اختصار اسمه فى كلمتى «**كتاب العبر**».

ولا شك أن العنوان المباشر والمحدد يساعد على التمييز فى سهولة ويسر بين رحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير ورحلات غيرهما، وإذا وقفنا قليلا أمام عنوان كتاب ابن جبير لأدركنا أنه أولا ضعيف الدلالة والإشارة إلى محتواه، فضلا عن أنه من الناحية التركيبية فضفاض وزلق وقابل للتماس مع غيره، كما أنه يفتقد التميز والخصوصية ولا يعين على الإحالة إليه وتذكره.

الرحلة الثانية

كان ابن جبير كما بدا من نصوص رحلته معجباً بصلاح الدين فى السلم والحرب، ولم نجد من لم يعجب به، وكان يتابع أخباره باهتمام ويرصد إنجازاته بغير قليل من الزهو والرضا، وعندما بلغه نبأ انتصار صلاح الدين فى معركة حطين ٥٨٣ - ١١٨٧، وشاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس قوى عزم ابن جبير على رحلته الثانية، ورغب فى زيارة المشرق، وقد تخلصت بلاده من نير الصليبيين وأن يرى علم الإسلام والعروبة يرفرف على ترابها.

لم يلبث أن تحرك داخله هوى الترحال الذى يدركه كل من جرب الرحلة

الأولى، فخرج من غرناطة فى التاسع من ربيع الأول سنة ٥٨٥هـ - ١١٨٩م وطاف معظم البلاد التى سبق أن زارها، وحج حجة ثانية وعاد إلى غرناطة فى الثالث عشر من شعبان ٥٨٧هـ - ١١٩١م، بعد أن قضى نحو سنتين ونصف السنة، دون أن يسجل عن رحلته شيئاً، وربما كان ذلك راجعا إلى أن السنتين اللتين بقيهما فى غرناطة بين الرحلتين لم يشهدا تغيرات جذرية فى البلاد التى طوف بها، ولابد أنه لم يجد ما يدفعه للكتابة، ومن الطبيعى أن تكون الأحوال فى هذه العهود كما هى خلال سنتين، بل وعقدين أيضا.

أقام بن جبير فى بلاده أكثر من ربع قرن بين غرناطة ومالطة وسبتة وفاس حريصاً على التفقه فى الدين وشرح الحديث، والتصوف والمشاركة فى مجالس العلم، متمسكاً بالتقى والورع، متمتعاً بحب بنى وطنه الذى يقدرون شعره وحكمته وعلمه.

الرحلة الثالثة

ولما توفيت زوجته أم عاتكة وكان قد خصها بديوان من شعره حزن عليها حزنا شديدا، حتى أنه لم يجد العزاء عنها والشفاء من لوعة فراقها إلا بزيارة البيت وأداء فريضة الحج، فكم طهرت الزيارة من نفوس وغسلت من أرواح وأعانت على مصائب الزمن.

رحل رحلته الثالثة فى سنة ٦١٤هـ - ١٢١٧م خارجاً من سبتة متجهاً صوب مكة، فأقام بها شهوراً مجاوراً وملتزماً المسجد الحرام يروى ظمأه بالصلاة والدعاء، طالباً السكينة فى الدنيا والمغفرة فى الآخرة.

ثم شد الرحال بعد ذلك إلى بيت المقدس، ومضى من فوره إلى الإسكندرية، التى أقام بها، يحدث ويؤخذ عنه إلى أن وافته المنية عام ٦٢٦هـ (١٢٢٩هـ).

يقول د. **شوقى ضيف**: ويغلب أن يكون مسجد سيدى جابر بالإسكندرية مسجده، وأن يكون العامة حرفوا اسمه مع الزمن[٢٧].

كتب ابن جبير رحلته - كما سبقت الإشارة - على شكل يوميات، بلغة سهلة بسيطة، عباراتها مفصلة على قد ما تحمل من معنى، لا ثرثرة فيها ولااستطرادات أو تكرار، وطريقته فى السرد محببة إلى النفس، تتسم عبارته بجمال التركيب وحلاوة البيان، وهو يجيد صناعة السجع وسبكه، فيضفى على النص موسيقى جذابة تشجع على مداومة المطالعة، ومعظم السجع يأتيه بلا تكلف، ولا يضطر له اضطرارا إلا فى القليل، حيث يبدو الافتعال فى مثل قوله يصف أحد خطباء الحرم الشريف فى مكة:

«وفى أثناء ذلك «حديث الخطيب» ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ فتحار له الألباب».

ويقول فى سفرهم من عكا، وقد سكن البحر فى عبارة موشاة بألفاظ قرآنية وكثيراً ما فعل ذلك: «فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير، ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم، فبقينا لاعبين على صفحة ماء، تخاله العين سبيكة لجين كأنا نجول بين سماءين».

لكنه أجاد وصف البلاد والعباد وأحوالهم الاقتصادية، وأهم المنتجات والسلع السائدة، وحالفه التوفيق فى تصوير ما لقيه من المصاعب والأهوال فى بعض مراحل أسفاره.

وقد أثر ابن جبير فى كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده، فنقلوا فقرات من كتابه، وأشهر من فعل ذلك محرر رحلة ابن بطوطة الذى نقل عنه وصفه لكل من حلب ودمشق وبغداد، على أنه من المؤسف فيما يقول **نيقولا زيادة**(٢٨) أننا لانجد فى رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان فى أى من البلدان التى زارها، ويكتفى أحيانا بالقول «فى وصف بغداد»:

«والشرقية حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب، تشتمل من الخلق على بشر لايحصيهم إلا الله تعالى، الذى أحصى كل شىء عدداً».

ويبدو أن الاهتمام بالإحصاءات لم يكن سمة غالبة لدى الرحالة ولا لدى أهالى البلاد ـ آنذاك ـ إلا فى حالات الوفيات، وإن كان ابن جبير لم يفته ـ ولو بالنقل والسماع ـ عدد المساجد والمدارس والمستشفيات.

وفى النماذج التى سنوردها فى الصفحات التالية، سوف يلحظ القارئ فى غير عناء ما يتمتع به المؤلف من حس قصصى متدفق، يرصعه بآيات من الذكر الحكيم، يحسن توظيفها ووضعها فى أفضل المواضع ملاءمة، وهو دائم الحمد لله والثناء عليه، كلما ألمت به الأهوال أو المصاعب أو رأى من الغرائب أو حظى بالنعم، وهو دائم اللجوء إلى الله فى كل حالاته.

على أن الذى يقلل - فى نظرنا - من جمال هذه الرحلة وروعتها كنص أدبى هو حرص ابن جبير على أن يصف لنا الوقائع والأحوال من الخارج فى أغلب الأحيان، وقليلاً ما يتناول المشاعر والأحاسيس، إذ هو يمسها مساً هيناً، وكأنها لا تدخل فى حسابه ولا يتعين التعرض لها، ولعل ذلك نابع من فرط تقواه وطيب خلقه، فضلاً عن خشيته من الزلل، وهو رجل الدين، الذى بدا فى أحيان كثيرة جادا إلى حد التزمت، لا يسمح لروحه أن تفيض على سجيتها، ولا ينقل إلينا ما استشعره عندما رأى هذا المشهد أو ذاك.

فهو يصف المسجد الحرام وصفاً دقيقاً، لا يترك فيه صغيرة ولا كبيرة لكنه وصف من الخارج، وهو فيما يقول د. **حسنى محمود**[٢٩]:

وصف أصم يصلح لأن يقيم به مهندس معمارى، نموذجاً أو خريطة لموضوعاته، إذ هو للأسف خلو من شعور الواصف وأحاسيسه، أو من أى تصوير لأحاسيس الناس فى هذا الموقف العظيم.

ويكشف الكتاب عن صدقه فى الوصف والتعبير، ولم يسع إلى الغرائب والعجائب مثل من سبقه من الرحالة الذين أغرموا بذكرها، حتى إذا لم يلاقوها نقلوها إلى كتاباتهم من غيرهم دون تمحيص، واتسمت أغلب تعبيراته بالتوازن الذى تفرضه طبيعته كرجل دين وأدب، ولم ينحرف به قلمه إلى المبالغة إلا فى

مواضع محددة ونادرة فرضتها شدة معاناته، كما حدث له فى الإسكندرية وعيذاب.

استرعى كتابه المستشرقين فترجموا القسم المختص بصقلية إلى الفرنسية وطبع عام ١٨٤٦، ثم طبع كله عام ١٨٥٢ مع مقدمة بقلم المستشرق رايت، وأعيد طبعه عام ١٩٠٧ فى ليدن، وقامت **برود هيرست** بترجمته إلى الإنجليزية عام ١٩٥٢.

نماذج من كتاباته عن رحلاته

العاصفة: (٣٠)

«وفى ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح، هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة، كأن ه شآبيب سهام(٣١)، فعظم الخطب واشتد الكرب، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة، فبقينا على تلك الحال الليل كله، واليأس قد بلغ منا مبلغه، وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار، وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة، بما هو أشد هولاً وأعظم كرباً، وزاد البحر اهتياجاً وأربدت(٣٢) الآفاق سواداً، واستشرت(٣٣) الريح والمطر عصوفاً، حتى لم يثبت معها شراع، فلُجئ إلى استعمال الشرع الصغار، فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها، وهى المعروفة عندهم بالقرية، فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدى المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل، وأقمنا على تلك الحال النهار كله، فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور، وسرنا فى هذه الحال كلها بريح الصوارى سيراً سريعاً.

وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية، وبتنا تلك الليلة، التى هى ليلة الخميس التالية لليوم المذكور، مترددين بين الرجاء واليأس، فلما أسفر الصبح نشر الله رحمته، وأقشعت السحاب وطاب الهواء، وأضاءت الشمس وأخذ فى السكون البحر، فاستبشر الناس وعاد الأنس وذهب اليأس، والحمد لله الذى أرانا عظيم قدرته، ثم تلاقى بجميل رحمته ولطيف رأفته، حمداً يكون كفاء(٣٤) لمنته ونعمته.

وفى هذا الصباح المذكور، ظهر لنا بر صقلية وقد أجزنا أكثره ولم يبق منه إلا الأقل، وأجمع من حضر من المسلمين أنهم لم يعاينوا قط مثل هذا الهول فيما سلف من أعمارهم، والخبر عن هذه الحال يصغر فى خبرها.

وبين البرين المذكورين بر سردانية وبر صقلية نحو الأربع مئة ميل، واستصحبنا من بر صقلية أزيد من مئتى ميل، ثم ترددنا بحذائه بسبب سكون الريح. فلما كان عصر يوم الجمعة الحادى والعشرين من الشهر المذكور، أقلعنا من الموضع الذى كنا أرسينا فيه، وفارقنا البر المذكور أو تلك الليلة، وأصبحنا يوم السبت وبيننا وبينه مسافة بعيدة، وظهر لنا إذ ذاك الجبل الذى كان فيه البركان(٣٥)، وهو جبل عظيم مصعد فى جو السماء قد كساه الثلج.

وأعلمنا أنه يظهر فى البحر مع الصحو على أزيد من مسيرة مئة ميل، فأخذنا ملججين(٣٦) وأقرب ما نؤمله من البر إلينا جزيرة أقريطش(٣٧)، وهى من جزائر الروم ونظرها(٣٨) إلى صاحب القسطنطينية، وبينها وبين جزيرة صقلية مسيرة سبع مئة ميل، والله كفيل بالتيسير والتسهيل بمنه(٣٩).

فى المسجد الحرام (٤٠)

«ومما يجب أن يثبت ويؤثر، لبركة معاينته وفضل مشاهدته:

أن فى يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى، وهو التاسع من شتنبر، أنشأ الله بحرية(٤١)، فتشاءمت فانهلت عيناً غديقة، كما قال رسول الله، ﴿ﷺ﴾ وذلك إثر صلاة العصر ومع العشى من اليوم المذكور، فجاءت بمطر جود، وتبادر الناس إلى الحجر فوقفوا تحت الميزاب برؤوسهم وأيديهم وأفواههم، مزدحمين عليه ازدحاماً عظيماً، أحدث ضوضاء عظيمة، كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيباً، ودعاؤهم قد علا، ودموع أهل الخشوع منهم تسيل، فلا تسمع إلا ضجيج دعاء، أو نشيج بكاء. والنساء قد وقفن خارج الحجر ينظرن بعيون دوامع، وقلوب خواشع، يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به.

وكان بعض الحجاج المتأجرين المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك ويخرج

إليهن ويعصره فى أيدى البعض منهن، فيتلقينه شرباً ومسحاً على الوجوه والأبدان.

وتمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب، وتمادى الناس على تلك الحال من الازدحام على تلقى ماء الميزاب بالأيدى والوجوه والأفواه، وربما رفعوا الأوانى ليقع فيها، فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضله وكرمه ولما اقترن بها من القرائن المباركة، فمنها: أنها كانت عشية الجمعة، وفضل اليوم فضله، والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله، لما ورد فيها من الأثر الصحيح، وأبواب السماء تفتح عند نزول المطر، وقد وقف الناس تحت الميزاب، وهو من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء، وطهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه إلى سطح بيته العتيق، الذى هو حيال البيت المعمور، وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف، جعلنا الله ممن طهر فيه من أرجاس الذنوب، واختص من رحمة الله تعالى بذنوب[٤٢] ورحمته سبحانه وتعالى واسعة تسع عباده المذنبين، إنه غفور رحيم.

وذكروا أن الإمام أبا حامد الغزالى دعا الله عز وجل بدعوات، وهو فى حرمه الكريم، فى رغبات رفعها إلى الله جلّ وتعالى، فأعطى بعضاً ومنع بعضاً، وكان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة، وكان تمنى أن يغتسل به تحت الميزاب ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم فى الساعة التى أبواب سمائه فيها مفتوحة، فمنح ذلك وأجيب دعاؤه فى سائر ما سأله، فله الحمد وله الشكر على ما أنعم به علينا، ولعل عبداً من عباده الصالحين الوافدين على بيته الكريم خصه الله بهذه الكرامة، فدخلنا جميع المذنبين، فى شفاعته، والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده ولا يجعلنا ممن شقى بدعائه، إنه منعم كبير.

مكة المكرمة

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الجليلة الخليلية الإبراهيمية، وذلك أن الله عز وجل يقول حاكيا عن خليله، ﴿ﷺ﴾:

«فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات، لعلهم يشكرون»[٤٣]

وقال عز وجل:

«أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء»[٤٤]

فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها مُلتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة، والثمرات تجبى إليها من كل مكان، فهى أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب. فيباع فيها فى يوم واحد، فضلاً عما يتبعه، من الذخائر النفيسة كالجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب: كالمسك، الكافور، والعنبر، والعود، والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند[٤٥] والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية، إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافعة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك فى ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع، ولا ذخيرة إلا من الذخائر إلا وهى موجودة فيها مدة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها وآية من آياتها التى خصها الله بها.

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من تلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه: كالتين، والعنب، والرمان، والسفرجل، والخوخ، والأترج، والجوز، والمقل، والبطيخ، والقثاء، والخيار إلى جميع البقول كلها: كالبذنجان، واليقطين، والسلجم[٤٦]، والجزر، والكرنب. إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة، وأكثر هذه البقول كالباذنجان، والقثاء

والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة فى حاسة الذوق، يفضل بها نوعها الموجودة فى سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول.

بلدة بزاعة(٤٧):

بقعة طيبة الثرى، واسعة الذرى(٤٨)، تصغر عن المدن وتكبر عن القرى، بها سوق تجمع بين المرافق السفرية، والمتاجر الحضرية، وفى أعلاها قلعة كبيرة حصينة، رامها أحد ملوك الزمن فغاظته باستصعابها، فأمر بثلم بنائها، حتى غادروها عورة منبوذة بعرائها، ولهذه البلدة عين معينة يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة، وتريك برونقها الأنيق حسن الحضارة.

ويناظرها فى جانب البطحاء قرية كبيرة تعرف بالباب، هى باب بين بُزاعة وحلب، وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحدة الإسماعيلية لا يحصى عددهم إلا الله، فطار شرارهم، وقطع هذه السبيل فسادهم وإضرارهم، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية، وحركتهم الأنفة والحمية، فتجمعوا من كل أوب عليهم، ووضعوا السيوف فيهم، فاستأصلوا عن آخرها، وعجلوا بقطع دابرهم، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم، وأحاق بهم مكرهم، والحمد لله رب العالمين.

وسكانها اليوم قوم سنيون، فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين، ورحلنا منها فى الليل وأسرينا إلى الصباح، ووصلنا مدينة حلب ضحوة يوم الأحد الثالث عشر لربيع الأول، والرابع والعشرين ليونيه.

مدينة حلب:

بلدة قدرها خطير، وذكرها فى كل زمان يطير، خُطابها من الملوك كثير، ومحلها من التقديس أثير(٤٩)، فكم هاجت من كفاح، وسلت عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير فى القلاع، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة

الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبحان من أحكم تقديرها، وتدبيرها، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها، عتيقة فى الأزل، حديثة وإن لم تزل، قد طاولت الأيام والأعوام، وشيعت الخواص والعوام، هذه منازلها وديارها، فأين سكانها قديماً وعمارها؟ وتلك دار مملكتها وفناؤها، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها؟ أجل، فنى جميعهم، ولم يأن بعد فناؤها! فيا عجبا للبلاد تبقى وتذهب أملاكها، ويهلكون ولا يقضى هلاكها، تخطب بعدم فلا يتعذر ملاكها، وترام فيتيسر بأهون شيء إدراكها، هذه حلب، كم أدخلت من ملوكها فى خبر كان، ونسخت ظرف الزمان بالمكان، أنث اسمها فتحلت بزينة الغوان، ودانت بالغدر فيمن خان، وتجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان، هيهات! هيهات! سيهرم شبابها، ويعدم خطابها، ويسرع فيها بعد حين خرابها، وتتطرق جنبات الحوادث إليها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لا إله سواه، سبحانه جلت قدرته.

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده، فلنعد إلى ما كنا بصدده، فنقول:

إن من شرف هذه القلعة أنه يذكر أنها كانت قديماً فى الزمان الأول ربوة يأوى إليها إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم، له فيها غنيمات فيحلبها هنالك ويتصدق بلبنها فلذلك سميت حلب، والله أعلم، وبها مشهد كريم له يقصده الناس يتبركون بالصلاة فيه.

ومن كمال خلالها المشترطة فى حصانة القلاع أن الماء بها نابع، وقد صنع عليه جبان، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر، والطعام يصبر فيها الدهر كله، وليس فى شروط الحصانة أهم ولا أوثق من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان من الجانب الذى ينظر للبلد، ويعترض دونهما خندق، لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه والماء ينبع فيه، وشأن هذه القلعة فى الحصانة والحسن أعظم من أن تنتهى إلى وصفه، وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة، فيها العلالى المنيفة، والقصاب المشرفة، قد تفتحت كلها طيقاناً، وكل برج منها مسكون، وداخلها المساكن السلطانية، والمنازل الرفيعة الملوكية.

وأما البلد فموضوعه ضخم جداً، حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها سقف بالخشب، فسكانها فى ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الإبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً.

وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً، مطيفة بالجامع المكرم، لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائى الرياضية، وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت، فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم.

وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع مفتح كله أبواباً قصرية الحسن إلى الصحن، عددها ينيف على الخمسين باباً، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، وفى صحنه بئران معينان، والبلاط القبلى لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح، وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره، فما رأى فى بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصفة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف، وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية، وهو مرصع كله بالعاج والأبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة، دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون فى الدنيا، وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف.

ويتصل به من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة.

ثورة الريح الشمالية:

وفى يوم السبت العاشر لشعبان المذكور، والسابع عشر لنونبر، انقطع عنابر الجزيرة المذكورة، ونحن نجرى بريح شمالية موافقة، فذئرت وعصفت فطار لها المركب بجناحى شراعه والبحر بها قد جن واستشرى لجاجه، وقذفت بالزبد أمواجه، فتخال غواربه المتموجة جبالاً مثلجة، ومع تلك استشعرت النفوس الأنس، وغلب رجاؤها اليأس، وقد كنا مدة الستة وعشرين يوماً المذكورة، التى لم يظهر لنا فيها بر، نرجم الظنون، ونغازل المنون، حذراً من نفاد الزاد والماء، والحصول بين المهلكين الجوع والظمأ، فمن قائل يقول:

إنا قد ملنا فى جرينا إلى بر المغرب، وهو بر إفريقية، وآخر يزعم:

أنا قد ملنا إلى بر الأرض الكبيرة، بر القسطنطينية وما يليها، ومنهم من يقول:

إلى اللاذقية جهة الشام، ومنهم من يقول:

إلى دمياط بر الإسكندرية، وكنا نحذر أن تلجئنا الريح إلى إحدى جزائر الرمانية الخالية، فنشتوا فيها، أو تضطرنا الحال إلى المعمور منها، وليس فى هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ لمختار، حتى أتى الله بالفرج، وأذهب الباس والياس، ومكن فى النفوس الإيناس، بعد مكابدة الأمرين، ومقاساة البَرحَين، فلله در القائل:

البحر مُر المذاق صعبٌ ... لاجُعِلت حاجتى إليه
أليس ماءً ونحن طينٌ ... فما عسى صبرنا عليه

ونحن الآن بفضل الله تعالى نتطلع البشرى بظهور بر صقلية، إن شاء الله.

الرياح العاصفة الغربية:

وفى النصف من ليلة الأحد الحادى عشر منه انقلبت الريح غربية، وكشف النوء من الغرب، وجاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال، وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد، والبحر قد هاج هائجه، وماج مائجه، فرمى بموج

كالجبال، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب، وكان كالسور علواً فيرتفع له الموج ارتفاعاً يرمى فى وسط بشآبيب كالوابل المنكسب، فلما جن الليل اشتد تلاطمه، وصكت الآذان غماغمه، واستشرى عصوف الريح، فحطت الشرع، واقتصر على الدلالين الصغار دون أنصاف الصوارى، ووقع اليأس من الدنيا، وودعنا الحياة بسلام، وجاءنا الموج من كل مكان، وظننا أنا قد أُحيط بنا، فيا لها ليلة يشيب لها سود الذوائب مذكورة فى ليالى الشوائب، مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب! ونحن منها فى مثل ليل صول طولاً، فأصبحنا ولم نكد، فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا، وجباله قد قامت أمامنا، وكنا قد خلفناه عن يميننا، فأسقطتنا الريح عن مجرانا، ونحن نظن أنا قد جزناه. فسقط فى أيدينا، وخالفنا المجرى المعهود الميمون، وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً فى استقباله صقلية فاستسلمنا للقدر وتجرعنا غصص هذا الكدر، وقلنا:

سيكون الذى قضى   سخط العبد أو رضى

وفى أثناء ذلك انبسطت الشمس، ولان البحر قليلاً، وصممنا نروم مرسى فى البر المذكور، إلى أن يقضى الله قضاءه، وينفذ حكمه.

كنيسة الأنطاكى:

ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكى، أبصرناها يوم الميلاد، وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا لها رجالاً ونساء، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرها الداخلة ذهب كلها، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله قط، قد رُصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها، وتحدث فى النفوس فتنة نعوذ بالله منها، وأُعلمنا أن بانيها الذى تنسب إليه أنفق فيها قناطير من الذهب، وكان وزيراً لجد هذا الملك المشرك، ولهذه الكنيسة

صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة، وعلت قبة على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السوارى، وهى من أعجب ما يبصر من البنيان، شرفها الله عن قريب بالآذان، بلطفه وكريم صنعه وزىّ النصرانيات فى هذه المدينة زىّ نساء المسلمين: فصيحات الألسن ملتحفات، منقبات، خرجن فى هذا العيد المذكور، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحفُ الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاق المذهبة، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر، فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر:

إن من يدخل الكنيسة يوماً   يلق فيها جآذراً وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو، ويؤدى إلى أباطيل اللهو، ونعوذ به من تقييد، يؤدى إلى تفنيد، إنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة.

فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام، ونزلنا بها فى أحد فنادقها التى يسكنها المسلمون، وخرجنا منها صبيحة يوم الجمعة الثانى والعشرين لهذا الشهر المبارك، والثامن والعشرين لشهر دجنبر، إلى مدينة أطرابنش، بسبب مركبين بها: أحدهما يتوجه إلى الأندلس والثانى إلى سبتة، وكنا أقلعنا إلى الإسكندرية فيه، وفيهما حجاج وتجار من المسلمين، فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة، وأبصرنا محارث ومزارع، لم نر مثل تربتها طيباً وكرماً واتساعاً(٥٠).

ديار الشام:

دمشق - جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها، قد شملت بأزاهير الرياحين، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين، وحلت فى موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت فى منعتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قرار ومعين. ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الآراقم، بكل سبيل، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل، تتبرج

لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم: هلموا إلى معشر للحسن ومقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، قد أحدقت بها البساتين إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر... فكل موضع لحظتها بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها:

«إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها» وفى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهى حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمرا عجيباً تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب وهى بأيدى الروم ولا اعتراض عليها فيها.

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزمة على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه فى كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم، والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال فى الجديد أكثر، وهذا القديم هو غرب الجامع المكرم، وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج وهم فى سلاسل موثقون[٥١].

حمص:

وأما داخلها فما شئت بادية شعناء خلقة الأرجاء ملفقة البناء، لا إشراق لآفاقها ولا رونق لأسواقها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها، وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدو.... فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذ يطير شراره، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاره.. وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة: هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات؟ فقال، وقد أنكر ذلك «حمص كلها

مارستان» وكفاك شهادة أهلها، وبها مدرسة واحدة، وتجد فى هذه البلدة عند اطلاعك عليها من بعد فى بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة «إشبيلية» من بلاد الأندلس، يقع للحين فى نفسك خياله، وبهذا الاسم سميت فى القديم وهى العلة التى أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر(٥٢).

صور:

هى أنظف من عكة سككا وشوارع، وأهلها ألين فى الكفر طبائع، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين ومنازع، فخلائفهم أشجع ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكة أكبر وأطغى.

وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به، وذلك أنها راجعة إلى بابين أحدهما فى البر والآخر فى البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة... فالذى فى البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها فى ستائر مشيدة محيطة بالباب، وأما الذى فى البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس فى البلاد البحرية أعجب وضعا منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص.

فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم.. فشأن هذه الميناء شأن عجيب فى حسن الوضع. ولعكة مثلها فى الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسى خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها.. فالصورية أكمل وأجمل وأحفل.

عكا:

وهى قاعدة مدن الأفرنج، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة فى عظمتها بالقسطنطينية... مجتمع السفن والرفاق وملتقى

تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطىء الأقدام.

وصلنا إلى الديوان، وهو خان معد لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحارب الأبنوس المذهبة الحلى وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له، يعرف بالصاحب لقب وقع عليه فمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند، وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضامن، وضمان هذا الديوان بمال عظيم. فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا فى أعلاه، وطلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله، فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل.. فنزلنا بها فى بيت اكتريناه من نصرانية بإزاء البحر.

زفاف فى صور:

زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب المزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها، وهى فى أبهى زى وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهود من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم، وهى رافلة فى حليها وحللها تمشى فترى فى مشى الحمامة أو سير العمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر، وأمامها جلة من رجالها النصارى فى أفخر ملابسهم البهية تنسحب أذيالها خلفهم، وورائها أكفاؤها من النصرانيات، يتهادين فى أنفس الملابس ويرفلن فى أرفل الحلى، والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون والنصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة، قادنا الاتفاق إلى رؤية هذ المنظر الزخرفى المستعاذ بالله من الفتنة فيه

«ابن جبير ٣٠٥».

نصيبين:

«شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب وباطنها هرم، جميلة المنظر متوسطة بين الكبر والصغر، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد فى نواحيه وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، ينساب بين يديها نهر، وقد انعطف عليها انعطاف السوار، والحدائق تنتظم بحافتيه، وتفيء ظلالها الوارفة عليه، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانيء حيث يقول:

طابت نصيبين لى يوما فطبت لها   يا ليت حظى من الدنيا نصيبين

«فخارجها رياضى الشمائل، أندلسى الخمائل، يرف غضارة ونضارة ويتألق عليه رونق الحضارة، وداخلها شعث البادية باد عليه، فلا مطمح للبصر إليه، لا تجد العين فيه فسحة مجال ولا مسحة جمال».

عيذاب:

«ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب «المراكب» حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة، ولا يبال بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: «علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح» وهذا مثل متعارف بينهم، فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها هذه البلدة، والأولى بمن يمكنه ذلك ألا يراها، وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق، ويصل مع أمير الحاج البغدادي، وإن أطال طريقه بهذا التحليق فيهون عليه بما يلقى من عيذاب ونحوها، فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل إلى البيت العتيق والحياة فيها على قدر كبير من الشظف والمشقة، حسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء والعطش أشهى إلى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام، وبالإضافة إلى هذه الحياة فيه فأهلها ألفوا بها عيش

البهائم، وهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس وهم أضل من الأنعام سبيلاً وأقل عقولاً، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة، إلا خرقا يسترون بها عوراتهم وأكثرهم لا يسترون، وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم».

أهل بغداد:

«وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصور كل منهم فى معتقده وخلده، أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم كأنهم لايعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم، يسحبون أذيالهم أشراً وبطراً ولا يغيرون فى ذات الله منكراً، يظنون أن أسنى الفخارة سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله بمقتضى الحديث المأثور فى النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا وما منهم من يحسن لله فرضا ولا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف، فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق، فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها، ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأبنائها، استغفر الله إلا فقهائهم المحدثين ووعاظهم المذكرين».

الهَرَوى
ت ٦١١هـ - ١٢١٥م

رجل دين ورحالة مشهور طاف معظم بلاد العالم الإسلامى وبلاد الروم، وكما كان مولعاً بالأسفار، فقد كان مغرماً بزيارة قبور الأولياء والصالحين، ويرى فى زيارتها تكريماً لأصحابها وتعظيماً، واحتذاء بهم بصفتهم القدوة إضافة إلى أنه طلب للعلم وحض عليه.

صنف عدة كتب من أهمها **«الإشارات إلى معرفة الزيارات»** و**«الخطب الهروية»** و**«منازل الأرض ذات الطول والعرض»**.

وقد ورد فى كتابه «الإشارات» إلى أنه أفرد كتاباً مستقلاً يتناول الأبنية والآثار والعجائب والأصنام.

هو أبوالحسن على بن أبى بكر على الهروى، ولد بالموصل وينتمى لأسرة هروية «من هراة»[٥٣] بخراسان، وعاش أكثر عمره بحلب فى سوريا، طاف البلاد وأكثر الزيارات، وكان يطبق الأرض بالدوران، فيما يقول **ابن خلكان**[٥٤].

«لم يترك بلداً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه فى حائطه، ولقد شاهدت ذلك فى البلاد التى رأيتها مع كثرتها، ولما سار ذكره واشتهر به وضرب به المثل فيه، وكتب عنه شمس الخلافة جعفر المقدم فى شخص يستجدى من الناس بأوراقه، وقد ذكر فيها هذه الحالة قائلاً:

أوراق كديته فى بيت كل فتى — على اتفاق معان واختلاف روى
قد طيف الارض من سهل ومن جبل — كأنه خط ذاك السائح الهروى

ويقول ابن خلكان أن الهروى كانت له معرفة بالسيميا، وبه تقوم عند الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، وأقام عنده وكان كثير الرعاية له، وبنى له مدرسة بظاهر حلب وفى ناحية منها قبة، وهو مدفون فيها، وفى تلك المدرسة بيوت كتب على باب كل منها مايليق به

عاش الهروى فترة مزدهرة من تاريخ العروبة والاسلام إبان حكم صلاح الدين الأيوبى، وقد تابع الهروى حروب القائد الكبير وانتصاراته، وكان رحالتنا فى تمام نضجه، وشهد استعادة بيت المقدس وكثيرا مما كان بين أيدى الصليبيين من البلاد الاسلامية، وكان معاصراً لابن جبير وأسامة بن منقذ، وقد توفى فى شهر رمضان سنة ٦١١هـ - ١٢١٥م.

رحلة الهروى

خرج من حلب عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م)، وطاف بأنحاء سوريا وفلسطين ثم العراق وإيران إلى اليمن وماحولها، ثم اتخذ طريقه جهة الغرب فزار مصر وبلاد المغرب العربى وجزر البحر المتوسط حتى صقلية وعاد إلى الشرق، فزار القسطنطينية وحط فى حلب.

كان هاويا للرحلة مولعا بالأسفار، وكلما قرأ عن شيخ راحل زار قبره أينما كان بغرض التبرك بالرؤية المباشرة وتمنى المثوبة والعبرة، ومحاولة تأمل ودراسة ما بذله فى خدمة كتاب الله وسنة نبيه الكريم، وقد زار الهروى فلسطين أكثر من مرة؛ خاصة بعد استردادها من الصليبيين، وفى عام ٥٨٨ هـ ١١٩٢م كان يزورها ضمن قافلة تجارية، ولكن جنود ريتشارد قلب الأسد انقضوا عليها ونهبوها، عندما مرت بماء الخويلفة فى مقاطعة الداروم، وفقد فيها الهروى كمية كبيرة من الكتب التى كان يحملها والأوراق التى كان يدون فيها انطباعاته عن

زياراته، ولما علم ريتشارد بعد ذلك أن الهروى كان ضمن رجال القافلة دعاه لمقابلته فأبى الهروى.

وهبط الهروى الإسكندرية عام ٥٧٠م هـ - ١١٧٤، واستمع فيها **لابن الرحال** المحدث وحمَّله القائد **أبو القاسم بن حمود** رسائل إلى صلاح الدين يطالبه فيها بتجهيز حملة ضد صقلية.

وقد اعتبر الهروى سياحته فى البلاد زيارات، واعتبر ماتضمنه كتابه محض إشارات بسيطة تعرف القارئ الأماكن التى زارها، وقد حرص الهروى فى أسفاره أن يزور معالم كل مدينة، ويعايش أهلها ويدرس آثارها؛ خاصة مساجدها، وكانت له نزعة صوفية يدلنا عليها أسلوبه فى الوصف والتعبير، وقد تضمن كتابه ذكر المئات من الأماكن الدينية التى سعى إليها سعياً حثيثاً وحرص على تأملها والمقارنة بينها. ورغم أنه كان مهتماً بالمقابر والمساجد بالدرجة الأولى، فقد كان كرحالة حقيقى معنياً بزيارة أهم المعالم ورصدها بدقة، ومن هذا موقفه من بركان إتنا، ومراقبته له ليتحقق بنفسه وبرؤية العين المباشرة من أن السمندر يقفز فى اللهب، دون أن يحترق كما ادعى أحد العلماء، وانتهى إلى أن فوهة البركان كانت تقذف حجارة ملتهبة وليس من بينها السمندر وغيره، ومثل ذلك حديثه عن ملاحظته أن الإفرنج لم يغيروا ماكتب على أبواب المسجد الأقصى من آيات القران الكريم، وكذلك لم يحذفوا أسماء الخلفاء رضى الله عنهم « يقول فى مقدمة الإشارات إلى معرفة الزيارات» عن سبب تأليفه الكتاب :

أما بعد فإنه سألنى بعض الأخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات، وماشهدته من العجائب والأبنية والعمارات، ومارأيته من الأصنام والآثار والطلسمات، فى الربع المسكون والقطر المعمور فوقع الامتناع إلى أن حصل الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيزى شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام وقبة الإسلام وذكر الفقير للرسول زيارات..فوقع الابتداء بذكر الزيارات من مدينة حلب..»

«وقد اختصرت ماحضرنى على سبيل الإيجاز،أستعيذ بالله من شر حاسد ونكد معاند يقف على ذكر بعض الصحابة والتابعين وآل الرسول صلوات الله عليهم أجمعين وعلى ذكر بعض الآثار، فيقول قرأنا فى التاريخ الفلانى ضد ذلك، وذكر فلان غير هذا.. وأنا لا أشك فى قولة ولا أطعن فى حديث إلا أننى ذكرت بعض أصحاب التواريخ جماعة من آل الرسول عليهم الصلاة والسلام ومن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم قتلوا وماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر، ولم أر فى أكثر هذه الأماكن ماذكروه،ولاشك أن قبورهم اندرست وأثارهم طمست وذهبت أثارها وبقيت أخبارها، والزائر له صدق نيته وصحة عقيدته».

وقد ذكروا أيضا بلادًا أخر وأماكن وطرقات لاتعرف الآن لتقادم العهد وتغير الزمان، وإن جرى فيما أذكره شىء بطريق السهو والغلط ولا بطريق القصد، فأسأل النظار فيه والواقف عليه الصفح عن ذلك وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق، فإنى كتبى أخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب فى وصولى إليه فلم يمكن ذلك، ومنها ماغرق فى البحر، وقد زرت أماكن ودخلت بلادا من سنين كثيرة وقد نسيت أكثر مارأيته وشذ عنى أكثر ماعاينته، وهذا مقام لايدركه أحد من السائحين والزهاد ولايصل إليه أكثر المسافرين والعباد إلا رجل جال الأرض بقدمه وأثبت ماقلته بقلبه وقلمه..»

مما سبق يتبين لنا أن بلاداً كثيرة قام الهروى بزيارتها، ولعل منها مالم يزره وتحدث عنه بالرواية عن الآخرين، وتبين لنا أيضاً أنه لم يكن يدون، وإنما كان يعتمد على ذاكرته عندما هم بوضع مؤلفه، والاعتماد على الذاكرة مهما كانت قوية يؤثر على مصداقية العرض والأمر لايخلو من اضطراب فى ذكر الأسماء والأرقام والأحداث، مما يوحى عند النظر بالشك والريبة وسحب الثقة من المؤلف، وقد يذهب البعض إلى التشكيك فى الرحلة كلها.

وهناك عدة نسخ من مخطوطة الهروى، اطلعنا على واحدة منها وهى

المحفوظة بدار الكتب المصرية، ولاتزال دون تحقيق أو طبع ولا أحد من العلماء يقوم بهذه المهمة بدلاً من دوام التشدق فى المحافل بالعبارات الطنانة وتحبير الصفحات فى المقالات والكتب بالدعوة لإحياء التراث العربى.. وألف باء إحياء التراث تحقيق المخطوطات وتقديمها للناس.. ولاحول ولاقوة إلا بالله.

نماذج من كتابات الهروى

فى هذه الصفحة يكتب جانبا من ذكرياته عن القدس، يقول الهروى:

دخلت القدس فى سنة ٥٦٧ واجتمعت فيه وفى مدينة الخليل بمشايخ حدثونى أن فى سنة ٥١٣ فى أيام الملك بردويل انخسف موضع فى مغارة الخليل فدخل إليها جماعة من الفرنج بإذن الملك فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، عليهم السلام، وقد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط، وعلى رؤوسهم قناديل ورؤوسهم مكشوفة، فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع، وقرأت على السلفى أن رجلاً يقال له الأرمنى قصد زيارة الخليل وأهدى لقيم الموضع هدايا جمة وسأله أن يمكنه من النزول إلى جثة إبراهيم، عليه السلام، فقال له: أما الآن فلا يمكن لكن إذا أقمت إلى أن ينقطع الجثل، وينقطع الزوار فعلت، فلما انقطعوا قلع بلاطة هناك وأخذ معه مصباحاً، ونزلا فى نحو سبعين درجة إلى مغارة واسعة والهواء يجرى فيها وبها دكة عليها إبراهيم. عليه السلام، ملقى وعليه ثوب أخضر والهواء يلعب بشيبته وإلى جانبه إسحاق ويعقوب، ثم أتى به إلى حائط المغارة فقال: إن سارة خلف هذا الحائط، فهم أن ينظر إلى ماوراء الحائط فإذا بصوت يقول: إياك والحرام !قال فعدت من حيث نزلت والخليل أيضا: موضع من الشق اليمانى، نسب إليه.

(الحموى مج ٢ص ٣٨٧)

ومن المعلومات الطريفة والمتنوعة التى حشدها فى كتابه عن زهور مصر ونباتاتها نطالع هذه السطور:

فإن فى ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا كثيراً، ورأيت ياسمين لونين، ولينوفرا لونين، وآسيا ونسرينا، وريحانا، وخبزيا، وبنفسجا، ومنتوراً، ونبقاً

وأترجا، وليمونا مركبا وطلعا، ورطبا، وموزا، وجميزا، وحصرما، وعنبا وتينا أخضر، ولوزا، وقثى، وفقوس، وبطيخاً،وباذنجان، وباقلا أخضر، ويقطينا، وحمصا أخضر، وخسا، والبقول،والرمان وهليونا، وقصب السكر..

وعن الأبروق وهو اسم موضع فى بلاد الروم يزوره المسلمون والنصارى وغيرهم، يقول الهروى:

بلغنى أمره فقصدته فوجدته فى لحف جبل يدخل إليه من باب برج، ويمشى الداخل تحت الأرض إلى أن ينتهى إلى موضع واسع، وهو جبل مخسوف تبين منه السماء من فوقه، وفى وسطه بحيرة، وفى دائرها بيوت للفلاحين من الروم، ومزدرعهم ظاهر الموضع، وهناك كنيسة لطيفة، ومسجد فإن كان الزائر مسلماً أتوا به إلى المسجد، وإن كان نصرانيا أتوا به إلى الكنيسة، ثم يدخل إلى بهو فيه جماعة مقتولون، فيهم أثار طعنات الأسنة وضربات السيوف ومنهم من فقدت بعض أعضائه وعليهم ثياب القطن لم تتغير.

وهناك فى موضع أخر، أربعة قيام مسندة ظهورهم إلى حائط المغارة، ومعهم صبى قد وضع يده على رأس واحد منهم طوال من الرجال، وهو أسمر اللون، وعليه قباء من القطن، وكفه مفتوحة كأنه يصافح أحدا، ورأس الصبى على زنده، وإلى جانبه رجل على وجهه ضربة قد قطعت شفته العليا، وظهرت أسنانه، وهم بعمائم.

وهناك أيضا بالقرب امرأة وعلى صدرها طفل، وقد طرحت ثديها فى فمه وهنا خمس أنفس قيام، ظهورهم إلى حائط الموضع، وهناك أيضا فى موضع عال، سرير عليه اثنى عشر رجلاً، فيهم صبى مخضوب اليد والرجل بالحناء والروم يزعمون إنهم منهم، والمسلمون يقولون إنهم من الغزاة فى أيام عمر بن الخطاب، رضى الله عنه ماتوا هناك صبرا، ويزعمون أن أظافيرهم تطول، وأن رؤوسهم تخلق وليس لذلك صحة، إلا إنهم قد يبست جلودهم على عظامهم ولم يتغيروا.

ويقول الهروى عن منارة القسطنطينية:

ومن المنابر العجيبة منارة قسطنطينية لأنها منارة موثقة بالرصاص والحديد والبصرم وهى فى الميدان، إذا هبت عليها الرياح أمالتها شرقاً وغربا وجنوبا وشمالاً من أصل كرسيها، ويدخل الناس الخزف والجوز فى خلل بنائها فتطحنه، وفى هذا الموضع منارة من النحاس وقد قلبت قطعة واحدة إلا أنها لايدخل إليها، ومنارة قريبة من البيمارستان قد ألبست بالنحاس بأسرها وعليها قبر قسطنطين، وعلى قبره صورة فرس من نحاس وعلى الفرس صورته وهو راكب على الفرس وقوائمه محكمة بالرصاص على الصخر ماعدا يده اليمنى فإنها سائبة الهواء كأنه رفعها ليشير، وقسطنطين على ظهره ويده اليمنى مرتفعة فى الجو وقد فتح كفه، وهو يشير إلى بلاد الإسلام ويده اليسرى فيها كرة، وهذه المنارة تظهر عن مسيرة بعض يوم للراكب فى البحر.

وقد اختلفت أقاويل الناس فيها، فمنهم من يقول إن فى يده طلسمًا يمنع العدو من قصد البلد، ومنهم من يقول بل على الكرة مكتوب : ملكت الدنيا حتى بقيت بيدى مثل هذه الكرة ثم خرجت منها هكذا لا أملك شيئاً

(الحموى ج٣ صـ٣٤٨)

ويقول الهروى عن أسوان:

وبأسوان الجنادل، ورأيت بها آثار مقاطع العمد فى جبال أسوان، وهى حجارة مانعة، رأيت هناك عموداً قريبا من قرية يقال لها بلاق أو براق يسمونها الصقالة، وهو مانع مجزع بحمرة ورأسه قد غطاه الرمل، فذرعت (قست بالذراع) ماظهر منه فكان خمسة وعشرين ذراعا، وهو مربع كل وجه منه سبعة. وفى النيل هناك موضع ضيق ذكر أنهم أرادوا أن يعملوا جسراً على ذلك الموضع، وذكر أخرون أنه أخو عمود السوارى الذى بالإسكندرية

(الحموى جـ١)

وعن طبرية يقول الهروى:

أما حمامات طبرية التى يقال إنها من عجائب الدنيا، فليست هذه التى على باب طبرية على جانب بحيرتها، فإن مثل هذه كثيراً رأينا فى الدنيا، وأما التى من عجائب الدنيا فهو موضع فى أعمال طبرية شرقى قرية يقال لها الحسينية فى واد وهى عمارة قديمة، يقال إنها من عمارة سليمان بن داود، وهو هيكل يخرج الماء من صدره وقد كان يخرج من اثنتى عشرة عينا كل عين مخصوصة بمرض إذا اغتسل فيها صاحب ذلك برئ بإذن الله تعالى، والماء شديد الحرارة جدا صاف عذب طيب الرائحة، ويقصده المرضى يستشفون به، وعيون تصب فى موضع كبير حر يسبح الناس فيه، ومنفعته ظاهرة ومارأينا مايشابهه إلا الشرميا المذكورة فى موضعه.

«ياقوت مج ٤ص١٨»

ويقول الهروى فى كتابه **«الزيارات»** (ورقات ٢٧، ٢٨) إن رأس الحسين ابن على ظلت فى مشهد عسقلان إلى أن استولى الفرنج على المدينة، فنقلت الرأس الشريفة إلى مصر سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م).

المراجع والهوامش

١) الصلة - ابن بشكوال صـ ٦٣٠

(٢) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين - حسين مؤنس صـ ١٦٧

(٣) المصدر نفسه صـ ٤٠٥

(٤) الشريف الإدريسى - محمد عبد الغنى حسن - أعلام العرب

(٥) الوافى بالوفيات - صلاح الدين الصفدى - ج١ صـ ١٦٣

(٦) الإدريسى - عبد الغنى حسن صـ ٧١

(٧) تاريخ الأدب الجغرافى صـ٢٨٢, ٢٨٣

(٨) المصدر السابق

(٩) العلوم عند العرب - قدرى طوقان صـ ١٨٨

(١٠) المصدر السابق صـ ٢٨٧, ٢٨٨

(١١) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس - صـ ٣٢٣

(١٢) كارل بروكلمان جـ١ صـ٧٨٣

(١٣)،(١٤) يقصد العودة إلى سجسين حيث ترك أولاده وزوجاته.

(١٥) يدعوهم ابن فضلان "سواز"

(١٦) تاريخ الأدب الجغرافى صـ٢٩٤

(١٧) الاعتبار - صـ ١٠٣

(١٨) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ابن خلكان جـ١ صـ١٧٧

(١٩) كتاب عربى قديم (الاعتبار) محمود الشرقاوى - مجلة الهلال سبتمبر ١٩٦٨

(٢٠) الاعتبار صـ ٣٦

(٢١) المصدر نفسه صـ ٦٤
(٢٢) المصدر نفسه صـ ١٩٦
(٢٣) المصدر نفسه صـ ٢٠٠
(٢٤) المصدر نفسه صـ١٣٨
(٢٥) المصدر نفسه صـ٣٣
(٢٦) المصدر نفسه صـ ١٣٢
(٢٧) أول من استخدم هذا الاسلوب فى التقييد هو الرحالة الفقيه أبو بكر محمد بن العربى (٤٦٨-٥٤٣هـ) (١٠٧٦-١١٤٨م) وأصله من إشبيلية.
(٢٨) الرحلات - د. شوقى ضيف صـ ٧١ -دار المعارف
(٢٩) الرحالة العرب صـ ٥٩
(٣٠) رحلة ابن جبير صـ١٠
(٣١) الشآبيب : الواحد شؤبوب، وهو دفعة المطر
(٣٢) أربدت : تغير لونها
(٣٣) استشرت : ساد شرها
(٣٤) كفاء : مساو
(٣٥) بركان أتنا فى جزيرة صقلية
(٣٦) ملججين : جادين فى الإبحار
(٣٧) إقريطش : جزيرة كريت
(٣٨) نظرها : وجهتها
(٣٩) الرحلة صـ ١١
(٤٠) المصدر نفسه صـ ٩٥, ٩٦, ٩٧
(٤١) بحرية : سحابة آتية من البحر.
(٤٢) الذنوب : الدلو المملوء بالماء.
(٤٣) سورة إبراهيم - الآية ٣٧.
(٤٤) سورة القصص - الآية ٥٧.

(٤٥) مايجلب من الهند.

(٤٦) السلجم : اللفت.

(٤٧) الرحلة :٢٢٤, ٢٢٥, ٢٢٦

(٤٨) الذَّرى : الجانب

(٤٩) الرحلة صـ٢٨٨, ٢٨٩

(٥٠) المصدر نفسه صـ ٣٠٦, ٣٠٧

(٥١) المصدر نفسه صـ٢٨٣

(٥٢) المصدر نفسه صـ ٢٥٨

(٥٣) مملكة خراسان تتكون من : هراة، نيسابور، مرو، بلخ

(٥٤) وفيات الأعيان - ابن خلكان جـ٣ صـ ٣١, ٣٢

رحالو القرن السابع الهجرى
الثالث عشر الميلادى

١- البغدادي
٢- ياقوت الحموي
٣- ابن سعيد الأندلسي
٤- العبدري

البغدادى

(٥٥٧-٦٢٩ هـ (١١٦٢- ١٢٣٢م)

هو الإمام الفقيه المحدث اللغوى الفيلسوف الرحالة المعروف عبد اللطيف البغددى، اشتهر بحبه للعلم وولعه بالمحاورة، مثل مواطنه الطبيب والرحالة **ابن بطلان** الذى عاش قبله بنحو قرن، وكان البغدادى معاصراً للرحالة العربى والأديب العالم **ياقوت الحموى** (٦٢٦هـ)، كما كان معاصرا تقريباً للرحالة الأندلسى **ابن جبير** (٦٢٦هـ)، إلا أننا وضعنا ابن جبير ضمن رحالة القرن السادس، لأن رحلاته بدأت عام ٥٧٨ هـ على حين بدأ **البغدادى** رحلاته عام ٥٨٥ هـ، ولم تتوقف إلا بوفاته

يعد كتابة «**الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**» من أهم كتب البغدادى المنشورة، وفيه يصور أحوال مصر إبان زيارته لها، وقد قام بزيارتها مرتين (عامى ٥٨٧، ٥٨٩هـ)، وبقى فيها نحو ثلاثة عشر عاما، وكان يدرس خلالها بالجامع الأزهر .

ولد موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على بن أبى السعد الذى عرف بابن اللباد[1]، وسمى البغدادى نسبة إلى مدينته، طبقاً لما جرت عليه العادة وشاعت من نسبة الرجل إلى بلده أو مدينته مادام قد خرج منها.

كان ميلاده فى دار جده بدرب الفالوذج ببغداد سنة ٥٥٧هـ - ١١٦٢م فى بيئة تحرص على العلم والثقافة، فكان أبوه بارعاً فى القراءة، مشتغلاً بعلم الحديث، مجيدا فى المذاهب، عارفاً بالعلوم العقلية، وكان عمه«سليمان» فقيها.

يقول عن نفسه:

«تربيت فى حجر الشيخ **أبى النجيب** لا أعرف اللعب واللهو وأكثر زمانى مصروف فى سماع الحديث»[٢].

تعلم الخط وحفظ القرآن الكريم ودرس المقامات وديوان المتنبى ، كما درس العلوم الشرعية على يد الشيخ كمال الدين عبد الرحمن **الأنبارى** ، الذى تبلغ مؤلفاته مائة وثلاثين مؤلفا ، وتلقى العلم على يد غيره مثل ابن عبيدة **الكرخى** وجمال الدين **بن فضلان** .

واصل موفق الدين إقباله على القراءة وعكوفه على الدرس، تدفعه شهوته للمعرفة إلى طرق الأبواب والنهل من كل المنابع، وكان واثقاً فى نفسه، شجاعاً فى رأيه، حاضر البديهة، لماحاً، متقد الذهن، يميل إلى الحوار والجدل، ويمتلك الحجة، يواتيه عقله دائما بالرأى الراجح والدليل الدامغ.

بدأ البغدادى رحلاته عام ٥٨٥هـ إلى دمشق والموصل من أجل العلم ومحاورة العلماء والبحث عن الكتب المشهورة فى عصره ، ثم سعى إلى صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٧ هـ وقصد القدس ، وكان يضمر الرغبة فى زيارة مصر مهما كانت العوائق.

والتقى فى مصر بموسى **بن ميمون** الطبيب المشهور وأبى القاسم **الشارعى** الذى دعا البغدادى إلى قراءة الفلسفة ، وظل بها حتى أحبها ونبه فيها وبلغ مجموع ماكتبه فيها مايتجاوز أربعين كتاباً، من أهم ماوصلنا منها «**مختصر فيما بعد الطبيعة**».

غادر البغدادى مصر بعد أربعة عشر شهراً ، رغبة فى لقاء **صلاح الدين** للمرة الثانية ، ورحب به صلاح الدين ترحيبا كبيراً ، وطلب إليه أن يقيم فى دمشق قريباً منه وعينه مدرسا بأحد مساجد دمشق ، وحدد له راتبا شهريا يبلغ نحو مائة

دينار، وبعد عام واحد توفى القائد صلاح الدين ، وساءت الأحوال بصورة ضاق بها البغدادى ، فقرر مبارحة دمشق إلى مصر فى شهر شعبان عام ٥٨٩ هـ ، والتقى فى مصر بأستاذه القديم أبو القسام الشارعى ، وظل يلازمه حتى وفاته واتخذ لنفسه مجلسا علمياً فى الجامع الأزهر ، وكان فى الوقت نفسه يتابع أبحاثه فى الطب والنبات .

ولما مات العزيز عثمان الذى كان يولى عناية كبيرة بالبغدادى عام ٥٩٥هـ أدركه الحزن الشديد وفكر فى العودة إلى دمشق ، لكنه لم يرحل إلا نحو عام ٦٠١ هـ إلى القدس، وبقى سنوات اشتغل خلالها بالتأليف والتدريس.

وفى سنة ٦٠٤ هـ غادر القدس إلى دمشق ونزل بالمدرسة العزيزية وشرع فى التدريس والاشتغال بالقراءة والتحصيل والمناقشة ، وكان يأتيه خلق كثير، وتميز بصناعة الطب(٣).

وفى عام ٦١٥ هـ سافر إلى حلب ومنها إلى بلاد الروم، حيث مكث فيها أحد عشر عاماً ، قضى معظمها فى خدمة الملك علاء الدين دواود بن بهرام ملك أرزنجان الذى نال ثقته وعطاياه ، وبعد أن سقطت دولة هذا الملك ، رحل فى جولة ببلاد الروم ، يغترف من العلوم العقلية ويطلع على مالم يتيسر له فى مصر والشام ، ثم عاد إلى حلب عازما على الاستقرار بها إلى نهاية العمر.

وفى نهاية عام ٦٢٨هـ اعتزم الحج، فخرج فى رحلة دينية، ورأى أن يمر بمسقط رأسه بغداد فقد تفجر فى داخله شوق جارف إلى رؤية مدينته التى رأى فيها النور لأول مرة، فتوجه إليها، ولكنه فوجئ بمرض شديد يدهمه فيها، ولايلبث أن يسلم الروح فى يوم الأحد الثانى عشر من محرم سنة ٦٢٩هـ، بعد أن ظل غائبًا عن بغداد خمسة وأربعين عامًا، وسبحان من له الدوام... نصف قرن بعيدًا عن بلده، وعندما أراد أن يجيب داعى الشوق إلى الأهل والأوطان، كان فى الحقيقة يلبى دعوة أكبر، حان موعدها ليقوم برحلة أخيرة وممتدة، رحلة من نوع آخر غير الذى اعتاد عليه.

رحلاته:

تنوعت رحلات البغدادى وتعددت أغراضها، مابين رحلات سياحية ومشاهدة، ورحلات تعارف ومحاورة ورحلات علمية ورحلات سياسية للقاء الملوك والوزراء، ولست مبالغاً إذا اعتبرته فى ميزان هذه الدراسة رحالة مثالياً، تتحقق فيه كل سمات الرحالة الذى أغرم بالسفر منذ الصبا الباكر بحثا عن المعرفة بكافة أشكالها وصورها . . . يجيد التأمل، دقيق الملاحظة تؤرقه شهوة التطلع وحب العلم، سديد النظر، مولع بالجدل والحوار الذى ينتج الأفكار ويستنفر الهمم، إلا أن حرصه على التعليم والتثقيف والتوجيه والإفادة ورغبته فى أن يستقر بعض الوقت ليتفرغ للكتابة والتأليف قد حد من رحلاته، وضيق من أسفاره، وأقعده عن السياحة فى مشارق الأرض ومغاربها، وهو أمر لانأسف عليه، لكن الذى يحق لنا أن نأسف عليه حقا أنه لم يسجل عن البلاد التى طوف بها، والأماكن التى زارها شيئا إلا عن مصر فقط التى كان حظها «الإفادة والاعتبار».

وتشاء الأقدار أن يعزم على الرحيل بعد وفاة العزيز ملك مصر عام ٥٩٥هـ، ولكنه يتمهل قليلاً ويرجئ الرحيل فتحدث المجاعة ويعم البلاد قحط لامثيل له عامى ٥٩٧، ٥٩٨ هـ، فيبقى بمصر ولا يغادرها إلا عام ٦٠١، ويستطيع بحضوره المتميز أن يسجل لنا شهادته على هذه الفترة فى كتابه المهم.

كتاب «الإفادة والاعتبار»:

وضعه صاحبه فى رمضان عام ٦٠٠هـ كما أورد فى نهايته، وقد اتفق المؤرخون على اختصار الاسم الطويل، يتمتع كتاب «الافادة والاعتبار» بين كتب الرحلة بأهمية خاصة؛ لأنه يصدر عن عالم خبير لا عن رحالة هاو لايستند إلا إلى الجسارة الشخصية والشوق إلى الجديد.

ويمثل هذا الكتاب نموذجًا للرحلات العلمية التى نطمئن إلى سلامتها بعيدًا عن الخرافات والأساطير أو الأغاليط والمبالغات، وقد قام منهج البغدادى على

البحث والشك والجدل والإقناع، الأمر الذى نجده جليا فى رفضه مجالسة الجهلاء أو المدعين، مما جعله يحظى بالاحترام عند العامة والملوك والعلماء على حد سواء.

وتنبع أهمية الكتاب من رصده المباشر للظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة فى مصر عامى ٥٩٧، ٥٩٨هـ، والتى شهدت الوباء والقحط، وهى فترة ذات حساسية خاصة من حيث طبيعتها ومفارقتها لمعظم ما عرفنا خلال مشاهدات الرحالة إلا فيما ندر، ومن هنا فالكتاب يتناول صورة مغايرة بالقياس إلى بانوراما المشاهد المختلفة، وسوف يلحظ القارئ أن أحداثها تعد من الغرائب والعجائب، ولكنها حدثت بالفعل ورآها محدثنا رؤية العين.

يقول **كراتشكوفسكى** ص٣٤٦:

«لقد دفعته نزعته العلمية كطبيب وبحاثة إلى الاحتفاظ بقوة ملاحظاته ورباطة جأشه، فهو يصف لنا بهدوء وبدقة تامة الحالات الرهيبة لأكل لحوم البشر، وكيف كانوا يختطفون الأطباء الذاهبين لعيادة مرضاهم، وكيف أحرق المجرمون الذين ثبتت عليهم تهمة أكل الغير، وكيف وجدت جثث هؤلاء المجرمين مأكولة فى الصباح، وفى هذه الظروف المروعة لم يفقد عبداللطيف حب الاستطلاع وروح البحث المتأصلين لديه، فأجرى عدداً من الملاحظات التشريحية والطبية، ولايزال كتابه فى هذا الصدد محتفظاً بقيمته كوثيقة إنسانية حية».

وكتاب «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» من مصنفات البغدادى الضخمة، وهو مؤلف فى ثلاثة عشر فصلاً، يحوى تفاصيل دقيقة عن مقاييس فيضان النيل من وقت الهجرة إلى أيام البغدادى بمصر، ومما يؤسف له أن هذا الكتاب لم يصل إلينا شىء منه، إلا أن البغدادى - لحسن الحظ - استخلص منه أهم ما فيه وجمعه فى كتاب مختصر هذا الذى بقى لنا.

إن المخطوط الأصلى لهذا المؤلف المختصر موجود بالمكتبة البودلية بأكسفورد،

وقد عرف للغرب منذ القرن الثامن عشر الميلادى، فقد استنسخه **جوزيف وايت** فى سنة ١٧٨٢م ونشره فى توبنجن بألمانيا فى سنة ١٧٨٩م، ثم ترجمه إلى اللاتينية ونشره باللغتين اللاتينية والعربية فى سنة ١٨٠٠م، وهى ترجمة كان قد ابتدأها **بوكوك نجل بوكوك**، الذى استحضر المخطوط إلى إنجلترا ثم أكملها من بعده «**وايت**»، كما أن **فاهل** ترجمه إلى الألمانية فى سنة ١٧٩٠م.

وترجمها إلى الفرنسية **سلفستر دى ساس** سنة ١٨١٠ وزودها بالهوامش الفنية والتعليقات العلمية.

قسم البغدادى كتابه إلى قسمين «مقالين»، وقسم المقالة الأولى إلى ستة فصول، تحدث فى الفصل الأول عن خواص مصر العامة، فقال إنها:

«واد تكتنفها الجبال والصحارى، والنيل ينساب فيها، ويتشعب بأسفل الأرض، وجميع شعبه تصب فى بحر الروم، وذكر للنيل خاصيتين طول مسافته وفيضانه فى نهاية الصيف، وأشار إلى أن أرض مصر فى أغلبها رملية، ولكن النيل يأتيها بطين أسود فيه دسومة كثيرة، وكل سنة يأتيها طين جديد، ولهذا تزرع جميع أراضيها ولا يراح شىء منها كما يحدث فى العراق».

وخصص الفصل الثانى للنباتات، ووصفها وصفاً دقيقاً، ومنه حديثه الطريف عن البامية، وفيه يجمع إلى الحقيقة العلمية صياغة أدبية شائقة.

«من ذلك البامية، وهى ثمر بقدر إبهام اليد... شديدة الخضرة، إلا أن عليه زئبرا شوكا، وهذا الثمر مخمس الشكل يحيط به خمسة أضلاع، فإذا شُقَّ انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز، وفى تلك الأبيات حب مصطف مستدير أبيض، أصغر من اللوبيا هش، يضرب إلى الحلاوة، وفيه قبض ولعابية كثيرة، يطبخ أهل مصر به اللحم بأن يقطع مع قشوره قطعا صغاراً ويكون طعاما لا بأس به، الغالب على طبعه الحرارة والرطوبة، ولا يظهر فى طبخه قبض، بل لزوجة».

ويفرد الفصل الثالث للحديث عن الحيوانات التى تدب على الأرض أو تعيش فى مياه النيل أو يصيدها أهل مصر من البحر الرومى «البحر الأبيض» ومن هذا قوله عن الترسة:

هى سلحفاة عظيمة، وزنها نحو أربعة قناطير، إلا أن جفنيها أعنى عظم ظهرها كالترس، له أفاريز خارجة عن جسمها نحو الشبر، ورأيتها بالإسكندرية يقطع لحمها ويباع كلحم البقر، وفى لحمها ألوان مختلفة، ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان، ويخرج من جوفها نحو أربعمائة بيضة، كبيض الدجاج سواء، إلا أنه لين القشر، واتخذت من بيضها عجة، فلما جمد صار ألوانا ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيها بألوان اللحم ومن ذلك الدلينس «أم الخلول» وهو صدف مستدير إلى الطول... ينشق عن رطوبة مخاطية بيضاء، ذات نكتة سوداء، يعافها الناظر، وفيه ملوحة عذبة، زعموا، ويباع بالكيل»(٤).

الترقيد

ويتحدث فى الفصل نفسه عن الترقيد:

«من ذلك حضانة الفراريج بالزبل فإنه قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يفرقوه أيضا. وإنما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها، وتجد فى كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك، ويسمى الموضع معمل الفروج، وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التى يأتى ذكرها ما بين عشرة أبيات إلى عشرين بيتا مربع طوله ثمانية أشبار فى عرض ستة فى ارتفاع أربعة، ويجعل له باب فى عرضه سعته شبران، وعقد فى مثله، وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر، ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعنى نسيجاً منه وفوقه ساسى وهو مشاقة الكتان وحطبه، ومن فوق ذلك الطين، ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهرة وباطنه وأعلاه وأسفله حتى لا يخرج منه بخار، وينبغى أن تتخذ فى وسط السقف شباكا سعته شبر فهذا السقف يحاكى صدر الدجاجة، ثم تتخذ حوضين من الطين المخمر بساس طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقلة أصبع وحيطانه نحو أربعة أصابع، ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطه على أرض معتدلة. وهذا

الحوض يسمى الطاجن، فإذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف أحدهما على وجه الباب، والآخر قباله على الطرف الآخر تركيباً محكماً وأخذت وصولهما بالطين أخذاً متفقاً، وينبغى أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه، وهذان الطاجنان تحاكى بهما جناحا الدجاجة ثم يفرش البيت بقفة تبن ويمهد، ويفرض فوقه ضب أوديس يعنى حصيراً برديا على مقداره سواء، ثمه يرصف فوقه البيض رصفا حسنا بحيث يتماس ولا يتركب لتتواصل الحرارة فيه، ومقدار ما يسع هذا البيت المفروض ألفا بيضة.

وهذا الفعل يسمى الترقيد.. صفة الحضانة تبتدئ وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندما، ثم تسد الطاقة بساسى والشباك أيضا بساسى وفوقه زبل حتى لا يتبقى فى البيت منفس للبخار، وتلقى فى الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وتوقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتهمله ريثما يرجع رمادا، وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك، وتختبر حرارته، وهذا الفعل يسمى الزواق.. فإن وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقلبات فى ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، وهذا يحاكى تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدها إياها بعينيها وهذا يسمى السماع الأول.. فإذا صار الزبل رماداً أزلته وتركته بلا نار إلى نصف النهار إن كان ترقيده بكرة.

وإن كان ترقيده من أول الليل، حرسته إلى أن تحمى وتسمع النار كالسيافة المتقدمة.. ثم تخلى الطاجنين من النار إلى بكرة. ثم تجعل فى الطاجن الذى على باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح، وفى الطاجن الذى على صدر البيت قدحين ونصفا.. ومد الزبل بمرود غليظ واطرح فى كل منهما النار فى موضعين منه، وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر، وإياك أن تغفل عنه لئلا يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل.

وإذا كان وقت العشاء وصار الزبل رماداً ونزل الدفء إلى البيض أسفل البيت، فغير الرماد من الطاجن بزبل جديد مثل الأول.. وأنت كل وقت تلمس

البيض وتذوقه بعينك، فإن وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين، فاجعل مكان الثلاثة الأكيال فى طاجن الباب كيلين وربعا، وفى طاجن الصدر كيلين فقط، ولاتزال تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والإيقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته، وذلك نصف عمر الحيوان، ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج، فالتى تراها سوداء ففيها الفرخ والتى تراها شبه شراب أصفر فى زجاج لا عكر فيه فهى لاح بلا بذر، وتسمى الأرملة فأخرجها فلا منفعة فيها، ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الأول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيء، فحينئذ يكمل الحيوان، ويشعرن ويتفتح، فاقطع أذن النار عنه فإن وجدته زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التى على وجه الباب وابقها كذلك يومين، ثم ذقه على عينيك، فإن وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذى فى الصدر إلى جهة الباب، والبيض الذى فى جهة الباب ترده إلى الصدر حتى يحمى البارد الذى كان فى جهة الباب ويسترمح الحار الذى فى الصدر بشم الهواء، فيصير فى طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد، فيعتدل مزاجه.

وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء، وتستمر على هذا التدبير دفعتين فى النهار ودفعة فى الليل إلى تمام تسعة عشر أيضا، فإن الحيوان ينطق فى البيض بقدرة الله تعالى وفى يوم العشرين يطرح بعضه، ويكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح، وعند تمام اثنين وعشرين يوماً يخرج جميعه وأحمد الأوقات لعمله أمشير وبرمهات وبرمودة، وذلك فى شباط وآذار ونيسان، لأن البيض فى هذه المدة يكون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج، والزمان معتدل صالح للنشأة والتكوين. وينبغى أن يكون البيض طرياً وفى هذه الأشهر يكثر البيض أيضا»(٥).

وتحدث فى الفصل الرابع عن آثار مصر العجيبة كأنه عالم من علماء الآثار،

ويبهرنا وصفه اللإهرام وأبى الهول، كمها يتحدث عن آثار عين شمس والإسكندرية ومدينة منف.

وعقد الفصل الخامس للأبنية التى حازت إعجابه ودهشته بما فيها من حمامات، وكذلك السفن الكبيرة والطرقات، وخصص الفصل السادس للأطعمة. . . ومنها نطالع هذه النماذج:

أبنية مصر:

وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب فى الغاية، حتى أنهم قلما يتركون مكانا غفلاً خاليا عن مصلحة... ودورهم أقبح وغالب سكناهم فى الأعالى ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة.. وقلما تجد منزلاً إلا وتجد فيه باذاهيج، وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام حتى أنه يقوم على عمارة الواحد منها ماية دينار إلى خمسمائة، وإن كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار. وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة، ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق.

ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة، ويحفرون الكنف (دورات المياه) إلى المعين فتغبر (تمر) عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح، وإذا أرادوا بناء رابع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس، وفوض إليه العمل فيعمد إلى العرض، وهى تل تراب أو نحوه، فيقسمها فى ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد إلى جزء آخر، ولايزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك(٦).

أطعمة مصرية:

ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية، وصفته أن يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلاً بالبغدادى، ويعجن خمسة أرطال ونصف سيرجا عجن خبز الخشكان، ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا فى صينية نحاس قد اتخذت

لذلك، سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق ومقلو بالسيرج والفستق المهروس والأفاويه العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك.

ويرش عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك ثم يجعل على الخرفان، وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجا وعشرون فرخا بعضه مشوى محشو بالبيض وبعضه محشو باللحم وبعضه مطجن بماء الحصرم أو بماء الليمون أو بنحوه ذلك، ثم يشوهر بالسنبوسك والقماقم المحشوة باللحم بعضها، وبالسكر والحلوى بعضها، وإن شئت أن تزيده خروفاً آخر تتخذه شرائح فلا بأس... وكذا جبنا مقلوا فإذا نضح ذلك وصار كالفتة وضع عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك وعود، ثم غطى بالقسم الثانى من العجين بعد أن يمد رغيفا ويلحم بين الرغيفين، كما يلحم الخشكان بحيث لا يخرج منه نفس أصلا، ثم يقرب إلى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدىء فى النضج، فحينئذ ترسل الصينية فى التنور بعراها رويداً رويداً، ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ثم يخرج ويمسح بإسفنجة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل، وهذا الصنيع يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف إلى منضداتهم النائية ومنتزهاتهم النازحة فإنه وحده جملة فيها تفضيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة.

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئا من ذلك، وأكثر أغذيتهم الصبر والصحناة والدلينس والخبز والنيدة ونحو ذلك.. وشرابهم المزر وهو نبيذ يتخذ من القمح.. ومنهم أصناف يأكلون الفار المتولد فى الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط، وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين والميتات من الحمير والدواب، وبأسافل الأرض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الأخضر،

وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الرز السماق والمدققات وغير ذلك[7].

أما المقالة الثانية «القسم الثانى»، فقد قسمها إلى ثلاثة فصول خص الأول بكامله للنيل وكيفية زيادته وعلل ذلك وقوانينه، وأما الفصلان الثانى والثالث فاشتملا على عرض مسهب ودقيق لحوادث سنتى ٥٩٧، ٥٩٨هـ، التى نتجت عن انتشار الأوبئة بصورة بشعة، أفضت إلى كساد عام وقحط مروع وتردى الأحوال الصحية والاجتماعية للسكان بصورة لا نظير لها... يقول البغدادى:

«القحط فى مصر سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠/١٢٠١):

وأول من هلك فى هذه الطريق أهل الحرف، عندما انتجعوا إلى الشام وانتشروا فى هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس.. ولم يزل يتواصل هلاكهم إلى الآن. وانتهى انتجاعهم إلى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا كل ممزق»[8].

وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين، فهو مما يلزم هذه الجملة التى اقتصصناها.. وناهيك أن القرية التى كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة، وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد، وأما مصر فخلا معظمها، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة والمقس وما تاخم ذلك، فلم يبق فيها بيت مسكون أصلاً، بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس حتى أن الرباع والمساكن والدكاكين التى فى سرة القاهرة وخيارها أكثرها خال خراب... وأن ربعا فى أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية، سوى أربعة أبيت أسكنت من يحرس الموضع.

ومما يقضى منه العجب أن جماعة من الذين مازالوا موجودين سعدوا فى دنياهم هذه السنة، فمنهم من أثرى بسبب متجرة فى القمح، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف.. فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط[9].

وحكى لى أنه بمصر تسع مائة منسج للحصر، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجا، وقس على هذا لسائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين، وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف، فإنه لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلا نحو ما بقى من الحصريين أو أقل من ذلك[١٠].

حوادث الجوع:

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق، وقد ظهر معها صغير مشوى تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره، فعاد تعجبى أشد وما ذلك إلا لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لا يستحق أن يتعجب منه[١١].

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابنى، أما أحدهم فإن أباه خرج فلما يرجع، وأما الآخر فإن امرأة أعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضها، فلم توغلت به فى مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها، وأما الثالث فإن رجلاً استصحبه إلى مريضه فى الشارع بزعمه وجعل فى أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الصواب ويتضاعف الأجر، ولمثل هذا فليعمل العاملون، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب، ومع ذلك فحسن الظن يغلبه وقوة الطمع تجذبه حتى أدخله داراً خربة، فزاد استشعاره وتوقف فى الدرج، وسبق الرجل فاستفتح فخرج إليه رفيقه يقول له هل مع إبطائك حصل صيد ينفع.. فخرج الطبيب لما سمع ذلك، وألقى نفسه إلى اصطبل من طاقة صادفها، فقام إليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا، فقال قد علمت حالك فإن أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل[١٢].

وهذه البلية التى شرحناها وجدت فى جميع بلاد مصر، ليس فيها بلد إلا وقد أكل فيه الناس أكلاً ذريعاً من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والإسكندرية ودمياط وسائر النواحى[١٣].

أما القتل والفتك فى النواحى فكثير فاش فى كل فج، ولا سيما طريق الفيوم والإسكندرية، وقد كان بطريق الفيوم ناس فى مراكب يرخصون الأجرة على الركاب، فإذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم، وظفر الوالى منهم بجماعة فمثل بهم وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذى خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار.

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لا يطيق علمه إلا الله سبحانه وتعالى، وإنما نذكر منه كالأنموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر.

فالذى شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشى أين كان لايزال يقع قدمه أو بصره على ميت، ومن هو فى السياق أو على جمع كثير بهذه الحال.. يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضأة كل يوم ما بين مائة إلى خمسمائة، وأما مصر فليس لموتاها عدد، ويرمون ولا يوارون، ثم بآخره عجز عن رميهم فبقوا فى الأسواق بين البيوت والدكاكين، وفيها الميت منهم قد تقطع وإلى جانبه الشواء والخباز ونحوه(١٤).

وأما طريق الشام، فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبنى آدم بل محصرة، وأنه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع، وأن كلابهم التى صحبتهم من منجلاهم هى التى تأكل فيها(١٥).

درس التشريح:

ومن عجيب ما شاهدناه أن جماعة ممن يتتابنى فى الطب وصلوا إلى كتاب التشريح، فكان يعسر أفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان.. فأخذنا أن بالمقس تلاً فيه رمم كثيرة فخرجنا إليه، فرأيناه تلاً من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى، به نحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفاً فصاعداً وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده... فشاهدنا فى شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيده من الكتب.. أما أنها سكتت عنها أو لا يفى لفظها بالدلالة عليه أو يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها.

ويصف لنا البغدادى الزلزال الذى هز مصر وما حولها فى أحد أيام مقامه بها، فيقول:

«واتفق سحرة «فجر» يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان، وهو الخامس عشر من بشنس أن حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس فهبوا من مضاجعهم مدهوشين، وضجوا إلى الله سبحانه، ولبثت مدة طويلة، وكانت حركتها كالغربلة، أو كخفق جناح الطائر، وانقضت ثلاث رجفات قوية مادت بها الأبنية واصفقت الأبواب وصرصرت السقوف والأخشاب، وتداعى من الأبنية ما كان واهيا أو مشرفا عاليا، ثم عاودت فى نصف نهار يوم الاثنين إلا إنها لم يحس بها أكثر الناس لخفائها وقصر زمانها وكان فى هذه الليلة برد شديد يحوج إلى دثار خلاف العادة، وفى نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الأنفاس، ويأخذ بالكظم، وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة، ثم أخذت الأخبار تتواتر بحدوث الزلزلة فى النواحى النائية والبلاد النازحة فى تلك الساعة بعينها، ولذا صح عندى أنها حركت فى ساعة واحدة طابقاً من قوص إلى دمياط والإسكندرية، ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولاً وعرضاً وتعفت بلاد كثيرة، بحيث لم يبق لها أثر، وهلك من الناس خلق عظيم وأمم لا تحصى»[١٦].

ياقوت الحموى

(٥٧٥ - ٦٢٦هـ) (١١٧٩ - ١٢٢٩م)

أحد الوجوه المضيئة فى تاريخ العرب، كان رحالة وعالماً، جمع بين معارف كثيرة وأبحر فى علوم عديدة، منها: الجغرافيا والأدب وعلوم الشريعة، واللغة العربية. صنف كتبا عدة أهمها كتابان، هما: «**معجم الأدباء**» و«**معجم البلدان**» القاموس الجغرافى الأشهر، الذى قال عنه العالم الإيطالى «**ألدو ميبلى**» فى كتابه «العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى»:

«يعد معجم البلدان من أعظم كتب الجغرافيا التى ظهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين.

ويقول عنه **سنكوفسكى** فى عبارة أقل صخباً وأكثر دقة:

إنه كاتب مدقق مجتهد، ندين له بحفظ آثار قيمة فى تاريخ وجغرافيا العصور الوسطى، وهو قد أبدى الكثير من الغيرة والحماس فى دراسة الأوضاع الجغرافية والإثنوجرافية والسياسية لعصره(١٧).

أما نحن فنرى إنه يكفى الحموى لكى يكون أبرز خدام الرحلة والجغرافيا، أنه استنقذ لنا فقرات مطولة ومهمة من كتابات مؤلفين كبار، لم نعثر حتى الآن على مخطوطاتهم، وعرفنا بمؤلفين لم يكن لهم قبل معجمه شأن، ولم يرد لدى غيره عنهم ذكر.

هو أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله شهاب الحموى البغدادى(١٨)، ونسبته إلى حماه ترجع إلى أن سيده كان من أهل حماه، وإن أقام فى بغداد لأجل التجارة.

ولد سنة ٥٧٥هـ - ١١٧٩م ببلاد الروم «أسيا الصغرى أو بلاد الأناضول» ولذلك يقال عنه الرومى، ثم أسر وهو صغير، ويذهب البعض إلى القول بأنه غير مستبعد أن يكون أبوه عربياً قد أسره الروم من قبل، وظل زمانا ببلادهم حتى ولد له ياقوت، ثم أسره العرب، فعاد إلى أرض أبيه(١٩).

ولسنا بحاجة إلى القول إن هذا الأسلوب فى خلع الأصل العربى عليه ينطوى على قدر غير قليل من التعسف، ونحسب أن أصله الرومى لن يقلل من عربيته، التى تأصلت وتأكدت بدينه ولسانه ولغته وكتبه وهواه وهويته.

اشترى الصبى الرومى الصغير تاجر من حماه، هو عسكر بن أبى نصر، الذى انتقل مع ياقوت إلى بغداد وأقام فيها.

وقد أفاد من صحبة سيده، لأنه عنى بتعليمه العلوم الشرعية والحساب. وأرسله فى مهام تجارية كثيرة حببت إليه السفر، وحنكته فيه، وفتحت شهيته للاطلاع وكثرة القراءة بين سفرة وسفرة، والقراءة نوع من الرحلة فى بحار التجارب والعلم، وقد كان ياقوت واسع الأفق تواقاً - بحكم عبوديته - إلى الحرية، وهداه فكره الثاقب إلى أن خير السبل إلى الحرية هى العلم والتفوق، فأقبل على دكاكين الوراقين، فاقتنى الكتب وجمعها وقضى أوقاتاً طويلة فى نسخ بعضها إذا تعذر الاحتفاظ بها.

وقد كانت الأسفار التى يدفعه إليها سيده للتجارة، سبباً فى صقل شخصيته، وزيادة تجاربه وتزويده بالمعارف المختلفة، وإطلاعه على الثقافات الأخرى وشحذ ذهنه بالقدرة على التأمل والملاحظة، إلى أن وقعت جفوة مفاجئة بينه وبين سيده، أعقبتها قطيعة، انتهت بحصول ياقوت على حريته سنة ٥٩٦هـ، وكان قد تجاوز العشرين.

واجه ياقوت حريته، فإذا هو بلا عمل، فلم يجد غير نسخ الكتب لحساب الآخرين، فيحوز الأجر ويزيد مكتبته بالجديد من الكتب ولا يستمر هذا الحال طويلا، فما يلبث عسكر بن أبى نصر أن يكتشف احتياجه لمهارة ياقوت

وإخلاصه، فيسترضيه حتى يعود للعمل معه، ويزوده بالأموال الكثيرة ليتاجر له، ويعود ياقوت للسفر.

فى إحدى السفرات يغيب طويلاً، يتنقل بين البلاد يبيع ويشترى دون أن يتخلى عن هويته التى ترعرعت فى عقله ووجدانه، وعندما يعود إلى بغداد يكون سيده قد مات، فيقدم نصف المال لزوج عسكر وأولاده، ويستبقى له النصف الذى كان كفيلاً بنقله فجأة إلى صفوف الأثرياء.

لم يطل به الفكر عما يفعل بالمال، فقد قرر العمل فى تجارة الكتب وكانت تسمى الوراقة، وتعنى جمع المخطوطات ونسخها وبيعها، وتحولت دكانته بمرور الأيام إلى مكتبة كبرى ومدرسة للتعليم والتثقيف.

وسرعان ما اجتمع عليه حنينه للتجوال، مع رغبته فى جمع الكتب والمخطوطات وتحصيل المعارف، فبدأ سلسلة من الرحلات استمرت لنحو ستة عشر عاماً، منذ عام ٦١٠هـ - ١٢١٣م حتى وفاته عام ٦٢٦هـ - ١٢٢٩م.

رحلات ياقوت:

كانت أولى رحلاته إلى جزر بحر عمان عند مدخل الخليج العربى، وكانت فى حياة سيده، حيث زار خلالها كيش، وهى من أهم المراكز التجارية العربية والإسلامية آنذاك، أمَّا بعد وفاة سيده وحصوله على حريته، فقد عاد إلى الرحلة عام ٦١٠هـ، وبدأ بتبريز فالموصل فى طريقه إلى الشام ومصر، وفى عام ٦١٣هـ ينطلق من جديد إلى دمشق ثم حلب وإربل ويمضى إلى إرمينية ويقفل راجعاً إلى تبريز ومنها إلى إيران الشرقية ثم نيسابور، حيث يقضى هناك عامين، قضاهما بالقرب من فتاة علق قلبه بحبها.. يقول فى ذلك:

وكنت قدمت نيسابور فى سنة ٦١٣، وهى الشاذياج، فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته، واشتريت بها جارية تركية لا أرى أن الله

تعالى خلق أحسن منها خلقاً وخُلقاً وصادفت من نفسى محلاً كريماً، ثم أبطرتنى النعمة فاحتجت بضيق اليد، فبعتها فامتنع على القرار وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار، فأشار علىّ بعض النصحاء باسترجاعها، فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما أمكن فلم يكن إلى ذلك سبيل، لأن الذى اشتراها كان متمولاً وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت منى، وكان لها إلىّ ميل يضاعف ميلى إليها، فخاطبت مولاها فى ردها علىّ بما أوجبت به على نفسها عقوبة، فقلت فى ذلك:

ألا هل ليالى الشاذياج تؤوب؟ ... فإنى إليها، ما حييت، طروبٌ
بلاد بها تصبى الصبا ويشوقنا الـ ... شمال ويقتاد القلوب جنوب
لذاك فؤادى لا يزال مروعاً، ... ودمعى لفقدان الحبيب سكوب
ويم فراق لم يرده ملالة ... محبٌ ولم يجمع عليه حبيب
ولم يحد حاد بالرحيل، ولم يزع ... عن الإلف حزن أو يحول كثيب
أئن، ومن أهواه يسمع أنتى ... ويدعو غرامى وجده فيجيب
وأبكى فيبكى مسعداً لى فيلتقى ... شهيق وأنفاس له ونحيب
على أن دهرى لم يزل مذ عرفته ... يشتت خلان الصفا ويريب
ألا يا حبيباً حال دون بهائه ... على القرن باب محكم ورقيب

«المعجم جـ٣ ص٣٠٦»

ترك الحموى نيسابور إلى هراة وسرخس، حتى بلغ مرو، فأقام بها عامين لإعجابه الشديد بمكتباتها، فأخذ يطالع ويدون، ولعل هذه الفترة هى التى شهدت بزوغ فكرة معجم البلدان سنة ٦١٥هـ، وكان قد اعتزم زيارة بلخ عندما تواترت إلى مسامعه أخبار هجوم المغول على بخارى وسمرقند، فأسرع ياقوت بالفرار من مرو إلى خوارزم[٢٠] وخراسان، تاركاً فيها كل شىء وفى طريقه مر بالرى وقزوين وتبريز إلى أن دخل الموصل فقيراً معدما، وسرعان ما غادرها إلى حلب حيث لقى العطف والترحيب على يد وزيرها الفيلسوف ابن القفطى «ت سنة

٦٤٦هـ»، ووجد الفرصة ملائمة ليتم المسودة الأولى من مؤلفه المهم «معجم البلدان» عام ٦٢١ هـ ويبدأ العمل فى معجم الأدباء.

وبعد عدة سنوات تجدد الحنين إلى الرحلة، فزار دمشق وفلسطين ومصر عام ٦٢٤هـ، ثم رجع إلى حلب وبدأ العمل فى تهذيب المعجم غير أنه توفى قبل أن يفرغ من ذلك (٦٢٦هـ - ١٢٢٩م) ولم يتجاوز الخمسين من العمر بعد أن خلف لنا معجمين للبلدان والأدباء، وكتاب **«المشترك وضعا المختلف صقعاً»** وكتاب **«المبدأ والمآل»** و**«أخبار المتنبى»** و**«كتاب الدول»** و**«المقتضب فى النسب»** أما كتابه المسمى **«مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع»**، فيتشكك عدد من المستشرقين فى نسبته إليه، وينسبونه إلى شخص يدعى **صفى الدين** عبدالمؤمن ابن عبدالحكم، وعلى أية حال فالكتاب موجز للمعجم الكبير.

معجم البلدان:

شاءت إرادة الله أن يرحل ياقوت إلى عديد من دول المشرق الإسلامى، ويسجل مادة وصفية غاية فى الثراء عن هذه المناطق، قبل أن تدهمها وحشية الهجوم التترى الذى عمل بكل حماس على تدمير كل مظاهر الحضارة، ومن هنا ترجع أهمية «معجم البلدان» لأنه يصور العالم الإسلامى فى العراق وإيران وما جاورهما قبل أن يلحق به الخراب.

ومعجم البلدان دائرة معارف جغرافية تتسلل إليها لمحات تاريخية وأدبية ولغوية، ودينية، كما تقدم معلومات عن الأجناس والفصائل البشرية والأعلام المشهورين فى مختلف مجالات الفكر والعلم والأدب والسياسة والدين، وتوشى بذلك النصوص الأدبية والنماذج الشعرية لياقوت نفسه ولعدد كبير من المبدعين، ويقع المعجم فى أكثر من ٤٠٠٠ صفحة من القطع الكبير، ولنا أن نتخيل حجم الجهد والوقت والمعاناة والتفكير والبحث الذى تطلبه هذا العمل، وقد استهلك من الوقت للإعداد والتسجيل والتحريرما يتجاوز الربع قرن.

وأول من كتب عن شخصية ياقوت هو العلامة **راسموسن Rasmussen** (١٨١٤م) **وفران Frahn**، لكن المعجم لم ير النور إلا عام ١٨٦٠[٢١].

ومن الذين شغلوا بدراسة معجم البلدان المستشرق سنسكوفسكى والمستشرق **فرديناند فستنفلد**، الذى قام بإخراج أول طبعة كاملة للمعجم، وكذلك **باربييه دى مينار** والمستشرق الروسى **نيقولاى ميدنيكوف**، كما نوه به العالم الأمريكى سارتون والفرنسى **كارادى فو**.

يقع المعجم فى ثمانية مجلدات «بعض الطبعات تتكون من خمسة»، وقد بدأه الحموى بحمد الله مشيراً فى الوقت نفسه إلى موضوعه.

«الحمد لله الذى جعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً، وبث من ذلك نشوراً ووهادا، وصحارى، وبلادا، ثم فجر خلال ذلك أنهاراً وأسال أودية وبحاراً، وهدى عباده إلى المساكن، وأحكام الأبنية والمواطن، فشيدوا البنيان وعمروا البلدان...»

وهو إذ يبتغى بوضع كتابه رضا الله، لأن الجغرافية خادمة لأحكام الشريعة الإسلامية، فإنه يؤكد حاجة أهل السير والأخبار والحكمة والتنجيم وأهل الأدب إلى العلوم الجغرافية، كما إنه أراد من تأليف هذا المعجم تصحيح أغاليط القدماء فى ذكر الأماكن والبقاع، وقد ذكر من سبقوه على هذا الدرب من العلماء، وقسمهم قسمين، وانتهى إلى أن عمله يتجاوز ما قدمه السابقون، وكان ياقوت وهو يضيف ما ذكره السابقون والرواة إلى ما يعرف عن الأمصار والأقطار التى خبرها بنفسه، متنبها إلى ما يشوب بعضها من الأغاليط والخرافات، لكنه يعرضها من قبيل الأمانة العلمية، وهو لذلك يقول:

«لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر منها طباع من له محصول لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن العادات المعروفة، وإن كان لا يُستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق، وأنا مرتاب بها، نافر عنها متبرئٌ إلى قائلها من صحتها ولأنى كتبتها حرصا على إحراز الفوائد، وطلبا لتحصيل القلائد والفرائد،

فإن كانت حقا، أخذت بنصيب المصيب، وإن كانت باطلاً فلها فى الحق شرك ونصيب لأننى نقلتها كما وجدتها، فأنا صادق فى إيرادها».

تتوزع مادة المعجم على خمسة أبواب

الباب الأول: فى ذكر صورة الأرض وما قاله المتقدمون فى هيئتها.

الباب الثانى: فى وصف اختلافهم فى الاصطلاح وكيفية اشتقاقه.

الباب الثالث: فى ذكر ألفاظ يكثر ترديدها كالبريد والفرسخ والميل والكورة.

الباب الرابع: فى بيان حكم الأرضين والبلاد الإسلامية.

الباب الخامس: فى جمل من أخبار البلدان.

وهذا الباب وحده هو المعجم:

ويقسمه ياقوت إلى ثمانية وعشرين كتابا بعدد حروف الهجاء، ويقسم كل كتاب ثمانية وعشرين بابا، ملتزما ترتيب كل كلمة حسب الحرف الأول والثانى، وكل مادة تتضمن كل ما قيل عنها بما فيها ما خبره ياقوت وما عاينه بنفسه، مع ما ذكره السلف حول هذه المادة من أخبار وأشعار وطرائف ومعارف، وبهذا يبدو المعجم كأنه دائرة معارف شاملة، إلا أن بابها المكان والدخول إلى عالمها عن طريق البحث عن بلد من البلدان.

والحق أن تبويب المعجم على هذه الصورة يبين قدرات ياقوت العلمية، وسعة أفقه، وثاقب فكره ووفرة معارفه، وإحاطته بالطريق الصحيحة لخدمة العلم والعلماء ويشى بثقافته وموسوعيته، التى أعانته أن يقدم لنا هذا البناء الشامخ والعمارة العلمية السامقة التى لا يؤثر فيها الزمان ولا يلحق بها النسيان.

ويلحظ قارئ المعجم أن «ياقوت» يتمتع بملكة نقدية، فيتوقف عند كل خبر أو وصف يتجاوز حدود المنطق والمقبول، ويتشكك فيه قائلاً: ويرى المؤلف العبد الفقير إلى الله، أو أن المؤلف يسجل ما ذكره فلان والله أعلم بصحته، وقد مر بنا آنفا أمثلة لذلك..

زار الحموى ـ كما سبقت الإشارة ـ بلاداً كثيرة، وجاس خلال مدنها وقراها، وتعرف معالمها وسكانها وطبائعهم وأنشطتهم، ولم ينسب لنفسه إلا ما رأى وعاين، ونطالع فى الصفحات التالية بعض مشاهداته التى وردت فى المعجم.

يقول عن بلاد ما وراء النهر(٢٢):

ما وراء النهر: يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان فما كان فى شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفى الإسلام سموه ما وراء النهر، وما كان فى غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم، وخوارزم ليست من خراسان إنما هى إقليم برأسه.

وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيراً وأهلها يرجعون إلى رغبة فى الخير والسخاء واستجابة لمن دعاهم إليه مع قلة غائلة وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدة شوكة ومنعة وبأس وعدة وآلة وكراع وسلاح، فأما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ويتعاظم عن أن يكون فى جميع بلاد الإسلام وغيرها مثله، وليس فى الدنيا إقليم أو ناحية إلا ويقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر، ثم إن أصيبوا فى حر أو برد أو آفة تأتى على زروعهم ففى فضل ما يسلم فى عرض بلادهم ما يقوم بأودهم حتى يستغنوا عن نقل شىء إليهم من بلاد أخرى.

وليس بما وراء النهر موضع يخلو من العمارة من مدينة أو قرى أو مياه أو زروع أو مراع لسوائمهم، وليس شىء لابد للناس منه إلا وعندهم منه ما يقوم بأودهم ويفضل عنهم لغيرهم، وأما مياههم فإنها أعذب المياه وأخفها قد عمت المياه العذبة جبالها ونواحيها ومدنها، وأما الدواب ففيها من المباح ما فيه كفاية على كثرة ارتباطهم لها، وكذلك الحمير والبغال والإبل، وأما لحومهم فإن بها من الغنم ما يجلب من نواحى التركمان الغربية وغيرها ما يفضل عنهم، وأما الملبوس ففيها من الثياب القطن ما يفضل عنهم فينقل إلى الآفاق، ولهم القز والصوف والوبر الكثير والإبريسم الخجندى ولا يفضل عليه إبريسم البتة.

وفى بلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم فى الأسلحة والأدوات، وبها معدن الذهب والفضة والزيبق الذى لا يقاربه فى الغزارة والكثرة معدن فى سائر البلدان إلا بنجهير فى الفضة، وأما الزيبق والذهب والنحاس وسائر ما يكون فى المعادن فأغزرها ما يرتفع من ما وراء النهر، وأما فواكههم، فإنك إذا تبطنت الصغد وأشروسنة وفرغانة والشاش رأيت من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق، وأما الرقيق فإنه يقع إليهم من الأتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم وينقل إلى الآفاق وهو خير رقيق بالمشرق كله، وبها من المسك الذى يجلب إليهم من التبت وخرخيز ما ينقل إلى سائر الأمصار الإسلامية منها ويرتفع من الصغانيان وإلى واشجرد من الزعفران ما ينقل إلى سائر البلدان، وكذلك الأوبار من السمور والسنجاب والثعالب وغيرها ما يحمل إلى الآفاق مع طرائف من الحديد والحتر والبزاة وغير ذلك مما يحتاج إليه الملوك.

وأما سماحتهم فإن الناس فى أكثر ما وراء النهر كأنهم فى دار واحدة ما ينزل أحد بأحد، إلا كأنه رجل دخل دار صديقه لا يجد المضيف من طارق فى نفسه كراهة، بل يستفرغ مجهوده فى غاية من إقامة أوده من غير معرفة تقدمت ولاتوقع مكافأة، بل اعتقاداً للجود والسماحة فى أموالهم وهمة كل امرىء منهم على قدره فيما ملكت يده والقيام على نفسه ومن طرقه.

قال الإصطخرى: ولقد شهدت منزلاً بالصغد قد ضربت الأوتاد على بابه فبلغنى أن ذلك الباب لم يغلق منذ زيادة على مائة سنة لا يمنع من نزوله طارق، وربما ينزل بالليل بيتاً من غير استعداد المائة والمائتان والأكثر بدوابهم، فيجدون من علف دوابهم وطعامهم ودثارهم ما يعمهم من غير أن يتكلف صاحب المنزل بشىء من ذلك لدوام ذلك منهم، والغالب على أهل ما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخيرات إلا القليل منهم، وليس من بلد ولا من منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلا وبها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه.

وبلغنى أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط فى كثير منها، إذا نزل الناس أقيم لها معلف دوابهم وطعام أنفسهم إلى أن يرحلوا، وأما بأسهم وشوكتهم فليس فى الإسلام ناحية أكبر حظاً فى الجهاد منهم، وذلك أن جميع حدود ما وراء النهر دار حرب، فمن حدود خوارزم إلى اسبيجاب فهم الترك الغزية، ومن اسبيجاب إلى أقصى فرغانة الترك الخرلخية، ثم يطوف بحدود ما وراء النهر من الصغدية وبلد الهند من حد ظهر الختل إلى حد الترك فى ظهر فرغانة، فهم القاهرون لأهل هذه النواحى، ومستفيض أنه ليس للإسلام دار حرب هم أشد شوكة من الترك يمنعونهم من دار الإسلام، وجميع ما وراء النهر ثغر يبلغهم نفير العدو.

ويقول الحموى عن حلب(٢٣):

وشاهدت من حلب وأعمالها ما استدللت به على أن الله تعالى خصها بالبركة وفضلها على جميع البلاد، فمن ذلك أنه يزرع فى أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عذباً لا يسقى إلا بماء المطر، ويجئ مع ذلك رخصاً غضاً روياً يفوق ما يسقى بالمياه والسيح فى جميع البلاد، وهذا لم أره فيما طوفت من البلاد فى غير أرضها.

ومن ذلك أن مسافة ما بيد مالكها فى أيامنا هذه، وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب، ومدبر دولته والقائم بجميع أموره شهاب الدين طغرل، وهو خادم رومى زاهد متعبد، حسن العدل والرأفة برعيته، لا نظير له فى أيامه فى جميع أقطار الأرض، حاشا الإمام المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر لدين الله، فإن كرمه وعدله ورأفته قد تجاوزت الحد فالله بكرمه يرحم رعيتهما بطول بقائها، من المشرق إلى المغرب مسيرة خمسة أيام، ومن الجنوب إلى الشمال مثل ذلك، وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لأهلها ليس للسلطان فيها إلا مقاطعات يسيرة، ونحو مائتين ونيف قرية مشتركة بين الرعية والسلطان، وقفنى الوزير الصاحب القاضى الأكرم جمال الدين أبوالحسن على بن يوسف بن إبراهيم الشيبانى القفطى، أدام الله

تعالى أيامه وختم بالصالحات أعماله، وهو يومئذ وزير صاحبها ومدبر دواوينها، على الجريدة بذلك وأسماء القرى وأسماء ملاكها، وهى بعد ذلك تقوم برزق خمسة آلاف فارس مراخى الغلة موسع عليهم.

قال لى الوزير الأكرم، أدام الله تعالى علوه: لو لم يقع إسراف فى خواص الأمراء وجماعة من أعيان المفاريد، لقامت بأرزاق سبعة آلاف فارس لأن فيها من الطواشية المفاريد ما يزيد عن ألف فارس يحصل للواحد منهم فى العام من عشرة آلاف درهم إلى خمسة عشر ألف درهم، ويمكن أن يستخدم من فضلات خواص الأمراء ألف فارس، وفى أعمالها إحدى وعشرون قلعة، يقام بذخائرها وأرزاق مستحفظيها خارجا عن جميع ما ذكرناه، وهو جملة أخرى كثيرة، ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الإقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات إلى قلعتها عنباً وحبوباً ما يقارب فى كل يوم عشرة آلاف درهم، وقد ارتفع إليها فى العام الماضى، وهو سنة ٦٢٥، من جهة واحدة، وهى دار الزكاة التى يجبى فيها العشور من الأفرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع، سبعمائة ألف درهم، وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل، بحيث لا يرى فيها متظلم ولامتهضم ولا مهتضم، وهذا من بركة العدل وحسن النية.

«المعجم جـ٢ ص٢٨٥».

ويقول عن إربل:

«قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، فى فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عميق، وهى فى طرف المدينة، وسور المدينة ينقطع فى نصفها، وهى على تل عال من التراب، عظيم واسع الرأس، وفى هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية، وجامع للصلاة، وهى شبيهة بقلعة حلب، إلا أنها أكبر وأوسع رقعة، وطول إربل تسع وستون درجة ونصف، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف وثلث، وهى بين الزابين تعد من أعمال الموصل، وبينهما مسيرة يومين.

وفى ربض هذه القلعة، فى عصرنا هذا، مدينة كبيرة عريضة طويلة، قام

بعمارتها وبناء سورها، وعمارة أسواقها وقيسارياتها، الأمير مظفر الدين كوكبرى زين الدين كوجك على، فأقام بها، وقامت بمقامه بها، لها سوق وصار له هيبة، وقاوم الملوك ونابذهم بشهامته وكثر تجربته حتى هابوه، فانحفظ بذلك أطرافه وقصدها الغرباء وقطنها كثير منهم، حتى صارت مصراً كبيراً من الأمصار وطباع هذا الأمير مختلفة متضادة، فإنه كثير الظلم عسوف بالرعية، راغب فى أخذ الأموال من غير وجهها، وهو مع ذلك مفضل على الفقراء، كثير الصدقات على الغرباء، يسير الأموال الجمة الوافرة يستفك بها الأسارى من أيدى الكفار، وفى ذلك يقول الشاعر:

كساعية للخير من كسب فرجها، لك الويل! لا تزنى ولا تتصدقى

ومع سعة هذه المدينة، فبنيانها وطباعها بالقرى أشبه منها بالمدن، وأكثر أهلها أكراد قد استعربوا وجميع رساتيقها وفلاحيها وما ينضاف إليها أكراد، وينضم إلى ولايتها عدة قلاع، وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل، وليس حولها بستان، ولا فيها نهر جار على وجه الأرض، وأكثر زروعها على القنى المستنبطة تحت الأرض، وشربهم من آبارهم العذبة الطيبة المريئة، التى لا فرق بين مائها وماء دجلة فى العذوبة والخفة، وفواكهها وتجلب من جبال تجاورها.

ودخلتها فلم أر فيها من ينسب إلى فضل غير أبى البركات المبارك بن أحمد ابن المبارك بن موهوب ابن غنيمة بن غالب، يُعرف بالمستوفى، فإنه متحقق بالأدب، محب لأهله، مفضل عليهم، وله دين واتصال بالسلطان، وخلة شبيهة بالوزارة، وقد سمع الحديث الكثير ممن قدم عليهم إربل، وألف كتباً، وقد أنشدنى من شعره، وكتب لى بخطه عدة قطع، منها:

تذكرنيك الريح مرت عليلـــــة على الروض مطلولا، وقد وضح الفجر

وما بعدت دار، ولا شط منزل، إذا نحن أدنتنا الأمانـــى والذكـــــر

«المعجم جـ١ ص١٣٨»

ويقول عن ولاية خوارزم:

فتحها ملك الترك وأقر أولئك الذين نفاهم بذلك المكان وأقطعهم إياه وأرسل إليهم أربعمائة جارية تركية، وأمدهم بطعام من الحنطة والشعير وأمرهم بالزرع والمقام هناك، فلذلك فى وجوههم أثر الترك وفى طباعهم أخلاق الترك وفيهم جلد وقوة، وأحوجهم مقتضى القضية للصبر على الشقاء، فعمروا هناك دوراً وقصوراً وكثروا وتنافسوا فى البقاع فبنوا قرى ومدناً وتسامع بهم من يقاربهم من مدن خراسان، فجاءوا وساكنوهم فكثروا وعزوا فصارت ولاية حسنة عامرة، وكنت قد جئتها فى سنة ٦١٦، فما رأيت ولاية قط أعمر منها، فإنها على ما هى عليه من رداءة أرضها وكونها سبخة كثيرة النزور متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة البيوت المفردة والقصور فى صحاريها، قلّ ما يقع نظرك فى رساتيقها على موضع لا عمارة فيه، هذا مع كثرة الشجر بها، والغالب عليه شجر التوت والخلاف لاحتياجهم إليه لعمائرهم وطعم دود الإبريسم، ولا فرق بين المار فى رساتيقها كلها والمار فى الأسواق، وما ظننت أن فى الدنيا بقعة سعتها سعة خوارزم، وأكثر من أهلها مع أنهم قد مرنوا على ضيق العيش والقناعة بالشىء اليسير، وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين، وفى النادر أن يكون قرية لا سوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة.

والشتاء عندهم شديد جداً بحيث أنى رأيت جيحون نهرهم وعرضه ميل، هو جامد، والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآتية عليه، وذلك أن أحدهم يعمد إلى رطل واحد من أرز أو ما شاء ويكثر من الجزر والسلجم فيه ويضعه فى قدر كبيرة تسع قربة ماء، ويوقد تحتها إلى أن ينضج ويترك عليه أوقية دهناً ثم يأخذ المغرفة، ويغرف من تلك القدر فى زبدية أو زبديتين فيقنع به بقية يومه، فإن ثرد فيه رغيفاً لطيفا خبزاً فهو الغاية، هذا فى الغالب عليهم، على أن فيهم أغنياء مترفهين، إلا أن عيش أغنيائهم قريب من هذا ليس فيه ما فى عيش غيرهم من سعة النفقة، وإن كان النزر من بلادهم تكون قيمته قيمة الكثير من بلاد غيرهم وأقبح شىء عندهم وأوحشه أنهم يدوسون حشوشهم بأقدامهم، ويدخلون إلى مساجدهم على تلك

الحالة لا يمكنهم التحاشى من ذلك، لأن حشوشهم ظاهرة على وجه الأرض، وذلك لأنهم إذا حفروا فى الأرض مقدار ذراع واحد نبع الماء عليهم، فدروبهم وسطوحهم ملأى من القذر، وبلدهم كنيف جائف منتن، وليس لأبنيتهم أساسات، إنما يقيمون أخشاباً مقفصة ثم يسدونها باللبن، هذا غالب أبنيتهم، والغالب على خلق أهلها الطول والضخامة، وكلامهم كأنه أصوات الزرازير، وفى رؤوسهم عرض، ولهم جبهات واسعة.

أَرْثَخُشْمِيثَن:

بالفتح ثم السكون وثاء مثلثة مفتوحة وخاء معجمة مضمومة، وشين ساكنة معجمة، وميم مكسورة، وثاء مثلثة مفتوحة، ونون، وربما أسقطت الهمزة من أوله: مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة ونعمة وافرة، ولأهلها ظاهرة وهى فى قدر نصيبين، إلا أنها أعمر وآهل منها، وهى من أعمال خوارزم، من أعاليها، بينها وبين الجرجانية، مدينة خوارزم، ثلاثة أيام، قدمت إليها فى شوال سنة ٦١٦، قبل ورود التتر إلى خوارزم بأكثر من عام، وخلفتها على ما وصفت، ولا أدرى ما كان من أمرها بعد ذلك، وكنت قد وصلتها من ناحية مرو بعد أن لقيت من ألم البرد، وجمود نهر جيحون على السفينة التى كنت بها، وقد أيقنت أنا ومن فى صحبتى بالعطب، إلى أن فرج الله علينا بالصعود إلى البر، فكان البرد والثلوج فى البر، ما لا يبلغ القول إلا وصف حقيقته، وعدم الظهر الذى يركب، فوصلت إلى هذه المدينة بعد شدائد، فكتبت على حائط خان سكنته إلى أن تيسر المضى إلى الجرجانية، واختصرت بعض الاسم ليستقيم الوزن:

ذممنا رخشميثن، إذ حللنا ... بساحتها، لشدة ما لقينا
آتيناها، ونحن ذوو يسار ... فعدنا، للشقاوة مفلسينا
فكم برداً لقيت بلا سلام، ... وكم ذلاً، وخسراناً مبينا
رأيت النار ترعد فيه برداً ... وشمس الأفق تحذر أن تبينا
وثلجا تقطر العينان منه، ... ووحلاً يُعجز الفيل المتينا
وكالأنعام أهلاً، فى كلام ... وفى سمت، وأفعالاً ودينا

إذا خاطبتهم قالوا: بَفَسـاً،	وكم من غصة قـد جرعونـا
فأخرجنا، إيـا ربـاه! منهـا،	فـإن عدنـا، فإنـا ظالمونا
وليس الشأن فى هذا، ولكن	عجيـب أن نجونـا سالمينـا
ولست بيائس، والله أرجو،	بعيد العسر، من يسر يلينا

قال هذه الأبيات وسطرها على ركاكتها وغثاثتها لأن الخاطر لصداه، لم يسمح بغيرها، من نُسبته صحيحة الطرفين، سقيمة العين، أحد صحيحيها ذلقى يمنع الإمالة، والآخر شفهى محتمل الاستحالة، وقد لاقى العبر فى وعثاء السفر، يخفى نفسه عفافاً ولينال الناس كفافاً، وكتب فى شوال سنة ٦١٦، قلت:

وأما ذمى لذلك البلد وأهله إنما كان نفثة مصدور، اقتضاها ذلك الحادث المذكور، وإلا فالبلد وأهله بالمدح أولى، وبالتقريظ أحق وأحرى.

دمشق:

ومن خصائص دمشق التى لم أر فى بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء فى قنواتها، فقل أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه فى أنبوب إلى حوض يشرب منه ويستقى الوارد والصادر، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولاخانقاه، إلا والماء يجرى فى بركة فى صحن هذا المكان ويسح فى ميضأة، والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكنين بها وضيق بقعتها، ولها ربض دون السور محيط بأكثر البلد يكون فى مقدار البلد نفسه، وهى فى أرض مستوية تحيط بها من جميع جهاتها الجبال الشاهقة، وبها جبل قايسون، ليس فى موضع من المواضع أكثر من العبّاد الذين فيه، وبها مغاور كثيرة وكهوف وآثار للأنبياء والصالحين لا توجد فى غيرها، وبها فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حران وما يقارب ذلك فتعم الكل، وقد وصفها الشعراء فأكثروا، وأنا أذكر من ذلك نبذة يسيرة، وأما جامعها فهو الذى يضرب به المثل فى حسنه، وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشىء إلا وفى دمشق مثله، ومن المحال أن يُطلب بها شىء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجد من جميع البلاد، وفتحها المسلمون فى رجب سنة (١٤)».

ويقول ياقوت:

مِرْباط:

بالكسر ثم السكون، وباء موحدة، وآخره طاء مهملة:

فرضة «ميناء» مدينة ظفار، بينها وبين ظفار على ما حدثنى رجل من أهلها مقدار خمسة فراسخ، ولما لم تكن ظفار مرسى ترسى فيه المراكب، وكان لمرباط مرسى جيد كثر ذكره على أفواه التجار، وهى مدينة مفردة بين حضر موت وعُمان على ساحل البحر لها سلطان برأسه ليس لأحد عليه طاعة، وقرب مدينته جبل نحو ثلاثة أيام فى مثلها فيه ينبت شجر اللبان وهو صمغ يخرج منه ويلقط ويحمل إلى سائر الدنيا، وهو غلة الملك يشارك فيه لاقطيه، كما ذكرناه فى ظفار، وأهلها عرب وزيهم زىّ العرب القديم وفيهم صلاح مع شراسة فى خلقهم وزعارة وتعصب وفيهم قلة غيرة كأنهم اكتسبوها بالعادة، وذلك أنه فى كل ليلة تخرج نساؤهم إلى ظاهر مدينتهم ويسامرون الرجال، الذين لا حرمة بينهم ويلاعبنهم ويجالسنهم إلى أن يذهب أكثر الليل فيجوز الرجل، على زوجته وأخته وأماه وعمته وإذا هى تلاعب آخر وتحادثه فيعوض عنها ويمضى إلى امرأة غيره فيجالسها كما فعل بزوجته، وقد اجتمعت بكيش بجماعة كثيرة منهم رجل عاقل أديب يحفظ شيئاً كثيراً وأنشدنى أشعارا وكتبتها عنه، فلما طال الحديث بينى وبينه قلت له: بلغنى عنكم شىء أنكرته ولاأعرف صحته، فبدرنى وقال: لعلك تعنى السمر؟ قلت: ما أردت غيره، فقال: الذى بلغك من ذلك صحيح، وبالله أُقسم إنه لقبيح ولكن عليه نشأنا وله مذ خلقنا ألفنا، ولو استطعنا أن نزيله لأزلناه ولو قدرنا لغيرناه، ولكن لا سبيل إلى ذلك مع مر السنين واستمرار العادة به.

وبعد... فيعنينا أن نذكر أن ياقوت الحموى ليس أول من صنف فى المعاجم، فقد سبقه كثيرون، لعل أبرزهم ابن الحائك صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» وعبيد الله **البكرى** صاحب **«معجم ما استعجم»**، لكن ياقوت أبرز الجميع بلا جدال، وقد كانت أعمال ابن الحائك والبكرى لغوية بالدرجة الأولى، إلا أن

معجم ياقوت لايزال حتى يومنا هذا أغزر المعاجم مادة وأكثرها تنوعاً وأدق منهجا، ويظل ياقوت من وجهة النظر التاريخية والحضارية أبرز رجالات عصره فى هذا الفرع من الأدب، ولا يقلل من مكانته قول **كراتشكوفسكى** «من المستحيل مقارنة ياقوت ببحاثة عالمى كالبيرونى أو رحالة من طراز المسعودى أو المقدسى»(٢٤).

والحق أن كراتشكوفسكى كالعهد به سديد الرأى ثاقب النظرة، وهو لا يعدو الحقيقة حين يضع من ذكرهم هذا الموضع فوق الحموى، لكنه يقرر أن معجمه يخدم غرضه ويلعب دوره كمرجع موثوق به، مما يقف برهانا ساطعاً على أهميته التى لا تضارع.

ابن سعيد الأندلسى

(٦٠٥ - ٦٨٥هـ) (١٢٠٨ - ١٢٨٦م)

مؤرخ وأديب ورحالة أندلسى عاش فى القرن السابع الهجرى «الثالث عشر الميلادى»، اعتمد عليه الكثيرون فى استقصاء أخبار ومعالم الأندلس، فقد أبدع فى تدوينها فى كتاب «**المُغرب فى حلى المغرب**»، كما وضع كتابا عن رحلته ومشاهداته فى المشرق ودعاه «**المُشرق فى حلى المشرق**» جمعهما كتاب واحد كبير، هو «**فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب**»، وله كتاب مهم فى علم الجغرافيا هو «**بسط الأرض فى طولها والعرض**».

هو أبوالحسن على بن موسى بن سعيد من آل سعيد، الذين ينتسبون إلى الصحابى الجليل عمار بن ياسر، ولد سنة ٦٠٥هـ (١٢٠٨م) «يختلف الكثير من المؤرخين حول تاريخ مولده، فيرى الدكتور **حسين مؤنس** أنه ولد سنة ٦٠٥، ويذكر **كراتشكوفسكى** أنه ولد عام ٦١٠ معتمدا على معجم الأدباء للحموى، وليس بالإمكان الترجيح». وقد ولد فى قلعة يحصب التى تسمى أيضا قلعة بنى سعيد، وتسمى اليوم القلعة الملكية، وهى بلدة تقع على بعد ٥٢ك شمال غربى غرناطة على الطريق المؤدى إلى قرطبة، ويمكن القول إنه «**بلديات**» الرحالة الأندلسى المعروف أبى حامد الغرناطى، الذى ولد قبل ابن سعيد بنحو مائة، وثلاثين عاما. . . دفعه أبوه إلى دراسة الفقه واللغة والأدب فى إشبيلية. . وفى سنة ٦٣٨هـ ارتحل أبوالحسن بن سعيد للحج ومعه والده، الذى كان واليا على إقليم الجزيرة الخضراء، لكن الفوضى كانت قد عمت الأندلس بعد موت المتوكل بن هود، وأقاما عدة أشهر فى تونس فى كنف ابن عم الرحالة وقد كان بها وزيراً، ثم سافرا بحراً إلى الإسكندرية فى السابع والعشرين من ربيع الأول عام

٦٣٩هـ، وقبل الاسكندرية هاج البحر واشتدت العاصفة، وكاد الموج يبتلع السفينة لولا لطف الله بهما فنجيا بأعجوبة[٢٥]، لكن الأب وقع مريضا بعد بلوغهما الإسكندرية ولم يبق غير شهور قلائل، حتى لقى ربه فى الثامن من شوال عام ٦٤٠، ثم انتقل ابن سعيد إلى القاهرة.

استقبل ابن سعيد فى مصر استقبالا طيبا، وشارك فى مجالس العلم والسياسة، وتعرف برجال الدولة المرموقين، ومنهم **أبوالفتح موسى بن يغمور**، الذى كان واليا للقاهرة **أيام الملك الصالح أيوب**، ثم واليا على دمشق **أيام الظاهر بيبرس** ونائب السلطنة والتقى أيضا **بالبهاء زهير**.

وسافر بعد عدة سنوات إلى حلب بدعوة من أحد أصدقائه، وهو المؤرخ الشهير **كمال الدين بن العديم**، وكان رسولاً من الملك **الناصر** إلى صاحب مصر والتقى به فى القاهرة ودعاه لزيارة حلب، حيث قضى بها ثلاث سنوات (٦٤٤ - ٦٤٧هـ) ربما كانت أهدأ سنى حياته وأكثرها إنتاجا، وكان حريصاً على تدوين الأفكار ومطالعة الكتب وزيارة المكتبات.

وتلقى دعوة من صديق دمشقى مرموق يعمل فى بلاط السلطان **تورانشاه**، فلبى الدعوة وارتحل إلى دمشق ليقيم فيها سنة واحدة، ولما لم ترق له فيها الأحوال، غادرها بعد سنة إلى أرمينية وأرجان ثم زار بغداد والموصل والبصرة ومنها إلى الحجاز لأداء الفريضة، ومن ثم عاد إلى تونس سنة ٦٥٢هـ بعد غياب دام أكثر من أربعة عشر عاماً، واستقر فى **إقليبية** بتونس المدة نفسها التى قضاها بعيداً عنها، حاول خلالها إتمام كتابه «المُشرق فى حلى المشرق» وكتابه الجغرافى الكبير والمهم «بسط الأرض فى طولها والعرض»، كما عمل فى خدمة الأمير أبى على **المستنصر**.

وفى عام ٦٦٦هـ أى بعد ١٤ سنة تفجر فى قلبه من جديد نبع الحنين إلى الرحلة، فغادر تونس إلى الإسكندرية، ثم اتجه صوب حلب وبغداد ثم إيران

وأرمينية، وعندما علم باجتياح التتار لبلاد المشرق وقتل الملك الناصر، وهجوم هولاكو على حلب، وما ألحقته هذه الهجمات الشرسة بالبلاد من التخريب والدمار، سرى فى نفسه السخط وشاب صفاء روحه اليأس، فقرر العودة إلى تونس، حيث أقام بها إلى أن توفاه الله نحو عام ٦٨٥هـ.

وقد خلف لنا ابن سعيد عدداً من المصنفات،و التى تناولت الجغرافيا والرحلة كما ذكرنا آنفا، ومنها أيضا ما كان فى الأدب والشعر والتاريخ وغيرها مثل **«النفحة المسكية فى الرحلة الملكية»** وله ديوان شعر، وقد أرخ للأدباء فى **«نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب»** و**«القدح المعلى فى التاريخ»** و**«الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة»** وهو تأريخ للشعراء المعاصرين له، وله أيضا **«المقتطف فى أزاهير الطرف»** و**«الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد»** و**«عدة المستنجز وعقلة المستوفز»** وكان كأبيه شاعراً، ينظم القصيدة بمناسبة ودون مناسبة، وله أيضاً **«رايات المبرزين وغايات المميزين»**، وعنوان المرقصات والمطربات.

ومما سبق يتبين لنا أن ابن سعيد عاش حياة حافلة بالأحداث والتجارب، قضى شطراً كبيراً منها فى الأسفار ولقاء الرجال.. ملوك وعلماء، وشارك فى المهام الجليلة فكان فيها مبرزاً بفضل علمه وحيويته وحبه للعمل والمحاورة وتميزت كتاباته بدقة الملاحظة وجمال السرد، وتخلصت نصوصه من الغرائب والخرافات، ويعد بما كتب من أبرز الرحالة الذين سجلوا تاريخ الأندلس، ولا غرو.. فهو أحد أبنائها الأوفياء.

كتبه فى الجغرافيا والرحلة:

يذكر المؤرخون أن ابن سعيد كان مقبلاً على العلم، حريصاً على اقتناء الكتب رغم أسفاره، محباً للجدل والمحاورة، ما أن تطأ قدمه مدينة حتى يجوس خلالها متأملاً دروبها وعمائرها وخاصة المساجد والمكتبات، ويرى فيها المدارس التى تقف دونها أعمار أو مشاغل، ويصف لنا ابن سعيد بحماس بالغ وإعجاب شديد

مكتبات بغداد، التى بلغت ستة وثلاثين مكتبة قبل أن يدهمها هولاكو بأعوام قليلة.

ويذكر **د. نقولا زيادة** أن ابن سعيد أتم أعمالاً، كان جده وأبوه قد شرعا فيها، ومنها: كتاب عن الشعراء الجاهليين، و**«تاريخ بنى سعيد»** أما كتابه «بسط الأرض فى طولها والعرض» فهذا كتاب علمى فى الجغرافيا لم يعن فيه بوصف المشاهدات والطبائع أو المعالم والآثار، وإنما تناول فيه الأقاليم السبعة، ويكاد يعتمد اعتماداً أساسياً على كتاب الإدريسى، وأضاف إليه أطوال وعروض جميع الأقاليم المسكونة بصورة دقيقة، وهو كتاب حافل بالمعلومات الجغرافية الرياضية والفلكية وإن كان يغلب عليه سمة النقل عن غيره، ويذكر **كراتشكوفسكى** (ص٣٥٨) أن هناك نسخة من الكتاب، استعملها **أبوالفدا** وعلق على هامشها بملاحظاته العديدة وهى محفوظة بباريس.

وقد حظى هذا الكتاب باهتمام علماء الجغرافيا، إلا أنه لايزال فى حاجة إلى مزيد من الدرس والمقارنة لمعرفة مصادره، ومدى الإضافة الحقيقية التى تحتسب لابن سعيد.

وليس من شك أن ابن سعيد كجغرافى ورحالة قد أسهم بكتبه الكثيرة الدقيقة والسديدة فى أغلب جوانبها، والتى لم تصدر إلا عن تجربة ومعاينة فى إثراء أدب الرحلة والعلم الجغرافى عامة، خلال النصف الثانى من القرن السابع الهجرى «الثالث عشر الميلادى».

نماذج من كتابات ابن سعيد

نستعرض فيما يلى بعض النماذج التى وردت فى كتب ابن سعيد، خاصة رحلته إلى المشرق وسجلها فى كتابه «المشرق فى حلى المشرق» وكذلك رحلته إلى الأندلس والمغرب، التى دونها فى كتابه «المغرب فى حلى المغرب».

أما ما يخص مشاهداته فى المشرق، فقد تعذر علينا العثور على كتابه، واعتمدنا على ما ذكره المقرى فى كتابه «نفح الطيب». وقد احتفى بابن سعيد أيما احتفاء ونشر به كثيراً من النماذج وتدلنا النصوص المختارة على ملكة القص والقدرة على الوصف وصدق التصوير، التى تميز بها ابن سعيد حتى لنستطيع القول إنه قصاص أكثر منه شاعر.

قال ابن سعيد عن مصر:

ولما استقررت بالقاهرة، تشوقت إلى معاينة الفسطاط فسار معى إليها أحد أصحاب القرية، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لى بمثلها فى بلد... فركب منها حماراً وأشار إلى أن أركب حماراً آخر، فأنفت من ذلك على عادة من أخلفته فى بلاد المغرب، فأخبرنى أنه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت.. وعندما استويت راكبا أشار المكارى إلى الحمار فطار بى، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى وعاينت ما كرهته، ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكارى، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج، فقلت:

لقيت بمصـــر أشـــد البـــوار	**ركوب الحمير وكحـل الغبـار**
وخلفى مكار يفـــوق الريـــاح	**لا يعيـرف الرفق مهما استطار**
أناديـــه مهـــلا فـــلا يرعـــوى	**إلى أن سجدت سجود العثار**
وقـــد مـد فوقـــى رواق الثرى	**والحـد فيهـــا ضيـــاء النهـار**

فدفعت إلى المكارى أجرته، وقلت له إحسانك أن تتركنى أمشى على رجلى، ومشيت إلى أن بلغتها، وقدرت فى الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين، ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاق مغبرة. ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى إلى خراب

مغمور بمبان مشتتة الوضع، غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة، وحولها أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف، فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن صرت فى أسواقها الضيقة، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا تفى به إلى مشاهدته ومقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت ضده فى جامع إشبيلية وجامع مراكش.

واستحسنت ما أبصرته من خلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن، وسألت عن موارد أرزاقهم، فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجاه والتعب.

ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل، فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض.. إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق، التى تصل من جميع أقطار النيل، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل، فإنى أقول حقا.

والحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة، مما يطول ذكره. وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، منها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد، وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى.. لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند، كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط، وكذلك ما ينسج ويصاغ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والحراب فى الفسطاط كثير.. والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان إليها وسكنى الأجناد فيها

«المقرى ١ : ٤٨٧».

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى، لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين، ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية، ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه إلى أمد أضيق وتمر فى مكان كدر حرج بين الدكاكين، إذا ازدحمت فيه الخيل من الرجالة، كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون.

ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الامراء وهو فى موكب جليل، وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين. ووقف الوزير وعظم الازدحام، وكان فى موضع طباخين والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه، وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك فى جملتهم.

وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها. ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً فى ذلك. ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين. ومن عيوب القاهرة أنها **فى أرض النيل الأعظم، ويموت الإنسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها، وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور إلى موضع، يعرف بالمقس.. وجوها لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض من التراب الأسود.**

والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط،والمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة.

والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط، لأنها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم دياراً بسكنى الأمراء فيها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها.. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز، وسائر الأشياء التى تتزين بها الرجال والنساء.. ومطابخ السكر والمواضع التى يصنع بها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة.. والمعايش فيها متعذرة نزرة لاسيما

أصناف الفضلاء، وجوامك المدارس قليلة كدرة... والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته...

«المقرى ١ : ٤٨٩».

ويقول ابن سعيد فى وصف البحر الأبيض المتوسط محاولاً كعادته مزج الحقائق الجغرافية ببعض حكايات التاريخ – وما أكثر ما امتزج التاريخ بالجغرافيا فى كتابات الجغرافيين والمؤرخين العرب على حد سواء.

«ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس، فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلاً، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سبتة، وهناك كانت القنطرة التى يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبر عليها من بر الأندلس إلى بر العدوة، ويعرف هذا الموضع بالزقاق، وهو صعب المجاز لأنه مجمع البحرين لاتزال الأمواج تتطاول فيه والماء يدور، وطول هذا الزقاق الذى عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعف ذلك إلى ميناء سبتة، ومن هناك يأخذ البحر فى الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد، ومنتهاه، مدينة صور من الشام وفيه عدد عظيم من الجزائر».

ومن النماذج التى يطرز حديثها بالشعر، ما كتبه عن قرية «نارجة» التى اجتازها مع والده:

«وهى قرية كبيرة تضاهى المدن، قد أحدقت بها البساتين، ولها نهر يفتن الناظرين، وهى من أعمال مالقة.. وكان ذلك زمن صباغة الحرير عندهم وقد ضربوا فى بطن الوادى بين مقطعاته خيما، وبعضهم يغنى ويطرب، وسئلوا: بم يعرف هذا الموضع؟ فقالوا: الطراز، فقال والدى: اسم طابق مسماه ولفظ وافق معناه.

وقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجدت لسانا قائلا فقل

أى إن أباه أحس رغبة فى قول الشعر، وأنه يكاد يتدفق على لسانه، ويدعو ولده لمشاركته إذا التمس رغبة فى ذلك.

ثم قال: أجز: بنارجة حيث الطراز المنمنم

فقال: أقم فوق نهر ثغره يتبسم

وتلاه أبوه، ثم أعقبه ابن سعيد... وهكذا حتى استغرق ما قالاه من شعر صفحة كاملة.

ويقول ابن سعيد واصفا مدينة بلنسية وخيراتها:

«كورة بلنسية من شرق الأندلس ينبت بها الزعفران، وتعرف بمدينة التراب، وبها كمثرى تسمى الأرزة فى قدر حبة العنب، قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة، إذا دخل عرف بريحه، ويقال إن ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس وبها منازه ومسارح، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومنية ابن أبى عامر».

والحق أننى لم أقرأ لرحالة أو كاتب يتحدث عن الضوء فى مدينة، وأنها أكثر ضوءا من غيرها، ولا أحسب إلا أن هذا من نتاج القدرة الفائقة على الملاحظة والالتقاط، كما رأينا فى النص الخاص بالقاهرة والفسطاط.

ومن دلائل الملاحظة قوله عن الحيوانات فى الأندلس، وقلة من الرحالة هم الذين التفتوا إلى الحيوانات فيما زاروا من بلاد باستثناء **القزوينى**، يقول ابن سعيد:

«والسمور الذى يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد فى البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية، ويجلب إلى سرقسطة، ويصنع بها، والقنلية حيوان أدق من الأرنب وأطيب فى الطعم وأحسن وبراً، وكثيراً ما يلبس فراؤها، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى، ولا توجد فى بر البربر إلا ما جلب منها إلى سبتة، فنشأ فى جوانبها»...

ويكون بالأندلس من الغزال والإبل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لايوجد فى غيرها كثير، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة، ولا الفيل والزرافة وغير

ذلك مما يكون فى أقاليم الحرارة، ولا سبع يعرف باللب أكبر بقليل من الذئب فى نهاية من القحة، وقد يفترس الرجل إذا كان جائعا..

وبغال الأندلس فارهة وخيلها ضخمة الأجسام، حصون للقتال لحملها الدروع، وثقال السلاح والعَدْو... ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره، ويطول، وكذلك حيوان البحر، ودواب بحرها المحيط فى نهاية الطول والعرض.. وقد عاينت من ذلك العجب، والمسافرون فى البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب فيقطعون الكلام، ولا نفخ بالماء من فيها يقوم فى الجو ذا ارتفاع مفرط».

لعله يتحدث عن العنبر أو البلينة.. وكما تحدث عن الحيوان يتحدث عن الفواكه.

«وأما الثمار وأصناف الفاكهة، فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها، ويوجد فى سواحلها قصب السكر والموز ويوجدان فى الأقاليم الباردة «يقصد شمال الأندلس» ولا يعدم منها إلا التمر، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم فى غيرها أو يقل كالتين القوطى والتين السفرى فى إشبيلية، وهذان صنفان لم تر عينى ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلهما، وكذلك التين المالقى والزبيب المنكبى والزبيب العسلى والرمان السفرى والخوخ والجوز واللوز، وغير ذلك مما يطول ذكره».

ويتوقف **د. حسين مؤنس** (ص٤٤٨) عند قول ابن سعيد بعدم وجود التمر، فيقول إن إسبانيا الآن تملأها غابات التمر ذات الثمر الجيد الذى يدهش الزائر، فهل يأذن لنا د. حسين أن نقول له:

أولاً: يصعب علينا الشك فى معلومات رحالة أندلسى، عرف عنه تميزه بدقة الملاحظة، فضلاً عن عشقه لبلاده حتى ليحرص على جمع مادة غزيرة وشاملة عنها بما لم يتوفر - فيما نعلم - لغيرها.

وثانيا: ألا تكون شتلات التمر قد نقلت بعد ذلك ونمت وترعرعت وازدهرت على مدى سبعة قرون تفصل بينه وبينك!!. أغلب الظن أن هذا وارد ومعقول.

لكن وقفة د. مؤنس رغم ما أوضحنا ملاحظة عالم مدقق ومؤرخ وجغرافى كبير نفع الأمة بعلمه.

وعن الصناعات يقول ابن سعيد، دون أن يتخلى عن السجع الذى أغرمه به:

«وإلى مصنوعات الأندلس ينتهى التفضيل، وللمتعصبين فى ذلك كلام كثير، فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشى المذهب، يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً، وفى نتالة من عمل مرسية تعمل البسط التى يغالى فى ثمنها بالمشرق، ويصنع فى غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذى يعرف بالملبد المختم ذى الألوان العجيبة، ويصنع فى مرسية من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص (جمع مقص) المذهبة، وغير ذلك من آلات العروس والجندى ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها، ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب وفخار مزجج مذهب ويصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف فى المشرق بالفسيفساء، ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه المفضض، وهو ذو ألوان عجيبة، يقيمونه مقام الرخام الملون الذى يصرفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم، كالشاذروان وما يجرى مجراه

«المقرى جـ٢ ٦٨، ٦٩»

«وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر، فأكثرهم أهل الأندلس كانت مصروفة إلى هذا الشأن، ويصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة، وبرذيل آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق والفولاذ الذى بأشبيلية إليه النهاية، وفى أشبيلية من دقائق الصناعة ما يطول ذكره»

«المقرى جـ٢ ص٧٠».

يكثر ابن سعيد أحياناً من المبالغة خاصة ما يخص ذكر بلاده، فكل شىء فيها يراه هو النهاية والغاية، ولم ير له نظيراً وليس له مثيل، ولم يجد ما يفضله، أما فى غير الأندلس فإنه يأسى لأحوال المشرق ويبالغ فى وصف بلادهم بكثرة

الأزبال والغبار وكل ما يكدر العين إلا قليلاً، وقد يكون فى ذلك ما ينطوى على العاطفة الجامحة التى تنحاز للأوطان، وهو نهج يفتقد أحياناً النظرة العلمية والموضوعية، وقد كانت هذه العاطفة الجياشة نحو وطنه سبباً فى سخطه على ابن **حوقل**، وتحمسه للرد على المثالب التى ألحقها الأخير ببلاد المغارب، حيث هاجم أخلاق عرب الأندلس بصفة خاصة مهاجمة عنيفة.

ويقول عن وصف جزيرة الأندلس ويعرض خلاله لمصر دون مبرر:

«وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة، لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة «مبالغة والعاطفة غلبت الصدق» ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها، فهى كما قال الوزير ابن الحمارة فيها:

لاحت قراها بين خضرة أيكها ... كالدر بين زبرجد مكنون

«ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ويضيق الصدر بضيق أوضاعها، وفى الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها، والمثال فى ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية، فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش، وهى فى نهاية من الحضارة والنضارة، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك، ثم مالقة، وهذا كثير فى الأندلس، ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسور من أجل الاستعداد للعدو، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين وفى حصونها ما يبقى فى محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها، ودربة أهلها على الحرب واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب، وكثرة ما تنخز به الغلة فى مطاميرها، فمنها مايطول صبره عليها نحوا من مائة سنة، ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن، وإن كان العدو قد نقصها من أطرافها، وشارك فى أوساطها ففى البقية منعة عظيمة، فأرض بقى فيها مثل إشبيلية وغرناطة، ومالقة والمرية وما ينضاف إلى هذه الحواجز العظيمة الممصرة الرجاء فيها قوى بحول الله وقدرته».

وأنا أقول كلاماً فيه كفاية.. منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت فى بر العدوة من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية، فرأيت فى الإسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الأندلس فى مياهها وأشجارها إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام وفى حماة مسحة أندلسية، ولم أر ما شبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش فى دولة بنى عبدالمؤمن وبعض الأماكن فى تونس، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية، ولكن الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع، ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة وفى وضعها وترتيبها إتقان».

ويقول ابن سعيد عن أهل قرطبة:

«ولأهلها رياسة ووقار، لاتزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم، إلا أن عامتها أكثر الناس فضولاً وأشدهم تشغيباً، ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم حتى أن السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها: كيف وجدت أهل قرطبة؟ فقال: مثل الجمال إن خفضت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح، ما ندرى أين رضاهم فنقصده، ولا سخطهم فنجتنبه، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة، حتى كان عامتها شراً من عامة العراق، وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندى ولاية، وإنى إن كلفت العود إليها لقائل: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

ومن شعره يقول فى نهر غرناطة:

كأنما النهر صفحة كتبت ... أسطرها والنسيمُ منشؤها

لما أبانت عن حسن منظره ... مالت عليها الغصون تقرؤها

ويقول عن جزيرة بمصر:

تأمل لحسن الصالحية إذ بدت	وأبراجها مثل النجوم تلالا
ووافى إليها النيل من بعد غاية	كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق محبها	فمد يمينا نحوها وشمالا

أما بعد:

فهذه هى بعض صفحات من كتاب «الرحلة»، الذى أبدع فيه ابن سعيد، ولكنها كما تكشف عن إخلاصه ووطنيته وتكشف عن ملكاته كفنان ومؤرخ ورحالة دقيق الملاحظة، فإنها تصرخ فينا أن نبحث فى المكتبات عن مخطوطاته، وأن نحققها وننشرها، فتتوافر للباحثين والقراء ودارسى الحضارة العربية. وما أحوجنا إلى ذلك ونحن نعيد البحث عن هويتنا الأصلية، تأكيداً لذواتنا وتذكيراً بمجدنا الذى يشبه جبل الثلج، لايزال معظمه تحت الماء أو مكدساً فى أرفف مكتبات الغرب، وكفى ما قدمه علماء الغرب لنا من كشف عن هذا التراث وجاء الدور علينا، وعلى جامعة الدول العربية، وخاصة المؤسسات ومراكز النشر العلمى فى كل الممالك الإسلامية عامة.

العَبْدَرى

(٦٨٨ هـ - ١٢٨٩م)

فقيه ولغوى وأديب رحالة مغربى، قام برحلة فى القرن السابع الهجرى «الثالث عشر الميلادى»، وسمى رحلته باسمه «الرحلة العبدرية»، أصله من قبيلة قريش «**بنى عبدالدار**» وهو مرتبط ببلنسية كأول مستقر لأسرته.

هو محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود العبدرى، يكنى بأبى عبدالله، كان حاد الطبع بسبب عيشته فى الريف الجبلى. بالصويرة «يعلى مقربة من مغاور» بمراكش حيث سكنى أهله، وبعد ذلك انتقل للعيش فى «حاحة» فى السوس الأقصى، حيث قضى معظم أيام شبابه، ومنها بدأ رحلته ومعه ولده فى الخامس والعشرين من ذى القعدة عامة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م)، وكان عازماً الحج فاجتاز شمال إفريقيا مارا بالسوس الأوسط ثم هبط تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس، ويعبر العبدرى الأراضى الليبية حتى يصل إلى الإسكندرية، ثم يتجه إلى مكة بالطريق البرى، وبعد أن يؤدى فريضة الحج يمضى إلى فلسطين ثم يذهب إلى مصر براً ويكمل رحلة العودة برا إلى حاحة.

كان الرجل قليل التأليف، وتنحصر مؤلفاته فى ثلاثة، هى:

١- «**مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة**» «مطبوع فى ثلاثة أجزاء».

٢- **رحلة العبدرى** أو الرحلة المغربية.

٣- **شموس الأنوار وكنوز الأسرار** فى علم الحروف وروحانيته.

وقد دون العبدرى تفاصيل رحلته أثناء مقامة بتلمسان فى كتاب، يحمل عنوان «الرحلة العبدرية» يصف فيه المغرب العربى ومدنه وطرقه وسبل عيشه وبعض

طبائع أهله، كما يتناول علماءه وينقل للقراء بعض أخبارها كما كان سائداً فى عصره، ولم تنشر الرحلة بالعربية إلا فى الجزائر سنة ١٩٦٥ على يد **أحمد ابن جدو** ولاتزال بالفرنسية.

كما نشرت فى المغرب عام ١٩٦٨ بمقدمة **لمحمد الفاسى**.

رحلة العبدرى

خلف لنا العبدرى كتابه عن رحلته، وأول ما يلفت النظر فيه حدته وأحكامه القاسية على ما يلقاه من سوء الحال أو قلة العلم أو خلو المساجد من العباد، وقد يضيق بلقاء الناس فى بعض البلاد للغرباء فيصب جام غضبه على كل سكان هذا الإقليم، وهى طريقة غليظة لا نكاد نجدها عند أحد من السابقين أو اللاحقين بصورة دائمة ومطردة، ولكنها ربما تعرض للرحالة فى موقف من المواقف، كما عبر عن ذلك **ابن جبير** فى جمرك الإسكندرية، وفى منطقة عيذاب على البحر الأحمر، وما خلا ذلك فالأمور طبيعية، ومثلها فعل ابن سعيد فى حديثه عن مصر، ولابد أن الغريب أو المغترب يأخذ فى الاعتبار تلك الفروق فى العادات والطبائع بين أهله ومن ارتحل إليهم، ولذلك يتعين أن يتذرع بالصبر وموضوعية الأحكام، أما الأمر الثانى الذى يدركه القارئ لأول وهلة، فهو ذلك الأسلوب الأدبى الجميل والعبارة العذبة المسبوكة بحذق، والدقة فى اختيار اللفظ الدال على المشاعر والمناسب للمقام، وحسن تصويره وصدقه فى النقل، كما فى قوله: جفت سواقى المعرفة، وقوله: وجئنا قسنطينة، شفى الله جراحها، فضلاً عن استعانته بالشعر فى تطريز كتابه وأغلبه من نظمه.

وقد بدا اهتمام الرحالة بالعلماء الذين التقى بهم أو تتلمذ على أيديهم، فقد كان فقيهاً معنياً بدراسة العلوم الشرعية عامة، حريصاً على رصدها فى مختلف البلاد التى زارها.

نماذج من رحلة العبدرى[٢٦]

بدأ العبدرى رحلته كما يقول فى عام ٦٨٨هـ، وهو يسهب فى وصف شمال إفريقيا... مدنه وقراه، ولعل أهمية كتابه تكمن فى هذا الدور، الذى لم يعن به أحد من قبل عناية العبدرى، على الرغم من كثرة من مروا بهذا الطريق.. يحدثنا العبدرى عن ذلك فيقول:

فى اليوم الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩) بدأنا رحلتنا من حاحة، واتجهت القافلة بنا نحو الجنوب...

أنس:

أنس مدينة جميلة تتوسط سهلاً غنيا بالمراعى والماشية.. وأرضها شديدة الخصب غزيرة المياه، والواحة تدور بها الحدائق ومنابت النخيل.. وهى بوقوعها فى أطراف السوس الأقصى، وفى مكان مرتفع تتعلق بأسباب الجبال التى تشرف على المنطقة.

واستمررنا فى السير من أنس عبر المنطقة الوسطى، وهى بلاد اختفى العلم منها حتى إن اسمه زال، وقد فقد الناس عادة التعليم، وقلما يرتل القرآن فى مساجدها.. ولكن الناس يكرمون رجال الدين ويولونهم ثقتهم التامة... ويتمتعون بصفة مهمة، هى حماية الجار واحترامه والدفاع عنه.

وإذا حدث أن نشبت بين جماعة وأخرى حرب، فإن المقاتلين يلتقون فى الميدان نهاراً ويتحاربون، فإذا جن الليل امتنعوا عن القتال وأووا إلى بيوتهم حتى صباح اليوم التالى. وإذا نشب الخصام بين أهل بلد واحد، فإن المتخاصمين يخرجون إلى ميدان فسيح بعيد عن السكان، ويقتتلون فيما بينهم هناك، حتى لايصيب الأذى السكان الآمنين.

تلمسان:

«... وقد كانت رعاية الله تكلؤنا فى اجتيازنا هذه المنطقة.. التى لا يجتازها

الناس عادة إلا والسلاح مهيأ مشهور.. حتى وصلنا تلمسان فوجدناه بلداً حلت به زمانة الزمان، وأخلت به حوادث الحدثان فلم تبق به علالة ولا تبصر به للظمآن بلالة،.. وتلمسان مدينة كبيرة نصفها فى السهل، ونصفها الثانى فى منعرج من الجبل.. وفيها مسجد جامع فخم واسع، وأسواقها حافلة.. وفى مرتفع من الأرض تقوم العباد، وهى مقبرة أهل التقى والمرابطين، وأفخم القبور هناك وأجملها ضريح أبى مدين... وتحيط الكروم والبساتين بتلمسان بحيث تطوقها بنطاق دائم الخضرة.. وفى داخلها الحمامات الحسان، وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور، قل أن يرى له نظير.

«ولم يبق للعلم من أثر فى هذه الديار، وقد جفت سواقى المعرفة، وقد حضرت درسا فى النحو، فوجدت الجهل مطبقاً على الجميع».

«وقد طالت إقامتنا بتلمسان حتى ٢٥ ربيع الأول، ثم خرجنا منها، وأخيرا وصلنا مليانة البلدة الجميلة المكونة من مجموعة من الأبنية ولا ينقصها شىء من ميزات المدن الكبيرة.»

«وصلنا الجزائر وهى مدينة لا يكف المرء عن الإعجاب بها، إذ فيها ما يسرح اللب... تقوم على شاطىء البحر، مقتعدة نشزاً من الأرض، بحيث تستمتع بكل ما يمكن أن يضيفه مثل هذا الموقع الخاص على بلدة ما، ويصبح البحر والسهل موردين لها.. جمال أبنيتها يأسر الرائى، وحصونها تتحدى الأعداء بمتانتها، لكنها خالية من العلم.. وليس فيها من يمكن أن يعد من العلماء».

«وخرجنا من الجزائر إلى بجاية وهى ميناء كبير ومدينة حصينة... وكم حاول الأعداء أخذها فباءوا بالفشل، وفيها مسجد يبز مساجد الجهة كلها حسنا وفيها جماعة من العلماء الأعلام..»

«وجئنا قسنطينة... شفى الله جراحها ومتع سكانها بسبل إنعاشها.. إنها بلدة جميلة وحصينة، لكن حدثان الدهر طغى عليها.. بحيث أصبحت كالمرأة الجميلة

وكالكريم الخالى اليدين من المال.. تكثر فيها بقايا الأبنية القديمة... يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم نهر، يجرى فى واد عميق يدور بها فيدفع عنها أذى العدوان.. ولم أر فى قسنطينة إلا رجلاً واحداً يصح أن يشار إليه كعلم فى المعرفة، وهو الشيخ أبوالحسن بن بلقاسم بن باريس...

تونس:

... ثم وصلنا تونس مهبط الآمال.. محط المسافرين من الشرق والغرب، وملتقى السفن والقوافل، وفيها يجد كل امرئ ما يشتهى، فإن شاء السفر براً لقى جمعا كبيراً من الرفاق، وإن فضل سفر البحر وجد السفن التى تحمله إلى كل مكان. تشبه تونس ماسة، وكل شعاع منها يمثل ضاحية.. وستجد فيها الكثير من فروع المعرفة التى تتطلبها.. ويعنى أهلها بالعلم.. وفيها أعلام فى المعرفة كبار، ومنهم من يسبق الغزال فى سرعة الإقلاع، ويكاد يكون الكل منهم مطبوعاً على طيب الصحبة.

وتتفوق تونس على غيرها من المدن بحسنها الفائق وبعمارتها الأنيقة، ومنعتها ومجدها، يجعلان منها سيدة لمنافساتها من حواضر الشرق والغرب.

«وتونس حرسها الله» ذات أبنية كبار حسان ذات الأبواب الجميلة المصنوعة من الرخام.. للمدينة عدة أبواب يمكن الدخول منها، وخارج كل منها ضاحية جميلة تكاد تكون فى اتساع المدينة نفسها.. ولو أن تونس يتاح لها نهر يروى عطشها، لفاقت جميع حواضر الإسلام... ولكن من سوء الحظ فماؤها نزر يسير، والناس يشربون من ماء الأمطار، الذى يخزنونه فى الآبار.

«والماء الذى تحمله قناة زغوان إلى المدينة، إنما يحمل إلى قصر السلطان وحدائقه، وثمة كمية ضئيلة يسمح لها بالوصول إلى جامع الزيتونة، ومن هذه يستقى الغرباء، وأولئك الذين ليس فى بيوتهم آبار».

«وجامع الزيتونة يعتبر من أجمل الأبنية الحجرية.. يتوسطه صحن واسع تدور به أروقة معمدة».

ويعنى العبدرى بوصف قرطاجنة وآثارها، ولكنه يهتم بشكل خاص بالقناطر التى تجرى قناة الماء فوقها، والتى يسميها التونسيون «حنايا»، ويشير إلى اهتمام بعض الحفصيين بإصلاحها، لأنها توصل بعض الماء من قرطاجنة إلى تونس..

ثم يعود إلى تونس نفسها، فيقول:

وتونس مدينة كبيرة الأهمية إذ هى عاصمة أفريقية «أى ما يسمى اليوم القطر التونسى». ولم أر لا فى الشرق ولا فى الغرب قوماً كأهلها فى دماثة الخلق ورقة الطبع..، وفى أهلها من بلغ فى العلم الدرجة القصوى وبينهم من يمتاز بعلو الهمة... وهناك من يترك عمله ليتمتع بصحبة عالم.. كما حدث لى.

«ولو لم أدخل تونس لكنت قلت إن المغرب كله خلا من العلم.. لكن الله أراد لى أن أرى هذه المدينة.. التى يجد المرء فيها علماء لكل فرع من فروع المعرفة.. وطلابها، مثل أساتذتها، يبذلون الوقت والجهد فى سبيل الدرس... وقد حصلت لى متعة كبيرة فى تعرفى نواحى المعرفة فى تونس».

ويسير العبدرى بعد ذلك فيما تبقى من شمالى إفريقية عبر ليبيا، ويقول عن أهل برقة «إنهم يتكلمون العربية بصفاء أهل الحجاز بحيث إن ولداً سأل الحجاج قائلاً لهم «يا حُجَّاجُ أَمَعَكُمْ شَىءٌ تَبيعُونَهُ؟»، بحيث إنه شكل كل كلمة فى السؤال.

وفى الإسكندرية، تعرض العبدرى لشىء من التفتيش الدقيق على أيدى موظفى الجمرك. فقال فى وصف ذلك:

«ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح عن قلة دينهم «أهل الإسكندرية» أنهم يعترضون الحجاج، ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، ويبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش

النساء والرجال.. وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى، وجعل الانفصال عنهم غاية إربى وذلك لما وصل الركب جاء شرذمة من الحرس.. فمدوا فى الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء، وألزموهم أنواعاً من المظالم وأذاقوهم ألواناً من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله...»

لكنه يقول بعد ذلك:

«أو ليس من الأمرِ الأمرّ الخارج عن كل قياس أن المسافر عندما يخرج من أنظار مدينة فاس، لايزال إلى الإسكندرية فى خوض ظلماء وخبط عشواء لا يأمن على ماله ولا على نفسه، ولا يؤمل راحة فى غده، إذا لم يرها فى يومه وأمسه، يروح ويغدو ولحمه على وضم، يظلم ويجفى فيهتضم، تتعاطاه الأيدى الغامشة، وتتهاواه الأكف الظالمة لا منجد له ولا مغيث، ولا ملجأ يعتصم به المسكين فيستنجد ويستغيث، وأنى له بالمنجد والمغيث، ينادى وهو فى قبر المظالم يرسف.. ألا ناصر ينجد، ألا راحم يرؤف»..

فكيف يقول ذلك، وهو الذى كتب القصائد فى مدح تونس وهى بين فاس والإسكندرية ويبدو أنه فضلاً عن بداوته وجبليته وسكناه بعيداً عن العمران حتى جفت طباعه وغلظت روحه كان رجلاً متشائماً سيء الظن، وهو إلى هذا كله لابد قد عانى الكثير وقاسى من الناس والظروف ما لا قبل له به، وما لا يقدر على احتماله، حتى لو بدا لغيره أمراً هيناً.

وها هو يتحدث عن تلمسان وعلمائها، فيقول:

«ما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمى إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى فلان»

ويقول عن مدينة الجزائر:

«فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون

المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كربة أو أديب يؤنس غربة، فكأنى أسأل عن الأبلق العقوق، أو أحاول تحصيل بعض الأنوق.

ويذكر د. حسين مؤنس ما كتبه الأستاذ الفاسى فى عبارة نقلها عن رحلة **عبدالسلام الناصرى** تفسر سبب سخط العبدرى، قال:(٢٧)

«تعليقاً على ذمه لمصر وأهلها، جريا على عادته، عفا الله عنه فى ذم البلاد وأهلها وما كان ينظر إلا بعين السخط إليها فليته مدح من يستحق المدح، وذم من يستحق الذم، أو يتغافل عنه إلا بقصد البيان، وما رأيناه مدح بلدة ولاسكانها إلا مدينة تونس، ولو أمكنه أن يقول فى الحرمين هجواً لقال،وهذا لأن الرجل بربرى من سكان الجبال، لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم. إنما ينزل بمدرسة من جملة الطلبة أو بفندق من جملة الغرباء ولا يتفطن له عالم ولا ذو مروءة حتى إذا صدر عن بلد قال فيه ما شاء».

فهو إذاً لطبيعته المنعزلة جهم نافر، لا يميل للدخول فى جماعة ولا يعرف سبل الائتلاف معها، وأخشى أن تكون طريقته فى ذم البلاد هى التى حالت دون ترجمة رحلته أو على الأقل نشرها بالعربية.

(١) عبداللطيف البغدادى ـ محمد توفيق بلبع ـ عالم الفكر ـ المجلد السادس عشر – العدد الثالث ١٩٨٥ .
(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء – ابن أبى أصيبعة – بيروت – ١٩٦٥ «يقول كراتشكوفسكى كان جد ابن أبى أصيبعة صديقاً حميماً لعبداللطيف، كما أن أباه درس الطب على يد الرحالة الطبيب».
(٣) المصدر السابق ص٦٨٩ .
(٤) الإفادة والاعتبار – دار سلامة موسى – ١٩٣٤ القاهرة.
(٥) المصدر نفسه ص٣٢، ٣٣.
(٦) المصدر نفسه ص٥٢ .
(٧) المصدر نفسه ص٥٦ .
(٨) المصدر نفسه ص٦٧ .
(٩) المصدر نفسه ص٦٨ .
(١٠) المصدر نفسه ص٦٩ .
(١١) المصدر نفسه ص٦٢ .
(١٢ – ١٦) المصدر نفسه من ٦٣ إلى ٧٣ .
(١٧) تاريخ الأدب الجغرافى ص٣٣٦.
(١٨) ياقوت الحموى – أبوالفتوح التوانسى – أعلام العرب ٩٣ – ١٩٧١ .
(١٩) المصدر السابق ص٥٨ .
(٢٠) يذكر كراتشكوفسكى إنه لم يذهب إلى خوارزم، فى حين أن الحموى يذكر فى مادة خوارزم أنه كان بها سنة ٦١٦هـ المجلد الثانى ص٣٩٦.
(٢١) المصدر نفسه ص٣٤٣.

(٢٢) المعجم جـ٥ ص٤٥، ٤٦.

(٢٣) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٩٦.

(٢٤) تاريخ الأدب الجغرافى ص٣٤٤.

(٢٥) يورد المقرى فى «نفح الطيب» جـ٢ ص٢٣٧، ٢٣ قصة وشوكهما على الغرق.

(٢٦) لم تنشر رحلة العبدرى بالعربية، والمختارات المنقولة هنا هى ترجمة عن الفرنسية لجزء من الرحلة، نشرت فى المجلة الأسبوعية سنة ١٨٥٤ «الرحالة العرب نيقولا زيادة ص١١٩).

(٢٧) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ص٥٢١.

رحالو القرن الثامن الهجرى

الرابع عشر الميلادى

١ - أبوالفداء
٢ - التجاني
٣ - ابن بطوطة
٤ - ابن خلدون

أبوالفداء

(٦٧٢ - ٧٣٢هـ) (١٢٧٣ - ١٣٣١م)

شاعر ومؤرخ وجغرافى ورحالة شهير، ذاع صيته خلال القرن الثامن الهجرى وما بعده، كان أميرا على دمشق، ثم أصبح سلطان حماه.

ألف كتباً نفيسة من أهمها **«المختصر فى تاريخ البشر»** و**«تقويم البلدان»** و**«الموازين»**، وقد كان برغم مشاكل الحكم محبا للعلم مقبلا على الكتب، حتى عد من أكبر مثقفى عصره، وكان متمكناً من الفقه والطب والفلسفة، فضلاً عن التاريخ والجغرافيا، كما كان راعياً للفن والأدب والفكر، مشجعاً على الدراسة والتأليف.

هو الملك المؤيد إسماعيل بن على بن محمود، وينتهى نسبه إلى نجم الدين أيوب، ولد فى عام ٦٧٢هـ بدمشق واشتهر بعماد الدين.

تربى فى بلاط الملك هانئاً بمستوى رفيع من العيش والتعليم، شأن الأمير الفارس الرحالة أسامة بن منقذ الذى عاش قبل أبوالفدا بنحو قرن

تمتع بموهبة عالية فى نظم القصيدة وشهوة للمعرفة يشجعها ذهن متقد، وقد شهد معاصروه بشجاعته وقدراته العسكرية، وفى الوقت ذاته بمرونته وسياساته الحكيمة وأساليبه الدبلوماسية فى معاملة خصومه واجتياز فترات الشدة والاضطراب بلباقة وكياسة، والدليل الأول على ذلك تمكنه من توسيع رقعة أملاك آبائه فى زمن، لايزال فيه الكفاح ضد الصليبيين فى الغرب وضد المغول القادمين من الشرق.

وكان منذ نعومة أظافره قد تلقى تعليما أدبيا ولغويا، كما تلقى تدريبا عسكريا، وصحب أبوه وهو فى الثانية عشرة فى الحملة التى انتزعت قلعة المرقب من أيدى

الصليبيين، وشارك وهو فى السادسة عشرة فى إخراج الصليبيين من طرابلس، وانضم وهو فى التاسعة عشرة إلى الحملة على آسيا الصغرى.

وقد ارتبط كفاح أبى الفدا بنشاط المماليك وحروبهم منذ عام ٦٩٨هـ، لأن سلطان المماليك آنذاك كان صاحب النفوذ الأكبر فى المنطقة، ولذا فقد شاركهم أبوالفدا فى سنة ٧٠١هـ الهجوم للمرة الثانية على آسيا الصغرى، وبعدها كثرت زياراته للقاهرة واستقبل فيها بالتكريم والتقدير، وأدى فريضة الحج بضع مرات، وفى عام٧١٥هـ اشترك أبوالفدا فى حملة ثالثة على آسيا الصغرى، ولم تمنعه هذه الحروب وما واكبها من حركة دائبة أن يوالى تأليف مصنفاته التاريخية والأدبية.

تعددت أسفاره سواء فى الحرب أو لتلبية الدعوات الصديقة فى مصر والشام، وفى أثناء تجواله مع سلطان مصر **الملك الناصر** بلغ دندرة.

وتوفى الملك المؤيد أبو الفدا فى عام ٧٣٢هـ - ١٣٣١ م وقد بلغ الستين.

من عمره، ولا تزال مقبرته حتى اليوم بمدينة حماه قرب المسجد المعروف بمسجد **«الحيايا»**، الذى أمر ببنائه قبل وفاته بنحو أربعة أعوام.

تقويم البلدان:

هذا هو اسم مصنفه فى الجغرافيا، وقد شرع فى تدوينه عام ٧١٧هـ (١٣١٦م) وأتمه فى نهاية عام ٧٢١ - ١٣٢٠م، وتوجد بمكتبة ليدن مخطوطة له راجعها أبوالفدا نفسه[1].

وإذا كان أبوالفدا لم يرتحل إلى أغلب بلاد المملكة الإسلامية، وإنما وطأت أقدامه فقط المنطقة الوسطى منها المتمثلة فى مصر والشام وبلاد العرب والسودان وآسيا الصغرى، فإنه استكمل معارفه عن الباقى بالنقل والسماع من التجار والرحالة، بالإضافة إلى نقوله من المصنفات السابقة الشهيرة، والتى لم ينكر أخذه عنها، بل هو يذكر ذلك بوضوح، فقد اعتمد على **الاصطخرى وابن حوقل والإدريسى والحموى وابن سعيد الأندلسى وكذلك البيرونى**.

وينقسم الكتاب إلى قسمين غير متساويين: الأول منهما أقل أصالة من الثانى،

وهو على هيئة مقدمة فى الكوزموغرافيا العامة، تضم المعلومات المعهودة عن تقسيم الأرض وعن خط الاستواء والأقاليم السبعة والمعمور من الأرض ومساحتها وعن المصطلحات المستعملة فى الجغرافيا، ويرد فيها وصف قصير للبحار والبحيرات والأنهار والجبال، كما يوضح النظام الذى يسير عليه الكتاب.

وأما القسم الثانى والأكبر فهو ينقسم بدوره إلى ثمانية وعشرين قسما، أو جداول على الأصح مكرسة للكلام على المناطق الجغرافية المختلفة التى تسمى أيضا بالأقاليم والتى يرد وصفها على الترتيب الآتى، الذى قد يختلف اختلافاً ضئيلا وفقاً للمخطوطات: بلاد العرب، مصر، المغرب، السودان، الأندلس، جزر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى، الشمال «بلاد الفرنجة والترك»، الشام، الجزيرة، العراق، خوزستان، فارس، كرمان، سجستان، السند «البنجاب»، الهند، الصين، جزر البحر الشرقى، الروم «آسيا الصغرى»، أرمينيا «ومعها أران وأذربيجان»، العراق العجمى، الديلم «وكيلان»، طبرستان «ومازندران»، خراسان، زابلستان «والغور»، طخارستان، خوارزم، ما وراء النهر.

ويمكن أن نستنبط من هذا التبويب كيف أن أبا الفدا قد تحول عن الادريسى إلى التقسيم الذى اتبعه جغرافيو القرن العاشر، أى إنه اطرح جانباً التقسيم إلى أقاليم فلكية، مفضلا عليه التقسيم إلى مناطق جغرافية.

وإذا كان أبوالفدا - فيما يقول **كراتشكوفسكى** - يفتقر إلى الأصالة فى طريقة تعداده للمناطق وتنظيمه لها، إلا أنه بلا ريب يظهر الكثير من هذه الأصالة فى طريقة تبويبه للمادة داخل هذه المناطق، فكل واحدة من المناطق الثمانية والعشرين منسقة وفق نظام موحد، وينقسم كل منها إلى جزئين يحتوى الأول على عرض عام للمنطقة وأخلاق سكانها وعاداتهم وآثارها القديمة وطرقها، وتتفاوت هذه الأجزاء الأولى من حيث الحجم وفقا لمساحة كل منطقة وأهميتها الجغرافية أو تبعا للمادة التى كانت تحت تصرف أبى الفدا عنها.

أما الجزء الثانى لكل منطقة، فيمثل جدولا يقدم رسوما بيانية متتالية تحتوى

على أسماء البلاد والنقاط المأهولة فيها، والمصدر الذى اعتمد عليه أبوالفدا فى تحديد طولها وعرضها والإقليم الفلكى والجغرافى الذى تنتمى إليه، هذا مع بيان الأسماء بدقة من جهة الإملاء وتقديم وصف عام للمدن.

وأبوالفدا أول من اتبع نظام الجداول فى علم الجغرافيا وهى خطوة لا تعتبر شيئا أصيلا، إذ من الطبيعى أن نفترض منذ البداية أن أبا الفدا قد استعار فكرة الجداول من الزيجات التى كان يعرفها معرفة جيدة، غير أن أبا الفدا نفسه يذكر صراحة أنه قد سار على نهج الطبيب **يحيى بن جزله** «توفى عام ٤٩٣هـ - ١١٠٠»، الذى وزع الأمراض فى مصنفه الشعبى **«تقويم الأبدان»** على هيئة جداول وفقا للنماذج الفلكية.

وربما تقودنا هذه الملاحظة الأخيرة إلى التفكير فى أن الاثنين قد رجعا إلى مصدر مشترك، غير أن أبا الفدا يذكر بصراحة أنه أخذ تلك الطريقة عن الطبيب بما فى ذلك عنوان الكتاب نفسه.

وتحتل المنطقة الوسطى من العالم الإسلامى جزءاً كبيراً من الكتاب من حيث وفرة المادة ودقتها، لأنها من وضعه وتصنيفه ونتائج أسفاره ومشاهداته.

وقد حاز كتاب أبى الفدا شهرة كبيرة لدى الأوساط العلمية فى أوروبا منذ القرن السادس عشر، ويبدى كراتشكوفسكى إعجابا زائدا به فيقول:

«وكتابه بوجه عام مصنف تام مكتمل يمتاز بأصالة التبويب، وبالوضوح، فضلا عن أنه تمتع برواج كبير سواء بين الأجيال القريبة من المؤلف أو التالية له».

وقد لخصه **الذهبى** معاصره الأصغر سنا «ت ٧٤٨هـ»، كما نال حظوة لدى الأتراك فرتبه فى القرن السادس عشر **سباهى زاده** «ت ٩٩٧هـ» على حروف المعجم باللغة العربية وزاد عليه، وأخرجه بعنوان **«أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك»**، وقام **سباهى** أيضا بترجمة بعض أجزاء منه إلى التركية.

وقد اهتم به منذ القرن السادس عشر المستشرق الفرنسى **بوستل**، وفى القرن التالى **شيكارت** الألمانى، ووضع المستشرق الإنجليزى **جريفز** (١٦٠٢ - ١٦٥٠م) أول دراسة نقدية مع ترجمة لأجزاء من الكتاب، وظهر المتن كاملا

بإعداد رينو ودى سلان فى عام ١٨٤٠، مصحوباً بمقالة مطولة عن حياة أبى الفدا ومؤلفه، وفى عام ١٨٤٨ ظهر القسم الأول من الترجمة بقلم رينو ومقدمة عامة فى علم الجغرافيا لدى المشارقة على قدر كبير من الأهمية والعمق.

وقد ظلت هذه الدراسة فيما يقول كراتشكوفسكى الدراسة العامة الوحيدة فى تاريخ الجغرافيا العربية، ولم يحل محلها حتى الآن بحث آخر، إلا بالطبع كتاب كراتشكوفسكى نفسه، فقد بز الجميع وأحاط بالأدب الجغرافى العربى إحاطة تكاد تكون كاملة ومثالية فى أغلب أجزاءها.

ولأن أهمية الكتاب وأصالته تكمن فى الجداول الكبيرة التى اشتملت على طبائع البلدان وسبل أهلها فى العيش وعاداتهم، حاصلات الأمصار وطرقها إلى غير ذلك من المعلومات الجغرافية، فلم نجد مبرراً لنشر بعض هذه النماذج التى اتخذت شكل الجداول للمرة الأولى وربما الأخيرة.

التِّجانى

ت ٧١٨هـ (١٣١٨م)

هو أبو محمد بن عبدالله بن محمد بن أحمد التجانى، فقيه وأديب تونسى، ولد بين عامى ٦٧٠ و٦٧٥هـ فى مدينة تونس، وكانت فى ذلك الوقت عاصمة الملك للحفصيين، ولم يعمر طويلاً إذ وافته المنية عام ٧١٨هـ وهو معاصر لأبى الفدا، لكن أبا الفدا أسبق فى الارتحال.

وقد تميز التجانى - فيما يقول العلامة التونسى الكبير حسن حسنى عبدالوهاب الذى نشر أخبار رحلته عام ١٩٥٨.

«لقد تهيأ للتجانى كل ما يؤهل المرء للنبوغ من ظروف وأحوال وهمة عالية وجهد لا يفتر ورغبة فى التعلم، وصبر وأناة كانت خليقة بأن تبوئه المركز اللائق بسليل الأدباء والعلماء»، وأدرك **أبا عصيدة**، أحد سلاطين بنى حفص فى مطلع القرن الثامن الهجرى، فالتحق التجانى بحاشيته، وكان على رأس الدولة يومئذ شيخ الموحدين الأمير أبو يحيى بن اللحيانى، فاختص التجانى بعنايته، أوأوكل إليه وظيفة الكاتب الخاص، وقد رغب ابن اللحيانى فى أن يتفقد شئون الدولة، وربما كان يقصد الحج إلى بيت الله الحرام، وإن لم يفصح عن ذلك بصورة مسبقة، مع جمع من وجوه تونس، كان بينهم عبدالله التجانى، الذى عهد إليه بالإشراف على رسائل الرئيس ابن اللحيانى.

وخرج ابن اللحيانى من تونس فى حاشية كبيرة فى أواسط شهر جمادى الأولى سنة ٧١٦هـ، أى أواخر عام ١٣١٦م، سالكا طريق الساحل مرورا بسوسة، ثم انحرفت القافلة باتجاه الداخل وسلكوا طريقا قادتهم إلى الجم ثم إلى صفاقس فقابس، ومن هذه اتجهوا غرباً فى اتجاه منخفض الجريد فزاروا واحة

توزر، وعادوا إلى قابس فتجفت حيث عرجوا على جزيرة جربة، وانكفؤوا كرة أخرى إلى عمراسن فى سهل الجفارة كى يعودوا إلى الساحل، ومروا بزوارة وطرابلس ومصراته، كى يتابعوا مسيرتهم شرقاً لأداء فريضة الحج، ولكن التجانى عاد إلى تونس فوصلها فى صفر فى سنة ٧١٨هـ بعد غياب عن موطنه استغرق اثنين وثلاثين شهرا تقريبا.

وفى عهد ابن اللحيانى، تقلد التجانى خطة العلامة الكبرى، أى رياسة دواوين رسائله.

ويقول العلامة المرحوم حسن حسنى عبدالوهاب:

«لا مراء فى أن عبد الله التجانى باشر ما ألقى على عاتقه من المهمات أحسن مباشرة طيلة إقامة هذا السلطان فى الملك.. ولم يزل صاحبنا يخدم بعمله وعلمه وقلمه البلاد، ويؤلف بين الفينة والفينة التصانيف المفيدة، إلى أن عقد العزم على مغادرة تونس».

ويرى العلامة التونسى أن التجانى وسائر أفراد أسرته لاقوا مصرعهم قتلاً، اثر انتصار أبى يحيى أبى بكر سنة ٧١٨هـ، ١٣١٨م، وللتجانى مؤلفات عديدة، أكثرها مفقودة، فى الفقه والأدب والتاريخ والتراجم والحديث والمراسلات، مثل مراسلاته مع ابن شيرين، وفى العلامة وفى الأدب النسائى.

وهكذا عاش التجانى فى ظل دولة الحفصيين، التى لم تكن أيامها كلها هادئة تسودها الطمأنينة، فقد تنازعت هذه الدولة الأهواء، وتضاربت فيها المصالح، ومزقتها الحروب الأهلية فى أكثر من مرة فى تاريخها، ولعل أكثرها ضراوة هى التى عاش فيها أبو محمد التجانى.

ولكن رحلة التجانى كانت كلها خيرا وبركة على الأدب والتاريخ، إذ سجل فيها أخبار رحلته، وسجل مشاهداته وعبر عن انطباعاته فى «تقييده» الذى سمى به أخبار رحلته، وهو عبارة عن كتاب فى الأدب والتاريخ والجغرافية ووصف

المجتمع الذى شاهده التجانى وخالطه، مدبجاً بأسلوب جلى وعبارة أنيقة وصف بها رحّالتنا صفاقس وقابس وتوزر وطرابلس.

ولما كان سير الرحلة بطيئا ومجالها محدودا، فقد تمكن التجانى من الوقوف على كل ما يمكن ملاحظته فى طريق سيره القصير. وللرحلة أهمية كبرى إذ زودتنا بمعلومات وافية عن سائر المناطق التى زارها وعن الأصقاع المجاورة لها. وهى تتعرض لمسائل الجغرافية مثلما تتناول قضايا التاريخ الطبيعى ولاسيما التاريخ البشرى، وأسلوب التجانى فى العرض أدبى صرف، ولكنه لا يثقله بالانطباعات الشخصية أو بمحاولته التدليل على سعة معارفه ومهارته كاتبا، وبعد قرن من الزمان قدره ابن خلدون تقديرا كبيرا، وأفاد من مصنفه مرارا عديدة فى تلك الأجزاء من تاريخه التى أفردها للمغرب العربى.

وقد دللت أبحاث **آمارى** على أن التجانى يقدم معلومات تاريخية وجغرافية ذات قيمة كبرى، من ذلك ما كتبه عن جزيرة جربة وعن صقلية نفسها، وتظهر شذرات من الرحلة فى ترجمة **روسو** التى ترجع لأوائل القرن الماضى، وتستند على اختيار اعتباطى للنصوص مع سوء فهم للمتن أحيانا. أما المستشرق الإيطالى آمارى والمستشرق **بل** فلم يتعرضا فى كتابيهما إلا لقسم يسير من الرحلة.

ويسوق الدكتور عبدالرحمن حميدة هذا النص من رحلة التجانى فى كتابه «أعلام الجغرافيين العرب».

وصف صفاقس:

«... ووصلنا إلى صفاقس ظهرا، فرأيت مدينة حاضرة ذات سورين، يمشى الراكب بينهما ويضرب البحر فى الخارج منهما. وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها، فأفسدها العربان، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة وفواكهها مجلوبة إليها من قابس وماؤها شراب لا يساغ، وإنما يعتمدون فى شربهم على ما يدخرونه من مياه الأمطار ويصطاد بها من السمك أنواع تفوت الإحصاء. وببحرها يوجد صوف البحر الذى يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية. وربما وجد

فى بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب. ومرساها مرسى حسن ميت الماء، والماء يمده به ويجزر عنه كل يوم، فإذا جزر استوت السفن على الحمأة، وإذا مد عامت.

وصف قابس:

وأصبحنا يوم الاثنين مرتحلين، فأشرفنا على غابة قابس، ووصلنا إليها ضحى فرأينا بلدا قد استوفى المحاسن واستغرقها. وأذكر بمنظره الأنضر، وورقه الأخضر، جنة الخلد واستبرقها، وقد أحدقت غابته به من جميع جهاته. وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق، ما يستوقف الطرف، ويستوفى الحسن والظرف، ويحقق ما قيل: إن قابس جنة الدنيا، وإنها دمشق الصغرى، وهى مدينة بحرية صحراوية فإن الصحراء متصلة بها، والبحر على ثلاثة أميال منها.

وصف جزيرة جربة:

وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطرا وأشهرها فى سالف الزمن عمارة وذكرا، وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلا.. وأما عرضها فمختلف، فعرض الرأس الغربى منها عشرون ميلا، وهو الطرف الواسع، ومن هذا الموضع إلى جزيرة قرقنة فى البحر ستون ميلا وعرض الرأس الشرقى منها خمسة عشر ميلا، وهو أضيق مكان بها.

وهى أرض كريمة المزارع، عذبة المشارع، وأكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين، وبها أصناف كثيرة من سائر الفواكه. إلا أن هذه هى أكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها، وغيرها من كرائم الأرضين، لا يقاربها على الجملة فى ثمارها أو يساويها. وتفاحها لا يوجد فى جميع بقاع الأرض له نظير، لما يوجد بها من صفاء وجفاف وطيب مذاق، وعطارة استنشاق، ورائحته توجد من المسافة المديدة، والأميال العديدة. وكان من شجرة بهذه الجزيرة قبل هذا كثير، ثمه قل الآن بسبب أن النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لأربابه عنه، فرأى أهل الجزيرة أن غيره من الشجر أعود بالفائدة عليهم فقطعوا أكثره.

واختصت هذه الجزيرة أيضا دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف، التى ليس بأفريقيا لما يُنسج من أثوابها نظير، وذلك معلوم من أمرها شهير، وأكثر مساكن أهلها أخصاص من النخيل، يجعل كل واحد منهم فى أرضه واحدا أو اثنين أو أكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله، وليس بها بناء قائم إلا دور قليلة.

وصف طرابلس:

ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها من شعاع الشمس يغشى الأبصار، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء. وخرج جميع أهلها مظهرين الاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء، وتخلى والى البلد إذ ذاك عن موضع سكناه، وهو قصبة البلاد، فنزلنا بها، ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة، غير أن الخراب قد تمكن منها وقد باع الولاة أكثرها. فما حولها من الدور التى تكتنفها الآن إنما استخرجت منها. ولها رحبتان متسعتان. وفى الخارج منها المسجد المعروف فى القديم بمسجد العشرة، لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون أمر البلد، وذلك قبل تملك الموحدين لها، فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم، وزال عن المسجد ذلك الاسم.

ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة، فرأيت حماما صغير المساحة، إلا أنه بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بين منها، وهو الآن مُحبَس على بعض المساجد. وبالبلد حمامان آخران غيره إلا أنهما فى الحسن دونه، ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعا واستقامة، وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولا وعرضا من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية.. ورأيت بسورها من الاعتناء، واحتفال البناء، ما لم أره لمدينة سواها، وسبب ذلك أن لأهلها حظا من مجباها، يصرفونه فى ردم سورها، وما تحتاج إليه من مهم أمورها، فهم لا يزالون أبدا يجددون البناء فيه، يتداركون تلاشيه بتلافيه. وبخارج باب البحر منها منظر من أنزه المناظر،

مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر، وتصطف هناك اصطفاف الجياد فى أواريها.

وبداخل البلد مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المستنصرية، التى كان بناؤها على يد الفقيه أبى محمد عبدالحميد بن أبى البركات بن أبى الدنيا رحمه الله تعالى، وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعا وأظرفها صنعا...

وصف توزر:

توزر هى قاعدة البلاد الجريدية، وليس فى بلاد الجريد غابة أكبر منها ولا أكثر مياها. وأصل مياهها من عيون تنبع من الرمل، وتجتمع خارج البلد فى واد متسع، تتشعب منه جداول كثيرة، وتتفرع عن كل جدول منه مذانب «جداول ضيقة»، يقسمونها بينهم على أملاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة.

ولهم على قسمها أمناء من ذوى الصلاح فيهم، يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم فى ذلك معروف، وأمر مقرر مألوف، وعلى ذلك الماء أرجاء كثيرة منصوبة. ومن العجب أن هذا الوادى يحتمل ما يحتمل من غثاء أو غيره، فإذا انتهى إلى المقسم.. افترق هنالك أجزاء بالسوية على عدد المسارب، فمضى كل منها إلى مسرب منها، وهذا مما شاهدته فيها عيانا، وكثير من أهلها إنما يسكنون بغابتها. ولا مناسبة بين مبانى الغابة ومبانى داخل البلد، فإن مبانى الغابة أضخم وأحسن.

وبداخل البلد جامعان للخطبة وحمام واحد ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر، وهو من أحسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هنالك، ومنه تتفرع كما تقدم. ويجتمع به القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والأمتعة الموشية ما يعمه على كبره، فيخيل للناظر أنه روض تفتحت أزهاره، واطردت أنهاره. وليس بتوزر أحسن من هذا الموضع. وهو خارج عن غابتها والغابة ملاصقة لسور المدينة فهى بذلك تمت حصانتها.

ابن بطوطة

(٧٠٣ - ٧٧٦هـ) (١٣٠٤ - ١٣٧٥م)

أشهر الرحالة العرب على الإطلاق، لم يبلغ غيره ما بلغ من ذيوع الصيت فى الشرق والغرب، بفضل شخصيته القوية التى تفيض حيوية، وبفضل ثقافته وعلمه وذاكرته النابضة وإقباله على الحياة وتأمله لدقائقها وتطلعه إلى الأفضل دائما فى كل أمور العيش، فضلاً عن قوة الجسم والجلد وحب المعرفة والولع بالسفر.

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة، تنتسب أسرته إلى قبيلة «لواته».

ولد فى السابع عشر من رجب سنة ٧٠٣هـ، الموافق الرابع عشر من فبراير سنة ١٣٠٤م.

عرفت أسرته بالتدين والعلم والإفتاء، وقد تولى القضاء من رجالها ابن عم رحالتنا، حيث عمل قاضيا لمدينة أندة بين مالقة وإشبيلية فى الأندلس، وقد تعلم محمد علوم الدين والفقه واللغة وحفظ القرآن حتى بلغ سن العشرين، فتمنى أن يحج، ومن أجل الحج كانت رحلاته الثلاث التى وهبها من عمره نحو الثلاثين عاما.

رحلة ابن بطوطة

أقدم ابن بطوطة على رحلة طويلة، طاف خلالها معظم البلاد المسكونة من الكرة الأرضية والمعروفة فى ذلك الوقت وقبل سبعة قرون، ما عدا بعض البلدان الأوروبية.

ويضم كتابه الحافل المسمى **«تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب**

الأسفار» تفاصيل رحلته التى بدأت سنة ٧٢٥هـ من أقصى الشمال الغربى «طنجة» حيث سار «راكبا الجمال دون شك»، مخترقاً بلاد الساحل والشمال الإفريقى كلها، المغرب والجزائر وتونس وليبيا حتى وصل مصر فزارها وطاف مدنها، ثم اتجه إلى بلاد الشام فالحجاز حيث أدى فريضة الحج، وسافر منها إلى العراق وجاس خلال دياره ودخل إيران، لكنه لم يتم الطواف بأعمال إيران وعاد ليحج مرة ثانية ثم قصد اليمن والصومال وعاد إلى ظفار وعمان والبحرين.

واتجه بعد ذلك إلى مكة ليحج مرة ثالثة، ويعود إلى مصر ثم الشام والعراق ومضى إلى القسطنطينية «قبل فتح الأتراك لها» ثم بلاد البلغار، وهناك يسمع عن بلاد الظلمة «القطب الشمالى» ويتلمس أخبارها ويهم بأن يغامر بالرحلة لولا **«عظم المؤنة وقلة الجدوى»** كما يقول، فيسير إلى بلاد القرم، ومنها توجه إلى خوارزم وبخارى وأفغانستان وتابع رحلته إلى الهند وقصد بعدها بلاد الصين مارا بجزر المالديف وسيلان وبلاد البنغال وجاوه وسومطرة والملايو، ويعود من الصين ليمر بسومطرة ومليبار وعمان ثم بغداد وتدمر فبلاد الشام ومصر ثم الحجاز ليحج للمرة الرابعة ويعود إلى مصر، لتكون محطة البداية لرحلة العودة إلى بلاده، فيرحل عنها إلى شمال أفريقيا حتى المغرب، فيصلها عام ٧٥٠هـ ويحظى برعاية السلطان **أبى عنان المرينى**، ويقيم بها نحو عامين.

ولا يلبث الرحالة المحترف أن يلبى الرغبة المتأججة، بداخله للسفر والرحلة والشوق لمعرفة الجديد من الأقطار والناس فيرحل إلى الأندلس ليزورها، ويصف أهلها، ثم يعود إلى فاس ويلتقط أنفاسه بعض الوقت، ولا يطيق المكث بها، ويقرر البدء فى رحلته الثالثة أواخر عام ٧٥٢هـ. وهذه المرة يولى وجهه شطر الجنوب متجها إلى الصحراء الكبرى ومنها إلى مجاهل أفريقيا فنهر النيجر ثم السودان العربى ومنه إلى أسوان، ليعود بعد ذلك إلى فاس عام ٧٥٤هـ، ويحط عصا الترحال ويمضى بقية عمره حتى عام ٧٧٦هـ «يختلف المؤرخون حول تاريخ وفاته، هل هو ٧٧٠هـ أم ٧٧٦هـ أو أنه ٧٧٩هـ» وقد تجاوز السبعين حاملا مسئولية القضاء فى مدينة فاس، ويقيم بعض وقته فى مسجدها يروى على الناس

ما رأى وشاهد من غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، منها ما قصه فى كتابه، ومنها ما لم يقصه، وأسعفته به الذاكرة بعد أن فرغ من الكتاب.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المتحف الوطنى «بمالية»، عاصمة دولة المالديف، تتصدره لوحة ملونة، طولها أكثر من متر للرحالة العربى المسلم ابن بطوطة، وله جناح خاص به فى المتحف يحمل اسمه وأخباره، بوصفه الذى أدخل الإسلام إلى جزر المالديف (١٢٠٠ جزيرة)، وتولى بها القضاء أربعة عشر شهرا، وكانت السلطانة خديجة تحب أن تستضيفه فى قصرها ليحكى لها عن مغامراته وأسفاره ويفقهها فى الدين، وكان ابن بطوطة قد زار بلادها عام ١٣٤٥م وتزوج أربعة من نسائها.

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار:

بدأ الرحلة الأولى من مسقط رأسه طنجة يوم الخميس الثانى من رجب سنة ٧٢٥هـ «يونيو ١٣٢٥م»، وكان عمره اثنتين وعشرين عامًا فى عهد السلطان سعيد بن السلطان أبى يوسف بن عبدالحق، قاصداً بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج.

وفى تونس أقام فترة يعلم ويفقه ويقدم الفتوى فى جامع الزيتونة، وعندما بدأ رحلة الحج من تونس، طلب إليه الحجيج أن يكون قاضيا لهم، ولما وصل إلى الإسكندرية طاف بمعالمها وزار علماءها وعُبَّادها، من بينهم شيخ من كبار الزهاد يدعى **برهان الدين الأعرج** نزل فى ضيافته ثلاث ليال..

يقول ابن بطوطة:

«دخلت عليه يوماً، فقال لى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد، فقلت له نعم إنى أحب ذلك ولم يكن حينئذ بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين، فقال لابد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام، فعجبت من قوله، وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم، وأبلغتهم سلامه، ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل

عندى محوطة، ولم أحتاج بعد إلى إنفاقها إلى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه منى فى البحر»(٣).

وكانت هذه أول بذرة تغرس فى الأرض الخصبة، أما البذرة الثانية فكانت أقوى وأكبر، ولا تدع مجالا للشك أو للتفكير والحيرة بين الإقدام والإحجام. اتجه إلى القاهرة، لكنه لم يمض مباشرة، بل طاف ببعض مدن وقرى الوجه البحرى حريصاً على زيارة العلماء الصالحين والزهاد، وممن زارهم ببلدة فوة «مركز كفر الشيخ الآن» بالقرب من رشيد، شيخ صالح هو أبا عبدالله **المرشدى**، الذى حضره للصلاة وقدمه للإمامة ودعاه إلى بيته. .

يقول ابن بطوطة:

«ولما أردت النوم قال لى أصعد إلى سطح الزاوية فنم هناك، وذلك أوان القيظ فصعدت فوجدت به حصيرا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هنالك.

رأيت ليلتى تلك وأنا نائم بسطح الزاوية، كأنى على جناح طائر عظيم يطير بى فى سمت القبلة يتيامن ثم يشرق، ثم يذهب فى ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران فى ناحية الشرق وينزل فى أرض مظلمة خضراء ويتركنى بها فعجبت من هذه الرؤيا، وقلت فى نفسى إن كاشفنى الشيخ برؤياى، فهو كما يحكى عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمنى إماما لهذا، ثم سبحت سبحة الضحى فدعانى وكاشفنى برؤياى فقصصتها عليه، فقال سوف تحج وتزور النبى صلى الله عليه وسلم وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها دلشاى الهندى، ويخلصك من شدة تقع فيها، ثم زودنى كعيكات ودراهم وودعته وانصرفت»(٤).

وهكذا أدرك ابن بطوطة بحسه وموهبته وعمق إيمانه أن الرحلة قدره والسفر مجده، فتوكل على الله وعزم على أن يمضى فى هذا السبيل إلى أقصى مداه، وقد أعانه الله على أن يحقق ذاته وأمنياته ويستجيب لرؤية شيوخ مصر، عن قناعة حقيقية، لا تنطلق إلا من نفس مرهفة وروح سامية واعية وهمة عالية فاتسعت

الدنيا أمامه، ووهب نفسه لاختراقها والطواف بأقاليمها، وكأنها جميعها بلده ووطنه.

بعد أن عاد ابن بطوطة إلى المغرب عام ٧٥٤هـ - ١٣٥٣م وأخذ - بموافقة السلطان - يقص على الناس بمسجد فاس عن عجائب الأسفار وغرائب الأمصار، وعما رأى وسمع والتقى وجرب والجمهور فى دهشة وعجب مما يسمعون والحكايات لا تنتهى، والجعبة ملأى بالمواقف والقصص المثيرة، والناس لا يفتأون يقصدونه طالبين المزيد والمزيد، يجذبهم هذا الكم الهائل من المعارف عن العالم وطبائع الشعوب وعادات الناس وألوانهم وأزيائهم وطعامهم وشرابهم، يخامرهم الإحساس بالصدق والثقة، لأن محدثهم لا يحكى قصة من القصص الشعبية أو سيرة من سير البطولة، ولكنه يروى لهم رحلاته هو ومواقفه وأسفاره، يمتح من ذاكرته وينهل من منابعه، ويغترف من تلك المادة التى تشكل كيانه ووجوده، فيستولى على الألباب ويستحوذ على المشاعر.

حينئذ يأمر السلطان أبوعنان كاتبه **«ابن جزى»** أن يكتب ما يتحدث به الشيخ الرحالة، فيكون من ذلك وبأسلوب ابن جزى الكتاب العظيم، الذى يقدم لنا شهادة على أحوال العالم طوال ثلاثين عاما من القرن الثامن الهجرى.

بدأ أبوالقاسم ابن جزى، وهو عالم أديب تدوين الرحلة عام ٧٥٥هـ، وانتهى منها فى سنة ٧٥٦هـ وتقع فى جزئين كبيرين، أو عدة أجزاء حسب الطبعة.

ويذكر ابن جزى شيئًا من ذلك فى مقدمته للكتاب فيقول:

«... ولما كانت حضرته «أبى عنان» العلية مطمح الآمال ومسرح همم الرجال... فانثال عليها العلماء، وتسابق إليها الأدباء.. وكان ممن وفد على بابها السامى، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق، جوال الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض، أبو عبدالله.. المعروف بابن بطوطة، وهو الذى طاف الأرض معتبرا، وطوى الأمصار مختبراً، وباحث فرق الأمم وخبر سير العرب والعجم، ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا.. فغمره من إحسانه الجزيل... ما أنساه الماضى بالحال...

ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار. فأملى من ذلك ما فيه من نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.. وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم.. المتشرف بخدمة جنابهم محمد ابن محمد جزى الكلبى.. أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبدالله من ذلك، فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملاً، ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبدالله بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها، موضحة للمناحى التى اعتمدها، وربما أوردت لفظة على وضعه، فلم أدخل بالصلة ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار...».

وهكذا فقد أملى ابن بطوطة وكتب ابن جزى، لكن الكاتب لم يكتف بما أملى عليه، بل أضاف شواهد شعرية كثيرة، كما نقل عن ابن جبير وغيره فصولاً عن بعض المدن التى زارها ابن بطوطة، ولم يمل عنها شيئا على نحو ما نرى فى وصف دمشق وحلب وبغداد.

ويلاحظ على نص الرحلة ما يلى:

١- يتميز أسلوب الرحلة بالبساطة وانسيابية السرد، وتخلو عباراتها من السجع والجناس وأشكال البديع والبيان إلا فى المقدمة ويقل كثيرا بعد ذلك.

٢- تتوالى فصول الكتاب فى ارتباط وتتابع كامل دون الفصل بينها مكانيا أو زمانيا، كالبناء الروائى التقليدى، معتمدا على ذكر حدث أو موقف أو وصف ومشاهدة ثم ذكر حكاية ترتبط بهذا الحدث أو ذلك المكان، فنجد مثلا فقرة عن ذكر مدارس دمشق بعدها حكاية ذكر أبواب دمشق، حكاية ذكر يوم المحمل، حكاية، وهكذا.

٣- لابن بطوطة لذة خاصة فى ذكر الأشخاص الذين عرفهم ويسعى دائما للتحدث عنهم، ويشغل رجال الدين مساحة كبيرة فى ذاكرته، وكأنه يرى فى

ذكرهم تبركا وراحة نفسية، فيروى كراماتهم وأحاديثهم، ويطلب الرحمة لهم كما كان حريصاً على زيارة قبورهم وإكرامهم.

٤- وضوح الحس القصصى فى سرد الأحداث أو اختيارها والفضل الأكبر فى هذا لابن بطوطة، لأنه أملاها على ابن جزى بعد أن تدرب على روايتها على الناس فى مسجد فاس، وامتلك ناصية السرد والرواية والقدرة على جذب انتباه وحسن ختام كل موقف بشكل ممتع ومثير.

وقد نالت الرحلة اهتماما كبيرا من المستشرقين، كما لقيت عناية كبيرة فى ترجمتها إلى اللغات الأجنبية غربية وشرقية منذ عهد بعيد. فقد ترجمها «كوسفارتن» إلى اللاتينية ونشرها عام ١٧٨١م، وترجم القس صموئيل لى قسماً كبيراً منها إلى الإنجليزية وطبعه فى لندن عام ١٨٢٩م، وترجم المستشرقان الفرنسيان دى سلان وإدوار ديلوريه إلى الفرنسية قسما منها فى المجلة الآسيوية سنة ١٨٤٤٣، ١٨٤٧، وفى عام ١٩٦٢ نشرت ترجمة كاملة لها بالإيطالية، كما ترجمت إلى البرتغالية والألمانية والتركية[٥].

وطبعت الرحلة فى العالم العربى عدة طبعات، وصدرت عنها ملخصات ونشرت لها مختصرات عديدة، وقد تناولها عدد كبير من الباحثين بالدرس والتحليل، لما تضمنته من مادة علمية وقصصية وتاريخية وجغرافية واجتماعية، بلغت الغاية من الثراء والحيوية والطرافة.

على أن المجد الذى حازه ابن بطوطة خاصة بعد صدور كتابه كان حريا أن يكون أكبر، لو عنى ابن بطوطة بتسجيل كل ما رأى وسمع على شكل يوميات أو مذكرات، إذ يخامرنى الشك فى أنه كان يدون ويقيد فى أوراق، لكنه فقدها فى الهند ضمن ما فقد من المال والمتاع، وأحسب أنه لم يفعل ذلك، لأنه فيما يبدو لم يكن حريصا على ذلك، وإذا كان قد فقد أوراقه فى الهند فأين أوراقه الجديدة، التى تتضمن أخبار رحلاته عما زاره من بلاد بعد مغادرة الهند، ولماذا لم يحاول القبض على فرصة من الفراغ، يتمكن خلالها من تدوين ما فات أو ما

فقد.. أغلب الظن أنه لم يلتفت إلى ذلك، ولو فعل لكانت النتائج أفضل بكثير، لأنه:

أولا: سيوفر مادة أكثر ثراء مما قدمته الذاكرة، وهى تستحضر أحداثاً ومواقف على مدى ثلاثين عاما.

ثانيا: سيقلل من الخطأ والخلط الذى وقع عليه الباحثون، وكان لابد أن يقع بسبب عدم التدوين، ومن أمثلة التشكيك ما عرض الأستاذ الشرقاوى فى كتابه عن ابن بطوطة.

ثالثا: نسيانه لكثير من المدن التى مر بها، وعدم قدرته على وصف كل ما شاهده. وهذا طبيعى بسبب جريانه على مدى بعيد وشاسع فى الزمان والمكان.

على أن هذا جميعه لا يمنع أبداً من تقديرنا لرجل عظيم مثل ابن بطوطة، وقد أسهب فى وصفه المستشرقون، ومنهم **كراتشكوفسكى** الذى قال عنه إنه آخر جغراى عالمى من الناحية العملية، وقد قطع فى رحلاته ١٧٥ ألف ميل فهو بهذا يعد منافساً خطيراً لمعاصره الرحالة الأشهر **ماركو بولو البندقى**، ويروى كراتشكوفسكى أن وصف ابن بطوطة لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة من ماركو بولو، وكان لديه إحساس ذاتى بظروف حضارة العالم الذى يصفه أكثر مما كان لدى زميله ومعاصره(٦).

ولعل مطالعة نماذج مما ورد بهذه الرحلة كفيل بأن يضع أيدينا على عظمة هذا الرجل فى الوقت الذى يسمح لنا بركوب عجلة الزمن عائدين إلى الوراء، نحو ستة قرون ونصف القرن، كى نطالع صورة العالم آنذاك من خلال كلمات رحالة يقظ العقل مفتوح العين.

وقد راعينا فى اختيار النماذج ألا تتناول البلاد التى سبق استعراضها لدى رحالة آخرين.

أهل مكة وفضائلهم:

«ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والإيثار للضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء، ومن مكارمهم أنهم إذا صنع أحدهم وليمة، يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى مسكنه اتبعه المساكين، فيعطى كل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة، فإنه يعطى ثلثها أو نصفها، طيب النفس بذلك من غير ضجر.

ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى، وهم يسمون القفة مكتلا، فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشترى اللحم والحبوب والخضر، ويعطى ذلك الصبى، فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه، واللحم والخضر فى القفة الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيئ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر أحدا من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه. ولهم على ذلك أجرة معلومة من الفلوس.

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس، وأكثر لباسهم البياض، فترى لباسهم أبدا ساطعة ناصعة، ويستعملون الطيب كثيرا، ويكتحلون، وكثيرو السواك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى إن إحداهن تبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا. وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة، فيأتين فى أحسن زى، وتغلب على البيت الحرام رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا. ولأهل مكة عادات حسنة فى الموسم وغيره (١/ ٣٤٤ - ٣٤٧)

مدينة عدن:

ثم سافرت منها إلى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم. والجبال تحف بها، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد وهى مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج، يجتمع فيها الماء أيام المطر. والماء على بعد منها فربما منعته العرب، وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهى شديدة الحر. وهى مرسى أهل الهند. تأتى إليها المراكب العظيمة، وتجار الهند ساكنون بها. وتجار مصر أيضا. وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه، لا يشاركه فيه غيره، لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة (٢/ ١٧٧ - ١٧٨)

مدينة ظفار الحموض:

وهى آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند. ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند. مع مساعدة الريح، فى شهر كامل قد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند إلى ظفار فى ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة، لم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار. وبين ظفار وعدن فى البر مسيرة شهر فى الصحراء. وبينها وبين حضر موت ستة عشر يوما، وبينها وبين عمان عشرون يوما، ومدينة ظفار فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها. والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء، وهى من أقذر الأسواق وأشدها نتنا. وأكثرها ذبابا، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك. وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين، وهو بها فى النهاية من السمن.

ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين، وكذلك غنمهم. ولم أر ذلك فى سواها، وأكثر باعتها الخدم. وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء. وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلوا كبيرة، ويجعلون لها أحبالا كثيرة، ويتحزم بكل حبل عبد وخادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر، ويصبونها فى صهريج يسقون منه، والأرز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم.

ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق سواها. وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها. ومن عادتهم أنه إذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا فى «صنبوق» إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله، وللربان وهو الرئيس، ولكاتب المركب. وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب، وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيله ومحبة للغرباء، ولابسهم القطن وهو يجلب إليهم من بلاد الهند. ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا.

(٢/١٩٦ - ١٩٩).

فى الخليج العربى:

... وأكلت فى ذلك المركب نوعاً من الطعام لم آكل قبله ولا بعده، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة، طبخها من غير طحن، وصب عليها عسل التمر وأكلناه. ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التى منها صاحب المركب الذى كنا فيه، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلا من السمك، ولم ننزل إليها لبعد مرساها عن الساحل. وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة. وأقمنا بها يوما، وتوجه صاحب المركب إلى داره وعاد إلينا. ثم صرنا يوما وليلة فوصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور، ورأينا منها مدينة قلهات على سفح الجبل، فخيل لنا أنها قريبة، وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله.

فلما ظهرت لنا المدينة، أحببت المشى إليها والمبيت بها، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب، فسألت عن طريقها فأخبرت أنى أصل إليها عند العصر، فاكتريت أحد البحريين ليدلنى على طريقها، وصحبنى خضر الهندى وتركت أصحابى مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بى فى غد ذلك اليوم. وأخذت أثوابا كانت لى فدفعتها لذلك الدليل ليكفينى مؤنة حملها، وحملت فى يدى رمحا، فإذا ذلك الدليل يحب أن يستولى على أثوابى، فأتى بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر. فأراد عبوره بالثياب فقلت له: إنما تعبر وحدك وتترك الثياب

عندنا، فإن قدرنا على إلجواز جزنا وإلا صعدنا نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجالا جازوه عوما، فتحققنا انه كان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب فحينئذ أظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطى، وكنت أهز الرمح، فهابنى ذاك الدليل، وصعدنا حتى وجدنا مجازا، ثم خرجنا إلى صحراء لا زرع بها ولا ماء وعطشنا واشتد بنا الأمر، فبعث الله لنا فارساً فى جماعة من أصحابه، وبيد أحدهم ركوة ماء فسقانى وسقى صاحبى.

مدينة الكفا:

مستطيلة على نصف البحر يسكنها النصارى، وأكثرهم الجنويون، ولهم أمير يعرف بالدمدير. ونزلنا منها بمسجد المسلمين.

ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة، ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية، ولم أكن سمعتها قط، فهالنى ذلك وأمرت صاحبى أن يصعدوا الصومعة، ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا، ففعلوا ذلك، فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح، فسلم علينا، استفهمناه عن شأنه، فأخبرنا أنه قاضى المسلمين هنالك، وقال: لما سمعت القراءة والآذان خفت عليكم فجئت كما ترون، ثم انصرف عنا وما رأينا إلا خيرا.

ولما كان من الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاما فأكلناه عنده، وطوفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق، وكلهم كفار. ونزلنا إلى مرساها، فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتى مركب ما بين حربى وسفرى، صغير وكبير، وهو من مراسى الدنيا الشهيرة. ثم اكترينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القرم.

وهم يسمون العجلة عربة، وهى عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان، ومنها ما يجره أكثر من ذلك، وتجرها أيضا البقر والجمال، على حال العربة فى ثقلها وخفتها. والذى يخدم العربة يركب أحد الأفراس التى تجرها، ويكون عليها سرج وفى يده سوط، ويحركها للمشى، وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد. ويجعل على العربة شبه من قضبان

خشب، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق، وهى خفيفة الحمل، وتكسى باللبد أو بالملف. ويكون فيها طيقان مشبكة، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه، ويتقلب فيها كما يحب، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو فى حالة سيره، والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات، يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا، وعليها قفل، وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبى مغشاة باللبد، وعربة صغيرة لرفيقى عفيف الدين التوزرى، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال، يركب أحدها خادم العربة

(٢/ ٣٥٩ - ٣٦٢).

أرض الظلمة:

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة، والدخول إليها من بلغار، وبينهما أربعون يوما، ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر إليها لايكون إلا فى عجلات صغار، تجرها كلاب كبار، فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا تثبت قدم الآدمى، ولا حافر الدابة فيها.و الكلاب لها الأظفار، فتثبت أقدامها على الجليد. ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها، موقرة بطعامه وشرابه وحطبه، فإنها لا شجر فيها ولا مدر. والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذى قد سار فيها مرارا كثيرة، وتنتهى قيمته إلى ألف دينار ونحوها.

وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب، ويكون هو المقدم، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات، فإذا وقف وقفت. فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة، نزلوا عند الظلمة، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعتاد. فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب والقاقم. فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه، أخذه، وإن لم يرضه تركه، فيزيدونه، وربما رفعوا متاعهم، أعنى أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم، ولا يعلم الذين

يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم، أمن الجن هو أم من الإنس؟ ولايرون أحدا

(٢/ ٣٩٩ - ٤٠١).

إلى القسطنطينية:

ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان، ركباناً ومشاة فى أحسن زى وأجمل لباس وضربت عند الصبح الطبول والأبواق والأنفار، وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون، وأرباب الدولة والخواص، وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصا طوال، فى أعلى كل عصا شبه كرة من الجلد، يرفعون بها الرواق، وفى وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى.

ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها، خوفاً على نفسى. وذكر لى أنها لما قربت من أبوابها ترجلت وقبلت الأرض بين أيديهما، ثم قبلت حافرى فرسيهما، وفعل كبار أصحابها مثل فعلها فى ذلك.

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها، ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك، وجدنا به مائة رجل، معهم قائد لهم فوق دكان وسمعتهم يقولون: سراكنوا، ومعناه: المسلمون. ومنعونا من الدخول، فقال لهم أصحاب الخاتون: إنهم من جهتنا، فقالوا: لا يدخلون إلا بإذن فأقمنا بالباب، وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك، وهى بين يدى والدها، فذكرت له شأننا، فأمر بدخولنا، وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون. وكتب لنا أمراً بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة، ونودى بذلك فى الأسواق.

وأقمنا بالدار ثلاثاء تبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والقرش. وفى اليوم الرابع دخلنا على

السلطان. فبعثت إلى الخاتون الفتى سنبلا الهندى، فأخذ بيدى وادخلنى إلى القصر، فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف، بها رجال وأسلحتهم، وقائدهم فى دكان مفروش. فلما وصلنا إلى الباب الخامس، تركنى الفتى سنبل ودخل. ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين، ففتشونى لئلا يكون معى سكين، وقال لى القائد: تلك عادة لهم لابد من تفتيش كل من يدخل إلى الملك من خاص أو عام، غريب أو بلدى وكذلك الفعل بأرض الهند ثم لما فتشونى، وأحاط بى أربعة من الرجال، أمسك اثنان بكمى، واثنان من ورائى، فدخلوا بى إلى «مشور» كبير، حيطانه بالفسيفساء، قد نقش فيها المخلوقات من الحيوانات والجماد، وفى وسطه ساقية ماء، ومن جهتيها الأشجار، والناس واقفون يميناً ويساراً سكوتاً، لا يتكلم أحد منهم، وفى وسط «المشور» ثلاثة رجال وقوف أسلمنى أولئك الأربعة إليهم، فأمسكوا بثيابى، كما فعل الآخرون، وأشار إليهم رجل فتقدموا بى، وكان أحدهم يهودياً، فقال لى بالعربى: لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد، وأنا الترجمان، وأصلى من بلاد الشام فسألته: كيف أُسلِّم؟ فقال: قل السلام عليكم.

ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره، وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه، وأسفل السرير الخاتون وأخواتها، وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة، وكلهم بالسلاح فأشار إلى قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيهة، ليسكن روعى، ففعلت ذلك ثم وصلت البهو فسلمت عليه وأشار إلى أن أجلس، فلم أفعل وسألنى عن بيت المقدس، وعن الصخرة المقدسة، وعن القيامة، وعن مهد عيسى، وعن بيت لحم، وعن مدينة الخليل عليه السلام، ثم دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم، فأجبته عن ذلك كله، واليهودى يترجم بينى وبينه فأعجبه كلامى، وقال لأولاده: أكرموا هذا الرجل وأمنوه ثم خلع على خلعة، وأمر لى بفرس مسرج ملجم، وأن يعين من يركب معى بالمدينة فى كل يوم، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها، وأذكرها فى بلادى، فعين لى ذلك.

ومن العادات عندهم أن الذى يلبس خلعة الملك ويركب فرسه، يطاف به فى

أسواق المدينة بالأبواق والطبول ليراه الناس، وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذوا، فطافوا بي في الأسواق.

في الهند وجزر الهند الشرقية

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار:

رأيت الناس يهرعون من عسكرنا، ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أن كافراً من الهنود مات وأججت النار لإحراقه، وامرأته تحرق نفسها معه ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه، وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة، والناس يتبعونها من مسلم وكافر والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود وإذا كان ذلك ببلاد السلطان، استأذنوا السلطان في إحراقها، فيأذن لهم فيحرقونها. ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار، وأميرها مسلم، وعلى مقربة منها الكفار العصاة فقطعوا الطريق يوما، وخرج الأمير المسلم لقتالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار. ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات. فاتفقن على إحراق أنفسهن.

وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك، ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق أنفسهن، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب، وكأنهم يودعن الدنيا، وتأتي إليهن النساء من كل جهة. وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهي متزينة متعطرة، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها، وفي يسراها مرآة تنظر فيها ووجهها، والبراهمة يحفون بها، وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنقار، وكل إنسان من الكفار يقول لها: أبلغي السلام أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي! وهي تقول «نعم» وتضحك لهم.

وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار، متكاثف الظلال. وبين أشجاره أربع قباب، فى كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار، فلا تتخللها الشمس. ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج، وانغمسن فيه، وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض، وصب عليها زيت الجلجلان، فزاد فى اشتعالها. وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجىء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم،لئلا يدهشها النظر إليها. فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف، وقالت لهم وهى تضحك: «أبالنار تخوفوننى؟ أنا أعلم أنها نار محرقة». ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها وعند ذلك ضربت الأطبال والأنقار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها.. وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات، وكثر الضجيج.

ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسى، لولا أصحابى الذين تداركونى بالماء، فغسلوا وجهى وانصرفت وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً فى الغرق، يغرق كثير منهم أنفسهم فى نهر الكنج، وهو الذى إليه يحجون وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين، وهم يقولون إنه من الجنة، وإذا أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره: لا تظنوا أن أغرق نفسى لأجل شىء من أمور الدنيا أو لقلة مال إنما قصدى التقرب إلى كُساى، وكساى اسم الله عز وجل بلسانهم ثم يغرق نفسه، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى النهر المذكور

(جـ٣ ١٣٦ - ١٤١).

دهلى «دلهى»:

ومدينة دهلى كبيرة المساحة، كثيرة العمارة وهى الآن أربع مدن متجاورات متصلات إحداها المسماة بهذا الاسم دهلى، وهى القديمة من بناء الكفار، وكان افتتاحها سنة أربعة وثمانين وخمسمائة، والثانية تسمى سيرى وتسمى أيضا دار الخلافة، وهى التى أعطاها السلطان غياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى لما قدم عليه وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين، وسنذكرهما، والثالثة تسمى تغلق أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذى قدمنا عليه، وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوما بين يدى السلطان قطب الدين فقال له: «يا خوند عالم، كان ينبغى أن تبنى هنا مدينة»، فقال له السلطان متهكما: «إذا كنت سلطانا فابنها». فكان من قدر الله أن كان سلطانا فبناها وسماها باسمه، والرابعة تسمى «جهان بناه»، وهى مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن، الذى قدمنا عليه، وهو الذى بناها، وكان أراد أن ينضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد، فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه، لعظم ما يلزم فى بنائه.

والسور المحيط بمدينة دهلى ليس له نظير، وعرض حائطه إحدى عشر ذراعا، وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب، وفيها مخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طويلة لا يتغير ولا تطرقه آفة، ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود، لكن طعمة طيب.

(٣/ ٤٦ - ١٥٣).

الضيافة فى دلهى:

لما وصلت إلى الديار التى أعدت لنزولى وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل، يحمل السرير منها الرجل الواحد ولابد لكل أحد أن يستصحب السرير فى السفر يحمله غلامه على رأسه، وهو أربع قوائم مخروطة، يعرض عليها أربعة أعواد، وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن.. فإذا نام الإنسان عليه لم يحتج إلى ما يرطبه به،

لأنه يعطى الرطوبة من ذاته وجاءوا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف، كل ذلك من الحرير، وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحف وجوها تغشيها من كتان أو قطن بيضا، فمتى توسخت غسلوا الوجوه وبقى ما فى داخلها مصونا وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحونى، والآخر الجزار، ويسمونه القصاب، فقالوا لنا: خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق، ومن هذا كذا وكذا من اللحم، لأوزان لا أذكرها الآن.. وعادتهم أن يكون اللحم الذى يعطون بقدر وزن الدقيق، وهذا الذى ذكرناه ضيافة أم السلطان

(ج ٣/ ٣٧٩ - ٨١).

ذكر السحرة الجوكية:

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب، منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب. وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليهم، فلا يترك للواحد إلا موضع يدخل منه الهواء ويقيم به الشهر. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة.

ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة وأقام بأعلاها، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما، وتركته كذلك فلا أدرى كم أقام بعدى، والناس يذكرون أنهم يركبون حبوبا، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر، فلا يحتاجون فى تلك المدة إلى طعام ولا شراب، ويخبرون بأمور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم، ومنهم من يقتصر فى أكله على البقل، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون.

والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم فى الدنيا وزينتها، ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته، وتقول العامة: إنه إذا قتل الإنسان بالنظر، وشق عن صدر الميت وجد دون قلب، ويقولون: أكل قلبه.

وفى أحد الأيام بعث إلى السلطان محمد شاه، فدخلت عليه وكان عنده رجلان من هؤلاء الجوكية، وهما يلتحفان بالملاحف ويغطيان رأسيهما، طلب منى

السلطان الجلوس فجلست، فقال لهما: إن هذا الشخص من بلاد بعيدة فأرياه من غريب صنعكما، وصدعا بأمره، ورأيت أحدهما قد تربع ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعاً، فعجبت منه وأدركنى الخوف، فسقطت إلى الأرض، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت، وهو على حاله متربع، فأخذ صاحبه نعلاً له من شكارة «حدائق صغيرة» كانت معه، فضربت بها الأرض كالمغتاظ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب فى عنقه، وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا فقال لى السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل، ثم قال، لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت، فانصرفت عنه وأصابنى الخفقان ومرضت، حتى أمر لى بشربة أذهبت ذلك عنى.

ذكر سوق المغنين:

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات، يسمى سوق طرب آباد. من أجمل الأسواق وأكبرها.. فيه الدكاكين الكثيرة، كل دكان له باب يفضى إلى دار صاحبه، وللدار باب سوى ذلك، والحانوت مزين بالفراش، وفى وسطه شكل مهد كبير، تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهى متزينة بأنواع الحلى، وجواريها يحركن مهدها، وفى وسط السوق قبة عظيمة مزخرفة، يجلس فيها أمير المغنين بعد صلاة العصر من كل يوم خميس، وبين يده خدامه ومماليكه، وتأتى المغنيات طائفة بعد أخرى، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب، ثم ينصرف.

وفى تلك السوق المساجد للصلاة.. ويصلى الأئمة فيها التراويح فى شهر رمضان، وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها، وتغنى المغنيات بين يديه، وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا

(ج٤/ ٥٠ - ٥١).

قندهار:

وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسى، وهو تحت حكم الإسلام، يعطى ملك الهند هدية كل عام، ولما وصلنا إلى قندهار استقبلنا وعظمنا أشد التعظيم، وخرج

عن قصره فانزلنا به وجاء إلينا من عنده من كبار المسلمين، كأولاد خواجة بهرة، ومنهم الناخداة إبراهيم، وله ستة من المراكب، ومن هذه المدينة ركبنا البحر.

ذكر ركوبنا البحر:

وركبنا فى مركب لإبراهيم هذا يسمى الجاكر، وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا، وجعلنا باقيها من خيل أصحابنا، فى مركب لأخى إبراهيم، وأعطانا جالنسى مركبا جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما، وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف، وبعث معنا والده فى مركب شبه الغراب إلا أنه أوسع منه، وبه ستون مجدافا، ويقف حين القتال حتى لا ينال الجدافين شىء من السهام ولا الحجارة، وكان ركوبى أنا فى الجاكر، وكان فيه خمسون راميا، وخمسون من المقاتلة الحبشان، وهم زعماء هذا البحر، وإذا كان بالمركب أحد منهم تحماه لصوص الهنود وكفارهم.

ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بيرم، وهى خالية، وبينها وبين البر أربعة أميال، فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها، وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد، وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها، وجعل بها المجانيق، وأسكن بها بعض المسلمين، ثم سافرنا منها ووصلنا اليوم التالى إلى مدينة قوقة، وهى مدينة كبيرة عظيمة الأسواق أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت فى عشارى مع بعض أصحابى حين الجزر لأدخلها، فوحل العشارى فى الطين، وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل، فكنت لما نزلت فى الوحل اتوكأ على رجلين من أصحابى، وخوفنى الناس وصول المد، قبل وصولى إليها وأنا لا أحسن السباحة، ثم وصلت إليها وطفت بأسواقها، ورأيت يها مسجد ينسب للخضر والياس، عليهما السلام، صليت به المغرب، ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم، ثم عدت إلى المركب.

(ج٤/ ٥٨ - ٦١).

بلاد المليبار:

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المليبار، وهى بلاد الفلفل، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار، وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين، يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر، وعند كل بيت منها بئر يُشْرَب منه ورجل كافر موكل بها، فمن كان كافراً سقاه فى الأوانى، ومن كان مسلماً سقاه فى يديه، ولايزال يصب له حتى يشير له أن يكف، وعادة الكفار ببلاد المليبار ألا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم فى أوانيهم، فإن طعم فيها كسروها وأعطوها للمسلمين. وإذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين، طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز، وصبوا عليه الإدام وما فضل عنه يأكلونه الكلاب والطير، وفى جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزلون عندهم المسلمين، فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه ويطبخون لهم الطعام ولولا لما سافر فيه مسلم.

وهذا الطريق ذكرنا أنه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة، وكل إنسان بستانه على حدة وداره فى وسطه وعلى الجميع حائط خشب، والطريق يمر فى البساتين فإذا انتهى إلى حائط بستان، كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل عليها إلى البستان الآخر، هكذا مسيرة الشهرين.

ولا يسافر أحد فى تلك البلاد بدابة ولا تكون الخيل إلا عند السلطان وأكثر ركوب أهلها فى دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين، ومن لم يستطع أن يركب فى دولة مشى على قدميه كائنا من كان، ومن كان له رجل أو متاع من تجارة وسواها، اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم. فترى هناك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته، وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفى أعلاها مخطاف حديد. فإذا أعيا ولم يجد دكانه يستريح عليها ركز عوده بالأرض وعلق حمله فيه، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به.

ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق، وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة، فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة وبلغ خبره إلى الحاكم، فأمر بعود فركز فى الأرض وبرى طرفه الأعلى وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه ومد الرجل على اللوح، وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره وترك عبرة للناظرين.

ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرا ليراها الناس فيتعظوا ولقد كنا نلقى الكفار بالليل فى هذا الطريق فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز والمسلمون أعز الناس بها، غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم، وفى بلاد المليبار اثنا عشر سلطانا من الكفار منهم القوى الذى يبلغ عسكره خمسين ألفا ومنهم الضعيف الذى عسكره ثلاثة آلاف، ولا فتنة بينهم البتة ولا يطمع القوى فى انتزاع ما بيد الضعيف، وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذى هو مبدأ عمالته ويسمونه باب أمان فلان.

وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل إلى بلاد أمان الآخر آمن على نفسه ولم يستطع الذى هرب عنه أخذه وإن كان القوى صاحب العدد والجيوش، وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم، ولم أر من يفعل ذلك ألا مسوفه أهل الثلم «اللثام»، وسنذكرهم فيما بعد، وإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء، أمر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض أغصان والأشجار بأوراقها، فلا يبيع أحد ولا يشترى مادامت عليها تلك الأغصان.

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة، أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب، وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له الله ربى ومحمد نبيى وأنا مسكين، وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء، ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها، فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس، ولا

تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لأنهم جربوا أن من أخذ لهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة.

وإذا أتت أجفان «زوارق» العدو إلى ناحيتهم، أخذوا من وجدوا من غيرهم، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء، وإن أخذ أحد الكفار ولو ليمونة عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفاً من عاقبة ذلك، ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم، وفى كل جزيرة من جزائرهم يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق، ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالفالية المجلوبة من مقدشو.

ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح، أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الفالية فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الفالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه، ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل، ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليو «بكسر الواو وسكون اللام وياء» وهى شبه الأحاريم، وبعضهم يجعل عمامةً وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً منها وإذا لقى أحدهم القاضى أو الخطيب، وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل إلى منزله. ومن عوائدهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره، فإذا وصل إليه رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه، وإن كانت المرأة هى التى تأتى إلى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه، وكذلك عادتهم فى السلام على السلطان عندهم لابد من ثوب يرمى عند ذلك.

وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات لأن أرضهم ندية، وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفاً، ويعرضون عليها خشب النارجيل، ثم

يصنعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة فى ذلك، ويبنون من أسطوان الدار بيتا يسمونه المالم «بفتح اللام» يجلس الرجل مع أصحابه، ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الأسطوان يدخل منه والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه الوالنج «بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم» وهى من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون البناء من الآبار لقربها.

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار، فالماشى بها كأنه فى بستان ومع ذلك لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء من الخابية بالمالم، ويمسحها بحصير غليظ من الليف، يكون هناك ثم يدخل بيته، وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد.

ومن عوائدهم إذا قدم مركب أن تخرج إليه الكنادر، وهى القوارب الصغار واحدها كُندة «بضم الكاف والدال» وفيها أهل الجزيرة معهم التنبو والكزنبة وهى جوز النارجيل الأخضر، فيعطى الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزيله ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه، ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج، فإذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهم، ومن لم يتزوج فالمرأة التى ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر وترضى منه فى مقابلة ذلك بأيسر شىء من الإحسان.

وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشترى من كل سلعة بالمركب حظا بسوم (سعر) معلوم، سواء كانت السلعة تساوى ذلك أو أكثر منه ويسمونه شرح البندر، ويكون للبندر بيت فى كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار «بفتح الباء الموحدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المهملة وآخره راء»، يجمع به الوالى وهو الكودورى جميع سلعه ويبيع بها ويشترى.

وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه وجوز النارجيل والفوط الولياوى والعمائم، وهى من القطن ويحملون منها أوانى

النحاس فإنها عندهم كثير ويحملون الودع ويحملون القنبر «بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء» وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه فى حفر على الساحل، ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل إلى الصين والهند واليمن وهو خير من القنّب، وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن، لأن ذلك الحبر كثير الحجارة فإن كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر، وإذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر.

وصرف أهل الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه من البحر، ويضعونه فى حفر هناك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه سياه «بسين مهملة وياء آخر الحروف» ويسمون السبعمائة منه السفال «بالفاء» ويسمون الاثنى عشر ألفا منه الكنى «بضم الكاف وتشديد التاء المعلوة» ويسمون المائة ألف منه بستو «بضم الباء الموحدة والتاء المعلوة وبينهما سين مهمل» ويباع بها بقيمة أربعة بساتى بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتى منه بدينار ويبيعونه من أهل بنجالة بالأرز، وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة يبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرحل فى مراكبهم، وهذا الودع أيضاً هو صرف السودان، رأيته يباع بمالى وجوجو بحساب ألف وخمسين للدينار الذهبى.

ونساؤها لا يغطين رؤوسهم ولا سُلطانتهم تغطى رأسها. ويمشِّطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها، ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك فكنت لا تدخل إلىّ منهن امرأة فى خصومة إلا مسترة الجسد، وماعدا ذلك لم تكن عليه قدرة.

ولباس بعضهم قُمُص على الفوطة وقمصهن قصار الإكمام عراضها، وكان لى جَوار كسوتهن لباس أهل دهلى يغطين رؤوسهن، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن

إذ لم يتعودنه وحليتهن الأساور وتجعل المرأة جملة فى ذراعها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق وهى من الفضة ولا يحمل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه، ولهن خلاخل يسمونها البايل «بباء موحدة وألف وياء آخر الحروف مكسورة»، وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البسدر «بالباء الموحدة وسكون السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء».

ومن عجيب أفعالهن أنهم يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها على مستأجرهن نفقتهن، ولا يرين ذلك عيبا ويفعله أكثر بناتهم. فتجد فى دار الإنسان الغنى منهن العشرة والعشرين وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته. وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التى تخرج إليها العدد الذى هى مرتهنة فيه فتدفعه لأهل الدار التى خرجت منها ويبقى عليها للآخرين. وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر.

والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء وأكثر الناس لا يسمى صداقا إنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها، وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فإذا أرادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة، وهن لايخرجن عن بلادهن أبدا ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها لسواها بل هى تأتيه بالطعام وترفعه بين يديه وتغسل يديه وتأتيه بالماء للوضوء وتغم رجليه عند النوم. ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة، ولقد تزوجتُ بها نسوة فأكل معى بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم تأكل، ولا استطعت أن أراها تأكل ولا نفعتنى حيلة فى ذلك.

المليبار

الجوكى فى الجزيرة:

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى، وجدنا بها جوكيا مستندا إلى حائط بدخانة، وهى بيت الأصنام وهو فيما بين صنمين منها، وعليه أثر المجاهدة، فكلمناه فلم

يتكلم ونظرنا هل معه طعام، فلم نر معه طعامًا وفى حين نظرنا صاح صيحة عظيمة، فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه، ودفعها لنا فعجبنا من ذلك، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها وآتيناه بزاد فرده وكانت بين يده عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدى، فدفعها إلىَّ، وكانت بيدى سبحة، فقلبها فى يدى فأعطيته أياها، ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار إلى السماء، ثم إلى سمت القبلة، فلم يفهم أصحابى إشارته، ففهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفى إسلامه عن أهل تلك الجزيرة، ويتعيش من ذلك الجوز.

ولما ودعنا قبلت يده، فأنكر أصحابى ذلك، ففهم إنكارهم، فأخذ يدى وقبلها وتبسم، وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا، وكنت آخر أصحابى خروجاً فجذب ثوبى، فرددت رأسى إليه فأعطانى عشرة دنانير... فلما خرجنا عنه قال لى أصحابى: لم جذبك؟ فقلت لهم: أعطانى هذه الدنانير، وأعطيت ظهير الدين ثلاثة منها، وسنبلا ثلاثة، وقلت لهما: الرجل مسلم ألا ترون كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعالى، وأشار إلى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام، وأخذ السبحة يصدق ذلك.. فرجعا لما قلت لهما ذلك فلم يجداه.

(ج٤/ ٦٢ - ٦٤).

جزائر ذيبة المهل «ملديف»:

وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل، وكنت أسمع بأخبارها.. فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط، وصلنا جزائر ذيبة المهل، وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا، وهى نحو ألفى جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة، لها مدخل كالباب تدخل المراكب الآمنة، وإذا وصل المركب إلى إحداها، فلابد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر، وهى من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى، فإن أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها، وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان.

وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح.. وهى منقسمة أقاليم،

على كل إقليم وال، وهذه الجزائر كلها لا زرع بها، إلا أن فى إقليم السويد منها زرعاً، وجلب منه إلى المهل. وإنما أكل أهلها سمك يسمونه قلب الماس، ولحمه أحمر ولا ظفر له، وإنما ريحه كريح لحم الأغنام وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيرا، ثم جعلوه فى مكاتل من سعف النخيل، وعلقوه للدخان، فإذا استحكم يبسه أكلوه، ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن.

وأهل هذه الجزيرة أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة.. وإذا رأى الإنسان أحدهم، قال له: «الله ربى ومحمد نبيى» وأبدانهم ضعيفة، ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة. ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها، فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس، ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم، وإذا اتت «أجفان» العدو إلى ناحيتهم، أخذوا من وجدوا من غيرهم، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء وإن أخذ الكفار ولو ليمونة، عاقبة أمير الكفار، وضربه الضرب المبرح.

وفى كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة.. وأكثر عمارتهم بالخشب. وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار، وأكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم، تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق. ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرهم ويتلطخون بالغاية المجلوبة من مقدشو، ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة، وبماء الورد ودهن الغالية، فيكحل عينه، ويدهن بماء الورد ودهن الغالية، فتصقل بشرته، وتزيل الشحوب عن وجهه ولباسهم فوط، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل، ويجعلون على ظهورهم ثيابا كالمحرمين، وبعضهم يجعل عمامة، وبعضهم منديلا صغيرا عوضا عنها.

وإذا لقى أحدهم القاضى أو الخطيب، وضع ثوبه على كتفيه، وكشف ظهره، ومضى معه كذلك حتى يصل إلى منزله، ومن عادتهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت،

وجعلت عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت منتظرة، فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه، وإن كانت المرأة هى التى تأتى إلى منزل الرجل بسط داره وجعل فيها الودع، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه، وكذلك عادتهم فى السلام على السلطان عندهم، لابد من ثوب يرمى عند ذلك، وبنيانهم بالخشب، ويجعلون سطوح البيت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات، لأن أرضهم ندية.

وكيفية ذلك أنهم ينحتون حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة، ويجعلونها صفوفاً ويعرضون عليها خشب النارجيل، ثم يصنعون الحيطان من الخشب، ولهم صناعة عجيبة فى ذلك ويبنون فى «أسطوان» الدار بيتاً يسمونه «المالم»، يجلس الرجل به مع أصحابه، ويكون له بابان أحدهما إلى جهة «الأسطوان» يدخل منه الناس، والآخر إلى جهة الدار، يدخل منه صاحبها، ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء، ولها مستقى من قشر جوز النارجيل، وله نصاب طوله ذراعان.

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع.. وأزقتهم مكنوسة نقية تظلها الأشجار، فالماشى بها كأنه فى بستان، ومع ذلك لابد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذى فى الخابية، ويمسحهما بحصير غليظ من الليف هنالك، ثم يدخل بيته، وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد.

ومن عادتهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه القوارب الصغار، وفيها أهل الجزيرة ومعهم التانبول وجوز النارجيل الأخضر، فيعطى الإنسان منهم ذلك من شاء من أهل المركب، ويكون نزيله، ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه، ومن أراد التزويج من القادمين عليه تزوج، فإذا حان سفره طلق المرأة، لأنهن لا يخرجن عن بلادهن، ومن لم يتزوج فالمرأة التى ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه، وتزوده إذا سافر، وترضى منه فى مقابل ذلك بأيسر شىء من الإحسان.

وفائدة المخزن ويسمونه «البندر» أن يشترى من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم، سواء كانت السلعة تساوى ذلك أم كانت تساوى أكثر منه، ويكون للبندر بيت فى كل جزيرة من الخشب، يجمع به الوالى جميع سلعه ويبيع ويشترى، وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج، فتباع القدر بخمس دجاجات وست.

وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه، وجوز النارجيل والفوط والعمائم، وهى من القطن. ويحملون منها أوانى النحاس، فإنها عندهم كثيرة، ويحملون الودع، ويحملون القنبر وهو ليف جوز النارجيل، وهم يدبغونه ثم تغزله النساء، وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب، وتحمل إلى الصين والهند واليمن، وهو خير من القنب، وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن، لأن ذلك البحر كثير الحجارة، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر، وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر.

(ج٤/ ١١٠ - ١٢١)

ذكر تزوجى وولايتى القضاء:

وفى الثانى من شوال اتفقت مع الوزير سلمان على الزواج من ابنته، فبعث إلى الوزير جمال الدين أن يكون العقد بين يديه بالقصر فأجاب إلى ذلك، وأحضر التانبول على العادة والصندل، وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان، فاستدعى فلم يأت، ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت، فقال لى الوزير سرا: إن بنته امتنعت وهى مالكة أمر نفسها، والناس قد اجتمعوا، فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطانة زوجة أبيها، وهى التى ولده متزوج ابنتها؟ فقلت له: نعم فاستدعى القاضى والشهود ووقعت الشهادة ودفع الوزير الصداق.

ولما تزوجتها أكرهنى الوزير على القضاء، وسبب ذلك اعتراض على القاضى، لكونه كان يأخذ العشر من التركات، إذا قسمها على أربابها، فقلت له: انما لك أجرة تتفق بها مع الورثة ولم يكن يحسن شيئاً، فلما وليت اجتهدت جهدى فى

إقامة رسوم الشرع وليست هنالك خصومات كما هى ببلادنا فأول ما غيرت من عادات السوء مكث المطلقات فى ديار المطلقين، وكانت إحداهن لاتزال فى دار المطلق حتى تتزوج غيره فحسمت علة ذلك، وأتى إلى بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعلوا ذلك، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق وأخرجت النساء عنهم، ثم اشتددت فى إقامة الصلوات.

وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق أثر صلاة الجمعة، فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته، وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك:

(ج٤/ ١٤٩ - ١٥٢)

طائر الرخ:

ركبنا الجُنْك من مدينة الزيتون «تو - تونج» وسار بنا عشرة أيام بريح طيبة، ثم تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر، وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس، ثم دخلنا بحراً لا نعرفه، جعلنا نضرب فيه أربعين يوماً لا نعرف فى أى البحار نحن، ولما كان فى اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل فى البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا، والريح تحملنا صوبه. فعجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد فى البحر جبل، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة، وابتهلنا إلى الله بالدعاء، وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، ونذر التجار التصدقات الكثيرة وكتبتها لهم فى زمام بخطى وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك، ورأيت البحرية يبكون ويودعون بعضهم بعضاً فقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: إن الذى تخيلناه جبلا هو الرخ، وإن رآنا أهلكنا، وبيننا إذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال ثم أن الله تعالى، مَنّ علينا بريح طيبة صرفتنا من صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته، وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا إلى الجاوة ونزلنا إلى سَمُطْرَة».

وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لايضاهيه فى ذلك إقليم من أقاليم الأرض ويخترقه النهر المعروف «بآب حياة» ومعنى ذلك ماء الحياة ومنبعه من جبال تسمى «كوه بوزنة»، ومعناه جبل القرود، ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة أشهر، إلى أن ينتهى إلى صين الصين وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلا أن هذا أكثر عمارة، وعليه النواعير الكثيرة وببلاد الصين السكر الكثير، مما يضاهى المصرى بل يفضله، والأعناب والأجاص.

وكنت أظن أن الأجاص العثمانى الذى بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الأجاص الذى بالصين وبها البطيخ العظيم يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان، وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن به ما هو مثله وأحسن منه، والقمح بها كثير جدا، ولم أر قمحاً أطيب منه.. وكذلك العدس والحمص.

وأما الفخار الصينى فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون، وبصين كلان، وهو من تراب جبال هناك، توقد فيه النار كالفحم ويضيفون إليه حجارة عندهم، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون الماء عليها، فيعود الجميع ترابا، ثم يخمرونه فأجيد منه ما خمر شهرا كاملا، ولا يزيد عن ذلك، ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم، حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب، وهو أبدع أنواع الفخار.

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا. أضخم من الأوز عندنا، وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الأوز عندنا، وأما الأوز عندهم فلا ضخامة لها.. ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها، فلم يسع لحمها برمة واحدة، فجعلناها فى برمتين، ويكون الديك بها على قدر النعامة وأول ما رأيت الديك الصينى بمدينة كولم فظننته نعامة وعجبت منه، فقال لى صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو

أعظم منه.

فلما وصلت إلى الصين رأيت مصادق ما أخبرنى به من ذلك.

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما يفعل الهنود، وملك الصين تتر من زرية تنكيزخان ولهم فيها المساجد لإقامة الجماعات وسواها، وهم معظمون محترفون، وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها فى أسواقهم، وهم أهل رفاهية وسعة عيش، إلا أنهم لايحتفلون بمطعم ولا ملبس. وترى التاجر الكبير منهم، الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة.

وجميع أهل الصين انما يحتفلون بأوانى الذهب والفضة. ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى، والحرير عندهم كثير جدا، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها، فلا تحتاج إلى كثير مؤنة، ولذلك كثر، وهو لباس الفقراء والمساكين بها، ولولا التجار لما كانت له قيمة.

ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير، وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه، ويجعل ذلك على باب داره، ومن كان له خمس قطع منها جعل فى أصبعه خاتماً، ومن كانت له عشرة جعل خاتمين، ومن كان له خمس عشر سموه «الستى»، وهو بمعنى الكارمى بمصر.

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم.. وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد، كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان. وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك. ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء، وإذا مضى الإنسان

إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه.

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا لها، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً.

ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتى وصورة أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد، موضوعة فى الأسواق، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى، ونحن على زى العراقيين، فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد، موضوعة فى الأسواق، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى، ونحن على زى العراقيين، فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى كاغد قد ألصقوه بالحائط، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا يخطىء شيئا من شبهه وذكر لى السلطان أمرهم بذلك، وانهم أتوا إلى القصر ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك. وتلك عادة لهم فى تصوير كل ما يمر بهم، وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عندهم، بعثوا صورته إلى البلاد وبحث عنه، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ.

وهذا مثل ما حاكاه أهل التاريخ من قصة سابور ذى الاكتاف ملك الفرس، حين دخل بلاد الروم متنكرا، وحضر وليمة صنعها ملكهم، وكانت صورته على بعض الأوانى، فنظر إليها بعض خدام قيصر، فانطبقت على صورة سابور، فقال لملكه: إن هذه الصورة تخبرنى أن كسرى معنا فى هذا المجلس..

فكان الأمر على ما قاله.. وجرى فيه ما هو مسطور فى الكتب.

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين، فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها، جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان باسمه، وكتب بها تفسيراً، وبعث معهم من يوصلهم إليه، وإن لم يفعل طالبه بهم وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم، من صين الصين إلى خان بالق. وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد، وخصوصاً الدجاج والأوز.. أما الغنم فهى قليلة عندهم.

ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول:

لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون، وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند، ولكنه اسم وضع عليها، وهى مدينة عظيمة كبيرة، تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس، وتعرف بالنسبة إليها، ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها، رأيت نحو مائة «جنك» كبار.

وأما الصغار فلا تحصى كثرة، وهو خور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالنهر الأعظم، وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض، وداره فى وسطها، كمثل ما فى بلدة سجلماسة ببلادنا.. وبهذا عظمت بلادهم، والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة.

وفى يوم وصولى إليها رأيت بها الأمير الذى توجه إلى الهند رسولا بالهدية، ومضى فى صحبتنا وغرق به الجنك، فسلم على وعرف صاحب الديوان بى، فأنزلنى فى منزل حسن، وجاء إلى قاضى المسلمين تاج الدين الارذويلى، وهو من الأفاضل الكرماء، وشيخ الإسلام كمال الدين عبدالله الأصفهانى، وهو من الصلحاء. وجاء إلىَّ كبار التجار، وفيهم شرف الدين التبريزى، أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومى على الهند، وأحسنهم معاملة، حافظ القرآن مكثر

للتلاوة. وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد الكفار إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح، وقالوا: جاء من أرض الإسلام.

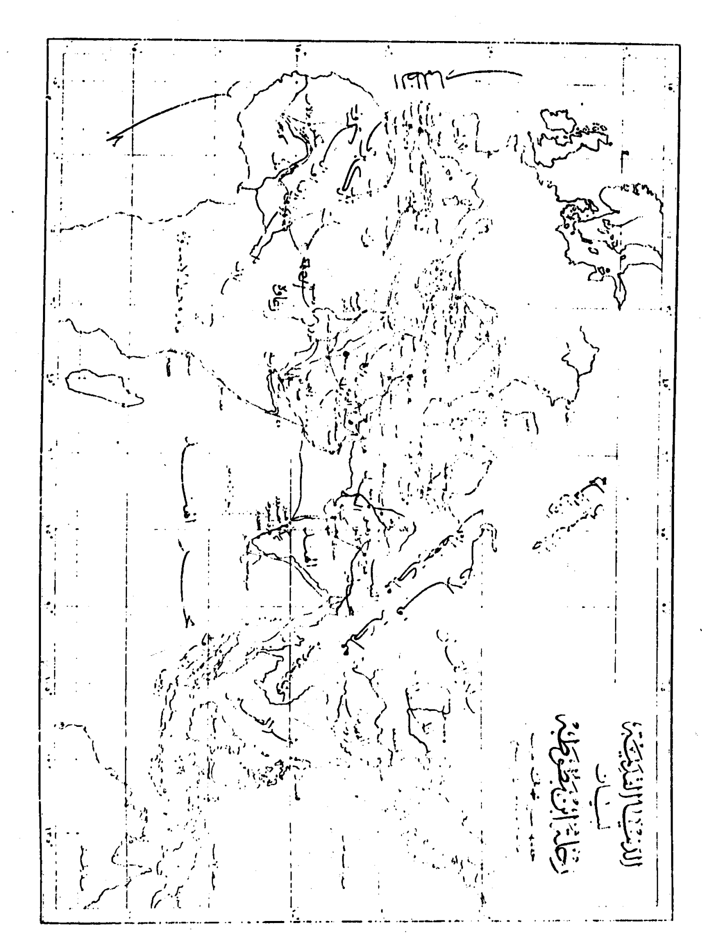
من أفعال السودان

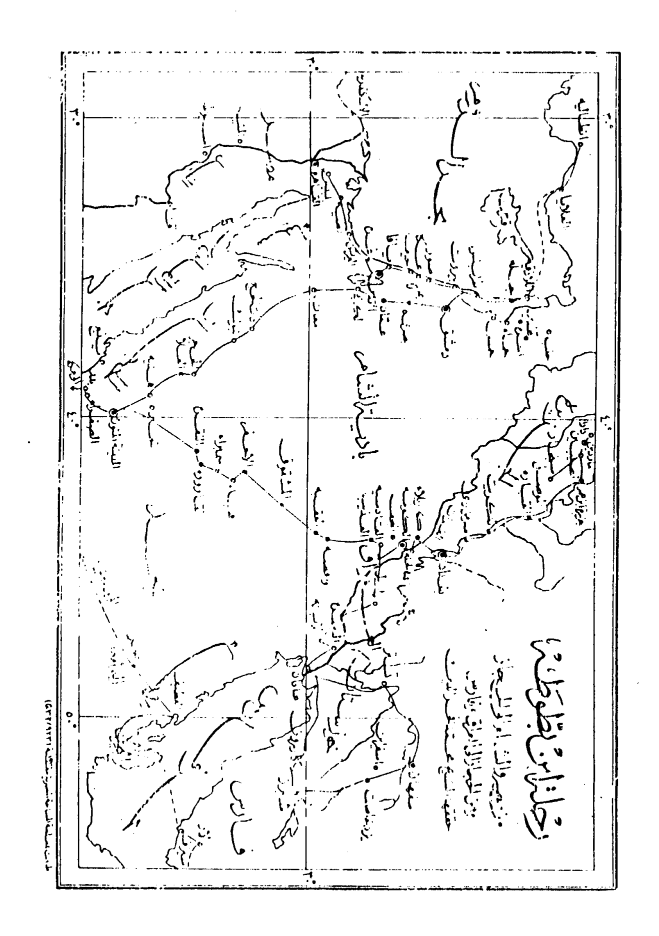
فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه.. وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شىء منه.. ومنها شمول الأمن فى بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً.. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه.. ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام، ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه به حتى يذهب إلى المسجد.. وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل، ولا ثمر له.. ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة.

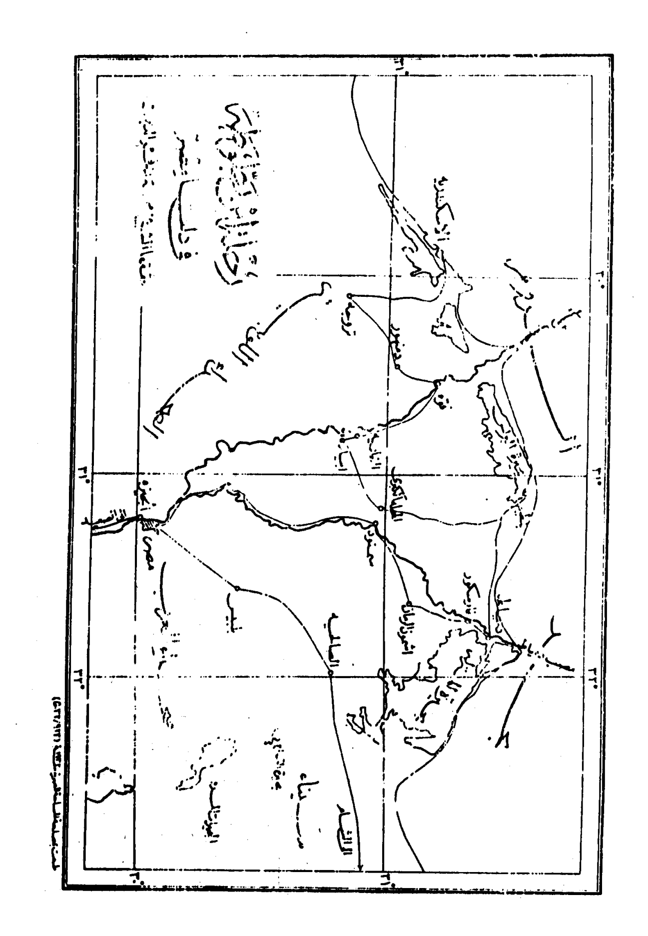
ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضى يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له «ألا تسرحهم؟» فقال: «لا أفعل حتى يحفظوا القرآن» ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفى رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معى: «ما فعل هذا، أقتل؟» ففهم عنى الشاب وضحك وقيل لى: «إنما قيد حتى يحفظ القرآن».

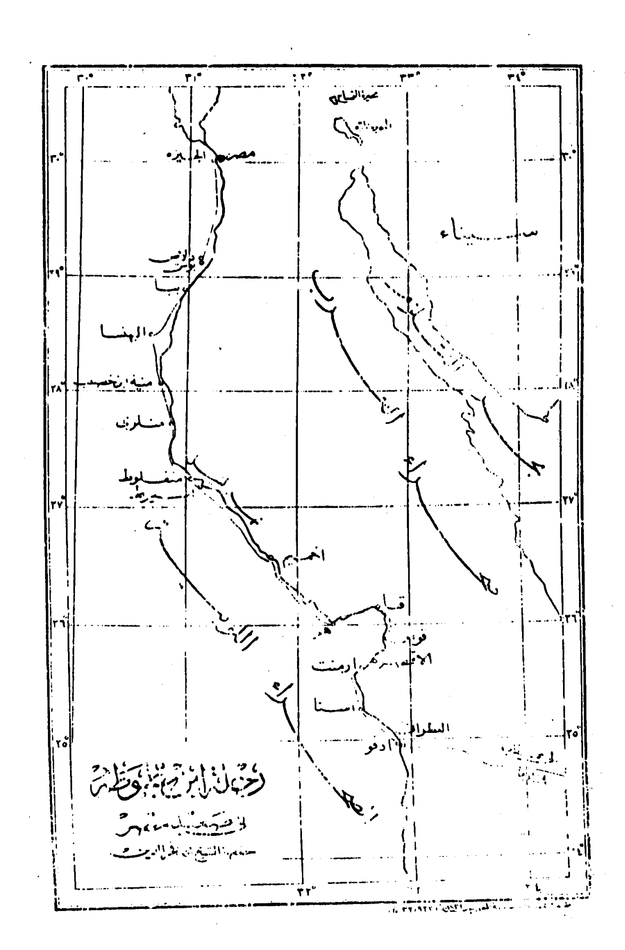
ومن مساوئ أفعالهم أن الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا، ولقد كنت أرى فى رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة، فإن عادة «الفرارية» أن يفطروا بدار السلطان، ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فمن فوقهن من جواريه، وهن عرايا.. ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا. ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير .

(ج٤/ ٤٢١ - ٤٢٤)


الدنيا القديمة
لبيان
رحلة ابن بطوطة
الهند
بحر الهند







ابن خلدون

(٧٣٢ - ٨٠٨هـ) (١٣٣٢ - ١٤٠٦م)

هو الفقيه الأديب الفيلسوف المؤرخ الرحالة العربى الشهير ابن خلدون، الذى وضع الأسس الأولى لعلم الاجتماع قبل **أوجست كونت** بعدة قرون، وكان نموذجا فذا للعالم الجاد الطموح، له إسهامات بارزة فى كافة ألوان الفكر والمعرفة، وفى مجالات عدة من الفنون والعلوم، حتى لقد كتب فى الطب والتنجيم والصناعات كالبناء والنجارة والحياكة.

خلف ابن خلدون عدة مؤلفات، من أهمها: **مقدمته**، و«**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر**»، والتعريف بابن خلدون، ورحلته غربا وشرقا.

غلب عليه فى أحيان كثيرة ولعه بالسياسة وطموحه القوى لارتقاء أعلى المناصب، وأقلقه وأرقه غرام فطرى بالإدارة ورغبة فى السلطة، ودفعه الشوق لامتطاء خيولها متوهما أنه فارسها الأول، وقد غاب عنه أن خيول السياسة فى بلادنا العربية كانت وربما لاتزال - فيما نتصور - غير مأمونة الجانب وليست سهلة القياد أو طيعة، وممارسة لعبتها ذات عواقب وخيمة، وليس بالإمكان حصر ضحايا مواقفها التعسة وبورصتها المجنونة.

ولعل السبب فى تنامى تطلعاته هو فرط الثقة بالمواهب الشخصية من ذكاء وجسارة وقدرة على كسب الأصدقاء والأعداء وحذق الخطط الوصولية، وكان شأن ابن خلدون فى هذا شأن المتنبى، وليس من شك أن كلاً منهما كان عظيماً.

ولد عبدالرحمن أبو زيد وليد الدين ابن خلدون بتونس، فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ - ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢م، وهو ينتمى لأسرة من أصل حضرمى، انتقلت إلى الأندلس والمغرب مع الفتح العربى لهذه البلدان.

تعلم فى البداية على يد أبيه الذى كان أديبا وفقيها، ثم أكمل قراءة القرآن والعلوم الشرعية على يد أساتذة آخرين، وقد لفت عبد الرحمن إليه الأنظار بنبوغه وإقباله الشديد على قراءة الكتب.

يقول ابن خلدون فى كتابه «**التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (٢٥)**» وهو الذى سنعول عليه فى الاقتراب من عالمه، سيرة ورحلة.

«لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم وحلقاته إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواى رحمهما الله».

ولهذا توقف ابن خلدون عن التلمذة، وإن شق طريقه العلمى بجهده الشخصى.

رحلة ابن خلدون

فى أوائل عام ٧٥٣هـ، طلع ابن خلدون فى ركب ابن تافراكين والى تونس الذى كان وزيرا للفضل بن يحيى الحفصى سلطان تونس، وانتزع منه العرش إلا أن حفيد السلطان زحف فى ذلك العام لمحاولة استرداد عرش جده، وأنزل الهزيمة بابن تافراكين، ففر ابن خلدون من المعسكر، ومضى هائماً فى البلاد حتى وصل إلى إحدى مدن الجزائر، ثم انتقل إلى فاس عام ٧٥٥هـ وتقرب من السلطان أبى عنان، إلى أن أصبح ضمن كتابه وعضوا بالمجلس العلمى، وعن هذا يقول ابن خلدون:

«فإنا لما خرجنا من تونس، نزلنا بلاد هوارة وزحفت العساكر بعضها إلى بعض بفحص مرجانة وانهزم صفنا، ونجوت أنا إلى أبَّة فأقمت بها عند أحد الشيوخ..

ثم تحولت إلى «تبسة» ونزلت بها على محمد بن عبدون صاحبها، فأقمت عنده ليالى حتى هيأ لى الطريق، وبذرق لى مع رفيق من العرب وسافرت إلى قفصة، وأقمت بها أياما أترصد الطريق»...

ثم نرى ابن خلدون يواصل سيره حتى يصل إلى بسكرة فيقول:

وارتحلت أنا من بسكرة، وافداً على السلطان أبى عنان بتلمسان، فلقيت ابن أبى عمرو بالبطحاء، وتلقانى من الكرامة بما لم أحتسبه، وردنى معه إلى بجاية، فشهدت الفتح، وتسائلت وفود أفريقية إليه، فلما رجع السلطان وفدت معهم، فنالنى من كرامته، وإحسانه ما لم أحتسبه إذ كنت شابا لم يطر شاربى، ثم انصرفت مع الوفود، ورجع ابن أبى عمرو إلى بجاية، فأقمت عنده حتى انصرم الشتاء...

وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكرى عنده، وهو ينتقى طلبة العلم للمذاكرة فى ذلك المجلس، فأخبره الذى لقيتهم بتونس عنى، ووصفونى له، فكتب إلى الحاجب يستقدمنى، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين، ونظمنى فى أهل مجلسه، وألزمنى شهود الصلوات معه ثم استعملنى فى كتابته، والتوقيع بين يديه، على كره منى إذ كنت لم أعهد مثله لسلفى، وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس الوافدين فى غرض السفارة وحصلت على الإفادة منهم، على البغية(٧).

وأتيح له وهو ينعم بكرم السلطان أن يعود إلى القراءة والدرس، إلا أن طموحاته السياسية التى لا تكف عن النبض والحركة دفعته للاشتراك فى مؤامرة لصالح أحد الأمراء الحفصيين المأسورين، ولما علم أبو عنان، أمر بإيداع ابن خلدون غيابة السجن فلزمه سنتين، ولم يطلق سراحه إلا ولد أبى عنان وما أن رأى النور حتى شرع يتقرب إلى الجديد نحو عام، ثم ما لبث أن تواطأ مع أعدائه وتآمر فعزله السلطان، ومن ثم أسرع ابن خلدون يسعى طالبا العفو، فيعفى عنه

ويتولى المناصب اللائقة به، وسرعان ما يطمح إلى ما فوقها، ولا يجد سبيلاً إلى ذلك غير التآمر إلى أن يمل هو نفسه هذه الحال، ويقرر الارتحال إلى غرناطة بالأندلس، حيث قصدها أوائل عام ٧٦٤هـ، يقول ابن خلدون:

ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس، بعثت بأهلى وولدى إلى أخوالهم بقسنطينة.. وسرت إلى سبتة... وكان كبيرها يومئذ الشريف أبوالعباس الحسينى، ذا النسب الواضح، ولما وصلت إليها سنة أربع وستين، أنزلنى بيته إزاء المسجد الجامع، وبلوت منه ما لا يقدر مثله من الملوك، وأركبنى الحراقة ليلة سفرى يباشر دحرجتها إلى الماء بيده إغراباً فى الفضل، والمساهمة، وحططت بجبل الفتح... ثم خرجت منه إلى غرناطة، وكتبت إلى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأنى، وليلة بت بغرناطة على بريد منها لقينى كتاب ابن الخطيب يهنئنى بالقدوم:

ثم أصبحت من الغد قادماً على البلد، وذلك ثانى ربيع الأول عام أربعة وستين، وقد اهتز السلطان لقدومى، وهيأ لى المنزل، من قصوره بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائى تحفيا وبرا، ومجازاة بالحسنى، ثم دخلت عليه فقابلنى بما يناسب ذلك، وخلع على وانصرفت.

وخرج الوزير ابن الخطيب فشيعنى إلى مكان نزلى، ثم نظمنى فى علية أهل مجلسه، واختصنى بالنجى فى خلوته، والمواكبة فى ركوبه، والمواكلة والمطايبة، والفكاهة فى خلوات أنسه، وأقمت على ذلك عنده، وسفرت عنه سنة خمس وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ.. لإتمام عقد الصلح، بينه وبين ملوك العدوة بهدية فاخرة من ثياب الحرير، والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة فلقيت الطاغية بإشبيلية، وعاينت آثار سلفى، وعاملنى من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتباط بمكانى، وعلم أولية سلفنا بإشبيلية..

فطلب الطاغية منى حينئذ المقام عنده، وأن يرد على تراث سلفى بإشبيلية... فتفاديت من ذلك بما قبله، ولم يزل على اغتباطه، إلى أن انصرفت عنه، فزودنى

وحملنى واختصنى ببقلة فارهة بمركب ثقيل، ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان، فأقطعنى قرية البيرة من أراضى السفى بمرج غرناطة.

وهكذا نرى ابن خلدون، قد نجح نجاحاً بالغاً فى هذه المصالحة، ثم عاد إلى السلطان بعد ما زود بهدية سنية.

ويقول ابن خلدون:

«وبعد خمسة أيام من قدومى من إشبيلية، حضرت المولد النبوى، وكان يحتفل فى الصنيع فيها والدعوة وإنشاد الشعراء بملوك المغرب»[8].

ولما اطمأن ابن خلدون إلى الحياة الجديدة، أرسل إلى أهله وأولاده يستقدمهم ليعيشوا معه حياته الناعمة المستقرة.

وبعد هدوء البال واستقرار الحياة وصفاء العيش، أبت السعايات إلا أن تكدر هذا الصفاء، فشعر ابن خلدون بتألب الوزير ابن الخطيب عليه، وشم منه رائحة الانقباض، ونتركه يحدثنا عن ذلك فى كتابه:

«لم تلبث الأعداء، وأهل السعايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستى للسلطان، واشتماله على، وحركوا له جواد الغيرة، فتنكر وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة، وتحكمه فى سائر أحوالها، وجاءتنى كتب السلطان أبى عبدالله صاحب بجاية، بأنه استولى عليها فى رمضان سنة خمس وستين، وقد استدعانى إليه، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر فى الارتحال إليه، وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لمودته فارتمض[9] لذلك ولم يسعه إلا الإسعاف، فودع وزود وكتب لى مرسوماً بالتشييع من املاء الوزير ابن الخطيب[10] فى نحو صفحتين من القطع الكبير، يفيض مدحاً وثناءً على وأسفا على فراقى، ويأمر كل من وقف عليه من القواد والأشياخ والخدام برا وبحرا على اختلاف الخطط والرتب وتباين الأحوال والنسب أن يعرفوا حق هذا الاعتقاد فى كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول وإعانة وقبول واعتناء موصول، إلى أن يكمل الغرض، ويؤدى من امتثال هذا الأمر الواجب المفترض».

وهكذا يرحل ابن خلدون من الأندلس إلى بجاية، فيركب البحر حتى يصل إليها، ويحتفل السلطان أبو عبد الله بقدوم ابن خلدون، ويركب أهل دولته للقائه، ثم يخلع عليه السلطان، ويفوضه فى أمر مملكته، ثم يقدمه خطيباً بجامع القصبة، وسبب هذا الاحتفاء يرجع إلى أن أبا عبد الله كانت تربطه بابن خلدون صداقة قديمة، ولما كان فى سجن أبى عنان كان ابن خلدون يرعاه ويقدم له المساعدة، وبعد ذلك اتفق معه للتآمر ضد ابن عنان، فمن الوفاء أن نجد السلطان أبا عبدالله يستقبل ابن خلدون هذا الاستقبال(١١)، وقد تحدث ابن خلدون عن هذه الرحلة فقال:

«وركبت البحر من ساحل المرية(١٢) منتصف ست وستين، ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومى، وأركب أهل دولته للقائى، وتهافت أهل البلد علىَّ من كل أوب يمسحون أعطافى، ويقبلون يدى، وكان يوما مشهودا ثم وصلت إلى السلطان، فحيا وفدى، وخلع، وحمل، وأصبحت من الغد وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابى، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدى فى سياسة أموره، وتدبير سلطانه، وقدَّمنى للخطابة، بجامع القصبة، وأنا مع ذلك عاكف بعد انصرافى من تدبير الملك غدوة إلى تدريس العلم، أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك»(١٣).

وبعد أن استقر به الحال هانئاً منعماً فى فيض كرم أميرها، شاغلا أرقى مناصب الدولة والعلم، دارت عجلة الحوادث والمنازعات السياسية التى لا تعرف التوقف ولا الثبات، وأدلى فيها كعادته بدلوه، فطوته وهدمت عشه فما لبث أن انطلق إلى بسكرة فى المغرب الأوسط، وتنقل بينها وبين تلمسان وفاس وبجاية، كلما سقطت واحدة فى يد أصحابه سعى إليها، علَّه يجد فى أحضان ملكها ما يبتغى، ولكنه ما أن يبلغها حتى تنتقل إلى يد أعدائه فيهرب ويقبض عليه ويسجن حيناً، ثم يطلق بعد الاعتذار وإبداء الندم على ما بدر منه.

يتولى أعلى المناصب حينا وفجأة تتغير الظروف، فإذا هو فى غيابة السجن،

ولما رأى ابن خلدون بعد خروجه من آخر سجونه أن أبواب المغرب كلها قد سدت فى وجهه، وأنه أصبح شخصا لا يقبله أمراؤها، ترك أسرته بفاس ورحل إلى الأندلس فى ربيع ٧٧٦هـ؛ حيث نزل على ضيافة السلطان ابن الأحمر فى غرناطة، وما أن استقر به الحال حتى أرسل أمير فاس يطلب إلى ابن الأحمر رده إليه فأجابه إلى طلبه، وبذل ابن خلدون مساعٍ كثيرة حتى كفوا أيديهم عنه وأسكنوه وأسرته قلعة ابن سلامة فى منداس من أعمال وهران، حيث قضى فيها ابن خلدون أربعة أعوام، يدون فيها مقدمة كتاب «**العبر**»، نعم فى أثنائها بالهدوء الذى لم ينعم بمثله من قبل.

وفى عام ٧٨٠هـ تأجج الشوق فى نفس ابن خلدون لبلاده ومسقط رأسه، فأرسل يستأذن حاكمها أبا العباس، وعن هذا يقول:

«وافيته بظاهر سوسة فحيا وفادتى وبر مقدمى، وبالغ فى تأنيسى وشاورنى فى مهمات أموره ثم ردنى إلى تونس وأوعز إلى نائبه بها، مولاه فارح بتهيئة المنزل والكفاية فى الجراية والعلوفة وجزيل الإحسان، فرجعت إلى تونس فى شعبان من السنة وأويت إلى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمته، وبعثت عن الأهل والولد، وجمعت شملهم فى مرعى تلك النعمة وألقيت عصا التسيار «التعريف ٢٣١».

وفى أواخر عام ٧٨٣هـ، قام السلطان أبوالعباس بحملة حربية على ابن يملول ليسترد منه مدينة توزر، وطلب إلى ابن خلدون أن يصحبه فيها فرضى ابن خلدون على مضض، وكان قد كره السياسة والحرب وأزمع التفرغ للدراسة. وخشية أن يعود السلطان لاستصحابه فى حملاته والزج به فى غمار هذه الميادين الممقوتة قرر مغادرة تونس، فاستأذن فى قضاء فريضة الحج وركب البحر سنة ٧٨٤هـ - اكتوبر ١٣٨٢م، ولكنه لم يمض إلى مكة بل توقف فى مصر، التى كانت تعد بحق مركز الثقافة الإسلامية فى ذلك العصر.

يقول ابن خلدون بعد وصوله إلى القاهرة:

فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة، فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضىء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل سيحه، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجة، ومررت فى سلك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم، ومازلنا نحدث عن هذا البلد وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال. ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه، سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس، وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرى، وكان مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمائة فقلت له كيف هذه القاهرة؟ فقال من لم يرها لم يعرف عز الإسلام، وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب.

وحضر صاحبنا قاضى العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان من صرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة وسأله عن القاهرة فقال: أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار: : إن الذى يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التى يتخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك (التعريف ٢٤-٢٤٨).

وفى مصر، يحتل مكانة مرموقة برعاية السلطان المملوكى برقوق، ويشغل منصب قاضى قضاة الملكية ويدرس الفقه، ويرضى عن الأحوال فى مصر ويبعث فى طلب أسرته، لكن الأجل المحتوم يلقاها فى عرض البحر فتغرق جميعها، ويجزع ابن خلدون لذلك الحدث جزعًا شديدًا ويزهد فى كل شىء ويؤثر العزلة نحو عام فى مدينة الفيوم، وفى عام ٧٨٩ هـ يحن للارتحال، ويقرر أن تكون

الرحلة هذه المرة إلى مكة، فقد آن الأوان لأداء الفريضة، لاسيما من يقترب من الستين، فيركب البحر من السويس إلى ينبع ثم يمضى براً إلى الأماكن المقدسة، فيؤدى المناسك الشريفة ويعود إلى مصر عن طريق البحر، ويحدثنا عن هذه الرحلة قائلا:

خرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين إلى مرسى الطور بالجانب الشرقى من بحر السويس، وركبت البحر من هناك عاشر الفطر، ووصلنا إلى الينبع لشهر فوافينا المحمول، ورافقتهم من هناك إلى مكة، ودخلتها ثانى ذى الحجة فقضيت الفريضة من هذه السنة، ثم عدت إلى الينبع، فأقمت به خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور، فاعترضتنا الرياح، فما وسعنا إلا قطع البحر إلى جانبه الغربى ونزلنا بساحل القصير ثم بذرقنا مع أعراب تلك الناحية، إلى مدينة قوص، قاعدة الصعيد، فأرحنا بها أياما، ثم ركبنا بحر النيل إلى مصر، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا، ودخلتها فى جمادى سنة تسعين، وقضيت حق السلطان فى لقائه، وإعلامه، بما اجتهدت فيه، من الدعاء له فتقبل ذلك منى، بقبول حسن، وأقمت فيما عهدت من رعايته، وظل إحسانه.

«التعريف ٢٦١، ٢٦٢»

وفى أوائل سنة ٨٠٢هـ، أرق ابن خلدون الحنين إلى التجوال، فسافر هذه المرة إلى فلسطين وزار بيت المقدس والمسجد الأقصى أولى القبلتين، وشاهد آثار هذه المنطقة ومعالمها، ويقول عن هذه الرحلة:

«وصلت إلى القدس ودخلت المسجد، وتبركت بزيارته والصلاة فيه وتعففت عن الدخول إلى القمامة «كنيسة القيامة» لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسى ونكرت الدخول إليه وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب، وانصرفت إلى مدفن الخليل عليه السلام، ومررت فى طريقى إليه ببيت لحم وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح، شيدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصخور، منجدة مصطفة،

مرقوما على رؤوسها صور ملوك القياصرة وتواريخ دولهم ميسرة لمن يبتغى تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها، ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة وضخامة دولتهم ثم ارتحلت من مدفن الخليل إلى غزة وارتحلت منها فوافيت السلطان بظاهر مصر، ودخلت فى ركابه أواخر شهر رمضان سنة اثنين وثمانمائة «التعريف ٣٤٩، ٣٥».

كانت آخر رحلات ابن خلدون مع السلطان الناصر عام ٨٠٣هـ - ١٤٠٠م عندما انقض تيمورلنك القائد التترى بجيوشه على الشام، واستولى على مدينة حلب وكانت تابعة لسلطان المماليك فى مصر، ففزع السلطان فرج وأسرع بجيوشه لصد الهجوم وأخذ معه ابن خلدون فيمن أخذ من القضاة والفقهاء إلى دمشق[١٤]، وكان ما كان من الأحداث الجسام، وقد وصفها تفصيلاً فى كتابه، ونكتفى بما قاله عن عودته البائسة إلى مصر:

«وسافرت مع جمع من أصحابى فاعترضنا جماعة من العشير، قطعوا علينا الطريق، ونهبوا ما معنا، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا واتصلنا بعد يومين أو ثلاثة بالصبية فخلفنا بعض الملبوس وأجزنا إلى صفد فأقمنا بها أياماً، ثم مر بنا مركب من مراكب ابن عنان سلطان بلاد الروم، فركبت معهم البحر إلى غزة ونزلت بها، وسافرت منها إلى مصر فوصلتها فى شعبان من هذه السنة، وهى ثلاث وثمانمائة.

«التعريف ٣٧٩»

وبقى ابن خلدون بمصر إلى أن قام بالرحلة الكبرى، رحلة الموت، فى طريقه إلى الآخرة، حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى فى السادس والعشرين من رمضان عام ٨٠٨هـ الموافق السادس عشر من مارس عام ١٤٠٦م عن ستة وسبعين عاما.

التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً

لم يفرد لنا ابن خلدون كتابا مستقلا يتضمن وصفا للبلدان التى ارتحل إليها والأماكن التى زارها ومشاهداته، وما عاينه من الآثار، كما فعل غيره من رجال

الرحلة أو الجغرافيا، لكنه جعل الرحلة جزءاً من سيرته الذاتية التى سجلها باقتدار بالغ فى كتابه **«التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا»**، الذى يعد نموذجاً رائعاً ورائداً فى الترجمة الذاتية «الأوتوبيوجرافى».

ولا يعد ابن خلدون أول من وضع كتابا كاملا يؤرخ فيه لسيرة حياته، فقد سبقه إلى ذلك **أسامة بن منقذ فى «الاعتبار»**، لولا أن «الاعتبار» يفتقر إلى الكثير مما تميز به «التعريف»، الذى كان لابد أن يكون مختلفاً بتأثير الزمن والعلم، والاختلاف بين شخصية كل من الكاتبين والخبرة الفنية التى حصلها ابن خلدون فى أساليب الكتابة.

ولأن الكتاب سيرة ذاتية، أى إن فصوله تعتمد أساساً على محور مركزى هو شخصية صاحب السيرة، لذلك لا نستطيع أن نعد كتابه هذا من أدب الرحلات مائة فى المائة إلا فى القليل منه، لأنه لم يكن معنيا بالآثار ورصد المشاهدات وتحديد الطرق والمسافات ولا وصف الأمصار والعمران والناس وطبائعهم وسبل معايشهم، لأن هدفه كان التعريف به وبأحواله وظروف حياته منذ نشأته إلى ما قبل وفاته، وهى حياة - كما رأينا - حافلة، بلغت من الثراء والحيوية ما يثير الدهشة حيناً، ويدفع للتأمل والعبرة أحيانا.

ونحسب أنه لم يكن غافلاً عن ذلك، ودليلنا أنه جعل مفتتح عنوان الكتاب هو التعريف بابن خلدون، وهذا غاية الكتاب، ويكاد يكمل العنوان قائلاً، ويقتضى ذلك الحديث عن «رحلته غرباً وشرقاً».

وكنا ننتظر رغم ذلك أن يتدفق قلمه بوصف مشاهداته وعرض تفاصيل المخاطر، التى مر بها ولابد أنه رأى الموت مرات، وأن ينقل لنا معالم ما رأى من عمران فكم دخل من قصور وكم قابل من ملوك وسلاطين، وكم دخل من حروب وشارك فى حملات عسكرية، ولم يقص علينا أهوال ما رأى عند فراره الذى تكرر كثيراً وخوضه فى الصحراوات وسيره متخفيا من مدينة إلى أخرى، ومن مرسى إلى آخر، كان يمكن أن يخلف لنا مؤلفاً لا يجارى، خاصة أنه قطع

مسافات طويلة لا تقل عن عشرات الألوف من الكيلو مترات، رغم أنه لم يتجاوز مكة شرقا والأندلس غربا.

أيا ما كان الأمر، ففضل ابن خلدون على العربية كبير، وآثاره على قلتها ثمينة تحظى بالاحترام لدى علماء العرب والمستشرقين على السواء، وقد فرض علينا ابن خلدون منهجه الذى اتبعه فى كتابه، وكان علينا، دون أن نستطيع الفكاك، أن نتحدث عن رحلاته وعنه فى الوقت ذاته، ولذلك اتخذنا لتناول رحلاته نسقاً آخر غير ما التزمنا به فى الفصول السابقة.

ولعل القارئ، قد لاحظ تغلغل شخصيته فى كل عبارة، وهى شخصية العالم الفقيه والمؤرخ المحقق، وجاءت صياغته فصيحة ناصعة رصينة وعبارته علمية لاتزيد فيها ولا استطراد، مفصلة على قدر المعنى ولم يؤثر فى جمالها وأدبيتها غير بعض الألفاظ الثقيلة التى ينثرها هنا وهناك مثل «وبذرق لى مع رفيق من العرب، تساتلت، فارتمض لذلك، واتصلنا بالصبية، وتزهر الخرانك، يسقيهم النهل والعلل سيحه، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه».

والذين عنوا برحلات ابن خلدون قلة، منهم الدكتور **حسنى محمود** الذى عرض لرحلته فى كتابه «**أدب الرحلة عند العرب**»، ويأسف لأن ابن خلدون بدا قاسيا إلى حد كبير، وحرمنا من استشفاف أية مشاعر إنسانية فى الوقت الذى كان المجال فيه متسعاً، لغمر من هذه المشاعر والأحاسيس، وأحسب أن هذا من قبيل حسن الظن بالمفكر الكبير لا تتفق مع طبيعته، فكيف يتيح الفرصة للمشاعر الإنسانية، وهو الذى شغل نفسه بالمناصب ومحاولة الوصول إليها بكافة الأساليب، بما فيها المؤامرات والمكائد والتلون والتملق.

ونزعم أن الأقرب إلى الصواب أن نقول لو أن ابن خلدون صاحب العقلية الفذة قد تفرغ للعلم وحده، لطلع علينا بكم هائل من الإنجاز العلمى، ولنال أكثر مما نال ولحظى بمكانة تفوق مكانته، لكن كلمة «لو» لا تعيد التاريخ، ولا تعوض ما فات والحياة مواهب وأيضا أقدار.

والدكتور حسنى يأخذ على ابن خلدون أنه قبل دون تحقيق ما كان متداولاً عند أهل الجغرافيا عن توزيع اعتمار الأرض، وعن أن المعمور منها هو مقدار الربع فى وسط البقعة، التى انكشفت من الماء فيه، ومن قسمة هذا المعمور إلى سبعة أجزاء يسمونها الأقاليم «ص ١٠٠».

وأغلب الظن أن هذا القول ينطوى على قدر من التجنى على ابن خلدون، إذ إن هذا هو العلم السائد فى عصره، أم يا ترى هى ثقة لا حدود لها فى عقلية ابن خلدون، الذى كان يتعين عليه أن يتحول إلى علم الجغرافيا، ليتحقق من سلامة هذا الرأى أو ذاك.

الهوامش

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ص٣٩٢.
(٢) المصدر السابق ص٣٩٤.
(٣) تحفة النظار - المكتبة الثقافية جـ١ ص١٧.
(٤) المصدر نفسه ص٢٢.
(٥) رحلة ابن بطوطة - محمود الشرقاوى - مكتبة الأنجلو المصرية ص٦.
(٦) الأدب الجغرافى العربى ص٤٢١.
(٧) التعريف بابن خلدون ص٥٦، ٥٧.
(٨) التعريف ص٨٤، ٨٥.
(٩) ارتمض: حزن.
(١٠) التعريف ص٩١.
(١١) المصدر نفسه ص٩١.
(١٢) مدينة كبيرة من أعمال الأندلس.
(١٣) المصدر نفسه ص٩٨.
(١٤) ابن خلدون - عبدالواحد وافى - أعلام العرب ص١١٣.

خاتمة

أكاد أشعر الآن - بعد أن جرى قلمى شهوراً طويلة فوق جبال الصفحات - أنى مثل أجدادى الذين ذكرتهم قبل قليل، رحالة.. غادر الوطن وطوف بالأمصار، وجاس خلال المدن والقرى، أحسب أنى مثلهم قطعت القفار وعبرت الأنهار واجتزت الصحراوات، وتنقلت معهم بين حلو الحياة ومرها، وأنى شاهدت ما شاهدوا، وعاينت ما عاينوا، وقاسيت ما قاسوا.

وأحسب أنى بعد هذه الرحلة مع هذه الكوكبة الفريدة الجسورة من أبناء الأمة العربية، قد زاد يقينى بما استهدفته من هذه الدراسة، وهو أن أدب الرحلات فى التراث العربى، قد نهل من نبعين: نبع السفر والترحال الذى شجع عليه الإسلام، ونبع أصيل هو البوتقة الإبداعية القصصية والروائية التى يتميز بها العربى، وتألق مخيلته التى أعانته على صياغة نسيج مدهش يصلح للرواية والسمر.

وقد كان استمتاع الرحالة بنقل واختلاق ورواية الخوارق والأعاجيب تصفية وتلبية لطاقة قصصية وشهوة حكائية توازى تقريبا الشهوة نفسها التى أبدع بها كتاب الإغريق ملاحمهم ومسرحياتهم الشهيرة.

لقد حرصنا قدر الطاقة على تقديم نصوص أدبية متنوعة وطريفة، تعين على رسم صورة للرحلة وصاحبها وتعبر عن لحظات معايشته لهذا الموقف أو ذاك، مع الأخذ فى الاعتبار عدم التكرار إلا فى حالة الاختلاف.

ومن ذلك مثلا، الصورة النابية التى التقطها أبوسعيد الأندلسى للقاهرة فى مقابل الصورة المشرقة التى رسمها ابن خلدون.

ومن ذلك أيضا المديح الذى بالغ فى تدبيجه اليعقوبى لبغداد فى مواجهة نظرة

ابن جبير، التى رأت فى المدينة وأهلها موضعاً غير جدير بالزيارة ولا يجذب للمشاهدة.

وقد توقفنا طويلاً مع انطباعات الرحالة ونظراتهم، ونقلنا صفحات مطولة نسبيا عن عادات الشعوب التى زاروها، لأنها أحد أهم العناصر الإثنوجرافية التى يتعين أن تلفت أنظار الرحالة وتثرى كتاباتهم، التى كانت فى الأغلب نتاجاً للتلاحم الجدلى بين الرحالة والواقع الذى خاض فى دروبه.

وتوقفنا أيضاً أمام تلك النصوص البديعة، التى ضمنها ابن فضلان وابن حوقل والمسعودى وأبو حامد الغرناطى وغيرهم مشاهداتهم وتجاربهم بما يكشف عن قدرات قصصية مثيرة ولافتة للانتباه.

ولقد أصبح فى مقدورنا الآن أن نقول إن فن القص العربى الحديث هو بالقطع ثمرة من ثمار التواصل مع الأدب الأوروبى، الذى كان بدوره حصيلة الاقتباس والتأثر بالتراث اليونانى فى العصور القديمة والتراث العربى فى العصور الوسطى.

وليس من شك أن النماذج القصصية الشعبية المختلفة التى سادت العالم العربى فى عصور نهضته، تكاد تدور فى معناها ومبناها حول السفر والتنقل وما ينتج عنهما من تغير الأحوال ولقاء الغرباء والوقوع على الغرائب، وأشهر هذه النماذج قصص ألف ليلة وليلة والمقامات وغيرها.

ومن هنا يتجلى أمام الأنظار فضل الرحلة وأدبها فى التراث العربى، لا فى تأصيل الفن القصصى فحسب، ولكن فى إسهاماتها المنظورة وغير المنظورة فى بناء صرح النهضة العربية، بما لا يحصره حصر ولا يدركه درس.

ولقد حاولنا أن نقدم لوحة جدارية لهذا العالم المترامى الأطراف، إن لم تكن شاملة تماما أو كاملة، فهى لن تكون أقل من دليل مرشد للباحثين فى مجالات عدة، منها: الأدب والجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد.

ويتحتم علينا ألا نغفل الإشارة مجدداً إلى موضوع المخطوطات العربية المهملة فى مكتبات ومتاحف أوروبا وضرورة الالتفات إليها، وما أجدر أن تدفع مراكز البحوث والجامعات ودور النشر والمؤسسات الثقافية الكبرى شباب الباحثين، وتشجعهم بكل الوسائل لتحقيق هذه المخطوطات المبعثرة، والعمل على نشرها وجمع شملها وإضاءة السبيل إليها.

كما نؤكد أهمية تدريس مادة أدب الرحلات فى كافة كليات الآداب والدراسات الإسلامية والإنسانية بمختلف الجامعات العربية.

وفى الختام لا يسعنا إلا أن نقول إن أدب الرحلة فى التراث العربى كنز من المعارف، يحتشد بالثروات التى تنتظر الكشف عنها، ومعرض كبير يضم أعمالاً عظيمة، سطر صفحاتها رجال مخلصون، هيأهم الله كى يقتحموا المجهول فوهبوا أعمارهم ونور عيونهم لهذه المهام التاريخية الجليلة، التى مكنت من حفر اسم العروبة والإسلام بين أهم بناة الحضارة الإنسانية.

والله نسأل أن ينفع بجهدنا المتواضع أحفاد روادنا العظماء فى كل زمان ومكان.

فؤاد قنديل

المراجع

١- ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى — محمد عبدالله عنان
لجنة التأليف - القاهرة ١٩٦٥

٢- ابن خلدون أعلام العرب رقم٤ - ١٩٦٢ — على عبدالواحد وافى

٣- ابن بطلان، مجلة العربى، العدد ٢٢٧، أكتوبر ١٩٧٧ — عبدالحليم منتصر

٤- ابن ماجد الملاح - أعلام العرب ٦٣ - القاهرة ١٩٦٧ — د. أنور عبدالعليم

٥- أبوالريحان البيرونى - القاهرة — أبوالفتوح التوانسى
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ١٩٦٧

٦- آثار البلاد وأخبار العباد — زكريا القزوينى
دار صادر - لبنان ١٣٨٠ - ١٩٦٠

٧- أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية — د. محمد محمود الصياد
الأنجلو - ١٩٧٢

٨- إحياء علوم الدين - دار الغد العربى - القاهرة ١٩٨٧ — الإمام الغزالى

٩- أدب الرحلة عند العرب - المكتبة الثقافية — د. حسنى محمود حسين
٣٣٥ الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٦

١٠- أسامة بن منقذ - أعلام العرب ١٩٦٨ — د. أحمد كمال زكى

١١- الإسلام والفكر الجغرافى العربى - منشأة المعارف — د. صلاح الشامى
بالإسكندرية ١٩٧٧

١٢- الأعلاق النفيسة «نسخة عير محققة» — ابن رستة
بدار الكتب المصرية ط ٦١٥٧

١٣- الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٦ — خير الدين الزركلى

١٤- أعلام الجغرافيين العرب — د. عبد الرحمن حميدة

١٥- ألف ليلة وليلة - دار المعارف ١٩٦٦ — د. سهير القلماوى

١٦- ألف ليلة وليلة ـ دار التوفيق للطباعة والنظر ـ بيروت ـ ١٩٨٠.

١٧- انتشار الإسلام فى إفريقيا — د. حسن إبراهيم حسن
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٤

١٨- البيرونى ـ أعلام العرب ـ مايو ١٩٦٨ — د. جمال الفندى، د. أمام إبراهيم

١٩- تاريخ ابن الوردى ـ القاهرة. — أبى حفص بن عمر المعروف

٢٠- تاريخ الأدب الجغرافى العربى - إدارة الثقافة — كراتشكوفسكى
الجامعة العربية ت صلاح هاشم ١٩٦٣

٢١- تاريخ الأدب العربى - دار المعارف القاهرة ١٩٦٥ — كارل بروكلمان

٢٢- تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس — د. حسين مؤنس
معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦٧

٢٣- جغرافية الأندلس فى أوروبا «المسالك والممالك — د. عبدالرحمن الحجى
لأبى عبيد البكرى» دار الإرشاد للطباعة - بيروت ١٩٦٨.

٢٤- جهود المسلمين فى الجغرافيا - الألف كتاب — نفيس أحمد
الهيئة العامة للكتاب ت. فتحى عثمان

٢٥- حديث السندباد القديم - لجنة التأليف القاهرة ١٩٤٣ — د. حسين فوزى

٢٦- حديث الفتية المغررين من أهل لشبونة - — عبد الحميد العبادى
عدد ١٣٦ مجلة الثقافة فى ١٩٤١/٨/٥ - القاهرة

٢٧- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى — آدم ميتز
ت. عبدالهادى أبوريدة - القاهرة ١٩٥٧

٢٨- حضارة العرب - ت عادل زعيتر — غوستاف لوبون
مطبوعات عيسى الحلبى - القاهرة ١٩٥٨

٢٩- الحضارة العربية - المكتبة الثقافية — د. شكرى عياد
١٧٢ - دار الكاتب العربى

٣٠- دائرة المعارف الإسلامية

٣١- الرحالة العرب- — د. نقولا زيادة
دار الهلال - القاهرة - ١٩٥٦

٣٢- الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى — د. زكى محمد حسن
دار المعارف - ١٩٤٥

٣٣- الرحلات - دار المعارف - القاهرة — د. شوقى ضيف

٣٤- رحلات جاليفر - عالم الفكر - — نور شريف
المجلد ١٣ عدد ٤ سنة ١٩٨٣

٣٥- رحلة ابن بطوطة - مكتبة — محمود الشرقاوى
الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٨

٣٦- رحلة ابن بطوطة «مختصر»
كتب ثقافية ٣٢ - الدار القومية - القاهرة ١٩٦٠

٣٧- الرحلة عين الجغرافيا المبصرة د. صلاح الشامى
منشأة المعارف - الإسكندرية - ١٩٨٢

٣٨- الروض المعطار فى خبر الأقطار - عبد المنعم مكتبة لبنان
تحقيق إحسان عباس ١٩٧٥

٣٩- سير ملهمة من الشرق والغرب - القاهرة — صمويل نيستون ووليام ديث
ت إسماعيل مظهر ١٩٦١
٤٠- الشريف الإدريسى - أعلام العرب — محمد عبدالغنى حسن
٩٧ - ١٩٧١
٤١- الصلة - تحقيق كوديرا - مكتبة نشر — ابن بشكوال
الثقافة الإسلامية ١٣٧٤ - ١٩٥٥
٤٢- صوت أبى العلاء - دار المعارف — د. طه حسين
القاهرة ١٩٧٥
٤٣- عبداللطيف البغدادى - عالم الفكر — د. محمد توفيق بلبع
المجلد السادس عشر - العدد ٣ - ١٩٨٥ - الكويت
٤٤- عجائب المخلوقات - وغرائب الموجودات — زكريا القزوينى
مطبعة مصطفى البابى القاهرة - ١٩٥٦
٤٥- العرب فى أوروبا - المكتبة الثقافية ١٤٣ — د. على حسن الخربوطلى
الدار المصرية للتأليف - ١٩٦٥
٤٦- العرب فى صقلية - دار المعارف — د. إحسان عباس
القاهرة ١٩٥٩
٤٧- العرب والملاحة فى المحيط الهندى، فى العصور — جورج حورانى
القديمة وأوائل القرون الوسطى - الأنجلو - ١٩٥٨
ت. د. يعقوب بكر
٤٨- العلوم عند العرب - دار المعارف ١٩٧٠ — قدرى طوقان
٤٩- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء — ابن أبى أصيبعة
دار صادر - بيروت ١٩٦٥
٥٠- الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة — د. صلاح الشامى
منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٠

٥١- الفهرست - طبعة طهران ١٩٧١ — ابن النديم

٥٢- القبائل العربية فى مصر — د. عبدالله خورشيد البرى
الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٢

٥٣- القصة العربية القديمة - المكتبة الثقافية — محمد مفيد الشوباشى
١٠٦ - القاهرة ١٩٦٤

٥٤- القصة فى الأدب العربى وبحوث أخرى — محمود تيمور
مكتبة الآداب - القاهرة ١٩٧١

٥٥- كتاب عربى قديم «الاعتبار» مجلة الهلال — محمود الشرقاوى
القاهرة - سبتمبر ١٩٦٨

٥٦- كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون — حاجى خليفة
طبعة جامعة اسطنبول - ١٩٤١

٥٧- لب التاريخ - المطبعة الحسينية ١٣٢٨هـ — محمد غنيم

٥٨- المسْعودى - نوابغ الفكر العربى — د. على حسنى الخربوطلى
دار المعارف - القاهرة ١٩٦٥

٥٩- المسعودى - المؤرخ العربى، مجلة العربى — د. نبيه عاقل
العدد ٤٨ الكويت - ١٩٦٢

٦٠- المصحف المفسر - دار الشعب - ١٩٦٤ — محمد فريد وجدى

٦١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن — فؤاد عبدالباقى
دار الأندلس - بيروت

٦٢- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام.. — د. جواد على
دار العلم للملايين - ١٩٧٠

٦٣- مقدمة ابن خلدون — عبدالرحمن ابن خلدون
دار الشعب - القاهرة - ١٩٧٠

٦٤- الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية — د. فاطمة محجوب
دار الغد العربى

٦٥- الموسوعة العربية الميسرة — د. شفيق وغربال وآخرون
القاهرة ١٩٦٥

٦٦- النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك القاهرة — ابن تغرى بردى
دار الكتب المصرية

٦٧- نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب — أحمد المقرى
القاهرة ١٩٣٦

٦٨- النقد المنهجى عند العرب ـ مكتبة نهضة — د. محمد مندور
مصر ـ القاهرة ط ٤ - ١٩٦٤.

٦٩- نهاية الأرب فى فنون الأدب — النويرى
هيئة الكتاب ـ القاهرة ١٩٧٣

٧٠- الوافى بالوفيات — صلاح الدين الصفدى
مطبعة الحلبى ـ القاهرة ١٩٣٦

٧١- وفيات الأعيان — ابن خلكان
القاهرة ١٩٤٨

٧٢- ياقوت الحموى ـ أعلام العرب ـ ٩٣-١٩٧١ — أبو الفتوح التوانسى

٧٣- يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر — الثعالبى
مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٣٧٧هـ تحقيق محيى الدين عبد الحميد

المصادر

١- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم «دون تحقيق» — المقدسى
مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩١

٢- أخبار الزمان وما أباده الحدثان - — الناشر أبوالحسن المسعودى
عبدالحميد حنفى القاهرة ١٣٥٧ - ١٩٣٨

٣- الاعتبار — أسامة بن منقذ
فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة ١٩٣٠

٤- الإفادة والاعتبار — عبداللطيف البغدادى
دار سلامة موسى - القاهرة ١٩٣٤

٥- البلدان - طبعة ليدن - دى خويه ١٨٩٢ — ابن واضح اليعقوبى

٦- تاريخ ابن خلدون جـ١٤ - دار الملايين — عبدالرحمن ابن خلدون
بيروت ١٩٧٦

٧- تحفة النظار فى غرائب الأمصار — ابن بطوطة
وعجائب الأسفار - القاهرة - ١٣٤٦ - ١٩٢٨

٨- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة — البيرونى
طبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد ١٩٥٨

٩- التنبيه والإشراف - مكتبة الهلال - بيروت ١٩٨١ — المسعودى

١٠- الخراج وصنعة الكتاب، تحقيق — قدامة بن جعفر
دى خويه - ليده ١٨٨٩

١٢- خمس رسائل لابن بطلان البغدادى د. يوسف شاخت
ولابن رضوان المصر - القاهرة ١٩٣٧ وماكس مايرهوف

١٣- رحلة ابن جبير - دار صادر بيروت - ١٩٦٤ ابن جبير

١٤- الرسالة الثانية، نشرها مينورسكى أبودلف، مسعر بن
«نسخة بدون تحقيق» دار الكتب المصرية المهلهل الخزرجى

١٥- سفر نامة - الألف كتاب ناصر خسرو
ت يحيى الخشاب الثانية ١١٩٣

١٦- صورة الأرض - طبعة ليدن ١٨٧٣ ابن حوقل

١٧- عجائب المخلوقات - وغرائب الموجودات زكريا القزوينى
مطبعة مصطفى البابى القاهرة - ١٩٥٦

١٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر - المسعودى
مطبعة الرجاء القاهرة ١٩٣٨ - تحقيق محيى الدين عبدالحميد

١٩- المسالك والممالك - طبعة ليدن ١٨٨٩ ابن خرداذبة

٢٠- المسالك والممالك - إدارة الثقافة العامة الإصطخرى
بوزارة التربية والتعليم - القاهرة ١٩٥٨ تحقيق د. جابر الحينى

٢١- معجم الأدباء - دار المأمون ياقوت الحموى

٢٢- معجم البلدان - دار صادر ١٩٧٧ ياقوت الحموى

٢٣- معجم ما استعجم - تحقيق مصطفى السقا أبوعبيد البكرى
المعهد الخليفى للملكة المغربية ١٩٤٥

٢٤- المغرب فى حلى المغرب - دار المعارف ابن سعيد الأندلسى
القاهرة ١٩٥٥ تحقيق د. شوقى ضيف

المخطوطات

١- تقويم البلدان «ميكروفيلم رقم ١٩٠٨٩ ١٩٠٦٣» دار الكتب المصرية.	أبوالفدا
٢- رحلة الهروى الموصلى «ميكروفيلم رقم ٤٦٢٣٨» دار الكتب المصرية.	أبوالحسن الهروى
٣- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق «ميكروفيلم رقم (٤٨١٠٩) دار الكتب المصرية».	الشريف الإدريسى
٤- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب حفظ بدار الكتب المصرية رقم ٢١٦.	أبوحامد الغرناطى
٥- الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد حفظ بدار الكتب المصرية رقم٥٧.	ابن ماجد الملاح
٦- مختصر كتاب البلدان حفظ بدار الكتب المصرية رقم ١٠٩ ضمن مجموعة المكتبة الجغرافية.	ابن الفقيه

المحتويات

رحالو القرن الرابع الهجرى

رحالو القرن الخامس الهجرى

رحالو القرن السادس الهجرى

رحالو القرن السابع الهجرى

رحالو القرن الثامن الهجرى

صدر للمؤلف

مجموعات قصص قصيرة		الناشر
١- عقدة النساء	١٩٧٨	المؤلف
٢- كلام الليل	١٩٧٩	المؤلف
٣- العجز	١٩٨٣	دار الهلال
٤- عسل الشمس	١٩٩٠	هيئة الكتاب
٥- شدو البلابل والكبرياء	١٩٩٥	هيئة الكتاب
٦- الغندورة	١٩٩٦	قصور الثقافة
٧- زهرة البستان	١٩٩٨	قصور الثقافة
روايات:		
١- أشجان	١٩٨٠	الشركة العربية للنشر
٢- الناب الأزرق	١٩٨١	المطبعة الفنية
٣- السقف	١٩٨٤	هيئة الكتاب
٤- شفيقة وسرها الباتع	١٩٨٦	دار الغد العربى
٥- عشق الأخرس	١٩٨٦	أخبار اليوم
٦- موسم العنف الجميل	١٩٨٧	هيئة الكتاب
٧- عصر واوا	١٩٩٣	دار الهلال

٨- بذور الغواية	١٩٩٤	هيئة الكتاب
٩- روح محبات	١٩٩٧	المركز المصرى
١٠- حكمة العائلة المجنونة	٢٠٠٠	روايات الهلال

دراسات:

١- كيف تختار زوجتك	١٩٨٦	دار الغد العربى
٢- محمد مندور شيخ النقاد	١٩٨٨	هيئة قصور الثقافة
٢- نجيب محفوظ كاتب العربية	١٩٩٠	هيئة قصور الثقافة
٤- إحسان عبدالقدوس عاشق الحرية	١٩٨٧	دار الشباب
٥- رؤية تمهيدية لرعاية المواهب	١٩٩٩	قصور الثقافة
٦- صناعة التقدم فى مصر	٢٠٠١	مكتبة الأسرة

تحت الطبع:

الحمامة البرية (رواية)

فن كتابة القصة (دراسة)